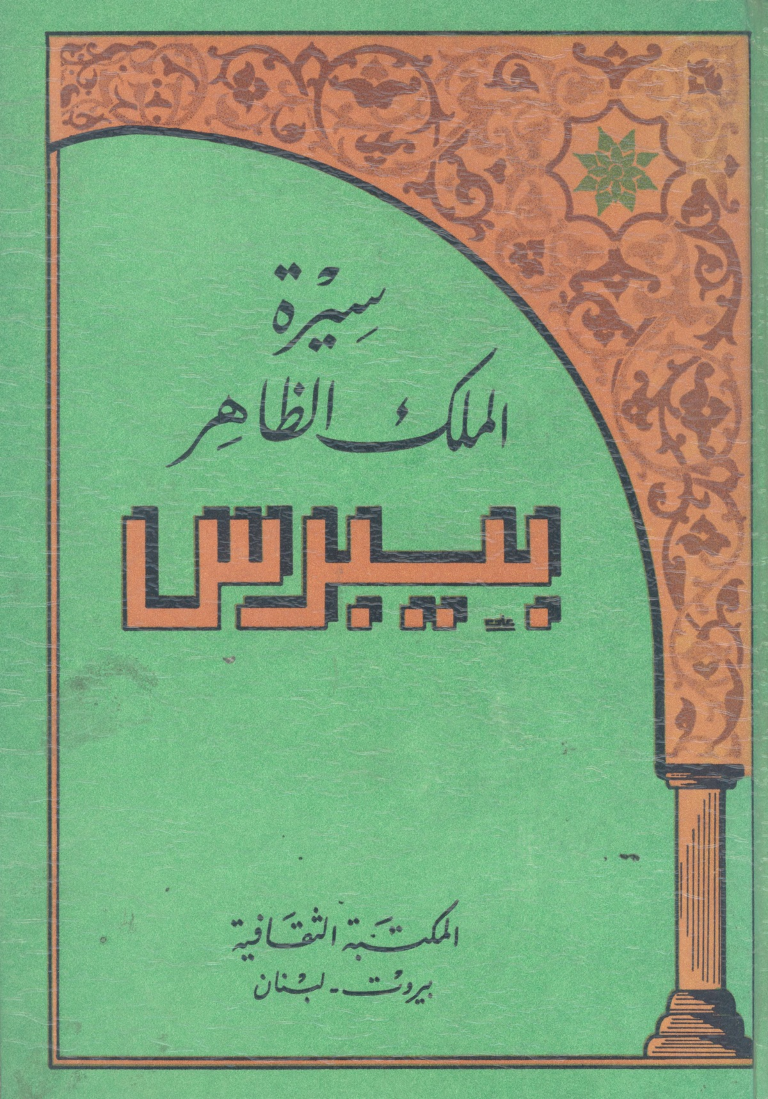

سيرة
الملك الظاهر
بيبرس
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

الملك بيبرس

سيرة

الملك الظاهر بيبرس

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك الحق المبين المحسن البر الامين ، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، شهادة تنجي قائلها في يوم القيامة يوم الدين واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله وحبيبه الصادق الوعد الامين صلى الله عليه وعلى آله الكرام الطيبين الطاهرين وأصحابه البررة الميامين وسلم تسليما •

اما بعد فان الله سبحانه وتعالى جعل سير الاولين عبرة للآخرين وموعظة للجاهلين وتنبيها للغافلين ، واني قد استخرت الله العظيم في كتابة هذا الكتاب حيث رأيته محتويا على نصرة الاسلام وخذل الكفرة اللئام ، وبحثت في غيره من السير فما وجدت أصدق قولا ولا أقوى برهانا ولا أفصح بيانا من « سيرة الظاهر بيبرس » أبي الفتوحات الموعود من الله بالنصر والتأييد من ابتدائها الى انتهائها ، وما سيذكر من امورها المطربة العجيبة ، منقولة عن السادات الكرام المشهورين بالعلم ونبراس الافهام الديناري ، ووافقه على ذلك الدويداري ، ثم ناظر الجيش وكاتم السر والصاحب فرحمة الله عليهم أجمعين •

قال الراوي : وهو الديناري رحمه الله تعالى ، انه كان من قديم الزمان وسالف العصر والاوان خليفة في بغداد يدعى شعبان المقتدر بالله ، وله ولدان أحدهما يقال له ابراهيم والآخر يقال له أحمد ، وكان أحمد يهوى الحمام وكان للخليفة وزير يقال له محمــد العلقمــي وكان له ولد اسمه ابراهيم وكان يهوى الحمــام وله ولع كثير فيه فلما كان يوم من الايام تراهنوا مع بعضهم بالحمام ووقعت بينهم شروط على ان كل من غلب يأخذ حمام الآخر ، ومن الامر المقدر ربح الرهان ابراهيم العلقمي ابن الوزير فقال هذا الحمام قد صار من حقي ، فقال احمد بن المقتدر هذا لا يكون، وما انت الا مجنون ، ثم تشاجرا ووقع بينهما الشر فقال احمد المقتدر لابد ان اسير الى ابي واخبره بذلك ، ثم ترك الحمام ومضى الى ابيه واطلعه على الخبر فقال هذا الامر يا ولد لا دخل للحكومة فيه ثم صاح على الغلمان الذين حوله وقال لهم :

امضوا الآن واذبحوا حمام الاثنين، فلما سمع الغلمان ذلك ذهبوا وذبحوا حمام ابن الوزير جميعه وحمام ابن الخليفة ذبحوا منه البعض وتركوا له البعض ، لما رأوه يبكي فلما نظر ذلك ابن الوزير صعب عليه وكبر لديه وسار الى ابيه الوزير ، وقال له يا ابي امر الملك بذبح حمامنا وقد جرى من الامر ما هو كذا وكذا ، فلما سمع العلقمي ذلك اغتاظ غيظا شديدا وقال في نفسه ان الملك يهين ولدي ويكرم ولده ، ولكن لا بد ان اعمل له شيئا بــه ملكه وسوف أحرض عليــه الملوك فهذا ما جرى ، واما مــا كان من شعبان المقتدر فانه في الصباح نزل الى الديوان وجلس والوزير محمد العلقمي الى جانبه ثم ان الخليفة نظر الى الوزير فرأى منه عين الغدر

فالتفت اليه وقال له ما لي أراك معبس الوجه ايها الوزير اظن أنه صعب عليك حيث أمرنا بذبح الحمام فقال يا امير المؤمنين امرك مطاع ثم شكره ودعا له وأثنى عليه فأمر له الخليفة بخلعة تسره وتطيب خاطره ، كل هذا والوزير لا يزداد الا غيظا وحقدا ، فلما نظر الخليفة ذلك خاف من شره وقال انه غدار وربما يحرض عليّ احد الملوك وانا لا آمن من مكره ثم انه صبر الى الليل وجمع قواد الامن وقال لهم امسكوا ابواب بغداد وفتشوا كل من يخرج منها بكتاب والداخل فما لكم عليه سبيل ، هذا وقد نزل المفتشون بأمر امير المؤمنين المقتدر ، فهذا ما كان من الخليفة ، واما ما كان من الوزير العلقمي فانه صار يدبر الحيل الى ان أعياه الامر ولم يقدر ان يرسل مكاتبة الى احد من االملوك لاجل الحراس الذين على الابواب ، فلما كان في بعض الليالي دعا مملوكا له يقال له جابر وقال له يا جابر انا لي عندك حاجة واريد منك قضاءها فقال له يا سيدي مهما تكون أقضيها لك قال له اريد ان ارسل معك رسالة الى الملك منكتم ولك مني مائة دينار وخلعة سنية وانت بعد ذلك حر لوجه الله فقال له جابر يا سيدي روحي لك الفدا ولكن لم أقدر أخرج من بغداد برسالة لانك تعلم ان الحرس شديد فقال له الوزير الامر اقرب من ذلك ، ثم انه اخذ موسا وحلق به رأس المملوك وكتب على رأسه كتابا سنذكره ، ثم انه صبر الى ان انكست رأسه بالشعر وخفيت الكتابة فقال له الوزير اذهب الآن الى بلاد العجم ثم انه خرج من بغداد وفتشه الحراس فما وجدوا معه شيئا فتركوه فسار الغلام يقطع البراري والآكام الى ان وصل الى بلاد العجم ودخل على الملك منكتم وسلم عليه فقال له من انت ومن اين أتيت ؟ فقال يا مولاي انا من مدينة بغداد من عند الوزير محمد العلقمي وزير الخليفة المقتدر فقال له ما معك من الاخبار فقال له معي سر اريد ان اطلعك عليه فأخذه ودخل به الى مكان منعزل وقال له أرني ما معك قال معي رسالة وهي مكتوبة على رأسي فعند ذلك حلق له رأسه فظهرت الكتابة فقرأها

ووجد فيها خطابا من الوزير محمد العلقمي الى بين أيادي الملك منكتم الذي نعلمك به ان امير المؤمنين جار علينا وتكبر وظلـم وانت احق منه بالسلطنة فحال وصول المملوك اليك اركب بجيوشك ويكون وجهتـك بغداد وانا املكك الارض والبلاد واقتل حامل الرسالة من غير اطالة ليكون السر بيننا والسلام •

قال الراوي : فلما فهم الملك منكتم ذلك الامر فرح واستبشر وجرد سيفه وضرب به رأس المملوك أطاحه وكان هذا اللعين منكتم فارسا شديدا وجبارا عنيدا يعبد النار وكان له ولدان احدهما يقال له هلاوون والآخر عبد النار ، فأمر باحضارهما بين يديه وقال لهما اعلموا انه قد جرى من الامر ما هو كذا ، فلما سمع اولاده منه هذا الكلام فرحوا وسجدوا شكرا للنار ، ثم تقرر الامر بينهم على انهم يملكوا البلاد ثم ان الملك منكتـم امر بتجهيز العساكر والجنـود فركبت العساكر وكان عددهم ستين الف فارس وقال لولديه خذوا هؤلاء العساكر وامضوا بهم الى ارض بغـداد وانزلوا عليها وانا لاحق بكم فسار الملاعين هلاوون وأخيه عبد النار اما الملك منكتم فانه بعد مسير ولديه بعشرة ايام جهز جيشا ثانيا وتبع أثرهم فهذا ما كان من هؤلاء واما ما كان من امير المؤمنين شعبان المقتدر بالله فانه بينما هو جالس في يوم من الايام واذا بغبار قد ثار وعلى وسد الاقطار فأرسل الخليفة من يكشف له الاخبار وعادوا اليه وقالوا يا امير المؤمنين قد أقبلت جيوش عباد النار وفي أولهم هلاوون وأخوه اولاد الملك منكتم وهم طالبين بغداد ومعولين على الحرب والجلاد فلما سمع الخليفة ذلك قال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ولكن لاي شيء أتوا وما الذي يريدون من الامر والشأن يا وزير فقـال لا أدري شيئا من ذلك يا أمير المؤمنين فعند ذلك جمع الخليفة أرباب دولتـه وأطلعهم على هذا الامر وشاورهم فيما يفعل فقالوا يا امير المؤمنين الآن لم يكن عندنا عساكر كثيرة والرأي الصواب ما لنا غير الحصار على الاسوار الى ان يأتينا الفرج من

العزيز الجبار فقال الخليفة هذا هو الصواب ثم انه أمر بغلق ابواب بغداد فأغلقوها وصعدت الرجال على الاسوار وأقبل هلاوون وحط على بغداد ونزلت حولها عباد النار واحتاطوا بها فصاحت الابرار ورموهم بالاحجار والنبال ودام الحصار ذلك النهار حتى أقبل الليل التفت الخليفة الى وزيره العلقمي وقال والله اني متعجب من قدوم هؤلاء الملاعين الينا وتجرئهم على بلادنا واني اريد منك في غد ان تنزل وتنظر ما هم طالبين فقال له الوزير يا خليفة المؤمنين هذا ليس بصواب والرأي عندي ان تنزل انت في عساكرك ومن عندك من الرجال بالسلاح وانا اكون من خلفك أعين العساكر الذين معك وبهذا يكون أهيب لنا وأرهب لاعدائنا اذا رأوك قد خرجت اليهم فلما سمع الخليفة ذلك الخطاب ظن انه صواب ولم يعلم ان الوزير أراد اهلاكه ثم انهم باتوا تلك الليلة ولما كان الغد نهض الخليفة ونزل برجاله وأهل دولته وفتحت ابواب بغداد وخرج الخليفة طالب أهل العناد اما الوزير العلقمي بعد ان خرج الخليفة من بغداد أمر بغلق أبواب المدينة فلما عاين الخليفة ذلك علم ان الحيلة قد تمت وان كل ما قد صار من الامور بأمر الوزير فقال اسلمت امري الى اللطيف الخبير ، ثم انه صاح بملء رأسه يا عصبة الاسلام احملوا على القوم اللئام وابذلوا فيهم الحسام فمن عاش منكم ، عاش سعيد ومن قتل مات شهيد وتبعه اثنا عشر الف من الابرار وعمل البتار وطلع الغبار وقصرت الاعمار ولم يزل السيف يعمل ونار الحرب تشعل الى ان ولى النهار وأقبل الليل بالانسدال وقد كلت سواعد امير المؤمنين ومن معه من الرجال المجاهدين وكان القوماللئام في ستين الف كما ذكرنا فاحتاطوا جميعا بالمسلمين وأسروا اربعة آلاف فارس ثم انفصلت الطائفتان وتحارس الفريقان الى ان اصبح الصباح فركب أمير المؤمنين ومن معه من العساكر وركبت ايضا عباد النار واختلطت الطائفتان وعمل القتال ولم تزل نار الحرب دائرة والقيامة قائمة الى وقت العصر فتغلبت الكفار على المؤمنين وأخذوهم أسرى عن بكرة أبيهم وفي

الجملة أمير المؤمنين شعبان المقتدر وأوثقوا الجميع ودقت الطبول والمزامير وصاحت الكفار يا للنار ذات الشرار فلما سمع الوزير العلقمي بذلك النداء علم ان المسلمين كسروا ، والكفار نصروا فأمر بفتح ابواب المدينة وخرج في جماعة من رجاله وتلقى هلاوون وأخيه وهنأهم بالنصر فشكروه وأثنوا عليه ودخل هلاوون وأخوه عبد النــار وبعض رجالهم الى بغــداد وفي صحبتهم الوزير العلقمي وأجلسهم على كرسي بغداد وقال لهم أنتم أحق بهذا من شعبان المقتدر فلما سمع هلاوون التفت اليه وقال له يا علقمي اما انت مسلم قال نعم ، قال له والخليفة ما هو مسلم قــال نعم وما السبب الذي حملك على ما فعلت وكيف دبرت على هلاكه فعند ذلك أعاد عليهم ما جرى من قصة الحمام وابنه والخليفة وما فعل معه فلما سمع هلاوون ذلك قال له ويلــك اذا كنت أنت فعلت ذلك في من هو من دينك وولي نعمتك من أجل حمامة فنحن تهلكنا من أجل ذبابة وانت لم يكن فيك خير لدينك فكيف يكون فيك خير لنا ولا بد ان تجازيك على فعالك ثم ان هلاوون أمر رجاله وقال لهم خذوا هذا واصلبوه على باب مدينة بغداد وبعد ذلك دعي الملك هلاوون بالاسارى فحضروا وكان من جملتهم امير المؤمنين فلما وصل الخليفة الى باب المدينة رأى الوزير مصلوبا فتعجب من ذلك وقال الحمد لله الذي أوقعك في بغيك وجازاك على فعلك ، ثم سار هو ومن معه حتى وقف بين يدي اللعين هلاوون وأخيه فلما رآه هلاوون ارتعدت فرائصه وذلك هيبة من الله تعالى ولم يكلمه وقال خذوهم الى السجن هو ومن معه ثم جلس على الكرسي وصار يحكم واذ داخل عليه قدر سبعون رجلا من الاكراد وعليهم آثار العبادة وهم متقلدون بسيوف من خشب وينادون لا اله الا الله محمد رسول الله فلما رآهم اللعين هلاوون قال لمن حوله ما هؤلاء فقالوا ان هؤلاء من فقراء المسلمين وأظنهم ما أتوا الى هنا الا ليهنئوك ويطلبوا احسانك وهم يذكرون الله ، فلما سمع ذلك قال أريد ان انظر الى ذكرهم فعند ذلك أمروهم بالذكر فقام المقدم عليهم

ونصب حلقة الذكر فلما رأى اللعين هلاوون ذلك قال وحق النار ما هذا الا جنون ، ثم صاح على من حوله ويلكم أخرجوهم من هذا المكان فعند ذلك صاحت الاكراد بعلو أصواتهم ونادوا الله اكبر فتح الله ونصر وخذل من كفر فأجابهم من خارج القصر سبعون الفا من الاكراد وهم ينادون الله اكبر وكان المقدم على الاكراد الامير نجم الدين الايوبي وهجموا وقصدوا السجن الذي فيه الخليفة والاسارى وكسروا الباب وفكوا قيودهم فخرجوا وبأيديهم السيوف وصاحوا على عباد النار وأسقوهم شر الوبال وما كانت الا برهة حتى شرب الكفار كأس البوار وما نجا منهم الا قليل وهرب هلاوون وأخوه وهم لا يصدقون بالنجاة .

قال الراوي : وكان السبب في مجيء نجم الدين والاكراد الايوبية انه كان بين وادي بكر وبغداد قبيلة من قبائل العربان تسمى قبيلة الاكراد وكانوا من نسل أشراف يقال لهم الاكراد الايوبية فجاءهم قحط أمات مواشيهم وأخرب الارض فأعياهم الامر في ذلك ، فذهبوا الى كبيرهم نجم الدين وقالوا له يا سيدنا قد خربت الارض ولم يبق لنا فيها معاش فانظر لنا أرضا خصبة غير هذه الارض ، فقال لهم هذا هو الصواب ثم انه أحضر رؤساء عشيرته وقال لهم سيروا بنا الى أمير المؤمنين لنشكي له ما قد حل بنا فلعله يعطينا أرضا خصبة نقيم بها ، وساروا يقطعون القفار وبينما هم سائرون واذ بشخص سائح في البرية فتقدم نجم الدين وقبّل يده هو والذين معه فقال لهم الشيخ الى أين تريدون يا كرام فقالوا نريد مدينة بغداد لان أرضنا أجدبت علينا ونطلب من الخليفة يعطينا أرضا غيرها فقال لهم الشيخ نعم ما رأيتم وما به أشرتم ، ولكن ارجعوا الى أرضكم وجهزوا رجالكم واسرعوا الى بغداد وخلصوا امير المؤمنين ومن معه من المسلمين فانهم في القيود والاغلال ، فاذا وصلتم الى هناك فجردوا سيوفكم ونادوا بالتكبير والتهليل وانكم ان شاء الله من المؤيدين بنصره وانصرف عنهم بعدما دعا لهم ، وكان هذا الشيخ حبيب النجار قدس الله

سره ، واما ما كان من الاكراد فانهم رجعوا الى ارضهم وجيشوا رجالهم ثم عادوا وجدوا المسير الى ان دخلوا بغداد وجرى ما جرى من الامـر والشان وقتلوا الكفار ، اما الخليفـة شعبان المقتدر لما قتلت عباد النـار وانهزموا ، أقبل على الاكراد وصار يشكرهم ويثني على أميرهم نجم الدين الايوبي ويرحب به ثم جلس على كرسي بغداد وقد عـلى مراتب الاكراد وأجزل لهم العطايا وأفرد لهم مكانات ودور وقصور •

قال الراوي : بينما جيش اللعين الملك منكتم سائر واذا بفلول جيش أولاده وصحبتهم هلاوون وأخوه فلما رآهم قال ما دهاكم وما الذي جرى عليكم ، فقالوا يا ابانا قتلت الرجال وهلكت الابطال وجرى علينا من الامر ما هو كذا ، فلما سمع اللعين ما حل بهم أخذه الغيظ وقال لهم سيروا معي حتى أريكم العجب ، ثم انهم ساروا حتى أشرفوا على مدينة بغداد فوصل الخبر الى الخليفة فقال يا قوم أغلقوا ابواب البلد كفانا الله شر أهل النكد فقال له الامير نجم الدين لا تفعل ذلك يا امير المؤمنين فنحن لهم كفـايه فعند ذلك نهض الامير نجم الدين وعشيرته وكل من أتى من العربان لاجل الجهاد في سبيل الله وخرج الخليفة ودولته لملاقاة الاعداء فلم يلحق الاعداء ان ينصبوا الخيام حتى لعب السيف فيهم من سائر الجهات وصاح المسلمون عن لسان واحد الله اكبر فخيّل لعبدة النار ان السماء قد وقعت عليهم والارض خسفت من تحت أرجلهم ولم يزل القتال يعمل الى ان ولى النهار بالارتحال وأقبل الليل بالانسدال وأراد القوم اللئام الانفصال فما مكنتهم من ذلك عصبة الاسلام بل حملوا عليهم ومكنوا السيوف في أعناقهم وكثر النزال وبطل القيل والقال وعمل البتار وقصرت الاعمار الى ان ولى الليل وأقبل النهار فقصد الامير نجم الدين جهـة ملكهم منكتم وهجـم عليه وضربه بالحسام أطاح رأسه بالحـال ولما ان رأت عباد النار ملكهم قتيل والعلم انهار الى الحضيض انحلت عزائمهم فولوا الادبار وركنوا الى الهـرب ولا نجا منهم الا من بقي له عمر ونصر الله المؤمنين الابرار على عباد النار

وبعد ذلك أمر الخليفة بجمع ما خلفوه فكانت غنيمــة عظيمة وقد شكر الخليفة المقتدر بالله الامير نجم الدين على فعاله وقربه وأدناه وأوهبــه وأعطاه وكذلك رفقاه ثم انهم دخلوا بغــداد وكان يوم كالاعياد وجلس الخليفة على كرسي مملكته ولما استقر امر باحضار الاسرى بين يديه وكان في أولهم أولاد الملك منكتم هلاوون وأخوه عبد النار فلما رآهم الخليفة أمر بضرب رقابهم فانتدب السياف على رؤوسهم وهم يصيحون نحن في جيرتك يا امير نجم الدين فعند ذلك نهض الامير نجم الدين وقال ايها الملك المهاب اعلم ان عمار الارض خير من الخــراب ونحن نبيع هؤلاء أنفسهم بالمال فقال الخليفــة شأنك وما تريد فعنــد ذلك قال الامير الى هلاوون وأخيه عليكم ثمن أرواحكم خزنة مال وكل سنة خراج خزنة من المال فقالوا علينا ما تحب وتختار فقال الامير نجم الدين للخليفة ان القوم قبلوا ان يدفعوا الخراج والمال فقال الخليفة ضعوهم في السجن حتى يأتي المال فقال الامير وعزة الله المتعال انا الضامن لك جميع الاموال فدعهم يمضوا وما يغيب عنك المال الا بقدر وصولهم وأنا قادر أن آخذ رؤوسهم وهم في ارضهم بقدرة الله ، فأمر الخليفة باطلاقهم وردوا لهم خيولهموسلاحهم وانصرفوا طالبين بلادهم ، ثم ان الخليفة جلس على كرسي بغداد وأطاعته البلاد وأتى أهل القرى والامصار يهنئونــه وهو يخلع ويهب فدعوا له بدوام العز والنعم وبينما هو جالس واذ حضر رجل يقبّل الارض بين يديه فقال له الخليفة ما تريد فقال له يا سيدي نجاب وحامل كتاب ، ثم أعطى الكتاب الى الخليفــة فأخذه وقرأه واذ مكتوب به من هلاوون وأخيــه عبد النار الى بين أيادي الخليفة امير المؤمنين الواصل لكم خزنة مالفديتنا وخزنة مال خراج هذا العام فلما قرأه الخليفة أرسل جماعة يتلقوا المال وأمر القوم الذين أتوا مع المال بالضيافة وأكرمهم وصرفهم سالمين ، ثم انه تفرغ بعد ذلك الى ضيافة الاكراد الايوبية وزاد في اكرامهم وقرب الامير نجم الدين وباسطه وقال له ايها الامير ان لك علينا منة وفضل لنصرتك

لنا ، والآن لنوفيك معروفك فتمنى عليّ اي شيء تريده أبلغك ما تتمناه فقال له انا أتمنى على الله ثم على امير المؤمنين ارضا غير ارضنا التي نحن فيها لانها أجدبت علينا أرضنا وهلكت مواشينا فقال الخليفة ايها الامير الهمام اني أعطيتك أنت وقومك أرض مصر والشام ، فلما سمع الامير نجم الدين ذلك دعا للخليفة بطول العمر ودوام العز والنصر ، ثم أمر الخليفة ان يخلعوا عليه وعلى قومه الخلع السنية وأعطاهم أوفى عطية وقد كتبت الحجج بما قرر الخليفة وبعد ذلك ودع الامير نجم الدين الخليفة ونزل من الديوان وصحبته قومه وعولوا على الارتحال وعند وصولهم الى ديارهم مرض الامير نجم الدين وتوفي وقبل وفاته أوصاهم ان ينصبوا عليهم اميرا ولده يوسف ويلقبوه بصلاح الدين ويسيروا الى أرض الشام ومصر ويخلصوها من أيدي الاعداء ثم انهم بعد مواراته التراب نصبوا عليهم الامير يوسف ولقبوه بصلاح الدين الايوبي •

قال الراوي : اما البلاد السورية والفلسطينية عندما أقبل السلطان صلاح الدين الايوبي كانت في فوضى وانهيار كبير فكان موجودا في البلاد ثلاثة ممالك للافرنج الصليبيين وهي مملكة القدس ومملكة طرابلس الشام ومملكة الرها وماردين وما تبقى من البلاد مثل دمشق وحمص وحماه وحلب فكانت امارات بين امراء اقطاعيين وكل واحد منهم مستول على مدينة ومستبد بها ، ولا يهمه الا اشباع نهمه وكان هؤلاء الامراء غير متعاونين وكانوا لا يقدرون ان يدفعوا الطامعين من الافرنج عن البلاد فكانوا يدفعون الجزية الى ملوك الافرنج وهم صاغرين وكانوا مهددين دوما بالاحتلال وكان الشعب في ضنك عظيم مما يجبي منه الامراء مع ضريبة الجزية التي عليه الى الافرنج وانه غير مستقر على مصيره من تهديدات الاعداء المستمرة فلما سمع الشعب بقدوم السلطان صلاح الدين الايوبي للبلاد هلل له وفرح واستبشر به ليخلصه من هذه الفوضى التي هو فيها وكان كلما أقبل الى مدينة او امارة ينهض الشعب لملاقاته ويساعده على

امتلاك البلاد وطرد امرائه الفاسقين الى ان دانت له البلاد والعباد في مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر فصار السلطان صلاح الدين يحصن البلاد ويكثر من الجنود ويناجز الاعداء في الداخل ويغزو الافرنج الى ان ازاحهم عن مواقعهم وخلص منهم سبعة عشر قلعة في جبل العلويين في مدة ستةأسابيع وخلص منهم الرها وماردين وبعد ان استقر لهالحكمفي البلادوهابتهملوك الافرنج وصلته أخبار عن مصر انها في ضعف وانهيار وكانت بها دولـة الفاطميين وهم بآخر عهدهـم والافرنج الصليبيين مرادهم الاستيلاء على مصر فاهتم لهذا الامر كثيرا فوجد في طريقه الافرنج المستولين علىالقدس وما جاورها من البلاد فصار يستعد لمنازلتهم وزيحهم عن طريقه حتى يصل الى مصر فأكثر من الجنود وحشد الجيوش وصار يجهزها ويدربها الىان صار جيشه على أتم الاستعداد ثم سار وتوجه الى البلاد المستولية عليها الافرنج وتخطى حدودهم واحتل مدينـة طبريا فلما رأت الافرنج هذه المفاجأة جمعوا جموعهم وتلاقوا مع السلطـان صلاح الدين الايوبي في أرض حطين الذي موقعها ما بين الناصرة وطبرية وجرى القتال بينهم مدة خمسة ايام وكان نهر الشريعة وبحيرة طبرية وراء جيشه والاعداء فيعطش شديد اما العربان فاشعلوا النار في الزروع والاعشاب اليابسة التي وراء جيوش الاعداء فتراخت مقاومة الاعداء فصارت جيوش السلطان صلاح الدين تقتل وتأسر منهم بالجملة بما فيهم ملوكهم ثم انهم ألقوا أسلحتهم ونادوا الإمان فلما انتهت المعركة بانتصار جيوش السلطان صلاح الدين الايوبي بعث سرايا من الجيش واحتل جميع البلاد التي كانت بيد الاعداء ثم انه سار بجيشه الى القدس وحاصرها ، ثم جرت المفاوضة على انيخرج الافرنج من القدس ويرحلوا الى بلادهم وعلى كل نفس جزية ثلاثة دنانير ثم راجعته نصارى العرب بأمرهم وقالوا له نحن سكان البلاد دعنا نكون تحت حكمك فسمح لهم في الاسكان وأمنهم ، ثم انه بعدما استقر له الامر في البلاد توجه وسار طالبا أراضي مصر وصار يستلم البلاد من نوابهـا

بدون قتال ويضع فيها نوابا من رجاله الى ان وصل الى مصر ودخل على مليكها الفاطمي فوجده ضعيف الحال والارادة وحاشيته في تفسخ عظيم ومتفشية فيهم الرشوة وحب الذات ، والانانيات على أشدها فيما بينهم والملك الفاطمي عاجز عن مكافحتهم فلما رأى الملك الفاطمي صلاح الدين الايوبي مقبلا عليه وهو مؤيد منصور رأى من الاصوب ان يوليه على المملكة فولاه فصار السلطان صلاح الدين يولي على الاحكام من رجاله ويعزل رجال الملك الفاطمي عن الحكم والولاية وصار يستولي على ما هو في أيديهم • اما الملك الفاطمي فقد توفي الى رحمة الله ، وبعد وفاته وضع صلاح الدين الايوبي يده على خزائنه واماكنه وصار يحصن البلاد ويبني القلاع ويكثر من الجنود ويوجه السرايا من العساكر الى اطراف البلاد وجعل ينفق في سخاء على العساكر ويكرم الابطال ثم انه صار يتفقد الحرمين الشريفين ويؤمن الحجاج الى بيت الله الحرام الى يوم من الايام وردت عليه الاخبار بأنه مقبل عليه من البحار اربعة ملوك كبار بجيوش جرارة وهم ملك الانكليز ريكاردوس وملك فرنسا وملك جرمانيا وملك النمسا ووجهتهم سواحل الشام وقاصدين بيت المقدس لفتحها وأخذها منه فحالا سار السلطان صلاح الدين بجيشه والتقاهم وصار القتال على ضفاف شواطىء مياه البحر وكان نزولهم على عرض الشواطىء ولما أعياهم الامر بالمسير في البر الى القدس نزلوا على ميناء يافا ووجهتهم القدس أما صلاح الدين فحصن القدس بالجيوش حولها فلما صارت الافرنج على مقربة منها فاجأتهم جيوشه بضرب البتار وطعن الرماح وحملوا عليهم حملة صادقة بهمة عالية وكان في أوائلهم السلطان صلاح الدين الايوبي فتراجع الاعداء وولوا الادبار فتبعتهم جيوش الابرار وصارت تضرب في أقفيتهم والخيول غائرة وراءهم وكل من قصر راح قتيل او اسير الى ان أوصلوهم الى مدينة الرملة ففقد الاعداء كثيرا من فرسانهم ثم انهم جددوا الحملات وحشدوا كثيرا من الجيوش ومرادهم بذلك القضاء على صلاح الدين وجيشه •

قال الراوي : ودامت هذه الحرب بين السلطان صلاح الدين الايوبي وملوك الافرنج ثلاثة سنوات وهلك فيها خلــق كثير من الفريقين ولكن هلك من الافرنج اكثر ، لانه فتكت بهم الاوبئــة والامراض وغرق منهم كثير في البحر وقلّت عليهم المؤن ثم اختلفت الملــوك فيما بينهم وملّت نفوسهم من هذه الحرب فطلبوا المفاوضة بالصلح مع السلطان صلاح الدين الايوبي ودامت هذه المفاوضة بينهم مدة ثلاثة اشهر ثم بت الصلح بينهم على ان تكون السواحل في أيدي الافرنج والداخل بما فيه القدس يكون في يد السلطان صلاح الدين ووقعــوا المواثيق والعهود على هذا الشكل وارتحلوا طالبين بلادهم ، اما السلطان صلاح الدين بعدما ارتحل الافرنج عن البلاد رحل طالبا دمشق الشام وأقام بها وارسل أخاه الملك العــادل الى مصر وجعله حاكما عليها وعلى أقطارها ، ثم ان السلطان صلاح الدين الايوبي بعد رحيل الافرنج بستة شهور مرض مدة عشرين يوما وأعياه المرض فتوفي رحمه الله تعالى ودفن في دمشق جانب جامع بني أمية وقبره مشهور يزار من قبل أهل البلاد ، وبالاخص من السواح الافرنج بما له من الشهرة عندهم في هذه الحروب وما أبداه من النبل والفروسية ومن وفاء العهود والمواثيق ، ثم بعد وفاة السلطان صلاح الدين الايوبي تولى على السلطنة أخوه الملك العادل فأطاعته البلاد والعباد وحكم بين الناس بالعدل والانصاف وأتاه الخراج من نواب البلاد الى ان توفي الى رحمة الله فتولى بعده ولده الكامل على السلطنة ودام بها مدة ستة عشر سنة ثم بعد وفاته تولى بعده ولده نجم الدين أيوب مدة احدى عشر سنة وانتقل الى رحمة الله فتولى بعده ولده الصالح نجم الدين أيوب وكان صغير السن فبايعوه على السلطنة وأقاموا له وكيلا من عشيرته الى ان بلغ مبلغ الرجــال استلم السلطنــة وجددوا له المبايعة وجلس على كرسي المملكة وأطاعته العباد وأتته الجزية والخراج من سائر البلاد الى يوم كان جالس قال غدا ان شاء الله نصلي الجمعة في جامع الحسين ونطلب عنده الدعاء وثاني يوم الجمعــة ركب

الاكراد وأهل الديـوان وأمير المؤمنين يتوسطهم فبينما هم سائرين واذ أقبل موكب عظيم والمقدم عليهم رجل جليـل القدر كبير الهمة فلما نظر مقدم القوم الى الخليفة والاكراد أراد ان يترجل ويمشي في موكب الخليفة فقال له الخليفـة لا تكلف نفسك بالنزول ايها الامير وسر بجوادك جنب الشاهية فسار الآغا شاهين جانبه وهو يقول في نفسه الله يهون علي ان اترك بلادي وأخدم عند هذا الرجل ولا أخالفه .

قال الراوي : وكان السبب في مجيء الآغا شاهين الى الديار المصرية انه كان في سابق الزمان مدينة تسمى بورصة وكان الحاكم عليها يقال له عثمـان بك وكان له من الاولاد اثنين الواحد اسمه مسعود بك والثاني اسمه شاهين فلما كبر الولدان طلـع شاهين فارس صاحب رأي وتدبير وكان عاقل لبيب فبعد مدة توفي والدهم عثمان بك الى رحمة الله فتقاسموا الاثنين ملك بورصة وصارا يحكمـان فيها وكثرت عساكرهـم وقويت شوكتهم فلما كان يوم والآغا شاهين جالس وأخيه الى جانبه واذ بغبار قد ثار وسد الاقطار وبعد ساعة انكشف الغبار وبان من تحته عساكر قد سدت البر والفدافد وكان الجيش المقبل من الافرنج فعند ذلك جمع الآغا شاهين أرباب دولته وقال لهم لنركب في هذه الساعة ونكون ثلاث فرق ونحمل عليهم ونصدمهم صدمة صادقة ونسأل الله ان ينصرنا عليهم ثم قال أنت يا مسعود بك تكون حافظا لبورصة فعند ذلك ركب الآغا شاهين وركب حوله من قومه وأهله مائة الف فارس والآغا شاهين في أولهم والى جانبه رجل يقال له حسان الوزير وكان الآخر بطـل نحرير ولما ان خرجوا من بورصة قال الآغا شاهين الى الوزير خذ معك خمسين الف فارس واحمل على اليسار وانا آخذ معي خمسين الف واحمل على اليمين فقال له سمعا وطاعة ثم انهم حملوا على اللئام وصاحوا صيحة واحدة الله اكبر فتـح ونصر هذا وقد حملت الابطـال على بعضها وتدكدكت من ركض خيلهم الارض ولم يزل السيف يعمل والدم يبذل الى ان ولى النهار واقبل الليل

بالاعتكار انفصلت الطائفتان عن الصدام ورجعت كل طائفة الى خيامها اما ما كان من القوم الاعداء فانهم رجعوا الى خيامهم وشكوا الى ملكهم ما لاقوه من الآغا شاهين والوزير حسان لانهم قتلــوا الفرسان وأبادوا الشجعان فقال لهم الملك لا بد لي ان اخرج غدا اليهم وأخذ روحهم من بين جنبيهم وكان ذلك الملك جبار لا يصطلى له بنار وهو آفة من الآفات يقبض الاسد بيده من الغابات فلما سمع قومه كلامه اطمأنت قلوبهم وباتوا تلك الليلة الى ان اصبح الصباح فعندهـــا ركبت الطائفتــان واصطفت الصفوف وتعدلت المئات والالوف فكان اول من برز الى الحــرب الآغا شاهين وهو راكب على جواد اشقر عالي من الخيل مضمر كأنه الطير في الجريان ثم انه صال وجال ونادى وقال يا لئام انا الآغا شاهين ملك بورصة هل من مبارز هل من مناجز فلما نظر ملك الاعداء ذلك أيقن انه يسقيــه كأس الحمام فخرج اليه وهو راكب على جواد أدهم ثم أنه حمل على الآغا شاهين فتلقاه كما تتلقى الارض العطشانة وابلا من المطر وقلب أقوى من الحجر وطلع عليهما الغبار وغابا عن الابصار وتطاولت اليهما الاعنــاق وأيقن كل منهما بشرب كأس الحمام وأخذ الاثنين في أخذ ورد وقرب وبعد الى ان صارت الشمس في قبة الفلك وخرج منهما طعنتان قاتلتان فكان السابق بالطعنة الآغا شاهين فوقعت في صدر عدو الله خرجت من ظهره فلما رأت الافرنج الى ملكها قتيل وفي دمه جديل حملوا على الآغا شاهين من كل مكان وحملت المسلمون في جميــع المواكب وتكــدرت المشارق والمغــارب وما كانت الا ثلاث ساعات على ذلك العيار حتى ولى الكفار وركنوا الى الهرب والفرار وتركوا خيامهم واحمالهم ثم ان شاهين تبع الكفار في تسعين الف فارس وترك الباقين يلمون الاسلاب وما خلفوه وما زال المسلمون تابعين اللئام الى ان أوصلوهم الى أرضهم والديار وعمل فيهم البتار وهجموا على بلادهم وأسقوهم كأس التلف فعند ذلك صاحت الكفار وطلبت الامان وقالوا نحــن مستجيرين بالآغا شاهين فلما سمــع

الآغا شاهين استغاثتهم أمر برفع السيف عنهم بعدما أخذ اموالهموذخائرهم وما تحويه أيديهم وولى عليهم من يصلح من دولتهم ورتب عليهم الخراج والجزية وهي مائة الف دينار في كل عام فأجابوا بالسمع والطاعة وكتب عليهم بذلك كتابا وتعاهـدوا على ذلك وعاد الآغا شاهين فرحـا بالنصر والظفر من رب العباد الى ان أقبل الى بورصة فلما وصلت أخبار المبشرين الى أخيه مسعود بك ان اخاك قد أقبـل ومعه اموال تسد الفضاء أخذه الفرح والابتسام وأمر ان تزين البلد لقدومه فعملت أهل المدينة المهرجانات والزين وخرج الى ملاقاة أخيه وسلم عليه وهنأه بالسلامة وفرقوا على الرجال والارامل والايتام شيء كثير من تلك الاموال والباقي دخلالخزينة وجلس الآغا شاهين والى جانبه أخوه هذا وقد تعجب الناس من فعـال الآغا شاهين وحسدوه وقيل ان الحسد يورث النكد فبالامر المقدر انه مرض شاهين مرضا شديـدا واشرف منه على الهـلاك وسوء الارتباك وتوافدت عليه الحكماء فلم يعرفوا له دواء وأيقن الآغا شاهين بشرب كأس الردى فلما كان يوم من الايام وهو في أشد مرضه اذ دخل عليهرجلوسلم عليه وقال له يا سيدي انا أدلك على ما فيه الصلاح فقال له الآغا شاهين قل واخبرني بما تريد قال اعلم يا سيدي اني عرفت مرضـك وبأي شيء تبرأ باذن الله وذلك ان هواء بورصة لم يوافقك ومناخها يضرك وانه لا يوافقك الا هواء مصر ومناخها واذا وصلت الى هناك فأقم في بقعة يقال لها البساتين تبرأ باذن الله تعالى فقال الآغا شاهين اذا كان الامر على ما ذكرت فان هذا سهل باذن الله فعند ذلك جهـز نفسه وركب فيمن شاء من دولته وسار طالبا أرض مصر بعد ان اجلس أخاه مسعود بك على كرسي بورصة وقال له اذا انتهى العام ارسل واطلب الجزية من الاعداء ثم سار الآغا شاهين الى ان اقبل الى ارض مصر ودخل بها ووصل الى تلك البقعة وأقام الى ان كان بعض الايام وكان يوم الجمعة أراد ان يصلي في جامع سيدنا الحسين فركب فيمن عنده وسار الى ان وصل الى الرميلة فالتقى

بموكب الملك الصالح ايوب فدخلوا المسجد وصلوا الجمعة وبعد رجوعهم الى الديوان اجلس الخليفة الامير شاهين بجانبه وقال له هل لك ان تكون عندي وزيرا اعظم يا شاهين تأخذ حق المظلوم ممن ظلمه وتحكم بالعدل والله عليك من الشاهدين قال رضيت يا امير المؤمنين قال اوليتك وزيرا اعظم وصدرا افخم ففرح الآغا شاهين ولما انفض الديوان سار الى منزله وهو منشرح الصدر مسرور فلما أصبح الصباح ركب الوزير شاهين الافرم وسار الى الديوان وكان الملك الصالح قد نزل الى الديوان وحوله الامراء والفرسان والوزير شاهين دخل وسلم على الملك فرد عليه السلام بأحسن التحية وأجلسه الى جانبه الايمن وتكامل الديوان وحكم ذلك اليوم شاهين وعدل فشكره الملك على ذلك وتداولت الايام فبينما كان الملك جالس واذ بأربعة رجال يدخلون الديوان ويلقون السلام فقال الملك الصالح ما الخبر فقالوا يا امير المؤمنين اننا رسل السيدة فاطمة شجرة الدر بنت الخليفة المقتدر بالله وقد أمرتنا ان نقول لكم الارض أرضها ومصر مصرها وهي لها الحق ان تولي من تريد من السادات .

قال الراوي : فلما سمع الملك ذلك الكلام وما قالوه من المرام أخذه الغضب والعجب فلما رآه الوزير على ذلك الامر الخطير قال يا امير المؤمنين ان ما ذكره الرسل فهو حق لا سيما وقد ورثت الارض عن أبيها واني اقول لك ان هذا الامر ما له غير ان نستقبلها ونحسن وفادتها ونسر خاطرها فلما سمع الملك من الوزير ذلك الكلام قال له لقد تكلمت بالصواب فانزل اليها وسلم عليها ودبر هذا الامر برأيك فأجابه الوزير بالسمع والطاعة ونزل من عند الملك .

قال الراوي : وكان سبب مجيء السيدة فاطمة انها اشتاقت نفسها الى الحج ذلك العام والى زيارة قبر النبي المختار فأخذت مالها وخدامها وطلبت أرض الحجاز وكان مرادها الاقامة هناك وكلما أتت على واد او قطر من الاقطار يتلقونها ويكرمونها غاية الاكرام الى ان وصلت الى ارض مصر

السعيدة وأمرت بنصب الخيم الى ثاني الايام فلم تجد احداً يستقبلها ولا يكرم مثواها قالت واعجباه كيف ان جميع البلاد يكرمونني ويهادونني وكيف ان هؤلاء القوم لا يكرمونني ولا يستقبلونني فوالله لا كان ذلك ابدا ولو سقيت كأس الردى فقال لها بعض جلاسها يا سيدتي لا تعجلي فربما كان هناك مانع والصبر أولى من الاستعجال فكاتبيهم وانظري رد الجواب ليظهر لك السؤال والخطاب فلما سمعت ذلك أرسلت هؤلاء الاربعة رجال وقالت لهم جميع ما ذكروه للخليفة ونزل الآغا شاهين كما قدمنا ولم يزل سائرا الى ان مثل بين يدي السيدة فاطمة شجرة الدر وقد رأته السيدة بهي المنظر حسن المخبر والشجاعة لائحة بين عينيه ، فصارت تنظر الى آخر مرامه وما ينتهي اليه كلامه وسألته من أنت وما الذي تريد فقال لها يا سيدتي انا وزير الملك الصالح ايوب وقد ارسلني اليك ويثني بالسلام عليك فقالت له وما اسمك قال لها اسمي شاهين الافرم فتعجبت غاية العجب وقالت له لعلك من بورصة فقال لها نعم هي بلدي فقالت له وما السبب في مجيئك الى هذه الديار واقامتك بأرض الامصار فأعاد عليها القصة من اولها لآخرها فلما سمعت منه ذلك صدقته لانها كانت تسمع بأخباره من أبيها فلما علمت حاله عطفت عليه وقالت له ولاي شيء ما نزلت وانت والملك الى لقائي مثل ما فعل غيركم من الناس فقال لها يا سيدتي اننا لم يبلغنا الخبر بحضورك الى هذا المكان الا بالامس لو لم يأت رسلك الينا والآن فما بقي لك الا العزومة الملكية والاقامة الهنيئة وكل ما امرت به مطاع ثم ان الوزير ما زال يباسطها ويمدحها بحسن معرفته وفطنته الى ان لان جانبها وطاب قلبها ثم قبلت الضيافة فعند ذلك أمر الرجال بنقل الامتعة والخيام وسار مع السيدة يجاذبها الحديث الى ان رأت القلعة وعلم الملك الصالح بمجيئها فتهيأ الى لقائها ثم قابلها وسلم عليها فردت عليه السلام وطاب بينهما الكلام وهي داخل الستار فلما تكلمت مع الصالح ايوب أوقع الله حبه في قلبها ثم أنزلها بأعز مكان وقامت على ذلك المرام وهي في اعز

مقام مدة ثلاثة ايام اما الملك الصالح فقد أحب هذه السيدة وطلب الى الوزير شاهين ان يخطبها له فقال أمرك يا مولاي ثم نزل الآغا شاهين وتوجه اليها واستأذن في الدخول عليها فأذنت له فدنى خلف الستار وسلم عليها فأمرت له بالجلوس فلما استقر به الجلوس قالت ان مجيئـك الى عندي له سبب فقل ما تريد فقال يا سيدتي ما على الرسول الا البلاغ ان الملك يريد ان يتشرف بقربك ويحظى بطلعتك فماذا انت قائلـة في ذلك كفاك الله شر المهالك .

قال الراوي : فلما سمعت السيدة فاطمة ذلك الكلام تبسمت وقالت له قضى الله وساطتك وبلغك أمنيتك أنت وصاحبك ومن الآن ها أنا بين يديه ولا ابخل بروحي عليه واكون له اهلا وهو يكون لي بعلا ولا حياء في كتاب الله وسنة رسوله وانت وكيلـي فعند ذلك فـرح الوزير واستبشر ثم انها خلعت على الوزير خلعـة سنية وأوهبته اجزل العطيـة وأمرته بالمسير الى الملك الصالح فعـاد الوزير الى الملك وبشره بقبولهـا فسر الملك وقال له هكذا يا وزير الزمان شأن الوزراء أهل العرفان ثم ان الملك امر بتجهيز الولائـم وحضرت الوزراء والامـراء وارباب الدولة والقاضي ونهض الملك الصالح ايوب وقعد امام شيخ الاسلام وقال له يا مولاي اعلم ان السيدة فاطمة بنت المقتدر بالله قد اقبلت تريد الحج وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام فوصلت الى الديـار المصرية فطلبتها للزواج فأجابت بالقبول فاسألوها فقام شيخ الاسلام ومعـه اثنان ووقفوا خلف الستار وسأل الشيخ السيدة عن ذلك الامر فأخبرته بأن الوزير شاهين وكيلها في كل الامور فرجعوا وأعلموا السادات بما قالته السيدة فاطمة من الخطاب ثم انعقد عليها بحضرة الجميـع وقدمت الشرابات وتفرقت العطايا ثم استأذنت السيدة فاطمة من الملك برواحها الى الحج فأذن لها في ذلك ثم امر الآغا شاهين ان يتوجه معها الى الاقطار الحجازية وزيارة خير البرية ثم شرعت السيدة في المحمل المصري وكسوة الكعبة الشريفة وأخذت

معها العوايد الى العربان ثم جعلت الآغا شاهين أمير الحج وسارت السيدة فاطمة بالركب وبين يديها جنود الملك بالنوبة والمزامير الملكية وسار الموكب والمحمل الى جهة الحصوة ونزلت السيدة هناك وصارت الناس تتأهب الى الرحيل ، ثم سافرت السيدة والآغا شاهين وهي تفعل الخيرات والمبرات التي يطول الشرح فيها الى ان وقفت على عرفات وطلبت من الله نـوال الحاجات وقضت الفريضة وتوجهت الى المدينة وزارت ودعت عند النبي الكريم ثم عادوا راجعين الى مصر متأهبين ولم يزالوا سائرين الى ان أتوا الى العديلة، ووصلت البشائر وكان الملك الصالح ايوب منتظرا قدومهم ففرح بوصولهم وأمر الناس بالزينة وقابلوا الحجاج وركبت السيدة فاطمة مع الآغا شاهين في موكب عظيم ووهبوا وأعطوا ولم يزالـوا كذلك الى ان وصلوا الى قلعة الجبل وطلعت الملكة الى السرايا وعملت مولد الى خير البرية ، ثم ان الملك طلبها وشرع لها في الافـراح والليالي الملاح فأعطى ووهب فلما كانت ليلة الزفاف نزل الملك مع السادات والاشراف وطلع الى السرايا ودخل على زوجته وأقام في عز وهناء وجلس يتعاطى الاحكام فهذا ما كان .

قال الراوي : وكان ملك بأرض الموصل يقال له أيبك التركماني فكانت تأتي اليه الاخبار بما يجري في كل الامصار فبلغـه ان مصر يحكم عليها ملك من الاكراد يقال له الملك الصالح وانه لا يعرف احكام ولا يدري حرب ولا قتال فلما سمع أيبك بذلك الكلام أمر بتجهيز العساكر وقال لا بد ان املك مصر فأنا أحق بها وسار بمن معه حتى وصل الى حلب حط عليها فأغلق نائبها الابواب وأقام الحصار ، اما أيبك فأبلاه الله تعـالى بمرض شديد فيئس من الدنيا وقد ازداد مرضه ولم يملك غرضه فأقبلت اليه الاطباء والحكماء وصاروا يداووه ويعالجوه فلم يفده شيء بل زاد عياه وكثر شكواه وقد التهت رجاله بمرض سيدهم فانحلت عزائمهم وقلت همتهم ، اما ما كان من أمر نائب حلب فانه سطر كتاب وأرسله مع السيار

وقال له عليك بمصر فأخذ الكتاب وسار ، فيوم جالس الملك الصالح واذا بباب الديوان داخل سيار قال الملك من اين قال من حلب الشهباء وأخرج كتاب سلمه الى الملك فأعطاه الى القاضي فقرأه وجد خطابا من نائب حلب الى بين أيادي أمير المؤمنين اننا مقيمون يوم تاريخه ، واذ بملك يقال له أيبك التركماني من أرض الموصل حط على حلب فأغلقنا الابواب في وجهه وأقمنا الحصار فأرسلنا جواسيس يكشفوا لنا الاخبار فعادوا وقالوا انه يريد أرض مصر والشام ومرامه أخذ السلطنة فما استقر به النزول حتى ابتلاه الله بداء مهول ومرض لا يعـرف له دواء وانه الآن على حيـاض الموت ، ثم سطرنا لك هذا الكتاب وأعلمناك بما كان والامر لوليه سيدي، فلما سمع الملك ما في الكتاب قال اكتبوا الى نائب حلب ان يفتح له ابواب حلب واذا مر برجاله الى جهة الشام ومصر فلا يمنعه والله يفعل ما يشاء ، فكتبوا له ما امر به السلطان ورد الكتاب ، اما أيبك فانه زاد عليه المرض فبينما هو كذلك واذ مر به رجل متشبه بالعلماء الاعلام فسلم عليه فرد السلام فجلس الى جانبه وجعل يحادثه حتى انه احتوى على قلبه ثم قال له يا ملك الزمان ما بك فقال كما ترى بالعيـان قال ألم يأتك حكمـاء يعالجوك ومن هذا المرض ينقذوك فقال جاءني كثير وما زادني الا تحسير فقال له انا أداويك ومن هذا المرض أشفيك فقال له جزاك الله كل خير فتقدم اليه وجعل يداويه بأدوية يخبرها وأعشاب يعرفها ثلاثة اسابيع حتى شفي وطاب من كل مصاب فلما شفي من مرضه أقبـل على ذلك الشيخ وقبّل يده وقال له ما اسمك يا مولاي قال له اسمي الشيخ صلاح الدين قال له من اي أرض قال له من العراق فظن أيبك انه ولي من أولياء الله فاعتقد به وقربه ولم يدر من هو !•

قال الراوي : وكان السبب في مجيء هذا القرنان اليه انه كان بسواحل الشام دير يعرف بدير نشوان، ونشوان خلف ولدين الاول يقال له كرسيمول والآخر يقال له أصفوط فلما نشأوا وتعلموا خرج كرسيمول على أثر آبائه

وخرج أصفوط من أهل الشر والفساد ، فأما كرسيمول فانه أقام بالدير مقام أبيه وصار يعلم الاولاد الانجيل ويعلمهم التحريم والتحليل وقد هرعت اليه الناس بأولادها وصارت تقرأ عليه كتابها ، واما أصفوط المقوت فانه صار يجمع الاولاد ويفسدهم ويعلمهم الشر والضلال وقد اجتمع عليه اربعون شقيا فصار هو كبيرهم وهذا ما كان منه ، واما ما كان من كرسيمول فانه مقيم بالدير واذ حضر اليه ملك جزر البرتغال ومعه ابنته يقال لها فتنة فلما اقبل بها قبّل يديه وقال يا أبونا انا كنت قليل الخلف والذرية فلما جاء عيد الشعانين نذرت للمسيح ان رزقني الله بغلام او بفتاة وهبتها للتعليم فقبل نذري ورزقني الله بهذه الفتاة ، وقد كبرت ونشأت واني أريد منك ان تعلمها لي لتكون من أهل العرفان فقال له سمعا وطاعة ، ثم استلم البنت وما معها وعاد ابوها راجعا الى بلاده ، اما كرسيمول صار يقرىء تلك البنت ويعلمها مدة اربع سنوات حتى صارت تعرف جميع العلوم فيوم بينما جالس واذ بأخيه اصفوط داخل عليه ومعه رجاله فسلم عليه وجلس بجانبه فنظر البنت قال من هذه قال له هي من اولاد الملوك قال انها جميلة الصورة حسنة الطلعة ثم ان اصفوط قال لاخيه اعلم اني قد تولعت بهذه الفتاة وشغفت بها فقال له كرسيمول اعلم يا اصفوط ان هذه بنت ملك البرتغال وقد اوصاني عليها ابوها فلا امكن احدا منها حتى تخرج روحي دونها ثم صاح به فتركه وسار الى الفلا وتبعه رجاله فقال لهم لا بد لي من اخذ هذه الفتاة فقالوا له افعل ما بدا لك فصبر الى الليل ودخل الدير فرأى أخاه نائما في مخدع فأقفل عليه وأخذ البنت وأزال بكارتها ثم اخذ رفقاه وسار ، هذا ما كان من اصفوط . اما كرسيمول فانه استيقظ من نومه فرأى الباب مقفولا عليه وصاح على البنت ففتحت له واعلمته بما جرى عليها من المصاب فاغتم غما شديدا ، ثم قال في نفسه ان هذا اللعين قد علم بتلك البنت وربما يعود اليها ثانيا وان منعته عن ذلك قتلني وما لي الا ان ارسلها الى ابيها ثم كتب كتابا وأرسل

البنت بصحبة عشرة رهبان وأعطاهم الجواب فساروا حتى أتوا الى ابوها الملك وأعطوه الكتاب فقرأه وعلم ما فيه وهو خطابا من كرسيمول الى بين أيادي الملك اعلم اننا أقمنا نعلـم البنت هذه المدة حتى تعلمت كل شيء وكان مرادنا اقامتها عندنا بالدير غير انه حضر لعندنا اصفوط اللعين وفعل كذا وكذا وقد ارجعته عن ذلك فما ارتجع فأرسلت البنت اليك خوفـا عليها منه والسلام ، فلما قرأ الملك الكتاب وفهم ما فيه صعب عليه ذلك وكبر لديه ثم قال الى وزرائه اريد ان اركب وأدور على هذا الملعون وأقتله شر قتلة فقال له الوزير ايها الملك اترك لي هذا الامر وانا أدبر لك تدبير تقتل به هذا الخنزير فقال له وكيف ذلك فقال له ارسل له الف دينار وهدية سنية مع اربعة من رجالك راكبين على الخيول وتأمرهم ان يدوروا على خصمك فاذا رأوه يقولوا له وصل جميلك وقد وصل الخبر الى ابيها الملك ففرح بذلك وأرسل لك هذه الهدية والف دينار ثم يدفعوهم اليه وينظروا ماذا يجري فقال له الملك وكيف يكون ذلك اذا اخذهم وراح في سبيله فلم يفدنا من ذلك الا فقد الاموال فقال له اعلم اني اقـول ان صح هذا التدبير فان فيه هلاكه فلا تخالفني في ذلك فما هي الا هدية في الظاهـر ومكيدة في الباطن فقال الملك طيب ثم انه فعل ما اشار به الوزير وأرسل مع المال اربعة فوارس وكتب له كتاب يشكـره على فعلـه وقال لهم اذا رأيتمـوه سلموه الكتاب والهديـة والمال وانظروا ماذا يجري فأجابوه بالسمع والطاعة وساروا اما الملك فانه أنعم على العشرة رهبان وردهم الى كرسيمول وجعل يشكره على ما فعل من ارسال ابنته اليه واما الفوارس الاربعة فانهم ما زالوا سائرين وهم يدورون على اصفوط مدة شهر وبينما هم سائرين واذ قد لاح لهم غبار ذلك اللعين ورجاله فلما وقعت العين على العين ترجلوا عن خيولهم وقدموا لاصفوط الكتاب فقرأه وضحك واستبشر وقال لرفقائه أرأيتم ما فعل سيدكم من الفعال وكيف تشكره الملوك فقالوا له ما السبب فأعاد عليهم قراءة الكتاب خطابا من ملك البرتغال يقول فيه

اشكرك على هذا الفعل وقد رسلت لك هدية والف دينار فلما قرأ اللعين الكتاب اعجبه غاية العجب وأخذ الهدية والمال وقال سلمــوا على الملك كثير فرجعوا الى ورائهم وجعلوا ينظرون ما يكــون من امرهم فقال له رفقاؤه نحن كنا معك ولنا في ذلك حصة فقال لهم انظروا الى هذا الكتاب فانه لي من دونكم وانا ما أعطي لكم شيء فقالوا له نحن نأخذ المال وانت الهدية او انت المال ونحن الهدية فقال لهم هذا لا يكــون أبدا ثم وقعت المشاجرة بينهم وزادوا في الكلام مع بعضهم واشتعلت الفتنة بينهم لانه احتوى على المال والهدية دون الجميع فلما يئسوا هجموا عليه وطعنــوه بالسيوف حتى جعلوه كالقطن المندوف ثم قالوا لبعضهم نقسم المال سوية فقال بعضهم نأخذ نصف المال ونعطي كرسيمول النصف فامتنع بعضهم وقالوا ان كرسيمول ما له دخل في هذا المال ولا رافقنا ونحن لا نعطيــه شيئا منه فقال بعضهم لا يكون ذلك ولو سقينا كؤوس المهالك ثم وقع العناد بينهم فتضاربوا بالسيوف ولم تكن الا ساعة حتى ما بقي منهم الا خمسة أنفار فعند ذلك عاد اليهم رجال الملك وأهلكوهم عن آخرهموأخذوا المال والهدية وساروا راجعين الى ملكهم وأعلموه بما جرى فلما سمع الملك ذلك فرح وانشرح وشكر الوزير على ذلك التدبير واما ما كان من امر بنت الملك فانها حبلت وظهر عليها الحمل فوضعت غلام ذكر وهو عبرةلكل البشر وليلــة وضعه انكسف القمر وأظلمت الدنيــا ونزل المطر وزادت الرعود وكانت ليلة منحوسة وقد خرج رفيع العنق كبير الرأس شنيعالمنظر ومن جملة قباحته ان أمه بعد ان وضعته انقلبت ميتة فلما عاين ذلك الملك بكى على ابنته ولبس ملابس الحزن وذم الولد وقال هذا مشؤوم ولولا وصية المسيح بالاطفال لكنت قتلتــه وارتاح قلبي منه ثم أمر له بمرضعة فأتوا اليه بها فأبى ان يرضع فأتوا بغيرها فكانت كمثلها ولم يقبل المراضع فأتــوا له بالمعز والغزلان فأبى فلما عاين ذلك الوزير قال للملك اعلــم ان هذا الولد منحوس وطالعه معكوس فان طاوعتني ترسله الى الديــر

خارج البلد ، فيه كلبة ترضع أولادها فاجعله معهم فان عاش فبرزقه وان مات فبأجله فقال له هذا هو الصواب ثم أنه أمر بحمله الى الدير فحملوه ووضعوه في دهليز الدير مع أولاد الكلبة فمسك ثديها ورضع وقد حننها الله عليه فصارت ترضعه فلما علم الملك تعجب من هذا المولود ثم انه جعل يتفقد الكلبة بالمآكل والمشارب الى ان كبر الولد وانتشى ومشى فطلع آفة رقطاء ومؤذي لا يطاق كثير النفاق لا يرى شخصا الا ويضربه ولا يجلس مع قوم الا ويفسدهم وقد زاد ظلمه على العباد وعم جوره وشاع أمره بذلك فشكت منه العباد الى الملك فنهاه فلم ينته عن أفعاله ولا رجع فشكوا ثانيا الى الملك وثالثا فلما أعياه الامر وتزايد عليه الشكوى والضرر أرسله الى عمه كرسيمول في الدير مع عشرة رجال فلما وصلوا به الى الدير قبّلوا يد كرسيمول وقال له خذ هذا ابن اخيك وهذا كتاب من الملك واذ به الى بين أيادي كرسيمول الواصل لك ابن اخيك وقد سميته جوان وجرى له من الامر ما هو كذا وكيف ان امه ماتت عند ولادتها وأعاد عليه جميع ما جرى لاخيه اصفوط ورفقاءه ثم ان كرسيمول اخذ الغلام وجعل يعلمه الاحكام مدة من الايام وتصاحب بالدير مع بعض اولاد الملوك الذين يقرأون عند كرسيمول وكان اكثر صحبته مع ولد يقال له سيف الروم وكان جوان صاحب مكر وخداع وحيل ولم يزالوا على ذلك حتى قرأوا غوامض العلوم ، اما ما كان من أهل الدير فانهم طلعوا في عيد لهم الى جهة البحر وركبوا المراكب وكانت هذه عوائدهم في كل عام يطلعون الى البحار ويأخذون ما جاء اليهم من المسافرين فبينما هم كذلك واذ أقبل عليهم مركب حجاج فدار به أهل الدير واستأسروا كل من كان فيها فكان من جملة ما أخذوه رجل عراقي صاحب فضل وعلم يقال له الشيخ صلاح الدين وكان يقرأ علوم كثيرة ويروي الاحاديث ويفسر المعاني ويفهم علم الادب والعروض والمنطق والصرف والفلك والهندسة والحكمة وقد نظروا الى ذلك الشيخ المهاب وهو بهذه الشيبة قالوا له انت رجل كبير وما لك

عندنا منفعة خذوه الى السجن وكان هذا من لطف الله عليه فلما جلس في السجن حمد الله ورضي بالقضاء والقدر ثم جعـل يقرأ القرآن وقد تداولت الايام واذ مر جوان على باب السجن وسمع الاستاذ يقرأ القرآن فألقى أذنه وتأمل كلام الاستاذ فأعجبه فرجع لرفقائـه وقال لهم ان هذا الرجل الذي في السجن مقيم هو من رهبان المسلمين والرأي عندي اننا ننزل اليه ونقبّل يديه ونحتال عليه ونسلم اسلام باطل ونخليه يعلمنا كلام المسلمين لنكون بجميع العلوم عارفين فقالوا له افعل ما تريد فأخذهم وسار الى السجن وفتح الباب ونزل اليه ، فبينما الشيخ جالس واذ بجوان مقبل عليه وجعل يقبّل يديه وكذلك من كانوا حواليه فقال لهم الاستاذ من انتم فقالوا له يا مولانا اننا من هذا الدير وقد سمعنا منك هذا البيان فأعجبنا البرهان وانا نريد ان تعلمنا اياه فقال يا اولادي هذا كلام لا يتعلمه الا المسلمون فان شئتم فأسلموا فقالوا ماذا نفعل فقال لهم تقولوا اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله حقا وصدقا فأسلموا ولكن اسلاما باطلا وقبّلوا يدي الاستاذ ظاهرا وفكوا عنه الاغلال فجعل يعلمهم العلوم واقاموا معه في مخدع بأعلى الدير وصاروا يقدمون له المآكل والمشارب ويخدمونه وما زالوا كذلك حتى صار جوان مثل الشيخ صلاح الدين ثم ان جوان قال لسيف الروم اني تعلمت جميع ما مع الشيخ من العلـوم وأريد ان اجازيه على فعله فقال له سيف الروم تطلق سبيله وتدفع له مالا يوصله الى ما يريد فقال له كلا بل مرادي ان اقتلـه فقال له ولاي شيء تقتله مع انه فعل معك كل جميل وتعلمت منه جميع العلوم فقال له انا الذي لا اعترف بجميل ولا بتفضيل وليس لي عزيز ثم انه وضع له البنج في الطعام وقدمه اليه وصبر حتى تبنج فنهض وعراه من ثيابه وأخذ ما معه من ملابس وكتب وقتله فمات شهيدا رحمة الله عليه ثم ان اللعين جوان قال ادفنه يا سيف الروم لئلا يعلم ذلك كرسيمول فاذا علم بذلك أسقانا شراب المهالك فدفنه سيف الروم في جانب الدير وقال اذا سألنا كرسيمول عنه نقول له

هرب . فيوم من الايام استفقد كرسيمول الشيخ ما وجده فسأل جوان وسيف الروم وقال لهم اين الاسير الذي تعلمتم منه كلام المسلمين فقالوا له هرب فقال لهم علمت بأنكم قتلتموه والى جانب الدير دفنتموه وأخذتم ما معه من الحوائج فاخرجوا عني وان أقمتم بهذا الدير قتلتكم فعند ذلك خرج جوان وسيف الروم واخذ جوان مصالح الشيخ صاحب العلوم ولبس ملابسه وهيأ سيف الروم في صفة طالب وسماه منصور وساروا يطلبــون لهم ارضا ينزلون بها فبينما هم سائرين اذ بلغهم الخبر بأن ملك الموصل راكب على حلب وانه طالب آرض مصر يريد ان يملكهــا فاعتراه المرض الشديد فقال يا منصور سر بنا الى ذلك الملك حتى ننظر كيف نصنع وما زالوا الى ان وصلوا الى أرض حلب ودخل اللعين على أيبك كما ذكرنا وداواه كما وصفنا وقد اعتقد فيه أيبك وجعله امامه وعظمه وصار يقبّل يديه فهذا كان سبب مجيئه ولما أراد أيبك الرحيل من حلب طلب من الشيخ المسير معه فقال له سر انت الى مصر وانا اكــون لاحقا بك بعد ان ازور مقامات الانبياء والاولياء وبعد ذلك أتوجه الى مصر فقال له أيبك مثل ما تريد ونسألك الدعاء في جميع الاماكن الطاهرات فقال له ان شاء الله ثم تودع منه وسار أيبك طالب مصر من حلب الى غزة والى قطية ومعه جيوشه وقد ضلوا بأمر الله عن الطريق فقال أيبك نذرا عليَّ لله تعالى ان أخذ بيدي واهتدينا الى الطريق ودخلنا مصر لا بد ان أطيع هذا الملك وأقبّل يديه وان دعاني للخدمة عنده خدمته وقد صفى قلب أيبك وترك ما كان عازما عليه وغيّر نيته التي أتى لاجلهــا وساروا باقي ليلتهم فلما أصبح الصباح اهتدوا الى الطريق وعرفوه ففرحوا وأقاموا ثلاثة أيــام لاجل الراحة وبعدها ركب برجاله وطلب الدخول الى مصر فهذا ما كان من أمره اما الملك بينما كان جالس في ديوانه واذا بأيبك داخل فسلم على الملك ودعا له بدوام العز والنعيم وقال له الملك أهلا وسهلا بالمعز أيبك ملك الموصل الذي أراد ان يأخذ مصر ويملكها ويجعلها تحت حكمه فلما سمع

أيبك هذا الكلام قال له يا مولانا السلطان انا أتيت من بلادي وقصدي حماك وكل ذلك في طلب رضاك قال الملك الصالح أخبرني على ما جرى لك في طريقك الى مصر فحدثه أيبك ما جرى له فلما سمع الملك منه ذلك قال له هل تريد الخدمة بديواني وتكون من رجـالي قال له أخدمك يا مولاي فقال له أوليتك وزيرا في ديواني وأجلسه في مرتبته وأمر له بسرايا ومنازل لرجاله فلما أقام أيبك عند السلطان ارسل كتابا الى نائبه بالموصل اعلمه بما جرى فبينما أيبك جالسا في السرايا واذ بالشيخ صلاح الدين العراقي داخل عليه فنهض أيبك وتلقاه وسلم عليه واجلسه الى جانبه وجعل يحدثه ويسأله عن احواله فقال له يا ولدي طلعت الى بيت المقدس وزرت نبي الله موسى وابراهيم الخليـل وباقي الانبياء الصالحين ودعيت لك وسألت الله ان يعطيك المناصب الجسيمة وبعد ذلك اقبلت اليك فقـال له أيبك مرحبا بك يا مولاي عسى ان يكون دعاؤك لي مستجابا ثم أعاد عليه أيبك ما جرى له فلما سمع الشيخ كلامـه فرح بخدمته في الديوان وجلس يتعبد في داره واما ما كان من أمر الملك الصالح قال يا آغا شاهين اين قاضي الديوان فقال له الوزيـر انه مريض من مدة ثلاثة ايام فبينما الملك جالس واذ بالاخبار تقول يعيش رأس مولانا السلطـان في قاضي الديوان السيد محمد نور الدين فلما سمع الملك بوفاة قاضي الديـوان قال انا لله وانا اليه راجعون ثم أمر الآغا شاهين ان ينـزل بأرباب الدولة ويمشي في جنازة القاضي ثم بعد ان واروه التراب عادوا راجعين قال الملك يا آغا شاهين انظر لنا رجلا أهل صلاح وديانة ومعرفة يستلم القضاء فقال الوزير شاهين يا سادتنا يا علماء الاسلام هل عندكم من يصلح للقضـاء بالديوان فقالوا له موجود فعند ذلك نهض الوزير أيبك ووقف في محل الطلب بين يدي السلطان وقال يا امير المؤمنـين عندي رجـل ذو صلاح ومعرفة ونجاح وقد اجتمع بي وانا في حلب وكنت مريضا فببركته شفاني الله على يده وقد جعلته إمامي وهو مقيم في منزلي واسمه الشيخ صلاح

الدين العراقي فلما سمع الملك الصالح ذلك قال له يا أيبك اصبر حتى أسأل الآغا شاهين في ذلك والتفت الى الوزير شاهين وقال ما تقول في ذلك قال وما أقول يا امير المؤمنين في أهل العلم والفصل فقال الملك انزل يا أيبك وائتي بالرجل يتولى رتبة القضاء فسار أيبك الى منزله وقال للشيخ سر معي الى الديوان فقد صدر أمر من السلطان ان تكون قاضي القضاة بالديوان ثم ان العالم لبس جبته وسار الى ان أقبل الى الديوان ودعا للملك بدوام العز والنعم وازالة البؤس والنقم فلما فرغ الشيخ صلاح الدين من كلامه قال له الملك أهلا وسهلا بالعالم العراقي ثم أجلسه على كرسي القضاء فصار قاضيا الى يوم من الايام قال الملك يا سادتنا يا علماء الاسلام رأيت في الليلة الماضية منام فهل يصح فيها منام قالت العلماء نعم يا امير المؤمنين ان الليلة الماضية رؤياها صادقة لانها السابعة من الشهر العربي والقمر بازدياد وهو غير منحوس فما رأيت يا امير المؤمنين فقال رأيت كأني في بر أقفر متسع الجنبات فبينما انا كذلك اذ نظرت الى واد فرأيته قد امتلأ ضباعا وكنت في وسطهم فريدا ولم يكن لي مساعد وحصل لي غاية الكرب والكدر فبينما انا كذلك واذ بغبار قد ثار وعلى وانكشف واذ بخمسة وسبعين سبعا أقبلوا وهم في اعظم همة وفي أولهم سبع مليح الوجه وقد هجم ذلك الاسد على الضباع وتبعه رفقاؤه وما زالوا في حرب شديد وطعن أكيد الى ان افترسوا الضباع وجعلوا الارض منهم خالية فمن شدة ما اعتراني اني استيقظت من منامي • فلما سمعت العلماء قالوا يا امير المؤمنين اما الضباع التي رأيتها فهذه أهل الكفر والضلال ولا بد انهم يطلبون أذاك واما السباع فهم أهل الايمان يقطعون من الاعادي الرقاب وتستقيم بهم كامل الاحكام فينبغي يا مولانا ان تشتري لنا جلبة مماليك من مال السلطنة ليكونوا نصرة للمسلمين فلما سمع الملك ذلك الكلام قال يا حاج شاهين أنت وكيلي لتشتري لي ما يلزم فنزل شاهين من الديوان الى سرايته وقال لاحد اتباعه خذ هذا الكتاب وسر به الى شيخ

تجار الرقيق فأوصله فلما أوصله قرأ فيه من الوزير شاهين الى شيخ تجار الرقيق يلزم حضورك الى عندنا سريعا والحذر من المخالفة والسلام فأجاب بالسمع والطاعة وسار من ساعته طالب سراية الوزير فلما وصل الى بين أيادي الوزير سلم فرد عليه السلام وأجلسه لجانبه وأكرمه وقال له ان الملك يطلب منك جلبة مماليك يليقوا الى السلطنة وهم خمسة وسبعون مملوكا خمسة وعشرون شركسية وخمسة وعشرون اباظية وخمسةوعشرون جرجية فماذا أنت قائل فقال له يا حضرة الوزير ان هذا شيء لا يوجد هنا مثل ما ذكرت فقال له وما الرأي عندك قال يوجد رجل بالحسينية تاجر يسافر ويعرف اين يوجد طلبك ويدعى علي الوراقة فعليك به فلما سمع منه الوزير أنعم عليه وقال له خذ معك خادمي وعرفه عليه وهو يدعوه الى عندي قال سمعا وطاعة وسار معه الخادم فعرفه عليه فقال له الخادم أجب الوزير شاهين حالا له شغل عندك فقال حاضر وسار مع الخادم الى ان وصل الى سراية الوزير فدخل وسلم عليه فأجلسه وباسطه ثم قال له ما اسمك قال علي بن الوراقة قال اعلم اني ما طلبتك الا لحاجة ومقصودي قضاؤها وهي مطلوبة الى السلطـــان فقال وما هي يا وزير الزمان فقال خمسة وسبعون مملوكا يكونون مراهقينويكونون ثلاثة أجناس شركسية وجرجية واباظية فقال له يا وزير اني أفهم الاشارات وأفهم الالسنواللغات ولكني اذا سافرت في طلب تلك الحاجة يتحرك عليّ أهل اللجاجة لاجل ما لهم عندي من الديون ثم قال وحق رأسك منذ ثلاثة أيام ما أدخلت فيها على عيالي طعام وقد صارت عليّ ديون كثيرة وبقيت في اعظم حيرة وكنت تاجر شهير فغرق مالي في البحار وانتهب باقيه في القفار وربما اصحاب الديون يأخذوا مني ثمن المماليك فأرجع مغبون فلما سمع الوزير ما قاله قال لا تخف فالامر قريب ولكن اخبرني حيث انك تعرف الالسن فهل تعرف أصلي بما سمعت من لغتي فقال له نعم أعرفك يا وزير الزمان أبوك تركي وامك مغربية فقال نعم هو كما ذكرت والآن اذهب الى منزلك واذا

كان الغد احضر الى عندي في الديوان فقال له السمع والطاعة فخلع عليه الوزير خلعة وأمر له بمائة دينار وأما علي فانه فرح بما أعطاه الوزير وزال عنه الهم والترح وسار الى داره وأخبر زوجته بما جرى ففرحت. اما علي فقد صرف وأطعم عياله وتبحبح وثاني يوم توجه الى الديوان ودخل ودعا للملك بالنصر وبدوام العز والنعم فلما رآه الملك الصالح قال له ما تريد ومن انت قال يا امير المؤمنين خادمك علي بن الوراقة قال أهلا وسهلا يا علي فقال له الآغا شاهين يا مولانا السلطان هذا الذي يجيب المماليك فقال يا علي انت تفعل ذلك قال نعم يا امير المؤمنين فقال اعلم اني طالب منك حاجة اخرى وذلك مملوكا خاصة لنفسي يكون فيه الشروط التي أذكرها لك انه يكون فهيم وقوي وفطين ويحفظ القرآن ويكون وجهه حسن واسمه محمود ويكون له سبع جدريات في وجهه وشعرة الاسد بين عينيه فماذا تقول في ذلك يا علي فقال يا مولاي ان وجدت هذه الشروط أتيتك بالمطلوب فقال له الملك خذ هذه الصرة وهذه البدلة فاذا وجدت هذه الصفة اشتر لي ثم قال الملك للوزير أعطه ثمن المماليك وأعطه خمسة وسبعين بدلة ملكية وأعطه خلعة سنية واكتب له حجة بأن يكون شيخ تجار الرقيق فقال الوزير شاهين يا امير المؤمنين هذا رجل مديون وربما يقبضوا عليه اصحاب الديون فيأخذوا منه المماليك والتجارة ولا يناله منا الا الخسارة فقال الملك اكتب له امر سلطاني بعدم المعارضة له في البلدان واذكر فيه ان جميع ما على علي من الديون يحسبهم من الخراج فكتب له ذلك ونزل من الديوان بعد ما اخذ الدراهم والعطايا والبدلات اما علي بن الوراقة فترك ما أخذه من الانعام الى عياله وحزم له متجرا عظيما وسافر من البلد ولم يزل سائرا حتى وصل الى مدينة بورصة وكان بها حاكم يقال له مسعود بك فنزل في الخان يريد الراحة وقد بلغت الاخبار الى الامير مسعود بأن علي بن الوراقة قد أقبل بتجارة فأرسل اليه خادما وقال له أجب الامير فقال سمعا وطاعة وسار معه اليه وسلم عليه فأجلسه الى جانبه

وقال له يا علي ما سبب مجيئك ؟ فقال يا مولاي اريد ان اشتري مماليك الى السلطان فقال الامير اذن انت ضيفي ثلاثة ايام فأقام عند الامير وشكر فضله وثاني يوم استيقظ علي من نومه وصلى فريضته واذا به يسمـــع شيئا يدوي كدوي النحل فتبع ذلك الى ان انتهى الى فسحة بها بركة ماء وأربعة لواوين بكل ليوان قاعة متسعة وبها مماليـــك كأنهم الاقمار فلما نظر الى أولئك المماليك تعجب وقد رآهم يقرأون القرآن وصاح به مملوك وقال له لاي شيء تأتي الى هنا فعاد عنه وطلب جهة اليمين فرأى طائفــة اخرى واذ به مملوك يقال له أيدمر فلما أقبل اليه علي سلم فرد عليه السلام، ثم قال له من أنت يا سيدي وما تريد وما سبب قدومك علينا فقال له انا ضيف عند الامير مسعود بك وقد انتبهت من منامي فسمعت القراءة فتبعتها حتى أتيت الى هنا ومن أنتم فأخبرني فقال له نحن مماليك الامير مسعود صاحب الكرم والجود ونحن أباظية وشركسية وجرجية وكلنا مسلمــون وما منا الا من هو ابن ملك او بطل مشهور او امير ، ولكن هكذا حكمت التقادير فلما سمع علي ذلك قال في نفسه والله لا يصلح للملك الا هؤلاء المماليك ثم سار من عند المماليك ودخل على الامير فاستقبله وأجلسه وراق الديوان قال علي يا امير رأيت عجبا وأسأل الله ان يكون لي فيه نصيب فقال وما رأيت ؟ قال له اعلم اني سألتك بالامس عن المماليك فأخبرتني بأن ذلك لم يوجد ، وقد رأيته عندك من دون زيادة ولا نقصان وان هذه البضاعة وجدتها في هذه القاعة فماذا انت قائل ! فلما سمـــع مسعود بك الكلام صار الضياء في وجهه ظلام وقد صعب عليه وكبر لديه ثم قال يا علي أنا قلت لك لا يوجد عندي برسم البيع وان هؤلاء المماليك الذين رأيتهم لا أبيعهم لاحد لاني محتفظ بهم لمساعدتي يوما ما واذا كان مرادك تشتري مماليك فدونك والاسواق فيها كثير فسكت علي وما عاد يقدر ان يعارضه ومن عجب هذه السيرة ما جرى في تلك الليلـــة من الكرامات وذلك انه عندما أوى ونام الامير مسعود بك واذ بيد وقعت على صدره مثل الطاحون

وكادت روحه تفر من جسده ، وسمع قائلا يقول انا الملك الصالح ايوب يا مسعود اعط المماليك الى علي لاننا عاوزينهم وان ما اعطيته اياهم والا نفذت هذه الحربة من ظهرك ثم صاح فيه فانتبه من نومه مرعوبا وهو على علي ملهوف ، اما علي فانه نام وهو يفكر في نفسه فما يشعر الا ويد على صدره كأنها ريش نعام ، وقائل يقول له يا علي اعلم اني انا الملك الصالح يا ولدي غدا يأتي اليك مسعود ويعطيك المماليك فاشترهم منه فاستيقظ من نومه فرحا مستبشرا .

اما مسعود فانه لما أصبح وانتبه وهو مرعوب مما رأى في منامه من التهديد فسار طالبا علي في مكانه واجتمع به وقال وحق رأس سيدك الملك الصالح الا ما مضيت معي واخذت المماليك فلما سمع علي من الامير ذلك الكلام صافحه وعلم ان هذا كله من بركات الصالح واسراره ثم انه سار مع الامير الى قاعة المماليك وقال لهم يا اولاد اعلموا انكم قد انتقلتم من خدمتي الى ذمة سيدكم المعلم علي بن الوراقة ، فلما سمع المماليك ذلك بكوا وقالوا يا سيدنا ان هذا الرجل يشتتنا ويبيعنا في البلاد ويفرقنا على العباد فقال لهم علي يا اولادي وحق الملك المتعال انكم مطلوبون الى السلطان بمصر وتكونون كلكم في مكان واحد وامر علي احد غلمانه بحضور المال والملابس فجاء بما طلب سيده فقال علي لمسعود بك يا سيدي هذه الصرة فيها خمسة وسبعون الف دينار وهم ثمن المماليك وبعد ما اخذ الامير المال وذهب ، أمر علي المماليك بالرواح الى الحمام وجعل هذا النهار برسمهم وأخذ البدلات لهم وهم زائدين بدلة فعند دخول المماليك الى الحمـــام واذ بهم غلام مريض وهو مملوك لرجل عجمي تركه في دهليز الحمام فأقبل أحد المماليك وهو أيدمر الى المملوك المريض وقال له هل أنت بحاجة الى خدمة فقال له المملوك بنفس هادئة يا اخي خذ بيدي حتى أقعد فأخذ بيده حتى أسنده فجعل يبكي على نفسه ومرضه ويشكو لأيدمر ثم تركه وطلب المعلم علي بن الوراقة وباس يده وبكى فقال علي وما الذي يبكيك يا

ولدي فقال له يا سيدي اني وجدت شيئا آلمني وقد أتيت اليك استشيرك فقال ما هو ؟ قال له رأيت غلاما مملوكا وانه من اولاد الملوك وها هو في دهليز الحمام ثم اخذه بيده وأوقفه عنده فقال له السلام عليك يا غلام فقال وعليك السلام فقال له ما اسمك قال اسمي محمود فلما سمع بذلك قال في نفسه والله هذا يوجد به صفة كما طلب الملك الصالح ثم تقدم اليه وقال له هل تعرف شيئا من كتاب الله ؟ قال نعم يا سيدي أحفظ القرآن وأدري معناه وأقرأ كثيرا من العلوم فقال علي في نفسه هذه صفة أخرى وهذا هو المطلوب ، ثم ان علي قال له قد طال بك المرض وكان موتك أولى فلما سمع منه ذلك محمود تغير كيانه وقال انا راض بمرضي فلأي شيء تعترض انت عليَّ ! ثم انه زاد به الغضب وظهرت في وجهه سبع جدريات وعقدة الاسد بين عينيه ثم تقدم اليه وصافحه وسأله السماح فسامحه ثم قال أنت تابع من ، فقال له انا تابع رجل من الاعجام فلما سمع علي منه ذلك قال للمعلم الحمامي ائتني بهذا العجمي صاحب هذا المملوك فغاب وعاد به اليه فلما رآه قال له هذا مملوكك ؟ قال نعم فقال تبيعه قال نعم فقال له علي معي صرة مصرورة ولم أدر ما فيها فهل لك ان تبيعني اياه بها قال نعم أبيعك اياه فعند ذلك ناوله الصرة وأشهد عليه كل من حضر وكتب له حجة بذلك وأشهد على نفسه ، واما علي فانه التفت الى أيدمر وقال له خذ أخاك حممه وألبسه هذه البدلة التي كانت زائدة فقال سمعا وطاعة ، ثم أخذ البدلة وأخذ محمود المريض وسار به الى داخل الحمام وجرده من الملابس التي كانت عليه واحتمله بين يديه الى ان أجلسه بعيدا عن المماليك وحممه وألبسه البدلة ، ثم ان المعلم علي باع تجارته وأمر بحضور الجمال وشد الجحف عليها فصار يضع على كل جمل اثنين ثم انه تودع من الامير مسعود بك وطلب البر وارتحل بالمماليك وسار ولم يزل سائرا الى ان أقبل الى حلب فنزل لأجل الراحة فبلغ نائب حلب بأن علي قد أقبل بالمماليك فنزل وسلم عليه فقال وما معك قال جلبة

مماليك للسلطان قال دعني أتفرج عليها وأنظرها فقال دونك وما تريد فتقدم وتفرج ثم ان علي قال له معي مملوك ضعيف ولكن فطين ظريف فقال له أرني اياه فقال ها هو فلما رآه تبسم وقال وعزة ربي ان طاب هذا الغلام وزالت عنه الاسقام ليكونن أحسن من هؤلاء الغلمان ولكن يا علي أعطني اياه فقال له كيف أعطيك اياه وهو مملوك الملك الصالح •

وفي اليوم الثاني ساروا يجدون المسير فوصلوا الى أرض الشام وقد بلغ خبر علي الى عيسى الناصر نائب الشام فنزل وسلم عليه وقال له ما معك فقال له جلبة مماليك للسلطان ها هي قدامك فأقبل على الشراكسة فقال هؤلاء ما هم رجال ولا يشبهوا الا النساء ثم نظر الى الباقين فقال هؤلاء أحسن حالا فأتى الى عند محمود الضعيف فلما رآه قال يا علي هذا المريض قليل المنفعة لأي شيء ما رميته في الطريق لتستريح منه فقال له دعه فان عاش فبرزقه وان مات فبأجله ثم رجع عيسى الى مكانه ، واما ما كان من أمر محمود فأخذه علي وسار به الى المارستان وكان به رجل يسمى دحروج فدخل عليه بمحمود وقال له خذ هذا الغلام المريض واعتن به وخذ هذه العشرة دنانير أنفقهم عليه حتى اعود وأخذه من عندك هذا ومحمود لا يعي على شيء وقد تركه علي في الشام وأخذ المماليك وطلب أرض مصر •

اما محمود فوعى على نفسه وزال عنه المرض، اما علي بن الوراقة فانه بعد ان قطع مسافة أربعة مراحل عن الشام واذ رأى في منامه الملك الصالح وهو يقول له تركت محمود بالشام وأتيت بدونه وعزة ربي ان لم تعد الى الشام وتأت بالمملوك ، لم تدخل بلدي فانتبه مرعوبا من منامه وترك المماليك مع أتباعه وقال لهم انتظروا حتى أرجع اليكم ، وعاد الى الشام وذهب الى المارستان وجد محمود معافى فقال له الحمد لله الذي عافاك ثم انهم باتوا تلك الليلة ولما جاء الصباح وأراد علي ان يسلك البر واذ أقبل عليه انسان له دين عنده وهي مائة دينار ويدعى عبده الاقواسي فلما رآه

قال له الآن حل الوفا فأعطني المائة دينار بالحال فقال له يا أخي دعني هذه المرة واصنع معي معروفا فقال له وحق ربي لا أتركك حتى تدفع ما عليك من الدين فقال له والله لا أملك الآن على دينار فقال أعطني هذا الغلام فقال له هذا مال السلطان فقال أنا لا اعرف سلطان ولا وزيرا انا آخذ هذا رهين على ما لي عليك من الدين فلما أعياه الامر ترك له محمود وسار طالب مصر .

اما عبده الاقواسي فانه أخذ محمود وسار به الى داره وكان له زوجة يقال لها وسيلة وكانت أشقى أهل الارض فلما طرق الباب قالت من بالباب فقال افتحي قد أتيتك بغلام فلما دخل محمود عليها تأملته وقالت له من أنت قال لها انا مملوك يا سيدتي فقالت له تشرفنا وصارت تستخدمه وتظلمه فهرب منها الى ان خرج من الشام الى الجبانة فبينما هو كذلك واذ أقبل عليه ثلاثة رجال هاربون الى ان أقبلوا الى محمود وسلموا عليه قال لهم من تكونون من الانام فقال الاول انا الموكل بالطيور التي عند عيسى الناصر علفت الطيور واذ فر طائر عزيز عليه فخفت ان يقتلني فهربت . قال الثاني وانا الهجان هربت مني الهجين الذي لعيسى الناصر . قال الثالث وانا السايس هرب مني الحصان فهربت الى هذا المكان . قال محمود وانا الآخر دعوتي مثل دعوتكم وقصتي تشابه قصتكم فأقيموا هنا حتى يأتي الفرج القريب من الملك المجيب ثم انهم جلسوا يتحدثون حتى ولى النهار وأقبل الليل وكانت ليلة سبعة وعشرين من شهر رمضان فنام الثلاثة رجال ومحمود لا ينام حتى مضى من الليل الثلثان فبينما محمود متفكر في أمره واذا بأبواب السماء قد فتحت بقدرة الله وظهرت من السماء طاقة قدر القبة وهي صافية البياض والنور يسطع منها ورأى كل شيء على الارض ساجدا ولا احد متنبه من الانام ولا حس ولا ديك يصيح ولا كلب ينبح الا الدنيا ساجدة وأشجارها راقدة فقال محمود في نفسه هذه ليلة القدر التي هي خير من الف شهر ثم نهض على الاقدام وسأل الله الغفران ودعا

رب الانام وقال اللهم بحرمة هذه الليلة المباركة عندك ان تجعلني ملكـا على مصر والشام وسائر بلاد الاسلام وان ترزقني النصر على الاعداء بحق المصطفى المظلل بالغمام اللهم اجعل لي من أمري فرجا ومخرجا اللهم اجعل لي بين أكتافي عزم اربعين وليا من أوليائك الصالحين اللهم استجب دعوتي انك على كل شيء قدير برحمتك يا نعم المولى ونعـم النصير ولما انتهى محمود من دعائه نزل الى التربة وأيقظ رفقاءه الثلاثة الهاربين وقال لهم قوموا واطلبوا النصر من رب العالمين فان ليلة القدر قد فتحت والدعاء فيها مستجاب فنهضوا وقال الحميماتي أسألك يا الله يا مسبب الاسباب ان تجعلني قطبا من الاقطاب ويكون مسكني في الركن الخراب فاستجاب الله دعاءه انه كريم خفي الالطاف وقال الهجان اللهم اجعلني لهذا وزيرا ولا تحرمني من رفقته فاستجاب دعاءه واما السائس فكان قد مل من سياسة الخيل ومن الحياة فطلب من الله ان يعجل بوفاته على الايمان فاستجاب الله دعاءه وتوفاه وعاد كل واحد الى مأواه فلما أصبح الله بالصباح توجه الهجان والحميماتي الى حال سبيلهم في القفار وقد اعطاهم الله الولايـة وكانوا من أهل السعادة واما ما كان من أمر محمود فانه لما أصبح الصباح سار ولم يعرف الى أين يسير فرأى احد جـيران عبده الاقواسي وقبّل يديه وقال له انا في جيرتك تصالحني مع سيدي فأخذه الرجل وسار به الى عند عبده وقال له ان المملوك الذي هرب منك قد عاد وهو سايقني عليك فلأجل خاطري تسامحه فقال له وأين هو قال له ها هو فنهض وقبضه وقال سر معي فقال له المتشفع أكرمه اكراما الى الله قال له لك علي ذلك ثم سار به حتى أوصله الى البيت ثم صاح لزوجته وقال خذي هذا المملوك وعذبيه فنهضت وأخذته وبعاجل الحال كتفته وفي عامود ربطته ثم انها أوقـدت النار وأخرجت حطبة من النار مشتعلـة وأرادت ان تضربه وهو يستغيث ويستجير فبينما هو بهذا الحال واذ بالباب يطرق ففتحت الباب فدخلت أخت عبده الاقواسي فوجدت الغلام يستغيث فلا يغاث فلما رآها محمود

صاح بأعلى صوته انا في جيرتك يا سيدتي فقالت له لا تخف يا بني ثم أقبلت الى وسيلة وقالت لها اعفي عن هذا الغلام لأجل خاطري فقالت لها لا أقبله ولا أكرمه ولو اجتمعت عليّ الدنيا وأهلهـا وانت ما دخلك في أموري فلما سمعت منها السيدة فاطمـة الاقواسية غضبت وقالت لها يا ظالمة تقابليني بمثل هذا الكلام ثم انها هجمت على محمود وخلصته مما هو فيه وأخذته في يدها وسارت الى بيتها وهي غاضبة في نفسها فلما استقر بها الجلوس أرسلت الى القضاة والعلمـاء والاشراف فحضروا عندهـا فأجلستهم بأعز مكان ثم أرسلت الى أخيها عبده أحضرته فلما استقر به الجلوس قالت له يا عبده هذا الغلام اليك وهل اشتريته فقال لا ، ولكنه مرتهن عندي على مائة دينار وهو لعلي ابن الوراقة فقالت له اعلم انهعندي ولا أطلعه من يدي حتى يأتي صاحبه واسلمه له وهذا ما عليه من الدراهم ثم انها أخرجت له المائة دينار وسلمتهم الى القاضي فأخذهم وسلمهم الى عبده الاقواسي ثم ان السيدة قالت للعلماء اسألوا عبده هذا أخي هل له شيء عندي من متاع أمه وأبيه فسألوه عن ذلك فأجـاب بأنه لم يكن له عندها شيء فقالت اكتبـوا بيننا حجـة بذلك فكتبوا وشهـد العلمـاء وختموها من عبده أخيها وبعد ان اخذتها قالت للعلماء اكتبوا حجة شرعية متسمة بأن جميع مالي ونوالي وما تملكه يدي ملك لهذا الغلام يفعل به ما يريد واذا توفاني الله وأخرجني بقطعة من قماش يكون فضلا منه لانني اتخذته ولدا لي وأنتم على ذلك من الشاهدين .

قال الراوي : وكانت السيدة فاطمة لها ولد اسمه بيبرس فتوفاه الله فانكسر قلبها لأجله فمن الله عليها بهذا الغـلام وحنن قلبها عليه وكان محمود أشبه الناس بولدها بيبرس وهذا الذي حملها على ما تقدم ثم ان العلماء كتبوا لها مثل ما أرادت بعد ان قالوا ما تقول يا محمود في ذلك فقال انا لها خادم ثم انه قام وقبّل يد السيدة فاطمة ورأسها وسمته بيبرس

على اسم ولدها ، فهذا ما كان من أمرها ثم ان السيدة أكرمت العلماء والاشراف وأرضت خاطرهم ودعوا لها وانصرفوا .

اما بيبرس فانه أقام عند السيدة وصار أمير بيتها ، واما عبده أخو السيدة أخذ المائة دينار ومضى الى بيته وسأل زوجته عما جرى فقالت له جرى من الامر كذا وكذا وأخبرته بالقصة فاغتم لذلك وأخبرها بما كان من أمر أخته وبما فعلت وكيف انها كتبت مالها للغلام وما تملك فصاروا يلومون بعضهما ، واما بيبرس فانه مقيم على باب الدار في بعض الايام واذ اقبل دلال وبيده قوس وهو يدلل عليه ، فلما عاين ذلك بيبرس نادى الدلال وقال ما هذا ؟ قال قوس أريد بيعه فقال له وكم يساوي ؟ قال خمسة دنانير فتأمله بيبرس فأعجبه فأجلسه على باب الدار وأخذ القوس وطلع به الى أمه وقال لها يا أمي اني اريد ان اشتري هذا القوس قالت له هو لمن ؟ قال هو بيد الدلال يريد بيعه قالت وما يكون ثمنه ، قال لها خمسة دنانير فلما سمعت أمه ضحكت وقالت اعلم ان عندي اعظم من هذا القوس ثم انها نهضت وأخذت بيبرس الى قاعة وفتحت له الباب فرآها مليانة اقواس ونشاب فلما عاين ذلك تعجب وقال لها يا امي من اين لك هذا قالت له يا ولدي اما تعلم اني فاطمة الاقواسية وما سميت بذلك الا لانه كان والدي يصنع الاقواس وسمينا بيت الاقواسي ثم قالت له يا ولدي هذه القاعة لديك وكل ما فيها هبة مني اليك فعند ذلك فرح بيبرس وقبّل يد أمه وعاد بالقوس الى الدلال وقال لمن هذا القوس قال لرجل من بني اسماعيل قال له ائتني به فغاب وأتى بصاحبه فقال له ما اسمك ايها المقدم قال اسمي المقدم عاصف بن بحر المرقبي قال له ولاي شيء تبيع هذا القوس فقال احتجت لثمنه فقال له بيبرس خذ هذه عشرة دنانير والقوس هدية مني اليك وأعطى الدلال دينارا فشكره عاصف على فعله وقال له غمرتني بفضلك ، الله يقدرني على مكافأتك وانصرف .

اما بيبرس فانه بات وأصبح يتمشى في الدار واذ به يرى خادما يدلي

حبلا من طاقة من سطح مكان فقال له ما هذا ؟ قال له اعلم ان هذا المكان فيه جواد وهو لأبو السيدة فاطمة سيدي حسن الاقواسي وان ذلك الجواد لا يقدر احد يركبه من عهد ما توفي صاحبه ومن شدة جبره قتل سائسه ولم يقدر احد يدخل عليه ونحن كل يـوم ننزل له أكله وشربه من هذه الطاقـة وهذا السبب الموجب لذلك فلما سمع بيبرس ذلك قال له وأين المفتاح قال له ها هو فأخذ بيبرس المفتاح ونزل وفتح الباب عليه وتأمل الجواد فوجده مليح وقد احمرت عيناه وضرب الارض برجليه ويديـه وهمهم عليه فعلم بيبرس بأنه جواد كريم قال للسائس أين السرج فأتاه به قال ائتني بجريدة فأتى له بها فأخذ الجريدة وهجم عليه وضربه وصاح به وشد عليه السرج وألجمه وأخذه بيده بعد ان فك قيده وخرج به ثم اعتلى على ظهره وكأنه الاسد وقال للسائس لا يتبعنـي منكم احد حتى أعود فخافوا عاقبة هذا الامر فأخبروا السيـدة بما جرى من ولدها وما فعـل بالجواد وكيف انه أخذه وركبه ولم يبـال له ، فهذا ما كان من هؤلاء ، واما بيبرس فانه ركب الجواد وسار به وقد تبطن في القفار ولم يزل سائرا الى ان انتهى الى مغارة في ذيل جبل فلما وصل الى هناك وقف الجـواد فوكزه فلم يتحرك من مكانه فتعجب بيبرس بشأنه ، ثم انه نزل عنه ودخل الى تلك المغارة فرأى في داخلها سراجا يضيء بالنهار فتعجب ولم يدر لهذه الامور من سبب ثم انه أقبل الى داخل المغارة فوجد فيها بابا من الحجر وفي وسطه حلقة فقبض على تلك الحلقـة بقصد الفرجة عليها فلما رفعها وتأملها بنظرة تركها فسقطت على الباب فكان لها دوي فلم يشعر بيبرس الا وخدام تصايحت من داخل المكان وقالوا من الضارب لهذا الباب من غير اذن الاصحاب فمن أنت حتى طرقت كنوز الكهنا ، ارجع ايها الضارب لئلا تحل بك المصائب واعلم ان هذا المكان ما لاحد عليه سبيل من جميع الانام الا غلام يقال له بيبرس فهو مسموح له بالدخول والحصول على المأمول فلما سمع بيبرس ذلك صاح انا صاحب هذا الاسم فناداه الخادم

من داخل ذلك المكان ادخل لا بأس عليك وفتح له الباب ودخل فلما صار من داخله رآه شخص قال له انت بيبرس قال نعم ، قال له انت صاحب الامارة وقد دلت عليك الاشارة لانك موعود وان لك عندنا حاجة ضع هذا الذي بيدك عند رأسي ليكون علامة بيني وبينك ثم انه وضع الجريدة فقال له الخادم افتح هذا الدولاب تر شيئا من العجائب فلا تأخذ شيئـا غير الدبوس الدمشقي وزنه عشرة أرطال ما حازه قط غيرك لانه ما لك عندنا الا هذا ، فلا تطمع في الاموال وان خالفت حل بك الانتقام فذهب بيبرس الى الدولاب ومد يده اليه فانفتح وتأمل فرأى ما يحير الناظرين من جواهر واموال فترك ما فيه وأخذ الدبوس الدمشقي وعاد وأغلق الباب وخرج من المغارة فرأى الجواد بمكانه فركبه وسار في البراري والآكام وهو طالب الشام فبينما هو سائر في الطريق واذ طلع عليه فارس فصبر حتى تقرب اليه وناداه هات الغفـارة فقال له بيبرس يا هذا على اي شيء أعطيك الغفارة وانا ليس معي بضاعة ولا تجارة فقال له على رأسك وجوادك فقال له والذي لا يعطي غفارة ماذا يجري عليه قال له آخذ روحه او أأسره رهينة على الغفارة وما ينفذ من يدي الا ان كان بطل قال بيبرس رضيت بذلك فخذ حذرك ثم انطبقـوا الاثنين على بعضهما وخـرج من أيديهما ضربتان كان السابق بالطعنة الخيال ، فزاغ عنها بيبرس واعتدل وضرب الخيال بالدبوس فرماه الى الارض ونزل عن جواده وأوثقه كتاف واذ بثلاثة أقبلوا من كبد البر عليه وقالوا له حيد عن أخينا فهجم على الاول رماه والثاني ألحقه بأخاه والثالث كاد يعدمه الحياة ثم شد الجميع كتاف وقوى منهم السواعد والاطراف وركب جواده وقادهم أسارى بين يديه فقالوا له يا فتى اصنع المعروف والجميل فانه لا يضيع عندنا فقال لهم اني اريد ان ادخل الشام بكم وأذيقكم العذاب والآلام قالوا له ان من افعال الكرام اطعام الطعام ووفي الذمام والتعطف على الارامل والايتام فتعطف علينا واعطنا زمامك فما منا الا من يكون خدامك فقال لهم من تكونون

من العربان فقالوا له نحن يقال لنا القباتية ونحن خفراء الدروب وعددنا اربعة وستون نفرا ونحن رؤوس قبيلتنا وتحت يد كل واحد منا المائة والمائتان ولنا على عيسى الناصر بالشام كل سنة أجرة الغفر عشرة آلاف درهم نأخذهم وننفقهم على عيالنا ولم نؤذ احدا في طريق ولم يحصل منا تفريط وهذه عادتنا في كل عام يا زين المجالس فلما كان هذا العام توجهنا الى عيسى الناصر وطلبنا ما لنا عليه فأبى ان يدفع لنا وتكلم معنا بما لا يليق وقال لا أدفع لكم شيئا فقلنا له تدفع الغفر والا حل بك الضرر وننهب في البر كل من أتى الينا فقال لنا افعلوا ما بدا لكم فعند ذلك وقفنا في الطرقات وذلك لانه ليس لنا اكتساب الا من هذا الباب وهذه قضيتنا فلما سمع الامير بيبرس من الاربعة هذا المقال قال لهم تريدون ان تخدموا عندي وتأخذوا ما لكم من الاموال من يدي قالوا نعم واننا رضينا بما قلت فعند ذلك حل كتافهم وأعطاهم الامان والزمام فقبّلوا يده ورضوا بالخدمة عنده وسار واحد منهم وعاد بباقي رفقائهم ثم أخذهم الامير بيبرس وساروا طالبين الشام ولم يزالوا سائرين معه الى ان أقبل الى بيت أمه فطرق الباب وكانت أمه بالها مشغول عليه فلما رأته اطمأن قلبها وفرحت بمجيئه فحدثها بما جرى له فقالت له ان شاء الله فتوح خير يا ولدي ثم هيأ مكانا الى العرب وأقاموا عنده ورتب لهم معاشهم وهو مقيم عند أمه فبينما هو جالس واذ أقبل عليه اربعة فلاحين فسألهم عن حالهم وما جاءوا به فقالوا اعلم ايها السيد اننا فلاحون سرجويل المهري شريك السيدة فاطمة في الارض وقد أرسلنا اليها وأعطانا كتابا فأخذ الكتاب منهم وقرأه خطابا من عند سرجويل المهري ملك صفد الى بين أيادي السيدة فاطمة الاقواسي الذي نعلمك به اننا نريد ان نشرع بالافراح ومرادي ان اخذ القمح هذا العام كله والسنة المقبلة تأخذين الانتاج كله من القمح فلما فهم بيبرس ما في الكتاب من المرام قال لهم هذا شيء لا يكون ثم سطر له جوابا يقول الذي نعلم به سرجويل ان هذا شيء مخادعة وتحويل

ولا بد من انقسام الغلال وكل من له شيء يأخذه ولا يتم غير ما ذكرناه ثم ختم الكتاب وأعطاه للقصاد وأمرهم بالذهاب وقال لهم ان شاء الله انا لاحق بكم غدا وهذا ما عندي من الامر والشأن فأخذوا الجواب وساروا اما بيبرس اعلم أمه بما جرى فشكرته على عمله وقالت له فاذا كان الغد تركب وتسير الى صفد وتأتي بقسمنا من الغـــلال اما الفلاحين ما زالوا سائرين حتى دخلوا على سرجويل وأعطوه رد الجواب فلما قرأه فهم ما فيه غضب فقال له الوزير ظنيط لا تغضب فالامر سهل اعلم انه اذا جاء وكيل السيدة ليأخذ الغلال اعمل انا كيال وادبر هذا الامر ثم صاح على الفلاحين وقال لهم ائتوني بالاكيـــاس واجعلوهـــا صنفين اسود وابيض فالاسود لنا ثم جعل ينتظر قدوم بيبرس اما بيبرس فانه ركب هو ورجاله وساروا بهمة حتى وصلوا الى صفد وجاوزوا البلد وقصدوا البيدر واذ بظنيط الكيال سلم على الامير بيبرس فرد عليه وقال له انت الكيال قال نعم قال له اقسم هذه الغلال فصـــاح ظنيط على الفلاحين وقال ائتونـــي بالاكياس فأتوه بهم فقال لبيبرس يا سيدي الابيض لكـــم والاسود لنا فصار ظنيط يكيل ثلاثة في الكيس الابيض واربعة في الكيس الاسود كل هذا يجري وبيبرس ينظر ويرى فلما فرغ من الكيـــل قال يا سيدي خذ الاكياس البيض حصتكم فقال له بيبرس يا معلـــم خذ انت الابيض وانا آخذ الاسود فقال ظنيط انا ما اعطيك الا الابيض وانحمق فقال بيبرس ان لم تطاوعني والا لا اعطيك لا ابيض ولا اسود فعندها زمجـــر اللعين وشخر وعثر بلسانه فلما شاهد الامير بيبرس فعاله صاح على رجاله العرب وقال لهم حملوا الغلة ولا تتركوا في هذا المكان شيء فعندها مالت الرجال على الاحمال ورفعوها على ظهور الجمـــال وقال لهم سيروا ولا تخشوا سطوة هؤلاء الكلاب اما ظنيط فانه لما رأى هذا العمل رجع وهو يصيح ويقول أخذوا الغلة والجمال ولا تركوا لنا شيئا من الغلال وذهب الى سرجويل وشكى له وبالغ في الكلام فلما سمع سرجويل المهري هذا الكلام

التفت بحمق الى أخيه فيليب وقال له خذ لك سرية من الخيل وسر على اثر هذا الغلام واقتله وارجع ما معه قبـــل وصوله الى الشام وخذ معك ظنيط يعرفـــك عليه ثم ركب وسار بمن معه في طلب بيبرس حتى أدركه فقال أين تنجـــون بالهـــرب ونحن وراءكم في الطلب فلما سمع بيبرس ذلك صاح على العرب وقال لهم اليوم يومكم أروني فعالكم وفروسيتكم في هؤلاء اللئام وهجم في مقدمتهم وثار الغبار فلله در العرب وما فعلت وأين هؤلاء من هذه العلوج وسطا غراب البين ونادى على اللئام بالبوار ولم تكن الا ساعة من النهار حتى ولوا الادبار وركنوا الى الفرار ونظر الامير بيبرس فيليب أخا سرجويل هربان فلحقه وضربه أرداه قتيلا وعندما رأوا رئيسهم قتيلا ما عاد لهم أثر فلحقتهم العرب فأدركوا ظنيط فطعنوه في ظهره ، واخرجوا الرمح من صدره •

اما بيبرس أمر رفقاءه بلم الاسلاب والخيول من الفلاة ثم سار طالب الشام حتى دخل على امه وسلم عليها وحكى لها على ما جرى فدعت له ، أما ما كان من المنهزمين فانهم ما زالوا في هزيمتهم الى ان وصلوا الـــى سرجويل وهم يصيحون ولما رأى سرجويل ذلك قال من فعل بكم هذه الفعال وأين اخي فيليب وظنيط ، فقالوا له قتلهم هذا الشيطان بيبرس وصحبته رجال رؤياهم تقرب الآجال ثم انه صاح على كامل رجاله وما عنده من عساكر وكانت عدتهم عشرة آلاف فارس وركب سرجويل في أولهم وسار طالب ارض الشام حتى وصل فبلغ الخبر نائب الشام عيسى الناصر بركوبهم خاف على البلد ولم يدر ما السبب ثم انه أغلق الابواب وحصن البلد خوفا على أهلها ، ولما رأى سرجويل هذا كتب كتابا وأعطاه لسيار وقال له سر الى نائب الشام وأعطه هذا الكتاب وهات منه رد الجواب فسار بالكتاب حتى وصل الى الابواب قالوا له من أنت وماذا تريد فقال لهم سيار وحامل كتاب فاستأذنوا له من عيسى الناصر فاذن له فدخل حتى وقف بين يدي النائب وناوله الكتاب فقرأه ، فوجده من سرجويل الى بين

أيادي نائب الشام ، أعلم اني مالي عندك حاجة وما حاجتي الا بيبرس الذي قتل اخي وابن اختي واني لا ارحل عن ارض الشام حتى آخذ بثأري من الاخصام ولو أقمت عشرة اعوام فسلمني اياه ومالي طلب عندك الا هو ، فانظر في عاقبة امرك والسلام .

فلما سمع عيسى الناصر بذلك قال وما لي لا اريح نفسي واخرج لهم خصمهم ثم انه انعم على السيار واعطى له رد الجواب فسار الى ان وصل الى سرجويل وأعطاه الجواب فقرأه ، واذ فيه من نائب الشام الى سرجويل اعلم انني ليس لي خبر بما جرى واني سأخرج لك خصمك من الديار فدونك واياه وهذا ما عندي والسلام .

فلما قرأ الكتـاب فرح بما قال له نائب الشام وجعل ينتظـر خروج بيبرس من الشام ، اما الامير بيبرس فانه جالس ولم يفكر في مثل ذلك واذ برجل قال له اجب نائب الشام فركب من ساعته هو وجماعته العرب وترجلوا عن الخيول ودخلوا الى الديوان فلما رآه عيسى الناصر قام له وتلقاه ثم أجلسه الى جانبه وبعد ان باسطه قال له يا ولدي الذي اعلمك ان هـذا اللعين سرجويل ما اتى الى هنا الا بسببك وما ركب علينا الا لاجلك لما فعلت به من الفعال واني أريد ان القي الهيبة في قلوبهم وأرد كيدهم فـي نحرهم وقد نظرت في امرهم ودبرت حيلة أقولها لك ، فقال له بيبرس وما هي ؟ قال اعلم يا ولدي أنني اريد ان تركب جوادك وتخرج انت ورجالك وانا وعساكري على أثرك غير اني اصبر بعد خروجك حتى يصلوا اليـك فاحتاط بهم ويصيروا في أوساطنا من غير محال فنفنيهم عن آخرهم فماذا تقول في ذلك ، فقال بيبرس وقد ظن ان ذلك حقا كما تريد ، ثم نهض بيبرس وركب هو ورجاله وساروا الى ان وصلوا ابواب البلد وخـرج بيبرس ورجاله وأبعدوا عن الابواب فنظر الامير بيبرس الى خلفه فوجد أبواب الشام قد اغلقت وراءه ولا أحد خرج منها فعلم انها حيلة عليه فسلم امره الى الله والتفت الى من معه من الاصحاب وقال لهم يا اخواني قد

تمت المكيدة والرأي عندي اننا نموت كراما فكونوا على الحملة عازمين فقالوا له ما منا الا من رام هذا المرام وقد عزمنا على الثبات حتى تفنى أرواحنا فعندها دبت النخوة في رؤوسهم ونظر اللعين سرجويل الى بيبرس وقد خرج من الابواب وصاح في عسكره ، وقال دونكم واياه خذوا بالثأر وجلي العار، اما الامير بيبرس فصف رجاله فلما رأى سرجويل أعماله صاح على الفرسان ان يبرزوا الى الميدان ، فبرز فارس يلعب بالسنان فخرج اليه الامير بيبرس فلما رآه اللعين صوب حربته اليه فسبقه بيبرس بالحسام أطاح رأسه فلما رأت اللئام تلك الضربة أهابوه وتأخروا عنه فصار يطلب الفرسان للمبارزة وسرجويل متحير يريد ان يخرج اليه ولكنه يخشى الفشل ثم أمر فارسا آخر ان يبارزه فما تركه ان يكر في الميدان ولا يلعب بسنان حتى ضربه ضربة جبار رمى رأسه على الاحجار ولم يزل كل من برز اليه يقتله حتى قتل ثلاثة عشر فارسا ، فلما نظر سرجويل الى ذلك صاح على الرجال وقال احملوا بكليتكم عليه وأهلكوه ورفقاءه وأعدموهم الحياة وداروا بالجميع ولم يزل السيف يعمل والدم يبذل ونار الحرب تشعل حتى ولى النهار وارتحل وقتل من الاعداء مقتلة عظيمة ، وقد مات الرجال القبائية الا القليل ولم يبق غير الامير بيبرس فانسحب من الميدان ، أما سرجويل فتفقد بيبرس فلم يجده ، فقال لمن حوله كل من أتى لي ببيبرس أو برأسه اعطيته ثقلها ذهب فعند ذلك قال رجل له أنا آتيك به وآخذ ما ذكرت من العطية ثم خرج من عند سرجويل وطلب بيبرس •

اما بيبرس فانه لما عاد من الميدان نزل من على الجواد واكل شيئا من الزاد وغلب عليه التعب والنعاس فأتى الى منعطف وربط الجواد بيده ونام ، أما الرجل فصار يتفقده فرأى بيبرس راقدا على الاحجار فأخذه الفرح والاستبشار فاخرج منديل مطبق بالبنج والقاه على أنفه فصار معه نوم على نوم ثم حمله ووضعه على جواده وسار به الى ان اقبل الى عند سرجويل وقال له ها هو غريمك ، فلما رأى سرجويل خصمه بيبرس فرح

وقال : أنزلوه من على الجواد ونشقوه الخل ليفيق من رقاده ففعلوا ذلك فأفاق الامير بيبرس ، فلما أفاق قال أين انا ؟ قال له سرجويل أنت عندي ولا بد لي ان اقطع رأسك وآخذ بالثأر منك فقال له بيبرس اعلم ان الفرج قريب والله ينجيني من يدك ولكن اخبرني عن هذا الصيوان لمن قال له هو لي وقد انفقت عليه مالا كثيرا فقال ان قدر الله وأحسن خلاصي واوقعك في قبضتي ما يكون فداك الا هذا الصيوان ، فقال اذا اتى الفرج لك ووقعت انا في يدك افعل ما بدا لك ، ثم قال اللعين خذوه الى السجن وعند الصباح نقتله شر قتلة على مرأى من الناس فأخذوه وفي السجن وضعوه .

أما ما كان من سرجويل فانه أصبح ، قال صفوا الرجال والعساكر دائرة وضعوا نطاع الدم ففعلوا ، فقال ائتوني بهذا الشقي بيبرس فذهبوا الى السجن فما وجدوه ، فأخبروا بذلك سرجويل فطار عقله وشتم حراسه وجازاهم وقال يا ترى من خلصه ؟ .

قال الراوي : أما سبب خلاص بيبرس من السجن فقد كان احد الفداوية واقف يسمع ويرى عندما قال الرجل أنا آتيك ببيبرس فصبر حتى نام حراسه انقض على خيمة السجن فأخذه وخرج من المعسكر حتى عرف انه بمأمن وقف وكسر قيد بيبرس من يديه ورجليه ، فقال له بيبرس احسنت غاية الاحسان فمن تكون ، قال له لقد نسيتني ، اما انا ما نسيتك ، وانا شاكر جميلك انا المقدم عاصم بن بحر المرقبي الذي بعت لك القوس ورديته لي مع ضعف ثمنه وقد سألت الله ان يعينني على مكافئتك فاستجاب دعائي وخلصتك من ايدي أعدائك ، ثم ان بيبرس والفداوي عاصم توجهوا الى سور الشام وتخطوه وصاروا داخل مدينة الشام وقصد بيبرس بيت والدته وبصحبته الفداوي ، فلما رأته أمه فرحت به كثيرا ، لانه رجع اليها سالما وسألت ولدها فأخبرها بما جرى له وثاني يوم تودع الفداوي من بيبرس فقال له الى أين تريد ، قال له لي اشغال كثيرة فأعطاه مائة دينار فشكره المقدم وانصرف .

اما الأمير بيبرس فانه اقام عند امه ستة ايام وقد ارتاح من الآلام وسابع يوم عندما أصبح ، ركب جواده واعتد ولبس سلاحه وسار طالب الابواب وصاح على البواب وأمره بفتح الباب ففتحه له وسار حتى قارب اللئام وصاح ميدان فلما عاين سرجويل ذلك قال ابرزوا اليه فبرز اليه فارس فقتله والثاني جندله ، والثالث ما أمهله ولم يزل على ذلك حتى قتل منهم خمسة عشر فارسا فعند ذلك تضايق منه سرجويل وقال احتاطوا به واقتلوه فهجمت الاعداء عليه من كل صوب فبينما هو يطلب الفرج ويستجير بربه واذا بالغبار علا وسد الاقطار وتمزق واذا بخيول غائرة وأعلام خافقة وهم ينادون لعينيك يا امير بيبرس ونزلوا على الاعداء نزول السيل وقد أوقع الله الرعب في قلوب الاعداء فتأخروا الى ورائهم فوجدوا الخيام قد أندلعت فيها النيران لانه عندما رأى اهل البلاد والفلاحون هذه الغارة على الاعداء طمعوا فيهم وهاجموهم من الوراء ، عندها قويت سواعد الامير وصار يضرب بهم وقتل صاحب العلم وقصد سرجويل حتى وصل اليه ضربه بالدبوس فرماه الى الارض وأوثقه كتاف ، فلما رأت اللئام ما حصل بملكهم وما لحق بهم ركنوا الى الفرار وولوا الادبار وتركوا الخيام والنعم الكبار ، ولم يقدروا يأخذوا شيئا خوفا من المنية ومن جملة ما تركوه الصيوان الممدود الذي هو علىماية عامود وكان لهذه الغارة سبب وهو عندما حاربوا العرب القباتية مع بيبرس سلم منهم قليل وراحوا الى قبيلتهم وعشائرهم وخبروهم بما جرى على رفقائهم من الاعداء فجيشوا وأتوا يأخذون بالثأر من الاعداء وعندما انتهت المعركة لصالح الامير بيبرس جلس على كرسي سرجويل وأمر باحضاره بين يديه فلما رآه قال له أنا قلت لك فرج الله قريب ضحكت علي والان ما بقي لك الا ان تشتري نفسك بالمال فقال له كل ما أملك صار اليك ، قال له أعطني هذا الصيوان ثمن رأسك فقال له خذه ودعني برأسي ، ثم أعطاه جوادا من غير عدة وقال له امض الى حال سبيلك ، ثم استقبل العربان ورئيسهم واكرمهم غاية الاكرام وأعطاهم

من الاسلاب شيء كثير كما أرسل معهم مالا ونعما وأمتعة الى أراملوأيتام أتباعه الذين قتلوا من القباتية وشكرهم على فعالهم ونجدتهم له •

اما الامير بيبرس فانه بعدما اكرم العربان وصرفهم فرق ما بقي من الاسلاب على الفقراء والارامل والايتام وما أبقى له الا الصيوان وما شاء من الخيول ، ثم توجه الى بيتامه وهذه النعمقدامه الى ان وصلفاستقبلته وفرحت بسلامته •

اما نائب الشام عيسى الناصر بينما هو جالس وقد دخلت عليه الاخبار بما فعل بيبرس مع الاعداء وبما انعم الله عليه من الاموال وبما أنفقه على الفقراء والارامل ، فلما سمع ذلك الكلام صار الضياء في وجهه ظلام ، ثم انه عاد الى مكره وخداعه وأخفى الكمد واظهر الجلد وقال لاربعة من اعيان رجاله ائتوني بولدي الامير بيبرس فذهبوا اليه وسلموا عليه وقالوا له ان سيدنا عيسى شرف الدين فرح بانتصارك على الاعداء وهو يدعوك الى الديوان ليهنئك بالسلامة فسار معهم الى ان وصل فلما رآه عيسىالناصر وثب على الاقدام وهنأه بالسلامة وقال له الحمد لله يا ولدي قد زاد فرحي حيث نصرك الله على الاعداء ولكنك تكرمت على الناس ونحن ما خطرنا لك على بال فلأي شيء هذه الفعال فقال له بعدما عرضتني للاعداء وتخليت عني فتعود وتطلب مني أسلاب فوالله انك لا تستحق عندي عقال والآن عندك العلماء أهل العرفان نقص عليهم هذا الامر والشأن قالبيبرس يا علماء الاسلام ما قولكم في رجل أباح دمي للاعداء وأخرجني اليهمبسوء مكره وأغلق خلفي ابواب الشام ولم يجاهد معي في سبيل الله ولقد نصرني الله الكريم المتعال ويريد الآن قسمة من الغنائم والاسلاب فقالوا ليس له حق بذلك فلزم الصمت وأضمر في نفسه الغدر وقال له يا ولدي انا امزح معك ولا أريد الا سلامتك ثم جعل يضاحكه ويتحدث معه بلين الكلام ولم يعلم بالقلوب الا الملك العلام ثم نزل كل منهم الى حاله ، اما عيسى الناصر فانه أرسل الى عايق من عياق الشام فلما حضر اليه أجلسه

وسلم عليه وقال له اريد ان تسرق لي بيبرس وتأتي به الى عندي وتكتم هذا السر ولك مني الاكرام فقال له سمعا وطاعـة ، اما العايق فانه صار يترقب حتى نامت العيـون ونزل على بيبرس فرآه نائما فألقى على وجهه منديلا به بنج وصبر حتى ثقلت دماغه فشده كتاف وجعله في كيس وسار به الى عيسى الناصر فوجده في انتظاره فقال له ها هو غريمك فأخذه منه وقال له اياك ان تظهر هذا الامر ، ثم أكرمه وصرفه فقال السمع والطاعة ثم أخذ بيبرس وسار به الى داخل سرايته ووضعه في محل بعيد عن الانظار وصحاه فلما أفاق قال اين انا قال له عيسى انت عندي يا أخس الرجـال أنظر لنفسك فترى عواقب ما فعلت فهذا المكان قبرك حتى تلقى وجه ربك فقال له أتفعل معي هذه الفعال وانت تزعم بين الناس انك والدي ولكن فرج الله قريب ثم انه ترك بيبرس مكتفا واغلق عليه وذهب وظن انه يسقيه كأس منيته، اما والدته فاطمة فانها لما اصبح الصباح استفقدت ولدها فما رأته ولا وقفت له على خبر فأسرعت وكتبت كتاب وهو من السيدة فاطمة بنت الاقواسي الى بين أيادي بني اسماعيل أهل الحمية الذي نعلمكم به ان ولدنا بيبرس بات عندنا في مكانه وأصبحنا فلم نر له خبر ولا جلية أثر وأرسلنا أعلمناكم بما حصل ونحن في جيرتكم يا أهل النخوة والمروءة اكشفوا لنا عن خبر أخيكم والسلام عليكم ، ثم انها ختمت الكتاب وصاحت على عبد يقال له سعيد الدار قال لها لبيك قالت خذ هذا الكتاب واركب هذا الجواد وسر به الى القلاع فاذا وصلت الى هناك فاسأل عن المقـدم سليمان الجاموس وسلم عليه وأعطه هذا الكتاب وهذه حاجتي عندك فان قضيتها فأنت حر لوجه الله فلما سمع العبد ذلك الكلام أجابها بالعزم والاهتمام ثم ركب الجواد وسار يجد المسير الى ان وصل الى المعرة ثم سأل الاتباع على نقيب الرجال فدلوه عليه فأخرج الكتـاب وأعطاه اياه فأخذه سليمان الجاموس وقرأه وفهم رموزه ومعناه ثم أعاد قراءته على الرجال فلما سمعوا ما فيه من المقال أنعموا على العبد وقالوا له سر الى

سيدتك وأقرئها السلام وقال لها انتظري حضور المقدمين عندما يجن الظلام فقال العبد السمع والطاعة ، ثم سار طالب الشام الى ان وصل ودخل الدار وسلم على سيدته وأعاد عليها ما جرى من الاخبار فلما سمعت منه تلك الاخبار أنعمت عليه وأعتقته ، واما بنو اسماعيل فانهم ثاني يوم ركبوا خيولهم وساروا طالبين أرض الشام الى ان وصلوا الى البساتين بالليل فترجلوا عن خيلهم واقبلوا الى السور ورموا مفاردهم وتسلقوا على الاسوار ونزلوا الى داخل البلد وساروا ولم يزالوا الى ان أتوا الى بيت السيدة فاطمة الاقواسية وكانت في انتظارهم فلما قرعوا الباب أمرت الخدم ان يفتحوا لهم فاستقبلتهم السيدة في الحال وصعدت بهم الى قاعة الجلوس وأكرمتهم وبكت بين أيديهم وشكت حالها اليهم فقالوا لا تبكي ايتها السيدة فنحن نفدي أخانا بيبرس بأرواحنا ولكن أخبرينا هل يكون له عدو من الاعداء فقالت لهم نعم له عدو وهو من اكبر الاعداء ، فقالوا لها ومن يكون قالت لهم عيسى الناصر نائب الشام فلما سمعوا من السيدة فاطمة تلك الاقوال قالوا عرفنا الغريم وما يمضي الليل الا واخونا عندك ثم شكرتهم وأثنت عليهم ، واما الرجال فساروا الى ان اقبلوا الى سراية عيسى فأرموا مفاردهم وصعدوا وانحدروا الى داخل المكان ثم صاروا يدورون على مكان عيسى فاهتدوا اليه فرأوه نائما على سرير فأيقظوه فلما أفاق من نومه ليرى من أيقظه واذ بهم بنو اسماعيل فوقع به الخوف والفزع ولكنه أظهر الجلد وقوى قلبه ورجع الى خداعه ومكره وقال لهم أهلا وسهلا بأهل الجود والكرم فعند ذلك جرد المقدم سليمان الجاموس الشاكرية وقال له اذا كنت انت من أهل المكر والخداع فنحن جرثومة الحيل والخداع فاعلم الآن انه ما بقي لك من خلاص من يد القناص وما بقي لك في الدنيا غير هذه الساعة وما عاد ينفعك الا الشهادة فلما سمع عيسى ذلك الكلام قال لهم وما الذي فعلت معكم حتى تقتلوني فقالوا انت تعرف ذنبك فقال لهم انا ما علمت لي ذنبا ابدا فأعلموني فقالوا له

وحق الاسم الاعظم ان لم تصدقنا في ذلك والا أسقيناك المهالك فقال لهم أصدقكم فقالوا له اين بيبرس فلما سمع عيسى ذلك تعجب وعلم انه اذا كذب عليهم سقوه العطب فقال لهم ولأي شيء تدورون على هذا الغلام فقال المقدم اعلم يا عيسى ان هذا الغلام عدو لسلطاننا وقد أمرنا بمجيئه اليه فدلنا عليه والا أخذناك ترد جواب السلطان لاننا لا نطلبه الا منك قال لهم انه ليس هذا ابني ولا انا ابوه وانما هو غـلام فاطمة الاقواسية والصواب ان تطلبوه منها فقالوا له قولا فصلا اما ان تدلنـا عليه والا قتلناك وسرنا برأسك الى حاكمنا قال لهم اعلموا ان هذا غريمي واكبـر أعدائي اذا دليتكم عليه تأخذوا روحه من بين جنبيه حتى يشفى غليلي منه فقالوا له هو كما ذكرت وسوف ترى بعينيـك فأين هو قال لهم عندي ونهض قائما وسار بالرجال حتى أقبل الى الطابقة الذي فيها بيبرس وفتح الباب ودخل ولما رأى بيبرس عيسى وهو مقبل ظن انه يريد قتله فقال له عيسى يا قرنان من انت حتى تعادي السلطان فالآن قد حـل بك التلف فارتعد وخاف واذ رأى اخوانه الفداوية مقبلين خلفه اطمأن قلبه اما عيسى صاح يا رجال هذا خصمكم فخذوه واقتلوه ودعـوا أمه تندب عليه فما لحق عيسى ان يتم الكلام حتى ضربه سليمان الجاموس بالشاكرية صفحا القاه الى الارض وأوثقه كتافا فقال لهم يا قوم ما ذنبي عندكم قال له المقدم يا قرنان ما هي الا حيلة وقد تمت عليك وبها أخذنا أخانا من بين يديك وعلمنا انك عدوه الاكبر ثم خلصوا بيبرس من الاغلال فشكرهم على فعلهم ثم التفت الى عيسى وقال له اي ذنب كان لي عندك حتى جازيتني بالعقاب والآن هاتوا رأسه يا أعز الاحباب فتقدم اليه سليمان الجاموس وهو مجرد الشاكرية فصاح عيسى يا ولدي اعفو عني وسامحني وان عدت لمثلها افعل بي ما تريد فاستحى الامير بيبرس ورق قلبه وقال لاخوانه العفو من شيمكم يا كرام وقد سمعتم اقواله وعرفتم زوره وبهتانه وشهدتم على توبته واني اقول ما لي عدو غيره فان نقض التوبة فاقتلوه ولا تقبلوا فيه شفاعة انسان

والآن فاطلقوه لاجل خاطري فقالوا دعنا نقطع رأسه ونريحك من شره فقال عيسى يا رجال اعلموا بأني تبت على يدكم ومن الآن ان جرى عليه أمر من الامور فأنا المسؤول عنه عند ذلك حلوا وثاقه فأخذهم الى المقعد وطلب لهم الطيبات من المآكل والمشارب ثم خلع عليهم الخلع وقال لهم اكتموا هذه القصة ولا تذكروها لاحد ثم نزلوا من عنده والامير بيبرس معهم الى بيت السيدة فاطمة فوجدوها بانتظارهم ففتحت لهم فدخلوا مع الامير وهم فرحون مما نالهم من خلاص أخيهم ثم ان الخدم أدخلوهم الى القاعة وأجلسوهم وأوقدوا الشموع وأقبلت المآكل والمشارب وهم مغمورون مما نالهم من العطايا من عيسى نائب الشام ثم أمر لهم الامير بيبرس بالهدايا والعطايا وشكرتهم السيدة كثيرا ومدحتهم على ما كان منهم ثم تودعوا من أخيهم بيبرس وايضا السيدة ونزلوا من البيت وساروا طالبين ديارهم.

قال الراوي : وسنرجع الى ذكر أمير المؤمنين الملك الصالح بينما هو جالس وقد تكامل الديوان قال الوزير شاهين يا مولانا السلطان المراد ترسل رجلا يجمع لنا الخراج من نواب البلاد ويأتينا به لان أوان الحج قد اقترب فقال له الملك انظر لنا من نعتمد عليه في قضاء هذا الامر فعند ذلك تقدم الوزير نجم الدين البندقداري وقال انا آتي بالمال وارجع سريعا وكان هذا ابن عم الملك الصالح فقال له يا نجم الدين دع هذا الامر الى غيرك فقال يا ابن العم ان لي هناك حاجة أخرى أريد قضاءها فقال له وما هي فقال ان زوجتي لها اخت مقيمة بالشام وان هذه السيدة لها غلام وقد توفي وبلغ اختها انها لاجل ولدها لا يقر لها قرار فأعادت عليّ زوجتي هذه الاخبار فطيبت خاطرها وقلت لها لا بد ان أسير الى الشام وكنت يا امير المؤمنين أريد منك الاذن فأتاني الامر كما أريد ، ثم ان الملك التفت الى الآغا شاهين وقال له اخلع عليه وولّه هذا الامر ثم ان الوزير نجم الدين نزل الى بيته وقال لزوجته اني مسافر الى الشام أجمع خراج الاقاليم بأمر امير المؤمنين فلما سمعت منه ذلك الكلام قالت له اذا أنت وصلت الى

الشام تقرىء اختي جزيل السلام وتأخـذ بخاطرها عني في فقد ولدهـا وتخبرها بأن قلبي عليها كسير فالله يهون عليك كل امر عسير ويعيـدك بالسلامة فقال لها اعلمي انني ما طلبت السفر الا لأجل هذه الحاجة ثم انه جهز نفسه للسفر الى ان تمت الاشغال ونصب الخيام خارج البلدواجتمعت سائرزجاله ثم انه طلع وأخذ الاذن من السلطان وتودع منه وطلب المسير ولم يزل سائرا حتى وصل الى غزة فأمر بالنزول ووصلت الاخبار الىنائب غزة فنزل وسلم عليه فقال له الوزير خذ هذا الكتاب واجمع بما فيهوارسله الى الشام سريعا فأخذ الكتاب وقال سعيا على الرأس ، ثم ان نجم الدين سار طالبا الشام حتى وصل اليها وقد نصبت الخيام ووصلت الاخبار الى نائب الشام وانه ما أتى الا بسبب الخـراج واستعد لملاقاته ، اما الامير بيبرس بينما هو جالس واذ بعبده الاقواسي أقبل وطلع الى عند أختهونزل وهو متغير اللون منزعج فلما رآه بيبرس على تلك الحال قال ما لي أراك دخلت مسرورا وخرجت مقهورا فاخبرني ما السبب فقال له يا سيدي اعلم ان زوج خالتك الوزير نجم الدين البندقداري قد أقبل من مصر وقد بلغ الخبر نائب الشام فنادى بالزينة في غد لأجل المقابلة واننا لازم ان نقابله وندخل الى الشام معه فدخلت الى عند أختي وطلبت منها بذلة تليق بي ألبسها غدا بين أقراني فما بلغتني مرامي وان البذلة التي عندي لا تصلح الى مقابلته واني وعدت أختي ان أعيدها فما سمعت مني وقالت لي اعلم يا أخي انا لم يكن لي تصرف لا بمال ولا بمكان الا اذا كان باطلاع ولدي بيبرس لانه هو صاحب المال والنوال فان كان مرادك شيئا فاذهب اليه فلما سمع الامير بيبرس كلامه تبسم وقال له يا سيدي لا تأخذ علىخاطرك فاطلب ما شئت يحضر لك وما يزال يتلطف معـه حتى زال عنه الغيظ ثم ذهب الامير وأتى له ببذلة تليق به وهي غاية ما تكون وقال هذه مني اليك هبة فأخذ عبده البذلة وتشكره فقال له الامير بيبرس غدا أحضر الى هنا لأجل ان اركب انا واياك لاستقبال الوزير فقال له السمع والطاعة واذ ثاني

يوم مقبل عبده الاقواسي ولابس البذلة فاستقبله الامير بالترحيب ثم ان الامير بيبرس قلده بالسلاح ولبس هو أحسن ما عنده وأمر السايس ان يحضر لعبده جوادا مفتخرا وركب الامير على جواد سرجويل وركب الى جانبه عبده وساروا الى ان اقبلوا الى الصيـوان فترجلوا عن خيولهـم واستقبلهم الرجال ودخلوا الى عند الوزير نجم الدين وسلموا عليه وباس عبده الاقواسي يده وعرفه على ابن اخته الامير بيبرس وهو العزيز عليه من بين الانام ففرح بهم الوزير واستقبلهم بأحسن استقبال فبينما هم كذلك واذ بموكب نائب الشام قد أقبل وكان موكب عظيم قد اجتمعت فيه رؤوس الشام فلما وصل الموكب ترجل عيسى الناصر ودخل على الوزير نجم الدين البندقداري فترحب به وأجلسه الى جانبه وأقبـل بعده نقيب الاشراف والقضاة والاعيان فاستقبلهم الوزير واحتفل بهم فأسر عيسى الناصر الى الوزير نجم الدين بالكلام حيث لا يسمعه احد وقال له يا سيدي ظهـر عندنا بالشام غلام يدعى بيبرس وقد تبنته السيدة فاطمة الاقواسية شقيقة زوجتكم وقد فعل افعالا خطيرة وتحرش بملك صفد فركب علينا فنصرنا الله عليه ورديناه مدحورا مكسورا وكل يوم له مشكل ويجلب لي الاتعاب وانا اكراما لخاطرك تحملت منه كثيرا ولكن الآن ما عاد لي صبر ولا طاقة على ذلك فاكراما الى الله ان تجد لهذا الامر فصل ولك الفضل فقال له الوزير اخفها الآن وانا عندي لها حل وهو اني اشوقه بمصر وأخذه معي وأقنع أمه بذلك ويبعد عنك وتستريح منه فشكره عيسى الناصر على ذلك اما الوزير نجم الدين بعدما استقر بالجلوس وسلمت عليه الوفود ركب وسار بموكب عظيم حتى دخل الشام ووصل الى الديوان ثم سار الى بيت أخت زوجته ومعه ولدها بيبرس وأخوها عبده وقد تسابقت الخدم وأعلموا السيدة بقدوم صهرها الوزير نجم الدين وولدها بيبرس فنزلت اليهما وسلمت على زوج أختها وسلم عليها وعزاها ثم جلسوا وهم مسرورين وثاني يوم ذهب الوزير طالب ديوان الشام وأمر النائب ان يطلب الخراج

من نواب البلاد وان الوزير بانتظارهم بالشام فأجابه بالسمع والطاعة ثم سار الوزير الى بيت أخت زوجته السيدة فاطمة الاقواسية وهو ينتظـر قدوم المال فيوم جالس الوزير هو والامير بيبرس جعل يذكر مصر ومحاسنها وانها أم الدنيا ولا يسكنها الا كل لبيب ولا يقيم فيها الا ذو عقل وتأديب فهنيئا يا ولدي لمن سكنها وجعلها داره ويا سعـد من قر فيها قراره فلما سمع الامير بيبرس ذلك الكلام تعلق قلبه بها وتمنى ان يطير اليها ثم قال له يا سيدي سألتك بالله الا ما أخذتني معك الى هذه البلدة الموصوفـة فان روحي صارت عليها ملهوفة فقال له يا ولدي مرحبا بك ولعل ان تكون اقامتك بمصر خيرا من اقامتك هنا فان شئت ذلك فجهـز أمرك وخلص شغلك فاني متى جمعت الخراج توجهت الى مصر ولما تقرر الحال بينهما نهض كل منهما الى المنام وعند الصباح طلع بيبرس الى عند أمه وقال يا أمي اعلمي ان لي عندك حاجة وأروم منك قضاءها فقالت له وما هي فقال لها مرادي ان اسافر مع زوج خالتي الوزير الى مصر واتفرج عليها واعود بعد ذلك اليك في مدة قليلة من الايام فقالت له يا ولـدي لا تذكر على لسانك هذا الكلام فما مصر الا بلد مثل سائر البلدان واني قد عرفت من أغراك وعلى الفراق أغواك وما شوقك بمصر الا نجم الدين فلا كان له الله معين فقال لها يا أمي لا تكثري الملام لا بد من ذلك والسلام فلما تحققت ذلك منه بكت ونهضت قائمـة وذهبت الى نجم الدين وقالت له انت الذي أغويت ابني على السفر الى مصر فلا كانت ساعة جئتني فيها ثم رجعت لبيبرس وقالت له اذا كان لا بد لـك من الـرواح فخـذ جميع الملابس والسلاح وخذ المال لعل ان ينفعك على مر الايام واني أسأل رب الانام ان يريني وجهك وأنت تحكم على عساكر تملأ البطاح ثم رجعت الى نجم الدين وقالت له انت تريد ان تأخذ ولدي مني فاياك ان تغمه او تقهره فهو سائر بصحبتك وأمواله مقرونة بخزينتك فتوصى به لاجـل

خاطري وتوصي عليه اختي غاية الوصية فقال لها نجم الدين سوف يظهر لك ذلك وانا اقول ان اختك اذا نظرته فلا بد ان تفرح وتكرمه وتعزه وانت لا تخافي عليه ما دمت انا في قيد الحياة فلا تتفكري في ذلك ابدا ثم قالت لبيبرس اذا لم ترق لك لاقامة يا بني فارجع الى عندي قال نعم يا أمي ثم ان بيبرس قبّل يدها ورأسها وقال لها أريد منك الدعاء والرضا فدعت له ثم قالت يا ولدي لا تنساني من المكاتبات ثم انها جمعت الاموال التي عندها والاسلحة في صناديق ووضعت المفاتيح في صندوق صغير واعطته اياه بعد ان سكرت اقفالها فشكرها بيبرس على فعالهـا اما ما كان من عيسى الناصر فقد حضرت الاموال والخراج من جميع البلاد بين يديه وضم عليه الخراج الذي على الشام وأرسل أعلم الوزير نجم الدين فسار الى الديوان فتلقاه عيسى الناصر وسلمه الاموال فأمر الوزير بنقلها الى بيت السيدة فاطمة الاقواسية وسار الى بيتها فسلم عليها وقال لها ان شاء الله يكون المسير بعد ثلاثة ايام ثم التفت الى بيبرس وقال له جهز نفسك فاحضر الامير بيبرس البغال والجمال ثم حمل كل ما في المكان من الاموال وصيوان سرجويل الذي اكتسبه وأمر بالخروج الى ظاهر البلـد ثم قال للغلمان والخدم جهزوا احوالكم الى السفر ثم تسلموا الجمال والبغال والصناديق وجعلوا يتجهزون مدة ثلاثة ايام اما ما كان من نائب الشام عيسى الناصر فقد أخبروه بأن بيبرس سائر الى مصر ففرح وقال الحمد لله الذي رحل ولا أرانا الله وجهه ولما كان يوم المسير انعقد الموكب وتودع الوزير من السيدة فاطمة وبيبرس باس يدها ورأسها وسألها الدعاء فقبّلته بين عينيه وقالت له الله يحسن شأنك ويردك عليّ بالخـير والسلامة وخرج نائب الشام والاعيان الى ظاهر البلد وتودعـوا من الوزير وثاني يوم ساروا طالبين مصر مدة عشر ايام وأرادوا ان يعرجوا الى جهة اليسار واذ بالامير بيبرس صاح عليهم قائلا هذا الطريق مستقيم قدامكم فلأي شيء تتركوه وتسلكوا غيره فقالوا له ان الوزير هو الذي أمرنا بذلك وقال لا تسيروا

الا من هنا فقال لهم الامير سيروا على ما أنتم عليه من الطريق وانا آخذ لكم الاذن من الوزير فطلب لهم الاذن منه فقال اسمع يا ولدي ان هذه الطريق قريبة للسالك لكنها صعبة المسالك لان في طريقنـا العريش وبها ملك من ملوك الافرنج يقال له فرنجيل يأخذ الغفر ويقتل كل من عبر بغير غفر وينهب امواله ولا يبالي فقال له الامير يا والدي لا تحمل هم على قلبك ولا يضيق صدرك فأنا أعطيهم الغفر من مالي ولا أدعهم يقربـون اليكم فقال له الوزير اذا كان الامر على ما ذكرت فنحن نسير وانت تدفع الغفر له من مالك وانني يا ولدي ما يمكنني ان أدفع ولا درهم من اموال السلطنة فقال له بيبرس ما عليك من ذلك نجاك الله من المهالك ولما تقرر الحال بينهما على ذلك ساروا على طريـق العريش ولما تقربوا من قلعـة فرنجيل التفت بيبرس الى الوزير وقال له يا وزير سر أنت ورجالك ومال السلطان قدامي وانا خلفك سائر على أثرك وانا معي هذا الصندوق المحمل على هذا البغل فاذا تعرضوا لك فقل لهم ان صاحب القفل هو في أعقابنا ومعه الاموال وقد أعد لكم كل ما يلزم فحاسبوه على الغفر ، ثم سيروا انتم وانا احاسبهم واتبعكم فظن الوزير ان ذلك حقا فسار كما قال ولم يعلم بما أضمره وتأخر الامير بيبرس الى وراء الركب وصحبته خمسون من الغلمان فأمرهم ان يجمعـوا له حصا وحجارة وملأ الصندوق ومكن اقفاله وحمله على البغل وساروا •

قال الراوي : اما ما كان من ملك العريش فانه كان له ولد يسمى قمطة وكان كثير الفساد والخبث والسكر والعربدة وكان كل يوم يطلب من أبيه الاموال فقال له أبوه انا اعطيك الغفر الذي يأتي الينا من المسافرين فهو يكفيك ففرح قمطة ثم أخذ رجاله وأمرهم ان يقفوا على الطرقات وجعلوا يفعلون تلك الامور المنكرات الى ان شاع ذكرهم وبلغ الخبر الى نجم الدين فلذاك السبب أمر ان يعرجوا عن الطريق فبينما هم كذلك اذ اقبل الوزير نجم الدين على قمطة فلما نظروه أوقفوه عن المسير وصاح قمطـة

حاسبونا على الغفر الذي عليكم وعلى تجارتكم فقال له نجم الدين اعلم ان هذه التجارة ليست لنا وما نحن الا اتباع صاحبها وهو خلفنا وعلى أثرنا ، ومعه كل ما تحتاجون اليه من مال فقـال أنا أضع عليكم حرس واكشف صاحبكم فاذا اجتمعت به أبعث لكم خبر بالمسير، اما اللعين قمطة فسار ليكشف الخبر هو واذ أقبل الامير بيبرس ومعه الصندوق والمماليك من حوله وهو سائر على مهل فلما قاربهم صاحوا عليه هات الغفر الذي عليك فقال لهم هل مر عليكم أتباعي فقال له قمطة عبروا وهم منتظرين حتى تدفع لنا الغفر فقال لهم من الذي يأخذ الغفر مني ويحاسبني فقال له قمطة انا الذي آخذه فقال له بيبرس ابعث خيال يرفع الحرس عنهم فبعث لهم خيال فقال له بيبرس مرحبا بك ولكن ليس عندي مهلة حتى اني احاسبك وانت عندي صاحب ذمة فخذ هذا الصندوق وادخل به الى بلدك فمثلك يؤتمن على اكثر منه فاذا فتحته فخذ الغفر منه وابق البـاقي عندك على سبيل الوديعة حتى ارجع اليك ولكن لا تخلي أحد يقربه غيرك انا ما سلمته الا ليدك فقال له لا يكون لك فكرة ، وفرح الغلام وقد انطلت عليه الحيلة وتناول الصندوق وجذبه فما تحرك لثقله فأمر باحضار بغل وجعلوه عليه وقال في نفسه لم أرد له منه شيء وقد ساروا به وهم فرحين بأخذ المـال واما الامير بيبرس فانه تبطن في البراري والقفار وبعث بخيال الى الوزير نجم الدين يقول له جد بالمسير اما قمطة فانه صار بالصندوق وهو فرحان حتى وصل الى بلده وطلع الى الديوان فلما رآه ابوه قال له جئت بالغفر قال نعم أتيت بغفر مليح وهو صندوق ملآن من الاموال فقـال له ومن اعطاك هذا الصندوق قال له شاب خواجه له قافلة سائر بها وقال لي خذ منه الغفر واجعل الباقي لي عندك أمانة الى ان اعود اليك مرة اخرى فقال له أبوه افتحه لنرى ما فيه فقال نسيت ان اطلب المفتـاح منه فقال الملك أحضروا لنا غالاتي فأتوا له بما طلب فقال له الملك افتح لنا هذا الصندوق فقال الغالاتي أمرك ثم عالج به حتى فتحه فنهض الملك ورفع الغطاء وتأمل

واذ بالصندوق ملآن حصى وصوان فلما عاين الملك ذلك ضحك من شدة الغيظ فقال له ولده قمطة ولاي شيء تضحك فقـال له لقد سرنـي هذا الذهب الاحمر فتأمل قمطة واذ به احجار مجمعة من الآكام فعاد على نفسه بالندامة والملامة واحمرت عيناه وقال وحقك لا بد ان اركب خلفه واقطع رأسه وآخذ امواله مثل ما ضحك عليّ ولعب بعقلي ثم انه ركب في مائة فارس وسار خلف الامير بيبرس يجد المسير على أثره اما الامير بيبرس فانه سار ولما جاوز العريش قال لمن معه ان القـوم يتبعون أثرنا فخذوا أهبتكم لملاقاتهم وكان عدتهم خمسين فبينما هم سائرون واذ بالغبار قد ثار وتمزق الغبار وبان للنظار عن فوارس وهم يصيحون اين تنجون منا بالهرب ونحن وراءكم في الطلب فلما وصل اليهم قمطة قال لبيبرس كيف تخدعني وتعطيني صندوقا ملآن حصى وحجار فقال له انا بيبرس قاهـر سرجويل أدفع غفارة لاحد فقال لا بد ان اقطع رأسك فقـال له الامير بيبرس والله لقد ساقتكم اعماركم لمصرعكم ثم انه جرد الحسام وكل من تقرب منه أطاح رأسه وغلمانه من ورائه يحمون ظهره فتأخرت عنه الفرسان فقال قمطة ويلكم ما بالكم رجعتم عنه فقالوا له تقدم وأرنا فروسيتك معه فهجم حالا على الامير بيبرس فتلقاه الامير بيبرس بضربة صائبة وكانت قاطعة فوقع الى الارض يخور بدمه فلما رأت اللئام ذلك حملوا عليه وعلى غلمانه فاستقبلهم بضرب يقصف الاعمار فولوا الادبار ، اما الوزير نجم الدين فانه ما زال سائرا حتى أدركه المساء فأمر بالنزول لاجل ان يكشف خبر بيبرس فبينما هو كذلك واذ بالامير قد أقبل ومعه الغنائم فاستقبله الوزير وسأله عن غيبته وبما جرى له فأخبره بما جرى فقال له الحمد لله الذي نصرك عليه .

اما ما كان من المنهزمين فانهم ما زالوا في هزيمتهم الى ان اقبلوا الى العريش فدخلوا على الملك فرنجيل ومعهم ولده قتيل وهم ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور فلما رأى الملك ذلك الحال أخذه الانذهال وقال

ويلكم من فعل بكم هذه الفعال فقالوا له بيبرس قاهر سرجويل فلما سمع اللعين فرنجيل ذلك صعب عليه وكبر لديه والتفت الى وزيره وقال له دبر لي في أخذ ثأر ولدي فقال له اعلم اننا لا نقدر ان نلحق بهم ونأخذ ثأرنا منهم لانهم قاربوا أراضي مصر ويكونوا استنجدوا بحاميتهم التي صارت قريبة منهم فما عاد ينفع اللحاق بهم والرأي عندي ان تصبر على ما أنت عليه وتترصد قاتل ولدك بيبرس حتى تأتيك عنه الاخبار انه قرب من هذه الديار فتأخذ منه ثأرك وأنت مقيم في مكانك ، فلما سمع فرنجيل ذلك الكلام استصوبه اما الامير بيبرس فانه سار هو والوزير نجم الدين الى ان وصلوا الى مصر واقبلوا الى باب النصر ليلا فصاحت عليهم الحراس وقالوا لهم من أنتم فقال لهم انا الوزير نجم الدين فعرفوه ففتحوا له الباب وسار الى أن أقبل الى حيه وطرق باب الدار ففتحوا له فدخل هو ومن معه فقال نجم الدين الى بيبرس هذا مكاننا فاحفظ اموالك فيه واجعل بيدك مفاتيحه فعند ذلك امر الامير بنقل الاموال والصيوان وجميع ما معه من الاثقال الى الحواصل وقفل عليها ، اما الوزير أخذ الخراج وهو مال السلطان وأغلق عليه الابواب وصعد هو والامير بيبرس الى أعلى القصر وجلسوا واستراحوا وسلمت زوجة الوزير على بيبرس بعد ما عرفها عليه الوزير وقال لها هذا ابن أختك الغزيز عليها ، وأوصتني كثيرا ان تعتني فيه لاجل خاطرها وأخذوا في الحديث الى نصف الليل ثم ان الوزير قال لزوجته أؤمري الجواري ان يفرشوا له غرفة خاصة ويضعوا فيها ما يلزم فأمرتهم بذلك ثم التفت الى الامير بيبرس وقال له اعلـم يا بني ان هذه خالتك مثل أمك ثم قالت له خالته اعلم انك جئت من عند امك الى عندي، فأنت عزيز عليّ ، كما أنت عزيز على أمك ، ثم انها أمرت الجواري ان يأخذوه الى غرفته ويقدمـوا له ما يطلب وكل منهم ذهب الى النوم ولما أصبح الصباح انتبه بيبرس واذ بالوزير أقبل فقام له وصبح عليه وهم الوزير بالركوب وقال يا ولدي أريد ان أسير الى الديوان وأسلم المال الى

السلطان وأعود اليك قال بينما الملك جالس واذ اقبل الوزير نجم الدين البندقداري وقبّل يدي الملك وسلم عليه فقال له أهلا وسهلا بابن العم نجم الدين جبت الخراج قال نعم يا امير المؤمنين ثم أمر الغلمان أن يحضروه بين يدي السلطان فلما رآه أمر برفعه الى بيت المال اما الامير بيبرس فانه بعد نزول الوزير من المكان ضاق صدره لانفراده فنهض وسار ولم يزل سائرا حتى أقبل الى دكان وبها شاب صغير وكان يصنع العرقسوس ويسمى كريم الدين فلما رآه نهض له على الاقدام وترحب به وأجلسه وقبّل يده فقبّل الامير رأسه وجلس فناول كريم الدين القاعدين كل واحدة طاسة عرقسوس فلما شربوا قال له بيبرس ما اسمك فقال خادمك كريم الدين فقبّل الامير رأسه وجلس وقال له يا كريم الدين ناول القاعدين كل واحد طاسة على حسابي ونقده دينار وقال خذ ما بقي منه بخشيش فسأله كريم الدين من اين انت يا سيدي فقال له انا الامير بيبرس فقال تشرفنا يا سيدي ثم انصرف الامير وسار الى البيت وصعد الى المقعد وجلس وصار الامير بيبرس يتردد على الدكان ويأتي اليه الرفاق والاخوان وصار له جملة اصحاب من اولاد الحسينية ومضت مدة من الزمان الى ان كان يوم من الايام والامير جالس في الدكان واذ برجال الدرك قد أقبلوا ومقدمهم يقال له رشقون وهو قابض بيده على غلام وهو يصيح انا دخيلكم خلصوني والناس مجتمعون حوله وليس فيهم من يتجاسر على تخليصه فلما وصلوا الى دكان كريم الدين الشماع والامير جالس فصاح الغلام انا في جيرتك يا حضرة الامير فعند ذلك تقدم الامير بيبرس وقال للدركي دعه يمضي الى حال سبيله فقال وانت ما لك بهذا الامر فقال له الامير لاجل خاطري أطلقه فقال له امض الى حال سبيلك والا قرناك انت الآخر معه يا نسل الحرام فلما سمع الامير ذلك امتزج بالغضب وجرد الدبوس وضرب به رشقون على رأسه اخمد أنفاسه وخلص الغلام فلما رأوا رجال الدرك ما فعل برفيقهم هجموا عليه يريدون القبض على الامير فصال فيهم وجندل

أربعة ذات اليمين وأربعة ذات اليسار فهرب باقي الرجال فلحق منهم اثنين فسقاهم شراب النكال وما زال خلفهم وهم قدامه الى ان أوصلهم الى باب الخلق وأولاد الحسينية خلفه ولما تفرق باقي الدرك التفت الامير بيبرس الى الغلام وقال له ابن من انت ؟ فقال له انا ابن نقيب الاشراف فقال له اذهب الى أبيك واعلمه بما جرى ودعه يجمع الاشراف ويطلـع بهم الى الديوان فقال له السمع والطاعة واما اولاد الحسينية فانهم قالوا للامير لا تخف فأرواحنا لك الفداء ونحن كلنا شاهـدون فسر بنا الآن الى قاضي الحسينية حتى نشهد بما رأيناه ثم انهم ساروا الى القاضي وعرضوا عليه القصة وكيف تكلم رشقون بما لا يليق فثبت عند القاضي فسقه فكتب لهم بذلك حجة ونزل فيها الشهادة التي شهدوها فأخذها الامير ووضعها معه ورجع وجلس في الدكان اما الدرك فانهم أخذوا قتلاهم وساروا طالبين الديوان فبينما الملك جالس واذ بهم داخلين الى الديوان فقال ما الخبـر فقالوا يعيش رأس مولانا السلطان برئيس الدرك وبعض رجاله فقال الملك ومن قتلهم قالوا مملوك يقال له الامير بيبرس من مماليك الوزير نجـم الدين البندقداري فقال الملك هذا المملـوك المقصوف العمر يقتل رجال الدرك ويخرق القانون فلا كان ولا استكان ولا عمرت به أوطان فقـال القاضي يا مولانا القاتل يقتل شرعا فقال الملك قم يا نجم الدين وائتنا بهذا المملوك حتى نسمع منه لاي شيء قتلهم فسار الوزير الى بيته فما وجده فسأل عنه فقال احد الخدم انا رأيته قاعدا بدكان بالحسينية فقال الوزير اذهب وائتني به ، فسار اليه وقال له أجب سيدنا الوزير فسار معه الى ان وصل بين أيادي الوزير فقال له ما فعلت اليوم قال لا شيء الا عشرة قتلى قال له الوزير : قليل لازم تقتل خمسين فقال ان الملك طالبك مني الى الديوان فقال السمع والطاعة فسار هو والوزير نجم الدين الى الديوان فتقدم بيبرس وسلم فقال له الملك ما اسمك قال اسمي بيبرس قال لاي شيء قتلت هؤلاء الدرك فقال هم الذين تعدوا عليّ فدافعت عن نفسي

فقال قاضي الديوان ثبت عليك القتل لاقرارك من لسانك ولا عذر لمن أقر فقال الملك تأنى يا قاضي ثم ان الملك قال للامير أخبرني عن السبب فقال يا مولاي اقرأ هذه الحجة فأخذها الوزير وقرأها فرأى فيها ما فعله رشقون بشهادة الناس فعرضها على العلمـــاء فقالت العلمـــاء يا امير المؤمنين هذه الشهادة لا تبرىء بيبرس من القصاص واذ بنقيب الاشراف طالع الى الديوان ومن ورائه الاشراف وقالوا والله ما حمانا وحمى عرضنا الا هذا الهمام فقال لهم الملك وأنتم شهدتم فيه بالدين والصلاح فقالوا وحق الملك الفتاح قد جرى ما هو كذا وكذا ، وقصوا على الملك القصة والعلماء يسمعون فقال الملك ماذا انتم قائلون يا علماء الاسلام فقالوا لقد ثبتت براءة هذا الفتى لانه كان في موقف الدفاع عن نفسه وهؤلاء جماعة أشرار دأبهـم الاعتداء على الناس وعلى أعراضهم فنالوا جزاءهم فقال الملك حيث انهم شهدوا ببيبرس الصلاح والغيرة والمـروءة فالبسه يا حاج شاهين رئيسا للدرك فألبسه الوزير وقال له أوليتك رئاسة الدرك ، اما الاشراف فانهم تصافحوا مع السلطان ونزلوا الى حال سبيلهم ، اما الامير بيبرس فانه نزل وأقبل الى دائرة الدرك واذ فيهماية نفر وعليهم اثنان فلما تحقق انهما على صلاح ألبس احدهما وكيلا عنه والثاني معاونا وأوصاهما بالعدل والانصاف وسار وطلب بيت الوزير نجم الدين وجلس واذ أقبل الوزير من الديوان فقال له يا ولدي اترك قتل الناس فان قتل النفس لم يرض الله ولا السلطان فقال له بيبرس أمرك كما تريد فتركه الوزير وسار الى مكانه ثم نزل بيبرس وصاح على السياس وكان رئيسهم يسمى عقيرب فأتى اليه فقال له شد لي حصان مرادي أزور الامام الشافعي فقال أمرك وأحضر له جواد ووضع عليه العدة وقطع اللجام والقشاط وخلاها ماسكـة على شيء واه وفتح الحلقات التي للركاب وقدم الجواد لبيبرس فركب وسار قاصد الامام من برات البلد ، اما عقيرب بعدما ذهب بيبرس قال للسياس ان هذا الغلام لم يرجع اليوم الا محمل ، اما بيبرس فانه لما ركب وخرج فكان ذلك الجواد

له مدة من الزمان واقف وما أحد ركبه وقد هبت عليه نسمات الفلا فمسه الامير بالركاب فقفز كأنه الريح العاصف فأراد بيبرس ان يهدف فوقف بالركاب فوقعت وفلت اللجام من رأس الحصان وانقطع القشاط وتزحلق السرج فتعلق بيبرس في شعر الجواد فيئس من الحيـاة لان الجواد بقي عريان لا سرج ولا لجام ولم يزل يجري به الجواد الى ان وصل البساتين وكان ذلك المكان فيه سراية الآغا شاهين والوزير واقف يعلـم المماليك أبواب الحرب وركوب الخيل فلما رأى الوزير الحصان الغائر صاح على المماليك حوشوا هذا الجواد الغائر براكبه فتسارعت المماليك بالخيـول واحتاطوا به يمينا وشمـالا فوقف فمسكوه وقدموا راكبـه الى الوزير فاستقبله واجلسه الى جانبه بعد ان سلم عليه فقال له اخبرني اين كنت قاصد ، حتى جرى لك ذلك فقال له كنت قاصد زيارة الامـام الشافعي فقال له الوزير ان هذه الالطاف التي حصلت لك من بركة الامام ، ثم ان الوزير قال له هل ركبت الحصان من دون سرج ولا لجام فما سبب ذلك فحكى له ما وقع له وتقطع الركاب واللجام فقال له هذا من عمل الخبيث السائس الذي شد على الحصان وانما يا ولدي اقبل نصيحتي وخذ لك سائسا يكون مخصوص بك ولا تعتمـد على سياس زوج خالتك فانهم مخصوصين بسيدهم وانك لا تستغني عن الركوب فقال له بيبرس سمعا وطاعة فقال الوزير اياك ثم اياك ان تستخدم رجلا يسمى عثمان بن الحبلة لانه رجل لا يصطلى له بنار ، وما دأبه الا خطف العمائم وقد جاءتني عليه شكايات كثيرة وقطعت بحقه أوامر بختم السلطان محل ما يمسك يقتل وبعدها ركبت انا ورجالي اليه فلم نقدر عليه فاجتنب خدمة هذا الرجل واحذره لانه ما له أمان فلما سمع بيبرس من الوزير ذلك الكلام قال سمعا وطاعة ثم ان الامير بيبرس تودع من الوزير شاهين ونزل فقدم له السياس الحصان فأنعم عليهم وركب وسار الى ان دخل الى بيت الوزير نجـم الدين فلما دخل وجد السياس يغنون فصاح يا عقيرب فلما سمع عقيرب

النداء سكت واذ هو الامير بيبرس فلما رآه أقبل وتقدم اليه وقال زيارة مقبولة يا امير فقال له اللهم تقبل ثم نزل عن الحصان وصبر حتى قاربه عقيرب ضربه كف مثل النـار ولحقه بعصا المقشة وصار يضربه ويشتمه ويقول له يا خائن قصدك هلاكي واذ بالوزير نجم الدين داخل فرأى ذلك الحال فقال ما الخبر فأخبره الامير بما جرى منه فلما سمـع الوزير ذلك تأسف وقال يا ولدي ربما يكون بذلك معذور والاحسن ان تنظـر لك سائس لنفسك ويكون من غير هؤلاء ثم ان نجم الدين صعد الى مكانه اما بيبرس أعطى عقيرب عشرة دنانير وقال له سامحني يا عقيرب فقال له كل يوم اعمل لي قتلة وانقدني عشرة دنانير فضحك الامير فقال يا عقيرب أريد منك ان ترشدني الى سايس يكون مخصوص بي وأهل أمانة فقال له محل السياس بالرميلة فسار بيبرس الى الرميلة الى محل السياس ودخل فرأى السياس ورئيسهم معهم فتقدم وسلم فقال له الرئيس ما تريد فقال أريد سائسا يكون شاطرا وقويافقدم له سائسا ما أعجبه وقدم له ثاني وثالث فلم يعجبوه وبينما الشيخ مع بيبرس في الكلام واذ بضجة وقعت والناس هربت ولم يبق الا الشيخ وبيبرس معه واذ بشاب طويل القـامة غليظ الهامة عليه ملابس فاخرة وكان هذا عثمان بن الحبلة الذي أوصاه الوزير بأن لا يخدمه عنده فلما رآه الشيخ قبّل يده وقال مرحبا بسيدي فزاد بيبرس العجب فقال عثمان يا سليمان ما أتاك دراهم اليوم قال لا يا- سيدي ثم التفت الى بيبرس وقال له ماذا تريد يا فتى قال له أريد سائسا يخدمني فقال له الرئيس هذا طالب سائس وعرضت عليـه السياس فما اعجبه ولا واحد فقال له اما اعجبك ولا واحـد من السياس فقال له ما اعجبني منهم احد فقال له وانا اعجبك ام لا فقال انت اعجبتني فقال كبير السياس يا اسطى عثمان انت تخدم هذا الجندي فقال عثمان اخدمه فقال بيبـرس وانـا رضيـت وقـال فـي سره ان أطـاع والا قتلتـه واريح الناس منه واما ضمير عثمان فان مراده ان يخدم عنده ذلك اليوم

ولما يدخل الليل يقتله ويأخذ ما عنده فعند ذلك اخرج بيبرس خمسة دنانير واعطاهم الى كبير السياس فأخذهم وأراد ان يضعهم في جيبه فنظر اليه عثمان فناوله اياهم وقال للامير تفضل يا سيدي فسار بيبرس وسار عثمان وهو مغطى الرأس ولم يزالوا سائرين حتى وصلـوا الى الحسينية فقال عثمان يا جندي من اي بيت انت فقال له بيبرس من بيت الوزير نجم الدين فقــال له عقيرب هناك قال نعــم ولما دخلــوا البيت نزل الامــير عن الجواد وطلع الى المقعد وكان عثمان لا يظهر منه الا العيون ودخل وجلس على سرير عقيرب فلما رآه عقيرب قال للسياس أدخلوا الحصان لأرى من هذا فوجد عثمان جالس وهو مغطى رأسه فقال له سيلامات يا ولد فقال عثمان تسلم يا عم قال له من انت من الاولاد فقــال له عثمان فلما سمع عقيرب بذلك الاسم قال انا في عرضك يا اسطى عثمان فكشف عن وجهه فدارت به السياس فأعلمهم بما جرى فلما سمعت السياس ذلك الكلام قال عقيرب يا كبيري انت خدمت عند الجندي فقال عثمان انا اضحك عليه فالتفت فرأى عدة جواد معلقة قال لمن هذه قال عدة حصان الجندي فقال له ناولني اياها فاني اريدها اجرة مشواري قال عقيرب يا سيدي ما نقول له عنها قال عثمان اذا هو سألك عنها فقل له أخذها عثمان فاحمد ربك الذي جاءت في العدة ولا جاءت فيك لان هذا قتال مجرم قال عقيرب سمعا وطاعة ثم انه اخذ العدة ووضعها في عباءته وحملها على عاتقه وهم بالخروج واذ بالامير بيبرس صاح عليه الى اين يا اسطى عثمان وما معــك قال له غسيل وهذه عادة السياس اذا خــدم عندهــم سايس جديد يغسل لهم حوائجهم فقال له عندنا خدام يغسلوه وانا لا اريد خديمي يغسل للناس فقال له هذه عدتك وانا اخذتها في نظير ما مشيت معك من الرميلة الى هنا فأنا لم أخدم واسأل عني انا عثمان بن الحبلة فقال له خذ هذه المائة دينار مني اليك فلما سمع عثمان بالمائة دينار طمع وطلع الى المقعــد فوقف له الامير خلف الباب فلما دخل ضربه بالدبوس بين اكتافه فوقع الى الارض

فكتفه وربطه في العامود فرأى بيبرس على حزامه سوطا فقال له انت حامله لأذية الناس لأذوقك لسعاته وضربه حتى كاد ان يغشى عليه ثم رمى السوط تحت رجليه وتركه مربوطا وقال الى السياس وحياة رأسي كل من حله لا يلوم الا نفسه ثم تركه وصعد فلما طال الحال على عثمان صاح على عقيرب تعال فكني فلم يرد عليه فقال لا بد ان اقتلك يا عقيرب ان لم تجيء وتفكني فجاء فقال عثمان كيف يضربني وانت واقف تنظــر ولا تفزع لي فقال له عقيرب هذا جندي جبار وانا لا اقدر عليه فقال عثمان حلني حتى اقعــد معك فاذا طلع النهار اربطني في مكاني فعنــد ذلك حله وفك كتافه فلما تخلص عثمان قبض عليه وربطه مكانه وأخذ العدة وفتح الباب وذهب الى بيته وطرق الباب ففتحت له أمه فدخل وقال يا أمي انا جائع هل عندك شيء فقالت له عندي وزة محمرة فقال هاتي فقدمت له ذلك فكسر أول لقمة من رغيف وأخرج نسرة من الوزة وأراد أن يمضغهم فتفكر العلقة فنزلت دمعته على خده وقال لأمه شيلي الأكل فقالت له ولاي شيء لم تأكل وما أبكاك فحكى لها ما جرى له مفصــلا وقال لها مرادي ان اجمع رجالي الثمانين وأطلع بهم الى المغاير لاجل ان يأخذوا لي بالثأر ثم سار من عندها وجمع رجاله وسار بهم الى المغاير وجعل يحكي لهم ما جرى له فهذا ما كان من عثمان اما الامير بيبرس فانه لما قام من النــوم في الصباح أخذ الدبوس ونزل قاصد عثمان ليضربه فلما تأمله واذا به عقيرب مربوط بالعامود فقال له اين عثمان فقال ربطني مكانه وأخذ عدة الجــواد وذهب فقال بيبرس وأين بيته فقال عقيرب كل من دل على بيت عثمان يقتله واذا قلت لك على بيته احلفك يمين انك ما تقر بي أبدا فحلف له بشرفه انه لا يقر عليه فقال عقيرب فكني لأدلك على بيت عثمان فحله الامير فقال له ان بيت عثمان في المراغة والقبر الطويل بيت غزية الحبلة فاذا وصلت تسأل عن الحارةوالبيت فلا بد ان تستدل عليه فلما سمع بيبرس من عقيرب ذلك شد على الحصان وسار الى ان وصل الى الرميلة فسأل رجلا عن حارة المراغة والقبر الطويل

فدله وقال له من هنا واما بيبرس فانه دخل الى تلك الحارة فرآها واسعة فسأل احد الناس عن بيت عثمان فقال أعوذ بالله من شر الشيطان والثاني ما رد والثالث خاتل وراوغ ففهم ان كل من دل على بيته يقتله كما قال له عقيرب ثم قال في نفسه ان الذي يعرف البيت في كل البلاد البقال والفران ثم انه نزل عن الحصان وأوقفه وصاح على الفران فأتى اليه فقال له لاي شيء أتلفت الخبز لسيدي الاسطى عثمان وسرقت عشرة أرغفة كبار يا خبيث يا مكار وهو أرسلني اليك أسألك فقال يا سيـدي انا ما سرقت شيء لسيدي عثمان ونهار امس ارسلوا لي صينيـة وبها وزة فشويتهـا وغطيتها بعشرة أرغفة من عندي فقال له بيبرس تكذب فقـال الفران انا بعثتهم مع الاجير خذه الى بيت الاسطى عثمان ودعهم يسألوه عن ذلك فقال بيبرس الى الاجير سر قدامي لارى فسار معه الى ان أقبل الى البيت فمد يده ليطرق الباب منعه بيبرس وقال له اعلم اني كنت تائها عن البيت حتى دليتني عليه فاذهب وسلم على معلمك فطار عقل الولد وطلع يركض من خوفه اما بيبرس فانه طرق الباب فانفتح واذ بعبد اسود قال لبيبرس ما تريد قال له غزية الحبلة فقال له اصبر لآخذ لك اذن من سيدتي فغاب واذ بأم عثمان أقبلت وقالت له من انت وما تريـد قال انا الامير بيبرس اريد عثمان قالت ولاي شيء قال لاجل ان اخدمه عندي وأتوبه عن افعاله وأبعده عن الأذية قالت اذا كانت نيتك هكذا أدلك أين موجود هو الآن في المغاير ثم قالت ترفق به وانا أسأل الله العظيم ان يهديه على يديك فنزل بيبرس وركب جواده وسار وهو يقول من يدلني على المغاير ثم أقبل على بائع بطيخ فاشترى منه عشرة بطيخات كبار وقال له هات لي حمال يحملهم الى الامام الليث فصاح على حمال معه حمار وقال له حمل هذا البطيـخ الى مقام الليث والجندي يبقى يدفع لك زيادة فحمـل البطيخات وسار والامير بيبرس بجانبه ولم يزالوا سائرين الا ان أقبلوا الى الامام الليث فقال له الامير اين المغاير فطار صواب الحمال فقال له يا سيدي انا لا اقدر

اروح الى هناك سامحك الله بالاجرة فان المغاير محل الهلاك فقال له بيبرس يا شيخ ان لم تسر معي والا أقتلك فمشى الحمال معه مسافة قليلة ثم قرب الى اذن الحمار وقال له سخرة يا حمار فبرك الحمار بالارض وما عاد قام وصار الحمال يندب حماره ويقول يا أسف عليك يا حماري يا شايل همي ومطعم عيالي فقال له بيبرس ماذا جرى للحمار فقال يا سيدي الحمار راح يموت يا مصيبتي فقال له بيبرس يا شيخ اين المغاير فقال له من هنا تروح فأكرمه وتركه مع حماره والبطيخ وسار طالب المغاير وبعد قليل التفت الى ورائه وجد الحمال راكب حماره وراجع بسرعة فسار بيبرس الى ان وصل الى اول مغارة فلم يجد احدا والثانية والثالثة والرابعةوجدهم جالسين وعثمان بينهم يقول لهم يا رجال من منكم يأخذ لي بالثأر من هذا المملوك ابن الحرام فانه ضربني وتعدى عليّ ، واذ بالامير بيبرس يصيح بهم اين عثمان فنهض عثمان وتبعته جماعته فقال له عثمان انت جئت الى هنا ايضا قال بيبرس نعم لا أفارقك اما ان تخدمني والا اقتلك فقال له عثمان الخدمة بالفلوس ما هي بالدبوس فقال له اعلم انه ما بقي لك خلاص الا بالخدمة قال عثمان فارقني والا أخلي رجالي يقتلوك فلا ينفعك وزراء ولا ملوك فقال له بيبرس اذا كنت شاطر اخرج اليّ وكل من معك فلما سمع عثمان كلامه هجم عليه وضربه بالعصا فتلقى بيبرس ضربه بالدبوس فانكسرت العصا وبقي النصف في يد عثمان ثم ان بيبرس هجم عليه وضربه بالدبوس أرماه الى الارض وكتفه ونادى يا رجال هل فيكم من يطلب خلاصه من يدي فما احد تحرك ثم ركب جواده وسار وعثمان بين يديه مكتف ولم يزل سائرا به الى ان اقبل الى باب الخلق قدام السيدة زينب فقال عثمان يا بيبرس أطلق كتافي فان دخولي معك في مصر وانا مكتف يجعلني مضحكة للناس فالنار ولا العار فقال له بيبرس انت خائف من ضحك الناس عليك وانا خايف ان تعصي خدمتي فقال له عثمان أطلقني من الكتاف أخدمك فظن الامير ان كلامه حق فأطلق كتافه وأعطاه عمامته

لفها على رأسه وتركه الى جانبه فلما وجد نفسه قارب مقام السيدة قمز الى داخل المزار ودخل تحت التابوت وهو يقول يا ام البيت انا في حماك خلصيني من هذا الجندي فدخل بيبرس الى المقام وصار يدور عليه واذ بعثمان من داخل الستر واضع يده على الضريح وهو يقول افلجيه يا ام البيت وبيبرس سامع كلامه ثم انه شال الستر ووضع يده على اكتاف عثمان فقال له انت جيت ورائي الى هنا فقال له انا وراءك أينما سرت لا أتركك فقال عثمان يا ام البيت ابطحيه ها هو عندك قال بيبرس يا عثمان اعلم ان السيدة راضية انك تخدمني وترجع عن أذية الناس فقال عثمان يا امالبيت انا دخلت تحت زمامك وتسلميني لهذا الجبار وحياة قناعك الطاهر لا أخدمه الا على طيبة خاطر فقال له بيبرس تعال يا عثمان وعليك الامان .

فبينما بيبرس وعثمان كذلك واذ أخذتهم سنة من النوم فنامو في الحضرة فرأى بيبرس السيدة قدامه وهي تقول له ان هذا تابعي وانا لا اتركه ابدا ولكن رضيت ان يكون خادمك على طول المدى سامعا مطيعا وعلى يدك تزول شقاوته وتوثق بينك وبينه عهد الله فقال بيبرس سمعا وطاعة ثم ان بيبرس انتبه من منامه فوجد عثمان يبكي فقال له بيبرس ما لك تبكي قال لاني سمعت كلام السيدة معك وهي توصيني بخدمتك وتوصيك بي وبالعلامة قالت لك انمحت شقاوته وأوثق عهد الله على يدي بينكما فقال بيبرس انت كنت سامع قال عثمان نعم انا معكما ثم انه اخذه وخرج به من المقام ودخلا الى المسجد وعلمه الوضوء والصلاة ثم أخذه وسار به الى ان أدخله على النقيب وتوبه عن جميع المعاصي وأوثق عهد الله بينهما وفرح بيبرس وأعطى وفرح عثمان وخرجوا فركب الامير وسار عثمان الى جانبه حتى وصلوا الى حارة المراغة ودخلوا بيت غزية الحبلة أم عثمان فقال عثمان يا جندي من الذي عرفك طريق بيتنا قال لاي شيء قال لأقتله لانه حالف يمين كل من دل على بيتي أقتله فقال له بيبرس انت تريد ان تنقض التوبة والميثاق فقال له انا حالف قال انت حلفت قبل التوبة،

ثم دخلوا البيت وهم في سرور ففرحت الحبلة واستقبلت الاثنين وسلمت عليهم فقال لها عثمان انا تبت عن جميع المعاصي وتعلمت الوضوء والصلاة وصرت خادم الجندي وبقينا اخوة فهاتي لنا الغدا يا امــي فأحضرت لهم الطعام فأكلوا الاثنين فأخذ بيبرس ينصح عثمان ويوعظه ويظهر له البيان بكل ما قدر عليه حتى لان عقله فقال عثمان انا متوكل على رب العالمين فقال له بيبرس انا سائر الى بيت نجم الدين وانت الى اين قاصد فقال له الى المغاير واجمع رجالي واقول لهم ما جرى فقال له يا عثمان توبهم عن الأذية ولا تدعهم يؤذوا احدا من البرية فقال له عثمان أتوبهم لأجل ان يموتوا من الجوع فقال له بيبرس سر بهم الى عندي ودعهم يخدمــون عندي وانا أكفيهم مؤنتهم فقال له ومن أين تأتي بأكل لثمانين رجلا قال أما تعلم ان رزقي ورزقهم على الله فقال عثمان صدقت ، ولكن سر أنت الى بيتك وانتظرني حتى اذهب اليهم وأتوبهم وأعود اليك بهم وسار عثمان طالب المغائر فلما أشرف عليها استقبله رجاله وسألوه عن حاله فأخبرهم وقص عليهم ما كان ثم انه قال لهم والآن أريد منكم ان تتوبوا الى الله وترجعوا وتخدموا عند الجندي فقالوا له انت سيدنا واميرنا ونحن نعطيك كما تريد فلما سمع عثمان منهم ذلك الكلام انسر بهم وفتح الله على قلوبهم وتاب عليهم فعند ذلك أخذهم الاسطى عثمان وسار بهم الى رحاب السيدة وعلمهم الوضوء والصلاة ، ثم سار بهم الى بيت الامير نجم الدين فرآهم بيبرس من المقعد فطلع بهم عثمان الى عنده وقال لهم قبّلــوا يد الامير فتقدموا وسلموا عليه فقال لهم هل أعلمكم الاسطى عثمان انكم تخدمون عندي قالوا نعم فقال لهم انا اكفيكــم مؤنتكم أنتم وعيالكم ولكن على شرط ان تتركوا التعدي على الناس والأذيــة وعليكم بالحق والانصاف والآن تبتم ورجعتم عما كنتم عليه وانا اعطيكم كل ما تطلبونه من الاموال ومد يده وأعطى كل واحد منهم عشرة دنانير وقال لهم اصلحوا احوالكم الآن بهم ولا تنسوا ما ذكرته لكم وان بلغني خبر بأنكم ظلمتم احدا من

الناس أذقت كل من فعل ذلك العذاب لاني تكفلت لكم بكل ما تحتاجون اليه فلا تعرضوا أنفسكم الى الهلاك فقالوا له بعدما قبّلوا يده يا اميرنا رضينا بهذه الشروط ثم انهم نزلوا الى الاصطبل فتلقاهم عقيرب وفرح بهم وقبّل يد الاسطى عثمان فقال له اصلح شأن الاسطبـل وهيء محلا للرجال ثم ان الامير أحضر الطباخ وقال له وسع المطبخ واعمل فيه على حسابي لاجل رجالي وكل ما تحتاج اليه من اللوازم انا اعطيك اياها فقال له أمرك وثاني يوم ركب الامير وسار بجانبه عثمـان طالب الفلا فبينما بيبرس سائر واذ بعثمان تعلق بلجام الجواد وأعاقـه عن المسير فقال له بيبرس ما هذا الفعل فقال له الى اي جهة من الجهات انت سائر فتعجب الامير بيبرس وقال له ولاي شيء تسأل عن ذلك يا عثمان فقال لانيفهمت مرادك وهو ان تعمل عليّ حيلة وتسلمني الى الوزير شاهين ، اما تدري انه عدوي وانا عدوه لاني فعلت معه فعالا تعجز عنها فحول الرجال وقتلت له سبعة ولاة وقطع بحقي أمر سلطاني محل ما يمسكوني يقتلوني ولا احد يطالب بدمي فكيف أمضي اليه فلما سمع الامير ذلك الكلام قال له لا تخف وعليك الامان ، واعلم انني لا افرط فيـك ابدا وروحي فداك وليس الا ما يسر خاطرك ومع الوزير اريد ان اصالحك قال له عثمان الآن سر بنا لنرى ولم يزالوا سائرين الى ان اقبلوا الى البساتين ودخلوا الى سراية الآغا شاهين فنزل بيبرس من على جواده وطلع الى المقعد فاستقبله الوزير وأجلسه بجانبه وجعل يتحدث هو واياه ثم قال الوزير يا ولدي ان لك اربعة ايام ما رأيناك فلأي شيء فقال له يا ابي انني سمعت قولك وعملت به ومضيت أفتش لي عن سايس لانك نظرت ما جرى لي فقال له الوزير هل رأيت لك خادم فقال نعم رأيت رجلا ابن حلال عظيم الخصال قليل المثال فقال له الوزير عسى ان يكون شهما وليس من الرجال الانذال فقال له بيبرس نعم وحقك كما ذكرت فقال الوزير يا ولدي لقد شوقتني ان انظر اليه فما اسمه حتى نكرمه فقال اني أخاف ان اذكـر اسمه تتغير

متى تسمع ذكره لانه أخبرني بما حصل له واعلمني وأوصاني ان لا اخبر احدا باسمه فقال الوزير أليس هو عثمان قال نعم فلما سمع الوزير اغتاظ وتغير وقال يا بيبرس هذا آخر العهد بيننا لان هذا الرجل جبار عنيد وشيطان مريد يقتل النفس ويؤذي الناس وانه ليس له دين ولا اعتقاد وقد قتل لي سبعة ولاة فقال له يا دولة الوزير قد تاب وارتجع وقد عاهدني عند ام الاسياد وعلمته كيف يتوضأ ويصلي وأعاد عليه قصته التي جرت معه فقال الوزير اذا كان الامر كذلك فادعه الآن يأتي الى عندنا حتى ننظر كيف الحال واحدثه فقال سمعا وطاعة ثم أطل بيبرس برأسه وصاح اطلع يا عثمان كلم الوزير فلما رآه الوزير أقبل ترحب به وقال له اجلس يا عثمان فجلس فقال عثمان ايها الوزير أرجو قبل كل شيء الغاء الامر السلطاني بقتلي فعند ذلك أمر الوزير باحضار الامر وسلمه الى عثمان ثم صافح عثمان وسامحه وجلسوا وحضر الطعام فأكلوا وشربوا ولذوا فقال الوزير لبيبرس يلزم ان تأتي كل يوم الى عندي حتى اعلمك ما ينفعك من الطعن والنزال فقال سمعا وطاعة ثم ودع الوزير وأخذ عثمان وسار الى ان أتى الى الديار وصار كل يوم يركب ويأتي الى الوزير ويتعلم أبواب الحرب فبينما هو جالس مع الوزير نجم الدين واذ دخل عليهم عشرة رجال فلاحين من بنها العسل فقال لهم الوزير ما معكم من الاخبار قالوا له معنا كتاب من المعلم سرحان ونحن من رجاله فقال لهم اعلموا ان التزام بنها صار لولدي بيبرس ، ثم ان بيبرس اخذ الكتاب وقرأه واذ به خطاب من المعلم سرحان الى بين أيادي الوزير نجم الدين نعرفكم ان وكيلكم شرف الدين هو من أهل الجور والفسق وقلة الدين فعرف الامير بيبرس الوزير نجم الدين في هذا الامر فقال يا ولدي اذهب انت الى بنها العسل وتدبر هذا الامر واصلح فيما بينهم فالتفت بيبرس الى عثمان وقال له سر معي وركب كل واحد جوادا وساروا الى ان وصلوا الى بنها العسل فقال الامير لعثمان أريد منك ان تأخذ هدية من السكر الى الوزير شاهين فقام عثمان

وملأ زورقا من السكر وسار الى ان وصل الى بولاق فقال عثمان للريس دير بالك على السكر وذهب وأتى بجمال وحمير وشيالين وقال شيلوا هذا السكر على كل دابة شيء منه وذهب وأتى بجماعة زمارين وطبالين وناس يصفقون ويغنون وساروا على تلك الحال الى بيت الوزير شاهين فبينما الوزير جالس في بيته واذ سمع الضجة أطل من الشباك فرأى أولئك الرجال ومعهم الجمال والحمير يصفقون ويرقصون ويزمرون ويطبلون فتعجب الوزير من ذلك وقال ما الخبر فقالوا ان الاسطى عثمان أقبل من عند الامير بيبرس بهدية وهي سكر من بنها فقال الوزير جزاه الله كل خير وظن انه سكر كثير فقال للخدم اخلوا الحواصل فقال له الوكيل يا وزير الزمان اعلم ان الرجال المقبلين الف رجل ومعهم عثمان وصحبتهم مائة جمل وحمار وكل واحد محمل رأس واحد من السكر فضحك الوزير وقال هذا شغل عثمان ولكن اصبروا حتى ننظر ما يكون في جوابه ثم أقبل عثمان الى عند الوزير وقال له السلام عليكم احفظ قدر ما وصل اليك من النعمة قناطير من سكر بنها العسل قال الوزير مقبول يا عثمان فقال عليك اجرة الجمال والشيالين الف قرش فقال الوزير يا عثمان ان الهدية لا تساوي نصف الاجرة فدعهم يأخذوا السكر أجرتهم فقال عثمان حرام عليك تظلم الناس وتأكل أجرتهم ولا تخاف ربهم فوعزة الله لا بد ان تدفع لهم الف قرش ثم ان الوزير أعطاهم مثل ما أراد عثمان وانصرفوا وهم يدعون له ويثنون عليه فهذا ما كان من أمرهم ، واما عثمان فانه أراد الانصراف الى سيده فأعطاه الوزير كتاب فأخذه وسار طالب بنها العسل فوصل فقال الامير أهلا بالاسطى عثمان وصلت الهدية قال نعم فقال جزاك الله كل خير يا عثمان ولكن هل أعطاك الوزير كتاب قال نعم ثم ناوله الكتاب فقرأه خطابا من الوزير الآغا شاهين الى بين أيادي ولدنا الامير بيبرس أعلم اننا ما نريد الا بقاءكم وطول عمركم وبعد فقد وصلت الينا الهدية المرسلة من عندكم بالتمام ودفعنا أجرة الجمالة والشيالة الف قرش

لان الرجل المرسل بالهدية رجل أهل كرم ما يريد الظلـــم وقد أحضر لنا الهدية على مابة جمل وحمـــار وطبالين وزمارين حتى أهل مصر صار لها خبر بالهدية وهذا شيء لم يؤثر عندنا لان روحنا فداء لاحبابنا والسلام فلما فرغ الامير من قراءة الكتاب رفع رأسه الى عثمان وقال له هذا يصح يا عثمان وما منعك ان تجعلهم على اربعة او خمسة جمال الجمل بقرشين والشيال بقرش قال عثمان هذا لا يصح أبدا ربنا جعل ناس ترزق من ناس والكون هكذا وحتى الوزير يبقـــى دائما في باله الهديـــة التي بعثتها له فتبسم الامير وتركه •

اما الامير بيبرس بعدما أقـــام في بنها العسل مدة وفقهم مع بعضهم الوكيل والمعلم والعمال وصالحهم وصاروا يهادوه ويكاتبوه بما يجـــري فيوم من الايام أراد بيبرس ان يسلم على زوج خالته واذ رآه منهمكا في معجنه من الطين وهو يعجنه فتعجب الامير واذ بالوزير نجم الدين كشف له الامر فقال له انا اسمي نجم الدين ولقبي البندقداري قال له اعلم اني ما لقبت بذلك الا لاجل هذا السبب وذلك اني في كل عام في هذا الوقت أصنع هذه العجنة من الطين وأجعلها حبوبا بقدر البندق وان الملك الصالح في كل عام يغدو الى الجيزة في هذه الاوان وهو فصل الربيع وصحبته أرباب الدولة فيطربون ويأكلون ما طاب لهم وبعد ذلك يصطادون الطيور بهذا البندق فلما سمع الامير بذلك أخذه الاشتيـــاق الى الرواح الى ذلك المكان واذ أقبل عثمان فقال له ساعد الوزير فساعده وصار يكبتل مثل ما أشار اليه الوزير وبعد ما انشوى صار عثمان يعبي جيوبـــه من البندق وقد فرق الوزير البندق على بيوت الوزراء والامراء ويأخذ منه عادته وخرج الامر من السلطان بالرواح الى الجيزة وكانت للناس مسرات من العام الى العام ونادى المنادي بالرواح وازدحمـــت المراكب بالنـــاس وانتصبت الخيـــام والسرادقات اما الامير بيبرس قال لعثمان أريد منك ان تسبقني الى الجيزة وتنظر لنا مكانا وتنصب لنا خيمة فقال عثمـــان أمرك ثم نزل وصاح الى

عقيرب قال نعم قال أين فراشو الوزير فناداهم فلما حضروا قال لهم عثمان ان الجندي لما أتى من أرض الشام جاء معه خيام قالوا له نعم قال عثمان وأين موضوعين قالوا له في الحواصل فعند ذلك فتح الحواصل فوجد فيه خيام كثيرة ووجد صيوان سرجويل فقال عثمان لكبير الفراشين ما هذا فقال له يا اسطى هذا صيوان ربيع الدنيا وليس له مثيل فقال عثمان هذا الذي يصلح لنا فقال له هذا الصيوان يلزمه رجال وجمال تحمله فقال ابق هنا حتى آتيك برجال وجمال فحمل درته على كتفه وصار يأخذ الجمال والرجال سخرة بدون أجرة وأمرهم بحمل الصيوان الى بولاق فرفعته الرجال على الجمال وسبقهم الاسطى عثمان الى بولاق وكشف عن رأسه ونادى على الرؤساء بملء صوته وقال يا رجال اما تعرفوني انا الاسطى عثمان فلما سمعت الرؤساء صوته أتوه مسرعين فقال لهم مرادي منكم ان تودوا لي خيمة الجندي الى الجيزة فقالوا له على الرأس ثم العين وهم في الكلام واذ بالجمال قد أقبلت وعليها الصيوان فنقلوه الى الزوارق ثم رجعت الجمال الى حال سبيلها اما الاسطى عثمان فانه وصل الى الجيزة ونزل الصيوان وكان معه عقيرب فقال له يا سيدي ان هذا الصيوان يلزمه رجال تنصبه فقال له عثمان اجلس هنا ثم سار الى ساحل الجيزة واذ بفراشي السلطان قد أقبلت ومعهم صيوان الملك فصاح عثمان على كبيرهم فأتى فقال اعلم ان لنا خيمة أريد منك نصبها فقال سمعا وطاعة وذهب هو ورجاله مع عثمان فوجد الصيوان موضوع قطع على الارض فقال هذه خيمة يا اسطى عثمان هذا يلزمه مائة من الرجال لنصبه فقال له عثمان اجلس هنا لاتيك بالرجال واذ بفراشي الوزير شاهين ففعل معهم مثل فراشين الملك وكذلك فراشين أيبك والقاضي والامراء ولما اجتمعت الفراشين أمرهم عثمان برفع الصيوان فدارت به الرجال فرفعوه فظهر كأنه مدينة مبنية فأوهج لمعانه فقال الفراشين يا اسطى عثمان ان هذا الصيوان يلزمه الف قنديل فقال لهم اذهبوا الى حال سبيلكم فسار الى ساحل الجيزة

وصبر حتى أتى فراشو السلطان فتعرض لهم وسألهم عن تلك الفرش فقالوا له فرش السلطان فقال لهم الملك الصالح معزوم عند الجندي الى الصيوان فسيروا بالمفروشات الى هناك فقالوا سمعا وطاعة وساروا الى الصيوان ثم صبر حتى أتى فراشين الآغا شاهين ففعل معهم عثمان مثل فراشين السلطان وايضا فراشين أيبك وفراشين القاضي وجميع الامراء وبعد ذلك رجع الى الصيوان وفرشه ورتبه حتى صار على أحسن حال ورتب كل شيء قبل ان يأتي السلطان وجميع أرباب الدولة ولما أصبح الصباح أقبل الامير بيبرس الى الجيزة فرأى صيوان سرجويل مضروبا كأنه مدينة على وجه الارض فتعجب من ذلك وغضب ونادى يا عثمان فقال لبيك يا جندي فقال له من أمرك تأتي بالصيوان وتنصبه ثم ان الامير نادى على الفراشين وأمرهم بقلع الصيوان فتركهم عثمان وسبق الى الصيوان وجلس واذ بالفراشين أقبلوا يريدون قلع الصيوان فصاح عليهم عثمان وقال كل من وضع يده على وتد من الاوتاد أعدمته الحياة فرجعت الفراشين وأعلموا الامير بيبرس بذلك فغضب وسار الى عثمان وهجم عليه بالدبوس وأراد هلاكه فهرب منه عثمان وصار يجري والامير خلفه واذ أقبل السلطان والوزراء فارتمى عثمان قدام الشهبة ونادى أنا في عرضك يا مولانا السلطان خلصني من هذا الجندي لانه أراد هلاكي وقال لي ما بقيت تخدم عندي الا اذا عزمت الملك الصالح فقال له هذا أمر قريب يا عثمان سر ونحن معك فسار الملك وأرباب الدولة معه قاصدين الصيوان فلما دخل الملك الى الصيوان انبهر وتعجب وقال للوزير شاهين ما هذا الصيوان يا وزيري فسمع القاضي فقال هذا الصيوان لا يليق الا لك يا ملك الزمان فقال هو لي وأوهبته الى ولدي بيبرس ثم جلس الملك وجلس جميع أرباب الدولة وبقي الصيوان كأنه فاضي ثم ان الامير بيبرس لما جلس الملك خرج من الصيوان ونادى عثمان فقال له لبيك يا جندي قال من أمرك تعزم السلطان وأرباب الدولة ومن أين لنا ان نكفيهم في هذه الليلة فقال له

عثمان ما عليك انا أدبر فتركه عثمان وسار الى طباخين السلطان وقال لهم الملك معزوم عند الجندي ونريد منكم الطعام تأتون به الى الصيوان فأجابوه بالسمع والطاعة وسار الى طباخين الوزير شاهين وقال لهم كذلك وبقية طباخين الامراء ثم هيأوا المأكولات من جميع الاصناف ثم وضعوا الطعام قدام السلطان فمد يده وقال بسم الله فأكلت الرجال حتى اكتفوا فقال الملك اللهم اجعل البركة في أهله ثم خرج الملك من الصيوان وخرجت معه أرباب الدولة لاجل الصيد ومضى ذلك النهار في الصيد والمرح والسرور وثاني يوم أمر السلطان بقلع الخيام ورجع السلطان بأرباب الدولة والنوبة تدق قدامه الى ان وصل الى ديوان قلعة الجبل ورجع بيبرس الى دار الوزير نجم الدين ورجعوا الصيوان الى الحواصل وباتوا ، ولما أصبح الصباح جلس الملك بالديوان وقال للوزير شاهين لبس ولدي بيبرس أمير دعاوي وهي كل من كان له دعوى معروضة للديوان يأخذها منه ويقدمها الى السلطان فلبسه الوزير ووقف بيبرس بباب الديوان فزاد حقد القاضي عليه فبعدما نزل من الديوان وسار الى بيته كتب كتاب واعطاه الى غلامه منصور وقال خذ هذا الكتاب وسر به الى قلعة بورش واعطه الى عزقول وأؤمره ان يعمل بما فيه ثم أخذ الكتاب وسار به الى ان وصل ودخل على عزقول وكان هذا قتل النفس عنده كلا شيء فلما دخل عليه غلام القاضي عرفه وسلم عليه وقال له ما معك من الاخبار فناوله الكتاب فقرأه فرأى خطابا من جوان الى بين أيادي عزقول اعلم يا ولدي حين وقوفك على هذا الكتاب تكون رجلك في الركاب وتأتي الى ديوان مصر وانت لابس ملابس الخواجات التجار واذا دخلت تجد شابا هناك واقفا على باب الديوان فاذا سألك ما معك فاعلم انه هو المطلوب فقل له معي دعوى أريد اقدمها الى الديوان ثم اعطه ورقة مطوية فاذا أخذها واعطاك ظهره فاضربه بحسامك ولا تخف وانا أساعدك على الخلاص فلما قرأ عزقول الكتاب فرح وطاب وكان الغلام أخذ منه رد الجواب وعاد الى استاذه يعلمه بأنه

قأدم فلما قرأ جوان الجواب فرح وجعل ينتظره ، اما عزقول غير ملابسه وسار حتى وصل الى مصر وطلع الى الديوان وقدم دعواه فأخذها منه الامير بيبرس وعاد راجعا واذ بعزقول جرد سيفه وأراد ان يضرب الامير بيبرس واذ بشاكرية لمعت وأخذت رأسه فسقط الى الارض يتخبط بدمه فعند ذلك نهض القاضي وقال ما يحل من الله رجل مظلوم يقتله بيبرس في الديوان فقال الملك انت قتلت هذا الرجل قال لا وحياة رأسك يا مولانا السلطان واذ باثنين من اسماعيل تقدموا بين يدي الملك وقالوا يا مولانا السلطان ان بيبرس ما قتله وما قتله الا نحن فقال لهم الملك ولاي شيء قتلتموه قالوا يا مولانا هذا يسمى عزقول صاحب قلعة بورش ونحن أعرف الناس فيه واثناء تجوالنا في مصر وجدنا هذا فعرفناه فقلنا لا بد انه قاصد يفعل شيء فتبعنا أثره الى ان جاء باب الديوان وقال مظلوم وبيده ورقة فأخذها منه الامير بيبرس وأعطاه ظهره واذ به جرد سيفه ويريد ضرب الامير فسبقناه نحن وضربناه ثم تقدم من رأوه وشهدوا بذلك فقال الملك لقي جزاؤه ثم قال ظهر الحق يا قاضي فقال نعم يا مولاي ان الحق ظاهر مثل الشمس ثم ان الامير بيبرس أخذ الفداوية ونزل بهم من الديوان وسار الى دار نجم الدين وأكرمهم ثم قالوا لبيبرس يا سيدنا هل هذه الدار لك قال لا هي للوزير نجم الدين البندقداري فقالوا له وانت يا سيدنا لاي شيء لم تشتر لك دارا فقال لهم يا اخواني انا مملوك والمملوك لا يملك فقالوا له انت لست مملوكا بل انت ابن ملك وقد ثبت عندنا تاريخ نسبك ونحن في غد نطلع الى الديوان ونخبر الملك في ذلك الشأن فقال لهم افعلوا ما بدا لكم ثم انهم قاموا للنوم الى ان اصبح الصباح وساروا قاصدين الديوان فبينما الملك جالس في الديوان واذ بالاثنين الفداوية وبيبرس داخلين يسلموا ويدعوا فلما رآهم الملك ترحب بهم وأمرهم بالجلوس فقالوا يا أمير المؤمنين ان الامير بيبرس ليس بمملوك وما هو الا من أولاد

الملوك ومثبوت عندنا في التاريخ والنسب فقال الملك يا ولدي بيبرس اذاً أنت حر فقال بيبرس شكرا لله تعالى •

ثم قال الملك للفداوية أريد ان أسمع منكم عن بيبرس وما جرى له حيث انه ثبت عندكم انه حر فقالوا سمعا وطاعة يا امير المؤمنين نعرض لكم يا مولانا ان جد الامير بيبرس كان له ثلاثة اولاد طلعة ولمعة وجمك وكان كبير السن فأراد ان يمتحن أولاده حتـــى اذا رأى منهم من يصلح منهم للسلطنة ملكه فأجلس الاول طلعة وأمره ان يحكم يوما فحكم فأتى ليلا لعند أبيـــه فقال له أبوه كيف رأيت نفسك قال رأيت نفسي مثل السبع الكاسر والدولة حولي مثل الغنم ثم أجلس اخاه الثاني لمعة يوما فحكم الى آخر النهار فقال له كيف رأيت نفسك فقال مثل الصقر الجارح والدولة حولي مثل الطيور الضعاف فلما كان اليوم الثالث أجلس ولده الصغير جمك وسأله آخر النهار كيف رأيت نفسك بالحكم قال يا أبت لقدحكمت بين الناس بالعدل وأنصفت المظلوم من الظالم ولم أخف في الله لومة لائم فقال له ما يصلح للمملكة الا انت ثم جعله وليا للعهـــد دون أخويه فلما رأى ذلك اخوته امتلأت قلوبهم عليه غيظا وقالوا لبعضهم كيف يولي أبونا أصغرنا على العهد دوننا لا بد لنا من هلاك أخينا ثم انهم أظهروا الفـــرح وقلوبهم نار وجعلوا يدبرون المكايد الى ان توفي والدهم وقد تهيأ الفراغ لهم وجلس الشاه جمك على تخت أبيه وأطاعته سائر الجنود وأجلس أخويه وزراء وقال لهم انا وانتم سوية وقد ظن بذلك تصفى له قلوبهما فلما كان في يوم من الايام عمل عليه أخواه مؤامرة وأرادوا ان يبطشوا به فشعر بالمؤامرة وهرب في جنح الظلام وترك الاوطان وسار في البراري والقفار ولم يزل سائرا الى ان وصل الى أرض توريز العجم ومنها الى خوارزم فبينما هو سائر واذ وجد أسدا كبيرا يهاجم رجـــلا طاعنا في السن وهو راكب جواده وهو يستغيث ويستجير وليس له قوة على مدافعة الاسد ولما أقبل عليه شاه جمك نزل عن جواده الى الارض وجرد سيفه وصاح الى

أين يا كلب البر ، اما الاسد فانه ترك الرجل وهجم على جمك فاستقبله بالحسام وضربه وسط جبهته فهوى بجثته الى الارض ثم ان الشاه جمك مسح سيفه في شعر الاسد وتركه وأقبل على الرجل وقال لا بأس عليك يا والدي فقال له لا شلت يداك ثم أخذه وسار به وهو يمدحه ويثني عليه ولم يزالوا سائرين الى ان أقبلوا الى خوارزم ودخل واياه واذ انعقد الى ذلك الرجل موكب عظيم وسار شاه جمك الى جانبه وقد عظم في عينه فقال له يا سيدي لو أخرجت معك بعض الغلمان فقال يا ولدي انني خرجت الى الصيد وكان معي من الرجال سبعون فوقع لنا غزالة فقلت لمن معي ضيقوا عليها واذ بها هجمت ناحيتي فتركت اللجام لاقتنصها فقفزت من فوق رأسي الى الخلا فمضيت خلفها الى ان اقبلت الى ذلك المكان واذ بالاسد خرج عليّ ووقفت أدافع عن نفسي الى ان أعانني الله بك فقال له الحمد لله على سلامتكم ثم انهم ساروا الى الديوان فجلس الملك وأجلس الشاه جمك الى جانبه ثم قال له اعلمني بقصتك فقد ظهرت لي منك بطولة نادرة فأعاد عليه قصته فتعجب من ذلك ثم جعله وزيرا بالميمنة وزوجه ابنته أيق ثم كتب له حجة بالسلطنة من بعده وختمها بختمه ولم يزل مقيما عنده الى ان توفي ملك خوارزم فجلس جمك على كرسي خوارزم وحكم بين الناس بالعدل وصار يكرم الابطال فأحبوه وأطاعوه ورزقه الله من الاولادخمسة ذكور وكان خامسهم محمود أحبهم عند والده فلما كان يوم من بعض الايام خرج الشاه جمك الى صلاة الجمعة ولما قضيت الصلاة رأى أخويه اللذين قدمنا ذكرهما وقد بلوا من الفقر بما لا يطاق فقال لبعض خدامه خذ هذين الرجلين وامض بهما الى الحمام وألبسهما أفخر اللباس وأتيني بهما ففعل ما أمر به الملك وهما لا يعرفان سبب ذلك ثم أتوا اليه بهما وهو جالس فلما وقعت عينيه عليهما نهض لهما قائما وأخذهما بملء الاحضان وأجلسهما الى جانبه وسألهما عن حالهما ولم يبد لهما شيئا مما سبق فقالا له والله يا أخانا ان سبب قدومنا وغربتنا في البلاد انه عز علينا فراقك فتركنا

أرضنا لاجلك وسرنا ندور عليك وقد ذهب مالنا وتكدر عيشنا ، والحمد لله على سلامتك فلما سمع منهما ترحب بهما وأجلسهما وزراء وقد زاد حسدهما وكثر حقدهما وأضمرا له الشر .

وكان سبب قدومهما وفقرهما ان أخاهما الشاه جمك لما ارتحل عنهم وطلب النجاة جلسوا على تخت خراسان وصاروا يحكموا بين الناس بالظلم والطغيان فضاقت قلوب أهل الدولـة منهم وقالوا لا بد من قتلهم كما أفجعونا في أخيهم وأبلونا بما لا نطيـق ، فلما اتفقـوا على ذلك الشأن نهضوا اليهما وقبضوهما وهموا بقتلهما فقالا لهم يا قوم لاي شيء فعلتم ذلك معنا فقالوا لهما اعملوا اننا لا نريدكما علينا ابدا ونحن نولي علينـا من نريد فقالوا أطلقـونا مما نحن فيه الى حال سبيلنا ولا تقتلونا فقالوا لهما رضينا بذلك ثم ولوا عليهم ملكا اختاروه .

اما لمعة وظلعة فضربـوا كل واحد منهم خمسين سوطا وطردوهمـا بعيدا عنهم فخرجوا هاجين الى ان أتوا ذلك المكان واجتمعوا بأخيهـم وأقاموا عند جمك وفي يوم من الايام ذكروا الى أخيهم انهم يريدون الصيد وقالوا يا أخانا نريد ان نأخذ ابنك محمـود معنا فأرسله معهم وأوصاهم عليه وساروا ومعهم خمسون فارسا وقال لهم لا تغيبوا عني كثيرا ثم انهم ساروا حتى تبطنوا في البر فنصبوا خيامهم وأقاموا حتى أمسى المساء ونام الجميع فاغتنموا الفرصة وأوثقوا محمود كتاف وكموا فمه وشدوه على الجواد وركبوا وساروا في تلك البراري والقفار وعند الصباح فاق الفوارس وطلبوا ابن ملكهم ووزراءه فظنوا انهم انتبهوا من النـوم قبلهم وساروا يتصيدون فصبروا الى آخر النهار فما جاء من يخبرهم بخبر فطلبوا البراري وتفرقوا في وسيع البطاح فلم يروا لهم اثرا فرجعوا خائبين واخبروا الملك شاه جمـك بما جرى فلما سمـع ذلك غضب ولام نفسه ولعن أخويـه وسمعت أمه بذلك ولبست ثياب الحداد وبكت وجعلت تندبه . فهذا ما كان من هؤلاء .

اما ما كان من محمود وعمومه فأنهم لما أخذوه وساروا به حتى آمنوا على أرواحهما ممن كان خلفهم فدخلوا مغارة وأراد احدهما قتله فقال له الآخر لا تفعل لاننا على كل حال نحن بغربة وما ندري ما يجري علينا ثم انهم أبقوه مكتف وتركوه في المغارة وذهبوا الى حال سبيلهم •

واما محمود فانه أقام على هذه الحال باقي اليوم والليلة وهو يبكي ويستغيث فبينما هو كذلك واذ مر به رجل من دراويش العجم فلما رأى محمود خلصه مما هو فيه وقال في نفسه آخذه أبيعه في البلاد وسار به حتى وصل الى بورصة فمرض محمود فوضعه في الحمام وصار يتفقده من الميعاد الى الميعاد حتى آن الاوان وكنت قد أرسلت يا امير المؤمنين علي ابن الوراقة فاشتراه وهذا ما كان يا مولانا فلما سمع الملك الصالح ذلك من المقدمين الفداوية فرح وكذلك الوزير شاهين وقال الملك يا ولــدي بيبرس قال نعم قال انزل من الآن واشتر لك بيتا فقال سمعا وطاعة ثم نزل ومعه الاثنين الفداوية وباتوا تلك الليلة وعند الصباح تودعوا من الامير وساروا لحالهم •

اما الامير بيبرس فانه سار طالب جامع طولون ومعه عثمــان ودخلوا الجامع فلما رأت الناس عثمان أخذهم العجب وصاروا ينظرون اليه فقال لهم عثمان ما لكم اني تبت الى الله المتعال غافر الذنوب والآثام وصرت أصلي مثلكم فاطمأنت الناس وقالوا سبحان التواب وصاروا يدعون له بالتوفيق وبعد ان خرج بيبرس وعثمان من الجامع واذ بهم يسمعون مناديا ينادي ويقول عندنا بيت الامير احمد بن باديس السبكي أوله خضرة الحنة وآخــره سوق الصباغين وله اربعة ابواب بأربعة باحات وفيه ساقية ماء بنوافر وفيه خمسون قاعة وغرفة وهي بالنقوش الجميلة فلما سمع الامير بيبرس الدلال ينادي على ذلك المكان قال له من هو صاحب هذا البيت فقال له يا سيدي ان اصحابه اربعة ستات حفيدات الامير احمد بن باديس السبكي فلما سمع الامير ذلك قال سر معنا وأرنا البيت ثم سار الدلال

قدامهم وأقبلوا الى باب من ابوابه الاربعة فتقدم الدلال وفتح باب الخوخة فقال له الامير افتح لنا الباب الكبير فقال يا سيدي ان هذا الباب له مدة ما انفتح ولا يقدر احد على فتحه وان الستات قد أوصوني وقالوا لي اذا رأيت شخصا قد فتح الباب فاحضره الى عندنا فقال له اين المفتاح فأخذه ووضعه بالغال وفتح من غير مشقة فلما رأى الدلال ذلك تعجب ودخل الامير الى البيت واذا به في غاية ما يكون من الاوصاف الحميدة فأعجبه وقال للدلال سر بنا الى اصحابــه فأخذهما وسار بهما الى الستات فلما أقبلوا استأذنوا عليهن فأذنوا لهم فقال لهن الدلال أتيت لكن بمشتر للبيت فقالوا فأين هو فصاح الدلال للامير فطلع وخلفه عثمان فلما عاينوهمـــا قالوا من يريد البيت من هذين الاثنين فقـــال الامير انا الذي أريـــد ان اشتري البيت قالوا له ما اسمك يا فتى قال بيبرس قالوا هذا اسمك الاصلي قال اسمي الاول محمود فقالوا من اي البلاد انت قال من الشام فقالوا مولود بها قال لهم مولدي في ارض خوارزم العجم فقالوا له نريد منك ان تحكي لنا عن حسبك ونسبك فأعاد عليهم حسبه ونسبه فقالت احداهن انت عندك ثمن هذا البيت قال لها نعم فقالت له انت تذكر نفسك بالغنى وما عليك كسوة تذكر تدل عليك انك من اهل الثراء وهذا دليل على انك غير صادق فلما سمع الامير ذلك غضب وظهـــرت له سبعة نقط جدريات وشعرة الاسد بين عينيه فلما نظروا تلك العلامات عرفوهـــا وقالوا له لا تأخذ على خاطرك انا ما ذكرنا لك ذلك الا على سبيل المزاح ومع ذلك اننا بعناك البيت وعرفنا انك صاحب العلامات ونحن في انتظارك وهذه المفاتيح وهذه الحجج وهذه الاوراق التي لاحمد بن باديس السبكي جميعا لك والآن باقي عليك علامة واحدة وهي تمام المعرفة وهي قنطارية احمد ابن باديس السبكي فان قدرت تلعب بها فخذها اليك وهي مطلسمة على اسم بيبرس وكانت هذه القنطارية وزنها مائة رطل مصري فلما سمع ذلك الامير نهض قائما وجذبها بيده فاقتلعها من مكانها مثل العصا ولعب بها

عدة أبواب من ابواب الحرب فلما رأوا ذلـك منه قالوا له انت صاحب الاشارات المرسومة والعلامات المرقومة ونريد ان تبني لكل واحدة منا بيتا وجامعـا يسمى باسمها فاذا ماتت تدفـن فيه فقال سمعا وطاعة وما اسماؤكن قالوا له السيدة عمرته والسيدة مسكة والسيدةلاله والسيدة الخويدرية ثم انهم أعطوه الحجج وأخذ القنطارية ثم انه أرسل عثمـان فأتاه بالقاضي فلما حضر كتب له حجة جديدة وأشهـد فيها على الستات بأنهن بعن البيت الى الامير بيبرس ولما تم البيع أحضر المهندسين وسألهم عن اربعة قوائم في البيت فقالوا هي ركائز ورأى الامير رجلا فقيرا وعليه ثياب رثة وهو جالس منفردا قال للمهندسين هذا الرجـل معكم قالوا لا وانما يسير معنا لاجل الاحسان فأقبل اليه الامير وقال له أليس لك صنعة فقال له نعم مهندس وما انا بسائل وان هؤلاء المهندسين كلهم اتباعي وما منهم الا من يعرفنـي في أول زمانـي فلما عاقني الزمـان ساروا كأنهم لم يعرفوني وانا أقول وحق رأسك ورأس امير المؤمنين ما بنى هذا البيت الا انا وابي وجدي ولا احـد يعرف ما فيه غيري فاعط هؤلاء شيئا من النقود واصرفهم وانا اخبـرك بما تريد فلما سمـع بيبرس ذلك من علي المهندس اكرمه واعطاه وقال له امض الآن الى بيتك وادخل الحمام واشتر بدلة والبسها فاذا كان من الغد تأتي الى هنا قال سمعا وطاعة ثم ان المعلم علي اخذ الدراهم وانفق على بيتـه ووسع عليهم واشترى بدلة فلما كان الصباح سار المعلم علي الى البيت فوجد الامير ومعه عثمان فسلم عليهم فترحب به الامير وأجلسه الى جانبه وقال يا معلم علي أريد منك ان تطلعني على غوامض هذا البيت فأجاب سمعا وطاعة ، ثم نهضوا وتفرجوا على القاعات وكل واحدة بخلاف ما قبلها ولما توسطوا المكان رأوا به دعامة من الارض الى السقف فقال الامير وما هذه فقال المعلم علي هذه دعامـة فقل لعثمان ان يخـرج من هنا لان هذا شيء يلزمه الكتمـان وما ينبغي اظهاره لاحد غيرك فقال عثمان وسرها في مقامها لا اطلع ولا افارقكم فقال

الامير للمعلم علي دعه يكون معنا ثم ان المعلم أخرج من جيبه أزميل ونقر به الحائط وأتى الى الجانب الآخر ونقر ايضا حتى استدل على الباب فنقر وحفر حتى كشفه واذ به باب صغير من النحاس فعالج الباب الى ان فتحه ثم نزلوا فوجدوا قاعتين وأسرة من خشب الساج الهندي المصفح بالذهب ووجدوا تماثيل من نحاس ملونة وعليها من الحلي والجواهر شيء يبهر الابصار وأواني من فضة وذهب وأواني من فخار منقوش بأنواع الزهور ورأوا في الليوان اربعة صناديق وعليها الاقفال والمفاتيح فتقدم الامير وفتحها واذ بها قطع من الذهب والفضة وكان عثمان يتفرج وجعل يأخذ من كل صندوق شيئا ووجدوا سروجا محلاة بالذهب وسيوفا وأتراسا محلاة بالذهب ثم صعدوا من المكان وأنعم الامير على المعلم علي المهندس بانعام زائدة وأمره بهندسة المكان وتصليحه فأخذ الامير ما أراد وطلع وأغلق الابواب وصار يوصي عثمان بالكتمان .

اما عثمان فانه خرج من البيت وسار الى باب الديوان وصبر حتى نزل القاضي وأيبك وقال لهم انظر يا قاضي انت وأيبك ما لقينا فقال له القاضي أرني يا شيخ عثمان فأخرج له من الجواهر أصناف فقال حدثني اين وجدتم هذه الخيرات فقال اننا اشترينا بيت باديس السبكي فوجدنا فيه هذا وجعل عثمان يصف للقاضي ما وجدوا في البيت ثم تركهم ومضى.

اما أيبك فقال للقاضي ان بيبرس محظوظ فقال له القاضي اصبر واعلم انه قرب هلاكه واني أبشرك اني سأخلصه هذا البيت ويكون لك ، اما الملك فبينما هو جالس واذ بالقاضي وقف وقال يا مولانا ان ولدك بيبرس قد اشترى بيت احمد بن باديس السبكي ولقي فيه كنزا كبيرا فبينما هم كذلك واذ بالامير بيبرس حضر فقال له الملك أحق انك اشتريت دار احمد ابن باديس السبكي قال نعم يا مولاي فقال ان القاضي يقول انك لقيت فيه كنز قال بيبرس انا ما رأيت شيئا فقال القاضي انا اخبرني بذلك عثمان وأراني بعض الجواهر وشهد بذلك الوزير أيبك فقال الملك سر وأتني

بعثمان ثم سار بيبرس الى عثمان فقال له انت قابلت بالامس القاضي وأيبك واعلمتهم بما لقينا فقال عثمان نعم فتأسف الامير وقال اما أوصيتك بالكتمان والآن طالبك الملك فاذا سألك انكر وقل له ان القاضي كذاب ونحن ما رأينا ولا لقينا ولا معنا خبر فقال عثمان نعم ثم ان الامير سار بعثمان وطلع الى الديوان وسلم فقال له الملك احكي لنا ما لقيتوا وماذا جرى يا عثمان فقال صلينا الجمعة انا والامير بيبرس في جامع طولون وطلعنا قابلونا الدلالين وفرجونا على بيت احمد بن باديس السبكي ورحنا لعند اصحابه الستات فباعوا البيت للجندي فأتى المهندس علي فقال له انا اعرف اسرار هذا البيت وفتح له المحلات فدخلنا ورأينا تحف وأواني وصناديق ملآنة بالذهب والفضة وخيرات كثيرة فقال القاضي والكنوز للسلطان قال الملك وانا وهبتها الى ولدي بيبرس وهبة كريم لا يرد في عطاءه فقال القاضي يا مولاي ان هذا البيت كبير والاولى كل واحد من الدولة يأخذ منه قسما فقال الملك يا بيبرس بكم اشتريت ذلك البيت فقال يا امير المؤمنين اشتريته بهذه القنطارية وكل من كان له مقدرة يلعب بهذه القنطارية أعطيته شيء من البيت يعمله لنفسه فقامت الامراء والرجال كل في دوره فما قدر احد يلعب بها ثم قام الامير بيبرس ولعب بها مثل العصا أوفى من عشرين باب من أبواب الحرب فقال الملك هنيت بما أعطيت والله يا حاج شاهين يستاهل انزل يا ولدي بيبرس واعمل لنا عزومة في بيت احمد بن باديس السكبي لنتفرج عليه فقال سمعا وطاعة ثم ان الامير بيبرس قال لعثمان ائتيني بشيخ الفراشين وشيخ العشية بسرعة فسار عثمان وأتى بهم فلما حضروا بين يديه قال لشيخ الفراشين اعمل جهدك في هذا النهار نظف البيت واحضر فرش ممتازة تكون تليق بجلالة الملك ووزرائه ويكون كل شيء منتهي اذان العصر وخذ قد ما طلبت من المال ثم قال لشيخ العشية أريد من المأكولات من جميع الاصناف من حلويات وطبخ وتكون ممتازة وبسرعة وخذ ما أردته من المال ثم انهم بدأوا بأعمالهم

بهمة فالفراشين صاروا يرتبوا والعشية يهيئوا الطعام فهذا كان واما ما كان من المأكولات فعلى الصواني مما لذ وطاب فتقدم السلطان وسمى بسم الله يحصل لنا السرور وتكون جبر خاطر فقال الوزير أمرك يا امير المؤمنين ثم قام السلطان وأرباب دولته وساروا الى ان وصلوا الى البيت فدخلوا اما الملك فصار يتأمل ويتفرج على الاماكن وصناعة المهندسين الى ان وصل الى القاعة المعدة له فأعجبته فجلس السلطان والوزراء كل على قدر مرتبته فدخلت الفراشين ووضعوا الكراسي وأطباق النحاس والعشية وصارت تضع المأكولات على الصواني مما لذ وطاب فتقدم السلطـــان وسمي بسم الله وكذلك الوزراء وجعلوا يأكلون ويتحدثون وبعد نهاية الاكل والشرب قال الملك اللهم اجعل هذا البيت عامرا بما فيه وبعد ذلك أراد الانصراف ثم انه ركب ومشى الامير بيبرس بركابه والوزير شاهين بالميمنة وأيبك بالميسرة وما زال السلطان سائرا حتى دخل شارع السيدة زينب رضي الله عنها فنظر الخشب ممدودا على الخليج والناس تمر عليها بصعوبة فقال الملك يا آغا شاهين يحتاج هنا الى قنطرة ثم التفت الى بيبرس وقال له ابني هنا قنطرة وابني هنا حارة بدكاكينها وبيوتها ولما وصلوا الى الديوان في قلعة الجبل جلس السلطان على تخته وأمر الوزير ان يكتب الامر والاشعـــار الى بيبرس بعمارة القناطر وعمـــارة قيصرية بدكاكين وبيوت كاملة وبعد ذلك نزل الامير بيبرس من الديوان فتلقـــاه عثمان وقـــال ماذا جرى يا سيدي قال له أمرني الملك بعمارة حارة ودكاكين اذهب واحضر لي المهندس علي فأحضره الامير الى مقام السيدة زينب وقال له ان السلطان أمرني ان أبني هنا قنطرة فقال المهندس ان الطريق هنا أعوج فاذا كان ولا بد فيكون قنطرتين فقال بيبرس افعل الذي يوافق فعقد قنطرتين فسموهم العوام قناطر السباع واجتهد الامير في بناء الحارة والدكاكين حتى انتهت الحارة من البناء فأنعم على المهندسين وارباب الصنائع فشكروه ثم قال بيبرس يا عثمان احضر لي بقالين وجزارين وعطارين وزياتين وقهوجي وغيرهـــم

فأتى عثمان بما طلب الامير وقدمهم اليه قال لهم الامير بيبرس كل واحد منكم له دكان وبيت يسكنه مع عياله ومعـاف من الاجرة ثلاث سنوات وكل واحد يأخذ مني خمسين دينارا على شرط ان لا يكون في بيعكم وشرائكم غدر او أذى لاحد وتكون بضائعكم نظيفة ومعتدلة الاسعار واذا سمعت انكم غشيتم او غدرتم احدا فان الفـاعل منكم مطرود من الدكان والبيت وتصادر امواله فسكنـوا فيها وامتلأت الدكاكين وكانوا يزيدون على التسعين وفوقهم أماكن للسكن وصارت حارة ما لها مثيل اما القاضي فانه سمع بهذه الحارة التي أنشأها بيبرس فقال لا بد ان اتفرج عليها ثم ركب بغلته وسار الى ان دخل تلك الحـارة فرأى فيها كل شيء حسنا من بيع وشراء ونظافة واتقان فحسده ولكن كتم ما به من الحقـد والحسد حتى انتهى الى آخر الحارة ثم قال لغلامه والله ضاقت بي الامور يا منصور أريد منك ان تحضر لي الوالي حسن آغا وكان له صداقة متينة معه فسار منصور وأحضره فلما حضر أجلسه وأكرمه وقال له انا اعتمد على صداقتك ولي عندك حاجة أريد قضاءها ولك مني ما تريد قال وما هي يا سيدنا فقال له اما تنظر ما فعل بيبرس وكيف انه بنى حارة فأريد منك يا ولدي ان تجتهد في حرقها وتصبح خرابا حتى يطمئن خاطري فقال له الوالي اطمئن انا احرقها لك واتفقوا على ذلك وكان هذا الوالي على اتفاق مع المقدم مقلد حارس ابواب مصر فأرسل أحضره وأكرمه وأحضر الوالي الخمر وقال يا مقدم انت نديمي وانا احبك لانك شجاع ففرح مقلد بهذا الكلام وتعاطوا المدام وبعد ذلك دار بينهما الكلام فقال الوالي يا مقدم مقلد انا لي عندك حاجة فلا احد يقدر يقضيها غيرك فماذا تقول فقال له وما هي الحاجة حتى ابذل مهجتي في قضائها فقال له ان الولد بيبرس مملوك الملك الصالح بنى حارة وأظنك رأيتها أريد منك ان تحرقها وتجعلها خرابا ولك منيماية دينار فضحك المقدم مقلد وقال له يا امير هذا هين وأقرب ما يكون عندي ثم انه نزل بعد ذلك الاتفاق وكان هذا مقلد يبغض

الاسطى عثمان فصاح على غلامه فضه وأعطاه كتاب وقال له سر الى كفر الجاموس وأسأل عن شيخ العرب حرحش واعطه هذا الكتاب فأخذ الكتاب وسار به الى ان وصل الى دار حرحش فأعطاه الكتاب فقرأه واذ فيه من المقدم مقلد قائد درك بوابات مصر الى ولدنا شيخ العرب حرحش حال وصول كتابنا اليك تحضر انت ورجالك لاننا في أمس الحاجة اليك فلا بد من حضورك والسلام فلما قرأ حرحش الكتاب قال للغلام سر اليه وقل له ينتظر يومين أكون عنده فعاد الغلام واعلم سيده بما قال ولما أقبل حرحش استقبله مقلد وسلم عليه هو ورجاله وأكرمهم غاية الاكرام ثم ان مقلد قال لحرحش هل تعلم لاي شيء أرسلت اليك قال له اعلمني فحكى له على حرق حارة بيبرس فقال له هي في اي مكان فقال له انها بجوار السيدة زينب قال يا مقدم هذا شيء قريب ولكن لو كانت في غير جوار السيدة زينب لقمت بهذا العمل فلما سمع المقدم مقلد كلامه اغتاظ وقال دع الوزر يبقى علي وافعل ما أمرتك به فقال سمعا وطاعة وامتثل ولكن على مضض ولما تقرر الامر بينهما أمر مقلد غلامه ان يأخذ اثنين من رجال حرحش ويمضون الى حارة بيبرس وينظرونها فساروا حتى دخلوا الحارة وتأملوها وقالوا لبعضهم هذا المكان لا يمكن حرقه بالنهار فاذا أتى الليل نعود ونعمل شغلنا ثم انهم رجعوا واعلموا المقدم مقلد وشيخ العرب حرحش بما اتفقوا عليه وان هذا الامر يكون في الليل ومن لطف الله انه كان رجل خياط نائم في أرض الدكان هربا من الحر وقد وقفوا امام دكانه وهو يسمع ما قالوه وما اتفقوا عليه بحرق الحارة هذه الليلة فصبر حتى مضوا وسار الى الاسطى عثمان وقال له انا كنت نائم في دكاني فما شعرت الا وثلاثة رجال وقفوا امام دكاني وانا أراهم وهم لا يروني واتفقوا على حرق الحارة في هذه الليلة وها أنا أتيت أعلمتك بهذا الامر فلما سمع عثمان ذلك تعجب وقال للرجل اذهب ولا تذكر هذا الامر لاحد ثم ان عثمان أرسل الى البوابين وقال لهم امضوا الى بيوتكم هذه الليلة وقال لاهل

الحارة لا تشعلوا القناديل فقالوا أمرك وبعد ذلك جمع عثمان رجاله وقال لهم انا صار لي خبر ان جماعة مرادهم يحرقوا حارتنـــا فكونوا حاضرين ونقفل البوابة ونفتح الباب الذي في قلبها ثم اننا نقف من خلفها ونكون صفا جانب بعضنا حتى اذا دخل الغريم أتلقاه وأضع يدي على فمه وأسلمه الى الذي بجنبي وهو يسلمه للذي بجنبه حتى يصيروا داخل البيت الجواني ثم وقف عثمان هو ورجاله منتظرين الخصم اما شيخ العرب حرحش ورجاله فانهم ساروا الى ان وصلوا الى الحـــارة وكانـــوا محضرين قوارير نفط وقراطيس وكبريت فوجدوا الحارة مظلمة وبوابتها مقفولة فقال حرحش نحن بلغنا المنى نقضي شغلنا ولا أحد يرانا فأرسل رجل وقال له اكشف لنا الخبر فقال سمعا وطاعة فدخل من باب الخوخة وكان عثمـــان يسمع ما يقولون ومنتظر ما يفعلون فلما دخل الرجل واذ بعثمان يضع يدا على فمه ويدا على ظهره وناوله للذي بجنبه والآخر أعطاه للذي بجنبه وهكذا حتى أوصلوه الى حوش البيت الثاني وكتفوه اما حرحش لما مشى الرجل لم يسمع له خبر فبعث رجل ثاني كان عثمان تلقاه ولحقه بأخاه ثم ان عثمـــان صفر فظنوا ان الذي صفر لهم رفيقهم وكان عثمان يتقن هذا الفن فصاروا يدخلون وعثمان يتلقاهم هو ورجاله حتى أخذوا الخمسين ولم يبق الا شيخ العرب حرحش ينتظر خبر رجاله فصفر له عثمان فصفر الآخر فصفر عثمان ثانيا فظن حرحش ان رفقاءه يريدونه ان يدخل فتقدم الى البـــاب ودخل واذ بعثمان قبض عليه وأداره كتاف ثم سحبه الى الحوش الجواني وأمر عثمان ان توقد القناديل فأوقدت وصاحـــوا بصوت واحد نحن في جيرتك يا أسطى عثمان واذ بالامير بيبرس يسمع الصراخ فنزل يجـــري فرأى رجالا مكتفين فقال بيبرس ما الخبر فقال له عثمان ما لك وما الخبر انت خليك بحالك فتقدم الامير الى كبيرهم وقال له من تكون انت فقال له انا شيخ العرب حرحش وهؤلاء رجالـــي وانا من كفر الجاموس وقد أتيت الى هنا لأحرق هذه الحـــارة وما رمـــاني في يـــدك ويد عثمـــان

الا كرامة السيدة زينب لانها مكرمة جارها ثم أعاد عليه القصة فلما سمع الامير ذلك حمد الله تعالى فقال له يا حرحش ما تستحقون من الجزاء على أعمالكم قال يا سيدي لا نستحق أي جزاء لاننا صرنا من المحسوبين على حضرة السيدة زينب الذي أنت مجاورها فقـال له تتوب أنت ورجالك فقال يا سيدي أنا تبت لله فقال الامير أطلقـه يا عثمـان ورجاله فقال يا سيدي ان كنت عفوت عني فاقبلني لك خادما انا ورجالي فقال له بيبرس مرحبا بك تسلمه يا عثمان ورجاله وقد تاب الجميع توبة نصوحا اما الوالي فصار عنده خبر ان قناديل حارة بيبرس ما شعلت الليلة الماضية فتوجه اليها مع رجاله فكان اول دكان زيات فقال له الوالي لاي شيء ليـلة امس لم تشعل القنديل قال له ان الاسطى عثمان قال لا تشعلوا القناديل وروحوا الى بيوتكم قال له واين عثمان ثم ضربه علقة وانتقل الى غيره وهكذا الى آخر الحارة فقالوا لبعضهم نحن ما كنا طفينا القناديل الا بأمر عثمان والآن الوالي جاءنا وضربنا نحن نروح الى الامير بيبرس ونشكو له حالنا ثم جمعوا بعضهم ومضوا الى البيت ودخلوا على الامير وسلموا عليه فقـال ما تريدون قالوا ان الوالي جاءنا فيهذا النهار وضربنا لعدم اشعال القناديل ليلة امس فقال لهم بيبرس اعلموا ان الوالـي لا بد له من الطواف على الحارات وايقاد القناديل بالليل لازم ولكن حيث جئتم وشكيتم لي فأنا أكلمه وأمنعه عنكم فانصرفوا ثم ذهب الى الوالي وكلمه بذلك فوعده خيرا ولكن لم يف بوعده فلما كان ثاني يوم ركب الوالي على جواده فقال له مقدم الرجال الى اين قال الى حارة بيبرس فقال المقدم ما بقي في مصر الا هذه الحارة وما ذنب الذين قاعدين في الدكاكين ولماذا ضربهم وهم ناس مساكين فقال الوالي امشي يا مقدم بلا كثرة كلام فساروا الى ان وصلوا الى الحارة وتقدم الوالي الى الزيات وقال له أمرتك ان تشعل القنديل شعلته فقال له نعم وهو شاعل الى الآن فقال له هذا عالي قـال لاجل ما يطوله الجمل فقال طيب ما ترش الماء والوقت صيف قال له أمرك نرش

ثم التفت الى الرجال وقال ارموه فضربه علقة واتتقل الى الآخر وكان عطارا وقال له ارني علبة القرنفل فأتاه وأخرج منها حبة وقال له هذا القرنفل أعوج قال له أرني القرنفل عند غيري كيف يكون قال الوالي وهل انا كذاب ارموه وضربه علقة ثم التفت الى البقال وقال له يا رجل ان لبن الجاموس أبيض ولاي شيء السمن أصفر قال ان الله على كل شيء قدير فقال له انت غشاش ثم قال ارموه وضربه علقة وهكذا الى ان أتى على أهل السوق جميعا ونال كل واحد علقة بتعليل باطل فضاقت صدور أهل الحارة وقالوا نحن ندخل ثانيا الى عند الامير اما ان يمنعه عنا واما نعزل من هذه الحارة قال رجل منهم الصواب اننا نروح الى الاسطى عثمان ونحكي له ثم انهم اجتمعوا كلهم وراحوا الى عثمان وقالوا نحن أولاد حارتك وكل يوم يأتينا الوالي ويضربنا بلا ذنب اول مرة تعلل علينا بالقناديل وانت قلت لنا لا تشعلوا قناديل وثاني يوم تعلل علينا بالباطل وضربنا علقات فقال لهم لاي شيء ما جئتم اليّ من الاول قالوا الحق علينا قال هاتوا الحق وأنا أرده عنكم قالوا له وما تريد قال بسيسة بالسمن البقري وعسل النحل قالوا أمرك فجابوا له قصعة بسيسة بعسل النحل والسمن البقري عايم فلما رآها عثمان قال هذه أكلة مليحة ولكن الذي يأكل الخاروف لازم يحمي أمه ثم التفت الى اولاد الحارة وقال لهم اذا رأيتم الوالي دخل الحارة قولوا عباية عباية وبعد ذلك الزموا مكانكم وهذا الذي عليكم فقط قالوا سمعا وطاعة وانصرفوا واذ بالوالي ركب فقال له المقدم الى اين قال الى حارة بيبرس قال ما بقى لنا شغل الا هذه الحارة فصاح فيه الوالي وساروا الى ان دخلوا الحارة وأقبل الوالي على الزيات وقال يا زيات فصاح الزيات عباية عباية فصاح أهل السوق معه عباية عباية فلم يشعر الوالي الا والسياس محتاطين به وبجماعته من كل جانب وكل واحد مسكوه خمسة وعروهم من ملابسهم وأتى عثمان الى الوالي وقال له ما جاء بك لحارتنا فقال له الوالي لا تتدخل فيما لا يعنيك

فلم يرد عليه جواب الا بالنبوت حتى رضرضه ثم عراه من ثيابه وأخذه الى دكان الصباغ وغطسه في جرن الصباغ فطلع كالعبد الاسود وأركبه الحصان على المقلوب وضرب كل واحد من أتباعه ثلاث ضربات وقال لهم سيروا أمام الوالي وأنتم عرايا وأرسل السياس وراءهم يصفقون ويصفرون والناس عليهم يضحكون حتى أخرجهم من الحارة بعيدا وعادوا راجعين ففرحت أهل الحارة بما جرى على الوالي وجماعته وشكروا عثمان فقال عثمان لأهل الحارة لا شفنا ولا رأينا فقالوا سمعا وطاعة واما الوالي وجماعته فانهم ما زالوا بطريقهم قاصدين الديوان بتلك الحالة واذ بالوزير أيبك والقاضي نازلين من الديوان فلما رأى أيبك الوالي والناس مجتمعين عليه وهو على تلك الحالة قال له من فعل بك هذه الفعال فأخبره فالتفت الى القاضي وقال له انظر فعل بيبرس فقال له قل الى جماعة الوالي ضعوه غدا في تابوت وأحضروه الى الديوان ولما كان ثاني الايام جلس الملك في الديوان واذ طالعين خدام الوالي وهم حاملين تابوت وعليه سيدهم قال الملك الصالح يا آغا شاهين هنا تربة فقال الوزير ما الخبر يا ناس قالوا له يعيش رأس مولانا السلطان بالوالي حسن آغا فقال الملك فلماذا لا تدفنوه قالوا مات قتيلا وقتله عثمان وبيبرس فقال القاضي هكذا يجري القتل جهارا يا مولانا السلطان حتى على أتباعك ان هذا لا يرضي الله ولا العباد فقال الملك اطلبوا لنا بيبرس وعثمان فأرسل الآغا شاهين بطلب بيبرس وعثمان الى الديوان فقال بيبرس الى المرسل اليه ما الذي جرى فقال له ان الوالي مات وطالعوه الى الديوان وقالوا أنت الذي قتلته فالتفت الى عثمان وقال ما عملت مع الوالي قال له ما ضربته الا ثلاث ضربات بالدرة وعريته وغطسته في جرن الصباغ وركبته حصانه على المقلوب ورجاله عريتهم ومشيتهم قدامه الى ان بعدوا عن الحارة فقال بيبرس ما عمل الوالي قال عثمان الوالي هو الذي ضرب الناس من دون ذنب فقال بيبرس الوالي مات وطالعين به الى الديوان والسلطان طالبنا انا واياك فقال عثمان الى

جهنم وبئس الشتات نحن لا شفنا ولا رأينا فقال له الامير أوعى تعتــرف يا عثمــان قال خلاص ، اما قلت ما شفت ولا رأيت ثم سار بيبرس الى الديوان وقال الملك يا بيبرس أنت قتلت هذا الرجل قال بيبرس أنا يا أمير المؤمنين لا اعلم بشيء من ذلك ابدا قال الملك ومن قتلــه قال القاضي يا مولانا عثمان الذي قتله قال ائتونا بعثمــان حتى نشوف لماذا قتله وكان عثمان بعدما توجه بيبرس الى الديوان جمع اولاد الحارة وأخذهم وسار امامهم حتى قربوا من الديوان واذ ببيبرس مقبل قال يا عثمان أجب أمير المؤمنين قال حاضر وطلع الى الديوان فسلم وبأفصح لسان تكلم قال له الملك انت قتلت الوالي يا عثمان قال اسأل سكان الحارة فسألهم فقالوا له عما جرى عليهم من الوالي وجوره وضربه لهم فقال له الملك وانت يا عثمان ما فعلت قال يا مولاي ان الوالي أرسل لنا جماعة مرادهم يحرقوا الحارة فلما صار لي خبر بذلك قلت للسكان اذهبوا الى بيوتكم الليلة ووقفت انا ورجالي مسكناهم فقام الجندي خلصهم وتوبهم وخدمهم عنده فنقم الوالي على أهل الحارة وصار يضربهم ويسبهم من دون سبب فقال الملك وسيدك حاضر قال سيدي لا يعلم شيء قال الملك يا عثمان ان القاضي قال الرجل مات فقال عثمان ان كان مات انقضى عمره وان كان لم يمت أكمل عليه ثم ان عثمان وثب مثل الاسد واخرج سكينا وتقدم الى التابــوت وضرب الوالي أفرى بطنه فصاح الوالي من الالم ومات، فلما سمع السلطان صرخته قال هذا ما كان ميتا وكيف تقول يا قاضي انه مقتول كأن ديواني صار مهزلة فقال القاضي انا ما رأيته لما قتل ولكن جماعته قالوا ، قال الملك خذوه من هنا وادفنوه والآن انظروا لنا واليا مكانه قال القاضي يا امير المؤمنين لا يصلح لهذا المنصب الا ولدكم بيبرس قال السلطان لبيبرس قد جعلتك واليا على مصر تحكم بالعدل والانصاف فعند ذلك قبّل يد السلطان وخرج والخلعة على كتفيه فاستقبله عثمان وقال له مبارك يا جندي خير ان شاء الله قال له لبست والي مصر قال عثمان اذا كنت تريد ان اكون على

عهدي معك اكون انا والي مصر الصغير وهذه الخلعة تكون على اكتافي واركب حصان عقيرب على يميني وحرحش على شمالي والثمانون سائسا قدامي ينادون في الموكب ان الجندي بيبرس هو والي مصر الكبير والاسطى عثمان هو الوالي الصغير فعندما سمع الامير منه ذلك رفع الخلعة من على اكتافه ووضعها على اكتاف عثمان وقال له افعل ما تريد وانعقد لعثمان ذلك الموكب من القلعة الى بيت الامير بيبرس والناس يباركون لعثمان .

اما الامير بيبرس فانه ركب حصانه وسار وحده الى ان اقبل الى داره فبينما هو جالس واذا بالخدامين الذين كانوا يخدمون الوالي السابق قد أقبلوا وسلموا فقال الامير من أنتم قالوا نحن خدامين الوالي السابق جئنا نأكل عيشنا عندك يا امير فقال لهم انا عندي خدامين ولست محتاجا لكم ثم قال لهم وهل كان لكم راتب على الوالي السابق فقالوا له ليس لنا عليه من شيء فقال لهم ومن اين تجيبوا معيشتكم قالوا له من قطاعي الطرق ولعابي القمار والنشالين وبياعي الخمر وما أشبه ذلك فقال بيبرس هؤلاء الذين ذكرتموهم كيف تعرفون محلاتهم فقالوا كل حرفة لها رأس ورأس الجميع المقدم مقلد صاحب درك البوابات بمصر قال اذا صار لكل واحد منكم معيشته هو وعياله وما يلزمه من كسوة ماذا تقولون فقالوا له اذا كان الامر كما ذكرت فهو أحسن ما يكون لنا قال لهم ولكن على شرط انكم تتوبوا عن الاعمال السابقة وتصلوا وتصوموا ، اما اذا اكتشف لي عليكم أمر يغضب الله فلم يكن عندي لكم الا الجزاء الصارم فقالوا رضينا فقال ائتوني بعثمان ولما حضر حكى له العبارة فقال لا بأس فأخذهم عثمان وتاب الله عليهم وساروا تحت أمر عثمان ورتب لهم معاشات ثم ان الامير بيبرس قال يا عثمان من هؤلاء المجرمون الذين ذكرهم خدام الوالي السابق قال عثمان اذا أردت ان تعرفهم فان رئيسهم مقلد وكلهم تحت أمره

واذا سألك عني فقل له ان عثمان سايس وليس له عندي شغل الا خدمة الحصان وانا اخلي بالي معك .

اما الامير بيبرس فانه صبر الى ان اقبل الليل وركب واخذ عثمـان معه ودار البلد شرقا وغربا وبعد نصف الليل وصل الى مقـر مقلد فرآه جالسا كأنه النمر وعليه الملابس الفاخرة والرجال بين يديه وقوف فلما أقبل الامير بيبرس اليه لم يقم له ولم يسأل عنه من شدة تكبره وتجبره فتعجب الامير من ذلك فسأل عثمان من هذا قال هذا المقدم مقلد كبيرنا كلنا الذي ما يجري شيء في مصر الا ويكون بمعرفته وكل أولاد الحرام والاشقياء من تحت يده ، فلما سمـع الامير بيبرس ذلك زاد به الغضب وأضمر له الشر فأقبل عليه وسلم قال مقلد انا لا اعرف سلام قل ما عندك يا ولد انت الذي لبست والي قال بيبرس نعم يا ابي قال مقلد انت الذي توبت حرحش وجماعته وعثمان وجماعته قال نعم قال مقلد كن أنت من اتباعي فأرتب لك كل ما تحتاجـه قال بيبرس انا ما جئت الا لاراك وأنتفع بمعرفتـك اذا رضيت بي اكون كأمثالي ولا يغرك اني والي فأنا لم اخالفك في امر قال المقدم مقلد اما دخولك عليّ في محلي فمرحبا بك وانا انفعك فاذا كنت متجولا بالليل ووقع في يدك شخص من جماعتي أطلقـه مهما كان عاملا ومصروفك انت وجماعتك عليّ فان طاوعتني جمعت الاموال وان خالفتني تندم قال بيبرس رضيت بذلك ولكن يا ابي انت وجماعتك كثيرون يمكن اني امسك واحدا يكون من جماعتك فأظنه كذاب وامسك احد ثاني يقول انه من جماعتك وهو كذاب فأطلقه فكيف يكون الرأي فقال مقلـد انا احضر الطوائف التي عندي حتى تراهم وهم يرونك فقال بيبرس حاضر يا ابي اجمعهم وتعال الى عندي وعرفني بهم فقال مقلد اصبر ثلاثة ايام حتى اجمعهم فقام بيبرس ورجع الى منزله قال الامير اريد منك يا عثمان اذا جمعت الطوائف لا ينفذ منهم احد حتى اتوبهم ثم بعد ثلاثة ايام أقبل المقدم مقلد على بيت الامير بيبرس فاستقبله بالترحاب والعز والاكرام ثم

جلس هو واياه في المقعد الذي يطل على الحوش قال له بيبرس أتت الطوائف يا ابي فقال مقلد نعم قد حضروا وإذ بخمسين امرأة لابسين حبرا وراكبات حميرا وكل واحدة منهن لها خديم ففتح لهم عثمان محلا وأجلسهم فيه واذا بفرقة ثانية نحو سبعين امرأة بالازر البيض فادخلهن الى مكان آخر وبعد ذلك أقبلت طائفة فتيان وأقبلت طائفة أولاد صغار وبعده طائفة رجال وبعدهم نساء عجائز وبعدهم شيوخ بعمائم حتى امتلأت اماكن البيت فقال له بيبرس يا ابي هل يوجد غيرهم فقال مقلد اما الذين في مصر حضروا واما الذين في دوايرها فلم يحضروا فقال مقلد هات يا عثمان طائفة طائفة فعرض عليه النساء أرباب الحبر فقال بيبرس ما هؤلاء يا ابي قال هذا بقر الوحش لهم بيوت في الحارات تطلع الواحدة منهم تحط عينها على الرجل الذي تراه مليان بالمال والملابس فتسايره حتى يروح معها الى بيتها وتسقيه الخمر حتى يغيب فيطلع خديمها ويضع على فمه مخدة ويقعد عليه حتى تخمد أنفاسه وبعدها يواروه بحفرة في بيتها قال بيبرس خذهم يا عثمان واحضر غيرهم فأحضر أرباب الملايا فقال وهؤلاء قال مقلد هذا البقر السارح تسرح الواحدة منهن حتى يقع بها واحد منحوس يدخلها بيته فتشرب الخمر هي واياه وتضع له مع الخمر أفيون او ما اشبه ذلك حتى لا يعود يعي فتأخذ كل ما قدرت عليه من البيت وتطلع وتتركه مرميا قال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر ربات الازر البيض فقال بيبرس وهؤلاء فقال مقلد هذا بقر الحليب وهؤلاء يخرجون ايام الاعياد وينحشرون في الازدحام ويأخذون ما في جيوب الناس ويمرون على التجار في صورة مشترين البعض يقلب والبعض يسوم حتى يجدوا فرصة ويسرقوا ما قدروا عليه فقال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر الفتيان المرد فلما رآهم بيبرس قال يا أبي وهؤلاء قال هؤلاء علوق وحرامية قال خذهم وهات غيرهم فأحضر عثمان الاولاد الصغار فقال وهؤلاء قال مقلد أولاد كار يعني ابن الكار يأخذ واحدا من هؤلاء الاولاد ويمشي في

الطريق حتى ينظر من في جيبه صرة فيضرب الولـد كفا فيجري الولـد ويدخل في حضن الرجل ويقول انا في عرضك يا عم فيشفع به ويخلصه من يد الرجل وتكون قد طارت فلوسه قال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر النساء العجائز فقال بيبرس ومن هؤلاء فقال هؤلاء يدخلون البيوت في صفة مشبخة وهم يسرقون مع اعتقاد النساء فيهن أنهن من أهل الفضل والبركات وبعدهم أحضر دقاقين العملة المزيفة ولعابين القمار وآكلي الربا وغيرهـم ولما عرضت هذه الطوائف على الامير بيبرس قال لعثمان اعرض على الجميع التوبة فالذي يتوب لا بأس والذي لا يتوب ضع في رجله قيد حديد فنزل عثمان وقال يا جماعة ما قولكم في التوبة فقالت النساء وكيف تتوب وعلى كل واحدة منا خمسة محبوب جعل للشيخ مقلد شهرية فقال عثمان هذا مرفوع عنكم ولا احد يطالبكم بشيء ابدا فتابت النساء وكذلك الرجـال تابوا فأمر الامير بيبرس ان كل امرأة تختار لها زوجا من الحاضرين وأعطى لكل رجل وامرأة ماية محبوب وقال لهم اتركوا الفساد وعليكم بالتقوى واذا خالف أحد منكم لقي الجزاء الصارم اما عثمان فأوقد النار وكواهم على يدهم الشمال وقال لهم هذه علامة التوبة وكل من وقع بعد ذلك في معصية ما جزاؤه الا الموت وانصرفوا جميعا اما الاولاد الصغار فكساهم وأدخلهم المدرسة وكل هذا يجري والمقدم مقلد ينظر ويرى فالتفت الى الامير بيبرس وقال له انت توبت كل هؤلاء الناس فمن أين تأخذ مصاريفك انت ورجالك قال الامير بيبرس يا شيخ كم سنة عمرك قال مقلد عمـري ثمانون سنة قال بيبرس اما عبدت ربك بهذا الزمن قال ما دخلت جامعا قط ولي ستون سنة أقطع الطريق وأخون الرفيق ولا أعرف عهودا ولا مواثيق وكل الطوائف تحت يدي وكل وال أتى يوافقني وما عصى أمري غيرك قال له بيبرس يجب عليك أنت الآخر ان تتوب وترجـع عن هذه العيوب وتطيع علام الغيوب قال مقلد وهل تظن اني كمثل هؤلاء الناس أنت قليل عقل وخفيف رأس انا عندي خدام مثلك كثير لم يخطروا لي على

بال ولكن ما بقى لك عندي بعد هذا الا قتلك وجرد سيفه وضرب الأمير بيبرس فاتقى الضربــة بالدبوس فانكسر السيف فعند ذلك قــام الامير وضرب مقلد بالدبوس على صدره أرماه وكتفه عثمان وكتف غلامه وقال يا شيبة الخزي والعار ثمانين سنة تعيش في هذا الضلال ولا تتوب فقال بيبرس خذهم يا عثمان احبسهم وتولى تعذيبهم وفي الليلــة الثانية أراد بيبرس ان يركب ويدور في البلد قال له عثمان لا تركب حتى تهدأ الحال وترى وبعد ثلاث ليال قدم له عثمان الجواد وأوقد المشاعل فقال بيبرس هذا لا يظهر الغريم وانما يا عثمان اعمل لنا نورا يخفى ويظهر وسار عثمان ورجاله في ركاب الامير بيبرس الى درب الجميز واذ بأربعة لصوص سارقين من احد البيوت اشياء ومنتظرين حتى يمر الوالي بمشاعله فما شعروا الا الوالي وعثمان قبضوا عليهم وبعد ذلك شعلت المشاعل فقال الامير بيبرس من أنتم قالوا نحن من جماعة مقلد قال اكشف يا عثمان على العلامة فكشف عثمان واذ بالكي على أيديهم فقال لهم بيبرس لو كنتم من غير علامة عفوت عنكم لانكم ما سمعتم بالشروط اما وانتم عالمين بالشروط فما لكم عذر بعد التوبه وأمر برمي رقابهم فرموا رقابهم ثم ان الامير أخرج قلما وقرطاسا وكتب هذا جزاء من يتجاسر على السرقة والحرام وينقض التوبة بعد العهد والميثاق ثم وضعها على صدورهم ووضع المسروق عندهم وأحضر الغفراء وقال لهم حافظوا على هؤلاء القتلى وما عندهم من الامتعة وبعد ذلك سار الى باب الخلق فنزل وأمر رجاله بالوقوف فما لبث غير قليل واذ بستة فقهاء وهم يتحدثون بالعزومة والذكر لرفــع الشبهة عنهم فأحاطوا بهم وأوقفوهم قدام بيبرس فقال لهم من أنتم قالوا نحن فقهاء قال عثمان هؤلاء جماعة مقلد فقالوا له من أنت قال انا عثمان الذي حطيت الحديدة على يدكم ثم تقدم عثمان وكشف على علاماتهم فرآهــا على أيدي الجميــع ففتشوهم فرأوا معهم آلات السرقة ورأوا معهم أشياء مسروقة فأمر الامير بيبرس بقطع رؤوسهم وكتب أوراقــا كالاوراق السابقة ووضعهــا على

صدورهم وركب وسار الى الرميلة فالتقى بأربعة سارقين وحاملين المتاع الذي سرقوه فكشف عليهم فرأى العلامات فقال لهم عثمان نحن أعطيناكم مصروفا وتبتم ولماذا رجعتم تسرقون ثم فعلوا بهم كأمثالهم ورجع بيبرس الى منزله وهذا ما جرى واما أهل البلد أصبحـوا فوجـدوا القتلى في الشوارع من اللصوص وقطاع الطرق ففرحت الخلق بهذا الحال وقد رأى الوزير أيبك القتلى في طريقه الى باب الخلق وفي الرميلة فسأل من قتلهم فقالوا له الوالي بيبرس لانهـم لصوص فسار الى باب القلعـة واذ رآه القاضي يرتعد فقال ما الخبر قال ان بيبرس ملأ الارض بالقتلى لانهم لصوص فقال اذا كان الامر كذلك نحن نشتكي الى السلطان ثم انهم ساروا طالبين الديوان ولما جلس السلطان وثب القاضي قائما وقال يا امير المؤمنين الوالي تولى الولاية على سفك الدماء وقتل الناس فان هذا لا يجوز ولا يحل من الله فقال أيبك يا امير المؤمنين حتى لو ادعى وقال انهم لصوص فلا يجوز قتلهم بل تقطع أيديهم فقال الملك ابعث وائتنا ببيبرس يا حاج شاهين فأرسل الوزير الى بيبرس بالحضور فحضر ودعا للملك فقال السلطان ولاي شيء انت تقتل خلق الله قال يا مولانا انا ما قتلت الا من يستحق القتل وان مقلد هو الذي كان مسرح اللصوص وسفاكي الدماء وحكى للسلطان ما جرى بينه وبين مقلد وكيف أعطاهم الدراهم وزوجهم لبعضهم والعلامات التي علمها عليهم عثمان بالنار وكيف أخـذ عليهم العهد ان لا يرجعـوا لاجرامهم كالزمن السابق وبعد ذلك نقضوا العهد ومشوا في اجرامهم مثل ما كانوا سابقا فقطعت رؤوسهم اما مقلد رئيسهم فمحبوس عندي فان لم يتب عن هذا جعلته مثلهم قال السلطان وهل المقتولين فيهم العلامات فان كانوا كذلك يبقى الحـق بيد بيبرس فنزل عز الدين الحلبي ومعه أربعة شهود من الديوان باذن من السلطان وكشف عن الجميع ورجع وقال يا امير المؤمنين رأيت الجميع فيهم العلامات وان اصحاب المتـاع المسروق أخذه أصحابه بمعرفة الخفراء ومشايخ الحارات فلما سمع الملك ذلك قال

يا قاضي ان بيبرس ما افترى على الناس بل انه قتل بحــق والحق معه في
ذلك قال القاضي يا مولانا ذلك الفضــل من الله ثم نزل كل من كان في
الديوان الى حال سبيله ونزل أيبك والقــاضي فالتفت أيبك الى القاضي
وقال كل ما تدبر ملعوب على بيبرس يفشل وينفذ منه ويعلو منصبه فقال
القاضي يا معز أيبك سوف ترى مني مكيدة عظيمة لهذا الولد بيبرس اصبر
عليّ وشوف وتوجه كل واحد الى بيته ثم ان القاضي كتب كتابا وأعطاه
لغلامه وقال له امض به الى الجيزة واسأل عن شيخ العرب خضر البحيري
وأعطه هذا الكتاب وائتني برد الجواب فسار الغــلام الى ان وصل الى
الجيزة وسأل عن شيخ العرب خضر البحيري فدلوه عليه وأعطاه الكتاب
فقرأه ووجده من القاضي صلاح الدين الى بين أيادي ولدنا خضر البحيري
الذي نعلمكم به انه ظهر عندنا مملــوك يسمى بيبرس وان هذا يحبــه
السلطان وسلطه على الناس فالمرجو منك يا ولدي ان تساعدني لنرفع هذه
الغمة عن الناس فابعث عربك تربط الطرق وتخــل بالامن وتعمل مشاكل
وأتعابا للدولة فتشتكي الناس للملك فنشير عليه ان يبعث بيبرس فيرسله
الى هذه المنطقة ليمنع التعدي فحالا اقتلــوه هو ورجاله ومن بعدها انا
اقترح على السلطان لاجل اخماد الفتنة ان تكون انت حاكم هذه الناحية
مع رجالك وعشيرتك وانا اكبر المساعدين لك ان نفــذت لي هذا الامر
فالبدار يا ولدي خضر والسلام عليك اما ما كان من خضر البحيري فانه
حالا أرسل عربه فقتلوا القائم مقام الجيزة وصاروا ينهبوا ويقتلوا ويخلوا
في الامن اما أهل تلك المنطقة ضجوا من ذلك فجمعوا وفدا منهم ونزلوا
الى الديوان وصاحوا بصوت واحد أغثنا يا امير المؤمنين اموالنا انتهبت
ورجالنا قتلت فقال الملك من أنتم ومن فعل بكم هذه الفعال قالوا نحن يا
مولانا من أهل الجيزة وان رجلا من العربان يقــال له خضر البحيري هو
ورجاله قتل القائم مقام بالجيزة ونهب الاموال وقتل الناس فطيب الوزير
شاهين خاطرهم وقال اذهبوا الآن الى دياركم ونحن ان شاء الله حالا نقطع

دابر هذا اللعين ورجاله فنزلوا من الديوان وساروا طالبين أوطانهم فقال الملك انظروا لنا قائدا نرسله الى هذه المنطقة فقال القاضي ان الذي يصلح لهذا الشأن ويطهر هذه المنطقة من الفساد هو الامير بيبرس فقال الملك احضروا لنا بيبرس فأرسل الوزير شاهين رسولا اليه فأتى وطلع الى الديوان وتقدم وباس يد الملك ودعى له بدوام العز والنعم فقال الملك أهلا يا ابني بيبرس ثم قال اجعله يا حاج شاهين قائم مقام الدولة قال له انت قائم مقام الجيزة وعليك بتقوى الله واجتهد في تنظيف الارض من المجرمين الذين قتلوا القائم مقام السابق فنزل الامير بيبرس من الديوان فرآه عثمان فقال له انا صرت قائم مقام الجيزة ثم سار معه الى ان وصلا الى بيت باديس السبكي فقال لعثمان غدا نحن متوجهون الى اقليم الجيزة فقل لرجالك يكونوا على حضر وثاني يوم جمع بيبرس مماليكه ورجال عثمان ورجال حرحش وعقيرب وجماعته وسار طالب الجيزة وعند وصوله طلب المشايخ وأحضرهم بين يديه فقال لهم كيف يقتل القائم مقام شعبان عندكم على يد رجل بدوي غادر ولا احد يسأل عنه فقالوا له هذا رجل جبار لا يصطلى له بنار ثم ان بيبرس رتب منهم مأمورين وقسم اقليم الجيزة قسمين وجعل كل مأمور تحت يده المشايخ ولكل شيخ معاون ونبه على الفلاحين بعد الفوضى واذا ظلم شيخ فلاحا فانه يشتكيه الى المأمور واذا لم ينصفه المأمور يشتكي للقائم مقام واريد منكم ان تتعاونوا معي على خضر البحيري حتى أجازيه على ما فعل وثاني يوم بينما الامير جالس واذ بقاضي الجيزة مقبل وقال السلام عليك ايها الامير فقال بيبرس عليكم السلام ورحمة الله فلما جلس رآه بيبرس يبكي فقال له لاي شيء تبكي يا مولانا فقال القاضي اعلم يا مولانا ان لي بنتا نزلت تملأ جرتها فقبضها رجال منصور ابو السيفين وأخذوها الى بيته وهذا الرجل فاسق غدار معتد لا يعرف حرام ولا حلال وصنعته قطع الطرقات وسبي المخدرات وهو أخو مقلد بالاجرام وأفظع وله قصر على البحر وله خدام يقدرون

بخمسين كلهم أولاد حرام مثله ودأبهم خطف البنات الابكار فلما سمع الامير بيبرس بذلك الكلام صار الضياء في عينيه ظلام وقال له وأين مكانه قال على شاطىء النيل فنهض الامير بيبرس وركب معه الاتباع والمماليك يقدرون بأربعمائة وهم بأكمل العدة والسلاح وسار حتى قرب من ذلك المكان فقال لمن حوله أنتم تكونوا خارج الدار فاذا دخلت الدار وصحت الله اكبر فاحفظوا المكان ولا يفلت منهم انسان قالوا سمعا وطاعة ثم دخل الامير بيبرس الى ان وصل الى المقعد الذي جالس عليه ابو السيفين فوجده جالسا كأنه النمر فلما رآه بيبرس قال السلام عليكم فقال له عليك السلام فتقدم الامير بيبرس الى جانبه وجلس فقال له من تكون يا رجل فقال له انا قائم مقام الجيزة الجديد فقال اعلم ان كل قائم مقام في هذا الاقليم هو معي مثل ما اريد وان لم تعمل بكلامي فلا بد من شر يوصل اليك فقال الامير انا من تحت امرك ونهيك فقال له مرحبا بك وانعدل جالسا وقال له انت يا ولدي تحب الكيف وها قد أتى عندي بنت جميلة اقدمها لك فقال له الامير اتق الله تعالى وتب اليه عسى ان يقبلك ويرحم هذه الشيبة التي شابت في الفسق والضلال فلما سمع ابو السيفين هذا الكلام قال له انت جئت تطيعني بدخولك الى عندي ثم انه جرد حسامه وضرب الامير فتلقى الامير بيبرس الضربة بالدبوس فطار السيف من يده وضربه بيبرس بالدبوس على صدره القاه الى الارض بعد ان كاد يقضي عليه وصاح الله اكبر انا الامير بيبرس فسمع رجاله فكروا ودخلوا مجردين السيوف وقبضوا على الخدم والعبيد وكل من كان في الدار وكتفوا منصور ابو السيفين ثم جلس الامير مكان ابو السيفين وامر باحضار الخدام والعبيد فأمر بضرب رقابهم فقالوا له لا تفعل ايها الامير فنحن تائبون على يديك ونكون في خدمتك فقال لهم الامير مرحبا بكم ثم أطلقهم وأمرهم ان يأتوه بالبنت فأحضروها بين يديه فاذا هي بنت القاضي فأمر اثنين من أتباعه ان يوصلوها الى أبيها ولما وصلت الى أبيها أخذها وسألها

عن حالها قالت كما انا فجعل يثني على الامير بيبرس ويدعو له وبعد ذلك التفت بيبرس الى منصور ابو السيفين وقال له انا نصحتك ان تتوب عن الضلال فلم تقبل فأمر بقتله فقتلوه ثم وضع يده على ماله وجماله وأمتعته وخيله وقد شاعت سطوة بيبرس وزادت هيبته فبينما هو جالس واذ اقبل عقيرب وقبّل يد الامير بيبرس وقال له انا خديمك مدة حياتي فالذيأريده منك ايها الامير تخطب لي بنت القاضي فقال له الامير هذا هين فبعث من أتاه بالقاضي فلما أتى قام له الامير وأجلسه بجانبه وقال له أتعرف يا مولانا لاي شيء أرسلت اليك قال القاضي لا اعلم قال له يقول المثل قيمة العبد من قيمة سيده فخديمي عقيرب أراد ان يتشرف في جنابك وقال لي اخطب لي بنت سيدنا القاضي وانا وافقت على ذلك وانشرح خاطري فما رأيك بذلك يا مولانا فقال له القاضي حيثانك شرحت لي ذلك ورضيته ليصهرا فاني وافقت رأيك وأعطيته فعند ذلك دفع مهرها وشرعوا في الافراحفدبت الغيرة بعثمان وقال في نفسه كيف ان عقيرب يتزوج وانا أبقى أعزب فدخل على سيده وقال زوجني كما زوجت عقيرب فقال له بيبرس اذهب الى أمك وقل لها اخطبي لي زوجة فتخطب لك كما تريد فقال سمعا وطاعة وتركه وسار الى ان أقبل الى أمه وقال لها قومي اخطبي لي فقالت مرحبا يا ولدي نهارك مبارك فقال لها اخطبي لي بنت كويسة وتكون تكتبوتقرأ فقالت له سمعا وطاعة وأخذت معها بعض جيرانها وصارت تنتقل من مكان الى مكان الى ان وصلت الى السيدة زينب فزارتها ودخلت الى حمامها فرأت صبية توافق عثمان فتقدمت اليها وقالت لها يا بنت ما اسمك فقالت اسمي خضرة فقالت لها وانت تقرئي قالت نعم فقالت وانت بنت من فقالت انا اخت قاضي الجيزة ومن مدة قريبة تزوجت بنت اخي بسائس القائم مقام بالجيزة واسمه عقيرب فقالت لها ام عثمان اريد ان ازوجك الى ولديعثمان مرافق القائم مقام بالجيزة فقالت البنت امري يا سيدتي الى شقيقي القاضي فمضت الى عثمان وأعلمته بالخبر فرجع عثمان الى الجيزة ودخل

على الامير وقال له أمي لقيت لي عروسة شقيقة قاضي الجيزة فاخطبها لي فأرسل الامير بيبرس اليه خادما يدعوه فأقبل فقام له الامير وأجلسه جانبه وقال لا تؤاخذنا أزعجناك فقال القاضي ربنا يعزك وينصرك على أعدائك ما الخبر يا ولدي قال الامير ارسلت اليك لاخطب منك شقيقتك المصونة الى مرافقي وأخي بالعهد الاسطى عثمان فقال له ان عثمان مرعب وقاطع قلوب الناس واخاف على شقيقتي منه فقال يا مولانا لا تخف من شيء أبدا فعثمان تاب وصار رجل معتبر وانا الكفيل والضامن من كل شيء فلا يكون لك فكرة أبدا فقال له اذا كان الامر كذلك فلا بد لك ان تجيء الى منزلي واخطبها مني على رؤوس الاشهاد وهي جارية لك فقال الامير سمعا وطاعة ثم ان الشيخ انصرف اما الامير بيبرس فصبر الى العشاء وقال سر معي يا عثمان لنعقد لك العقد فعند ذلك نهض الامير وسار مع رجاله والاكابر الى منزل القاضي وأرسل الامير بيبرس كل ما يحتاجون اليه لاجل الكتاب ولما وصل الامير استقبله القاضي بالتحية والاكرام هو ومن معه واجلسهم في اعز مقام وبعد ذلك قرأوا الفاتحة وطلبوا عقد النكاح فجلس القاضي وجلس عثمان والشيخ بينهم وجرى العقد والمهر خمسمائة دينار وضربت الطبول والمزامير وفرح عثمان وثاني يوم ذهب الى أمه وأخبرها بذلك وان الامير خطبها له وكتب كتابه على البنت خضرة ففرحت أمه بذلك وذهبت معه الى الجيزة لاجل الفرح ثم ان الامير عمل الفرح لعثمان وذبح له الجزر والاغنام وأكل الخاص والعام مدة ثلاثة أيام وبعدها عمل الزفة وأدخله ورابع يوم انتهت الافراح ثم ان الامير بيبرس قعد يفكر في أمر خضر البحيري وعربه وكيف يعمل فاستشار بعض رجاله فقام حرحش وقال يا امير انا اسير متخفيا وآتيك بخبرهم ثم بعدها ترى ما يوافق من الامور فقال الامير اذهب اليهم وائتني بخبرهم ولكن بسرعة فسار حرحش الى ان وصل الى ديارهم فوجد القوم في فرح ودق مزامير وطبول والغواني والراقصات في حلقة كبيرة وخضر البحيري متوسد امام صيوانه ولا احد

واعي على احد فرجع بسرعة واعلم الامير بيبرس بما رأى وقال له هذه فرصة يا امير والآن تأخذهم بغفلة اما الامير بيبرس حين سمع من حرحش ما رأى جمع رجاله والمماليك وسار الى ان وصل الى آخر الليل فوجد القوم في بسطهم ولهوهم واذ بالامير بيبرس يفاجئهم برجاله والمماليك وأوقع السيف في جماعة خضر البحيري فقتلوا منهم أربعين وأسروا مائة مع رئيسهم خضر البحيري والباقي هربوا وهجوا واستولى الامير على مواشي خضر البحيري وأمواله وأمر باحضاره بين يديه فقال له ما حملك على قتل القائم مقام ونهب اموال الناس اما تدري ان مصرع الباغي وخيم ثم ان الامير قطع رأسه ووضعه على رأس سنان وقفل راجعا ومعهالاسرى والغنائم الى الجيزة وثاني يوم أرسل عثمان برأس خضر البحيريوالاسرى الى مصر الى الديوان ليرى الملك أعداءه بأوشم الحالات فبينما الملك جالس بالديوان واذ بعثمان طالع ومعه الاسرى مكتفين ورأس خضر البحيري على رأس سنان فقال الملك أهلا وسهلا بالاسطى عثمان أخبرني بما جرى فأخبره بما جرى مفصلا فقال الملك ان بيبرس لمنصور وعدوه مقهور ثم قال يا عثمان اذهب الى سيدك وسلم عليه وقل له انتهت مهمتك بالجيزة تعال الى الديوان ثم قال الملك للوزير شاهين اكتب لبيبرسمكتوب فكتب الوزير الذي نعلمك به يا امير بيبرس ان مولانا الملك يأمرك ان تولي على اقليم الجيزة من تشاء وتحضر الى الديوان فان الامر لازم لحضورك والسلام وسلم الكتاب الى عثمان فأخذه وتوجه الى سيده وأعطاه الكتاب ثم ان بيبرس ألبس مملوكا من مماليكه وجعله قائم مقام وأوصاه بالعدل والانصاف وتوجه قاصدا مصر الى ان وصل لبيته اما ما كان من الملك الصالح أيوب بعدما جلس على كرسي قلعة الجبل وتكامل الديوان واذ بباب الديوان داخل سيار وحامل كتاب قدمه للملك فقال له الملك من أين قال من حلب وأعطى الكتاب الى الملك ففضه وقرأه وفهم رموزه واذ فيه خطاب من نائب حلب الى بين أيادي امير المؤمنين أيده الله

بالنصر والعز والتمكين اننا مقيمون يوم تاريخه واذ بالغبار قد علا وثار وانكشف عن فوارس للحرب طالبين وعلى رأس هذا الجيش الملك هلاوون فأغلقنا الابواب وأقمنا الحصار فحط اللعين بجيوشه على حد الرمي فأرسلنا هذا الكتاب الى شريف علمك فأدركنا يا امير المؤمنين فأعطى الملك الكتاب الى الوزير شاهين فقرأه على الخاص والعام فقال الملك ومن يرد عنا هؤلاء اللئام فقال القاضي لا يليق لهذا الامر يا مولانا الا ولدكم المنصور الامير بيبرس فانه مسعود فبينما هم على مثل ذلك الحال واذ بالامير بيبرس طالع الى الديوان فلما رآه الملك قال للحاج شاهين انظر الى هذا التوفيق ثم ان بيبرس بعدما سلم ودعى للملك سلم على الوزير فقال له خذ اقرأ هذا الكتاب فقرأه وقال له الملك يا ولدي ان القاضي قال لنا انه لم يكسر هذه الركبة وينصرنا عليهم باذن الله الا انت واني قد أرسلت اليك فماذا انت قائل قال الامير انا لها ان أذن لي امير المؤمنين فقال الملك يا وزير شاهين اجعل ولدي بيبرس قائد الجيش والبس الوزير أيبك معاونا له فتجهزت العساكر والمماليك وأمر بيبرس بجمع الرجال من كل ناحية من مصر وبعد ثلاثة ايام توجه الى الملك وطلب منه الدعاء للمسلمين بالنصر فدعا له وأمره بالمسير فخرج من مصر بجيش جرار قاصدا حلب اما ما كان من القاضي فانه بعد مسير الجيش سطر كتابا وأعطاه الى غلامه وقال له سر بهذا الكتاب الى العريش وسلمه الى الملك فرنجيل فأخذه وسار الى ان وصل الى قلعة العريش فدخل على فرنجيل وسلمه كتاب سيده فحله وقرأه واذ به خطابا من جوان الى بين أيادي ولدي الملك فرنجيل اعلم يا ولدي ان بيبرس قاتل ولدك وهو مجتاز أرضك بجيش قاصد حلب فاذا وصل اليك كتابي هذا فاكمن اليه حتى يجوز عن أرضك فحاربه وخذ بثأر ولدك ففرح اللعين وأعطاه رد الكتاب وظن انه بلغ المراد وكمن بخمسة آلاف فارس وجعل ينتظر قدوم بيبرس لاجل ان يأخذ منه بالثأر ويجلي عنه العار واذ بالغبار قد ثار وعلا وسد الاقطار وانكشف الغبار عن

الوزير أيبك وقلاوون ولم يعلموا ما قد خبىء لهم في الغيب ولما تقاربوا من قلعة العريش واذ بالكمين قد خرج عليهم بغتة وعلى حين غفلةوكبسهم اللئام لانهم كانوا سائرين على غير أهبة من أمرهم وصاروا ينادون بأخذ الثأر وجلي العار فعادت المقدمة منهزمة وبأوائلهم ايبك التركماني الى نحو بيبرس وعادت الاعداء الى قلعة العريش فبينما الامير سائر واذ بالوزير أيبك مرتد راجع وهم على هذه الحالة فلما رآهم صعب عليه وكبر لديه واغتم لاجلهم غاية الغم وقال لهم من فعل بكم هذه الفعال وأورثكم النكال فقالوا له أيها الامير لقد باغتنا اللعين ملك العريش فرنجيل بكمين على حين غفلة منا وهكذا جرى فأخذ الامير بخاطرهم وطمنهم بأخذ الثأر من عدوهم وسار الامير بيبرس حتى أقبل الى القلعة وحط عليها وقد أحاط بها الامير من كل جانب اما اللعين فرنجيل فانه قال لرجاله اعلموا ان جوان دعاني وبشرني بالنصر على الغلام بيبرس ولولا ذلك ما فعلت وفي الغد أنا عازم على الحرب والنزال فماذا أنتم قائلون فقالوا له نفديك بأرواحنا فشكرهم على ذلك وجعل يفرق عليهم العدد والخيول والزرد وباتوا على ذلك الحال الى ان اصبح الصباح وفتحت ابواب القلعة ونزلت فوارس يتقدمهم فرنجيل فأمر بدق طبول الحرب فعند ذلك نهض الامير بيبرس وركب بنفسه وانحدر الى حومة الميدان وقال هل من مبارز انا الامير بيبرس قاتل ابن ملككم قمطة ثم ان الامير لعب على ذلك الجواد ابواب الحرب وجرد سيفه وهجم على ميمنة اللئام وقتل اربعة وهجم على الميسرة وقتل خمسة واعتدل بعد ذلك الى حومة الميدان وقال ابرزوا يا أنذال يا غدارين يا لئام وخذوا ثأركم مني فلما سمع فرنجيل ذلك من الامير بيبرس ورأى فعاله صاح على رجاله دونكم واياه خذوا منه بالثأر واجلوا عن ملككم العار فعند ذلك هجمت اللئام وأحاطوا بالامير بيبرس من كل جانب فاستقبلهم الامير كما تستقبل الارض العطشانة وابل المطر فلما عاين ذلك جيش الابرار هجموا على اللئام فثبت الشجاع وانهزم الجبان وطارت

الرؤوس عن الابدان والامير يضرب بهم يمين وشمال وصار اللئام يتحاشونه حتى قربت الشمس من الزوال فولت اللئام وانهزمت وكان اول من انهزم فرنجيل ملكهم وهو لا يصدق بالنجاة وما زالوا في هزيمتهم والامير خلفهم حتى أدخلهم الى قلعتهم فلما دخلـــوا اغلقوا الابـــواب ولما جلس اللعين فرنجيل جمع خواصه وجلاسه وقال لهم ما الذي فقدناه فحسبوا القتـــلى واذا هم الفين غير المجروحين من المنهزمين فقالوا له كان خروجك على هذا الجيش الجرار خطأ كبيرا فأنت يوم كان بيبرس في نفر قليل ما قدرت عليه فكيف تقدر عليه في هذا الجيش الكبير وصار له خبرة في تدبير الامور فقال لهم فرنجيل دعونا من الماضي وتدبروا في رحيـــل هذا الجيش عنا لاننا لا نقدر ان نجابهه وان برزنا الى هذا الجيش ثانية يكون مصيرنا الدمار فقالوا له ابعث مكتوبا الى الامير بيبرس واعتذر له عما جرى وارسل له خزنة مال واسأله الرحيل عنا بالحال فقال هذا هو الصواب اما الامير ثاني يوم بينما هو جالس واذ بوزير فرنجيـــل ومعه اربعـــة اشخاص محملين صندوق على بغل وعندما وصل قال الامان ايها الامير المظفر فأمر له الامير بالجلوس وقال له ما هذه الافعال التي فعلها مليككم فقال الوزيـــر ايها الامير المعظم اننا لمناه وقلنا له ما هذا الا جنون والآن جئتك ايها الامير راجيا ان تعطينا الامان وتقبل منا هذه الخزنة من المال فقال له الامير نحن نعطيكم الامان ولكن على شرط ان لا تعتدوا على انسان في طريقه الى مصر او اي الاقطار وتأتوني بأربعة خزنات مال فوق هذه الخزنة فان لم تأتوا بما طلبته منكم فاني غدا أحط على قلعتكـــم وأحتـــاط بها وأنقض عليها كانقضاض العقاب وأخربها على رؤوسكم ولم أبق بها من ينفخ نار والمهلة باقي هذا النهار فقد أعذر من أنذر والآن اذهب ايها الوزير الى ملككم وأخبره بطلبي وها أنا منتظر الى المساء لرد الجواب فنهض الوزير وسار الى مليكه وبلغه بما جرى بينه وبين الامير فلما سمـــع فرنجيل ذلك دبر أربع خزنات مال وأرسلهم مع الوزير الى الامير بيبرس فاستلمهم الامير

وقال للوزير نحن غداً راحلين وان تعديتم على أحد فها انا راجع اليكم ما أخلي منكم ديار وثاني يوم دق طبله وارتحل الى ان وصل أرض الشام فلما صار له خبر عيسى الناصر نائب الشام بأن بيبرس أقبل بجيش جرار قاصد حلب انجبر ان يستقبله وفي قلبه نار الحقد والحسد ولكنه سلم عليه ودعا له بالنصر والتوفيق ووصل الخبر الى أمه السيدة فاطمةالاقواسية فخرجت لملاقاته فاستقبلها الامير وقبّل يدها ورأسها فعانقته وصارتتبكي من شدة الفرح ثم انها جعلت تحدثه وتسأله عن أختها كيف هي الى ان قالت اعلم يا ولدي ان الله تعالى استجاب دعائي وذلك لما سرت من عندي وتوجهت الى مصر قلت يا رب يا سامع الدعاء لا تدعني أراه الا وهو قائد عسكر يحكم على خمسين الف واكثر فقبّل الامير يدها ثم ودعها بعد ذلك ورجعت الى محلها وثاني يوم أمر جيشه بالرحيل طالب حلبفوصلها بقليل من الايام فرأى الكفار عباد النار محتاطين بها من جميع الجهات فنزل بجيشه بعيدا عنهم لاجل ان يستعد لمحاربتهم ثم باغتهم على حين غرة بهجوم صادق أزاح اللئام عن حلب وأسوارها فارتاح أهل حلب وزحف الامير بيبرس بجيشه وجعل مدينة حلب وراءه يحميها والاعداء مقابل له وصار يناجز الاعداء كل يوم بالحرب والنـزال الى يوم من الايام بينما الامير بيبرس يقتل ويأسر من الاعداء ولا احد منهم قدر ان ينال منه منال فتضايق الملك هلاوون من هذه الاحوال فأمر جيشه بالحملة على جيش المسلمين فتلقتهم الابرار بكلمة التوحيد واشتعلت نار الحرب فيما بينهم الى آخر النهار انفصلت الطائفتان وثاني يوم قامت الحرب بينهم ودام هذا الحال مدة سبعة ايام والحـرب سجال فيما بينهم وثامن يوم أمر هلاوون بالحملة على جيش الامير بيبرس فتلقاهم المؤمنون بقلوب أقوى من الجلمود فدارت رحى الحرب فيما بينهم وحمي وطيسها فلا عدت تسمع الا صياح الابطال ورنين السيوف فلله در المسلمين وما فعلت بعباد النار والامير بيبرس وما فتك بهم ودامت الحرب من طلوع الشمس الى صلاة

العصر وبيبرس يطلب من الله النصر على الاعداء واذ بغبار علا وثار وبان عن خيول غائرة وأمامهم المقدم سليمان الجاموس وهم يقولون لعينيك ايها الامير بيبرس ونزلوا على الاعداء نزول الصاعقة من السماء فانكسر الاعداء عباد النار وولوا الادبار فتبعتهم الابرار وهم يقتلون ويأسرون الى ان أقبل الليل بالاعتكار فرجعوا الى الخيام فتلقاهم الامير بيبرس وهنأهم بالنصر والسلامة وشكرهم على نصرتهم له وأكرمهم وأقامهم عنده في أعز مكان وأعطاهم من الغنائم والاسلاب شيئا كثيرا وقال لهم يا بني اسماعيل اني مديون لكم على طول الزمان .

قال الراوي : وكان السبب بمجيئهم عندما مر الامير بيبرس بجيشه من المعرة واستقبله المقدم سليمان الجاموس وسلم عليه وأضاف الامير عنده ثم سار الامير طالبا حلب بجيشه فرجع عثمان وقال الى المقدم سليمان الجاموس هكذا تترك اخوك الامير بيبرس وان الوزير أيبك وأتباعه أعداء له ولا يريدون ان ينتصر ويكسب الوجه الابيض عند السلطان فقال المقدم سليمان الجاموس ابشر يا عثمان بنصرة الاميربيبرس فسر انت ونحن ان شاء الله من الآن نجمع جموعنا ونتبع أثره فقال لهم بارك الله فيكم وسار طالب الجيش حتى لحقه هذا كان السبب بمجيئهم ونصرتهم الى الامير بيبرس ثم ان الامير بعد انتصاره على عباد النار وأخلى الارض منهم أقام بضعة أيام بأرض حلب وارتحل طالب مصر المحروسة وعند وصوله الى جهات المعرة طلب الفداوية ورئيسهم سليمان الجاموس الاذن من الامير برواحهم الى قلاعهم فتودع منهم وتودعوا منه ثم سار الى ان وصل الى دمشق الشام فاستقبله نائبها والاعيان وأهل الشام بنهار يعد من الاعمار ثم ان الامير بيبرس ذهب لعند أمه فاطمة الاقواسية فاستقبلته وفرحت بسلامته وانتصاره فقبّل يدها وقال لها كله بحسب دعاك يا والدتي رب يخليك لي فأقام ثلاثة ايام بالشام وطلب الاذن من والدته وودعها فبكت وبكى ثم انه ارتحل وسار طالبا أرض مصر الى أن

وصل فدخل بجيشه وهو على رأسهم وقدامه الاسارى من الكفار عبـاد النار فاستقبله الاهالي بالاهازيج والزين وبلغ خبر قدومه الى الملك الصالح فقام وصار ينظر الى بيبرس وجيشه والاسارى قدامه فانشرح الملك وفرح بالانتصار ثم ان الامير بيبرس والوزير أيبك وباقي الامراء الذين كانوا معه طلعوا الى الديوان للسلام على الملك فاستقبلهم الملك والوزراء وسلم عليهم وهنأهم بالسلامة والانتصار فدعوا له بدوام العز والنصر على الاعداء اما الامير بيبرس سلم على الملك ودعا له وقبّل يده فقال له أهلا وسهلا بالامير المظفر واني قد لقبتك بركن الدين وأمر له بخلعة فأفرغوها على كتفيه ثم جعله وزيرا الى يوم من بعض الايام والملك جالس بالديوان واذ بنجاب يدخل الديوان ويقبّل الارض بين يدي السلطان فقال له الملك من اين قال من بيت القدس ومعي كتاب من عند خادمكم علي القيمري نائب القدس ثم انه أخرج الكتاب فأخذه الحاجب وأعطاه للسلطان فقرأه واذ فيه خطابا من علي القيمري الى بين أيادي أمير المؤمنين الذي اعلمك به يا مولانا اننا قد ظهر عندنا نقص بالارواح والاموال وكل يوم يصير عندنا مشكل يكون ضحيته ارواح واموال فسعينا ما أوتينا من جهد ما قدرنا نكشف هذا الامر فلما أعيانا أعلمناكم لكي يكون عن شريف علمكـم والامر أمركم يا امير المؤمنين والسلام عليكم فلما قرأ الملك الكتاب أعطاه الى قارىء الديوان فقرأه على الخاص والعام فقال الملك من يكشف عنا هذه الغمة فقال القاضي يا مولانا السلطان ما لهذا الامر الا ولدكم المحفوظ الامير المنصور بيبرس الذي سعده يضيء كالشمس قال الملك يا قاضي ان ولدي قائد عسكر فقال القاضي هذا لا يضر شيء يا مولانا بل اجعله نائبا بالقدس حتى يكشف هذه الغمة عن الناس ثم آن الملك قال للوزير شاهين اجعل ولدي بيبرس نائب القدس فأولاه الوزير نائبا للقـدس ونزل من الديوان بموكب حتى أتى الى بيته وثاني الايام سار الى الديوان وطلب الاذن بالسفر من السلطان وأخذ عثمان بصحبتـه والرجال وتوجه طالبا

القدس فلما وصل استقبله علي القيمري وسلم عليه فقال له لا يكون عندك فكر في مجيئي أبدا واعلم انني ما أتيت الى هنا الا باذن السلطان لاجل ان اكشف الغمة وأظهر الغريم واعلم ان هذا محلك وهو باق برسمك ولا احد يأخذه منك فشكره علي القيمري على ذلك وجلسوا ذلك اليوم وهم في أهنأ ما يكون الى ان أقبل الليل بالاعتكار قال الامير مرادي ان أتجول في بيت القدس وحدي لعل الله يأخذ بيدي قالوا له دعنا نسير معك قال لهم كلا جزاكم الله عني خيرا ثم انه غير زيه ولباسه ونزل يدور في القدس ويتنقل فبينما هو سائر واذ لاح له شخصان فرابه أمرهما فاتبعهما وسار خلفهما فشعرا به يترقبهما فدخلا دهليزا مستطيلا ودخل وراءهما واذ الباب الذي دخل منه اغلق فرجع الامير ليرى ما جرى فوجد الباب مغلق فمشى الى الامام فوجد بابا مغلقا واذ به يشم ريح البنج والمخدرات أرموها عليه من السقف والمكان ضيق وليس له منفذ فأثر به البنج فداخ وارتمى الى الارض وعندما رأوه تبنج خرجوا اليه وقيدوه واحتملوه وأخذوا ما عندهم من الاموال التي سرقوها وساروا طالبين البر وكان عددهم عشرة عياق ورئيسهم وكان السبب في مجيئهم الى بيت المقدس ان جوان لما ضاقت به الحيل كتب كتابا وأرسله الى الملك قريطش فلما وصله الكتاب قرأه واذ به من جوان الى ولدنا الذي أعلمك به انني قد ضاق صدري من أمر بيبرس وما بلغت منه مرادي فساعة وصول كتابي أرسل عشرة عياق وعليهم رئيس ويكونوا عياق شاطرين الى بيت المقدس يقتلوا ويسرقوا .

فاذا وصل الخبر الى السلطان بذلك الامر أشور عليه بارسال بيبرس الى القدس فاذا وقع في أيديهم يقتلوه فحالا أرسلهم يا ولدي لاكون راضيا عنك فلما قرأ الكتاب أرسل هؤلاء العياق وفعلوا ما ذكرنا من الفعال وشاعت الاخبار وارسل نائب القدس يستنجد بالملك من هذا الامر وأشار القاضي في ارسال بيبرس الى القدس وجرى له ما شرحنا فلما أوغلوا في

البر وصلوا الى واد انزلوا بيبرس وصحوه من البنج فقال اين انا فقالوا انت بين أيدينا ونريد الآن قتلك فقل ما تريد فبينما الامير بيبرس يطلب الفرج ويستغيث واذ بفارس قاصد اليهم وصاح عليهم فارتعبت قلوبهم من صرخته وحارت أفكارهم فضرب الاول قتله والثاني لحقه بأخيه والثالث أعدمه الحياة وكل من دنا منه دنت منيته الى ان قتل منهم سبعة وهرب أربعة في الفلاة وهم لا يصدقون بالنجاة فنزل الفارس وخلص الامير بيبرس من القيود وقال اشهد لي بها يا بيبرس فقال له الامير بيبرس ما اسمك قال ضايع الاسم وغاب في البر من حيث أتى ثم ان الامير بيبرس رجع الى الديار فاستقبله عثمان وقال له اين كنت قال الامير يا عثمان سر الى المكان الفلاني انت ورجالك وائتني بما فيه من الاحمال والبغال قال سمعا وطاعة فسار عثمان الى ذلك المكان فوجد البغال محملة بالامتعة والاموال والقتلى بالارض فسحب البغال وأخذ اسلحة القتلى وأمتعتهم وترك القتلى للوحوش تأكلهم ورجع الى سيده بالبغال والاحمال اما ما كان من علي القيمري فقعد ينتظر الامير بيبرس واذ بالامير قد طلع الى الديوان فنهض له وسلم عليه ولما استقر به الجلوس سأله عما جرى فقال نصرنا الله على الاعداء فأرسل المنادي ينادي في المدينة ان كل من كانت له حاجة مسروقة يأتي ويأخذها من الديوان وذلك بعد ان يصفها بأوصافها قال له علي القيمري جزيت خيرا ايها الامير فأعاد عليه ما قدمنا ذكره فتعجب من ذلك اما أهالي البلد فقد أتوا الى الديوان يهرعون من كل مكان وجعل كل واحد يصف ما ضاع له للامير فيسلمه اياه ولم يفقد لاحد من أهل القدس شيء ثم ان الامير بيبرس من بعد هذه الاحوال كتب كتابا وأرسله لامير المؤمنين بما جرى بالتمام وقال ان مدينة القدس رجع اليها الاطمئنان والامان والامر اليكم مولاي بالاقامة بالقدس او برجوعي الى مصر بين أياديكم وأرسله مع عثمان الى مصر فسار به حتى وصل وطلع الى الديوان وأعطى الكتاب للملك فأمر بقراءته فلما سمع الملك انشرح وأمر الوزير

ان يكتب الى الامير بيبرس بالرجوع الى مصر مع أمر من السلطان الى علي القيمري بأنه نائب القدس وحاميها وسلمه الى الاسطى عثمان وقال له سر الى سيدك واعلمه فسار عثمان الى ان وصل وأعطى الكتاب لبيبرس فقرأه وفهم ما فيه وأعطى الامر لعلي القيمري برجوعه لمنصبه وثاني يوم تودع من نائب القدس ومن معارفه وأخذ رجاله وسار طالب مصر الى ان وصل وطلع الى الديوان فاستقبله الملك بوجه بشوش وقال أهلا بولدي ركن الدين بيبرس فقبّل الامير بيبرس يد الملك وجلس في مكانه .

قال الراوي : في يوم من الايام بينما الملك جالس واذ بنجاب يقبّل الارض وهو يقول سبحان هادي الطير قال الملك وراحم الشيب وساتر العيب من اين قال يا مولانا من ثغر الاسكندرية ثم انه أخرج الكتاب فأخذه الحاجب وأراد ان يناوله الى السلطان فقال الملك أعطه الى القاضي يقرأه علينا ويسمعنا ما به ففضه القاضي وقرأه واذ فيه خطابا من نائب الاسكندرية الى بين أيادي مولانا أمير المؤمنين يوم تاريخه مقيمين واذ بمركب مقبل ورافع علم الامان الى ان وصل الى الثغر ورمى المراسي واذ طلع منه وزير ومعه أتباع فسألناهم عما يريدون فتقدم كبيرهم وقال انا وزير ملك جنوا ومعي كتاب وهدايا للسلطان وأريد مواجهته فأقمناهم في دار الضيافة وأرسلنا اعلمناكم يا امير المؤمنين فاذا أردت قربناهم او أبعدناهم والامر امركم مولاي فلما سمع الملك الكتاب قال للوزير شاهين اكتب الى نائبنا ان يرسلهم الينا لنرى فكتب الكتاب وأرسله مع النجاب الى الاسكندرية فلما وصل الجواب الى نائب الاسكندرية أمر بنقلهم الى بحر الحلو فساروا طالبين مصر حتى أقبلوا الى بولاق ثم طلعوا الى الديوان وسلموا ودعوا للسلطان قال الملك ما معكم قالوا كتاب من ملك جنوا وهدية قال الملك اعطوا الكتاب للقاضي حتى يقرأه واذ به خطابا من ملك جنوا الى بين آيادي السلطان ان بنتي مريم قد اعتراها مرض فنذرت على نفسي ان طابت أزورها القدس والآن شفيت وأريد أفي بنذري فأرسلت

اليك طالبا من جلالتكم السماح لها بالمرور وان ترسل من طرفكم حارسا يحرسها من يافا الى القدس ومن القدس الى يافا وله خمسة آلاف دينار ذهب حق طريقه واما الهدية فالامل قبولها منا والسلام فلما سمع الملك الكتاب قال للوزير اكتب لهؤلاء رد الجواب باننا سمحنا لابنتكم بالمرور لبيت المقدس وما تصل الى يافا الا ويكون الحارس بانتظارها •

فكتب الجواب بذلك وأعطاه لاتباع ملك جنوا وقال سيروا الى مليككم واعلموه ان السلطان سمح لها بذلك ثم ان الملك قال لرجل من الاكراد قم يا ابن العم خذ نصيبك واحرس البنت من يافا الى القدس ومن القدس الى يافا فقال له الوزير يا مولانا السلطان ان الحراسة ما هي علينا وانما هي على سلطان القلاع والحصون فاذا كان هو غايب فرجاله فقال الملك ما اسمه قال معروف بن جمر فقال اكتب له كتابا واكتب فيه يحرس البنت فكتب الوزير بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فهذا كتابي وانا الصالح أيوب الى بين ايادي ولدي معروف بن جمر سلطان القلاع والحصون من المعلوم لدينا أنكم أصحاب الحراسة فالآن ستأتي الى يافا مريم بنت ملك جنوا فنريد منك ان تحرسها من يافا الى القدس ومن القدس الى يافا واجرة الحارس الذي ترسله خمسة آلاف دينار صحبة ولدنا الامير بيبرس حامل الكتاب وبعد ذلك لك مني الدعاء ومن الله القبول ثم ختم الكتاب وأعطاه للامير بيبرس وقال له سر الى معروف بن جمر فنزل بيبرس من الديوان وتجهز وثاني يوم أخذ معه بعض الرجال وأخذ المال وصار طالب قلعة صهيون وما زال سائرا حتى وصل الى القلعة فطلب الاذن بالدخول الى الحصن فقال له الاتباع من تكون وماذا تريد قال أريد مواجهة سلطان الحصون ومعي كتاب اليه من أمير المؤمنين بمصر فقالوا له انتظر لنخبره بالامر فغابوا قليلا وأتوا وقالوا له أدخل فأوصلوه الى قاعة كبيرة والرجال يمين وشمال شاهرين السيوف الى ان دخل على السلطان فسلم عليه فقال له من انت وماذا تريد فقال له انا الامير بيبرس

واني حامل كتاب أمير المؤمنين الملك الصالح أيوب الى حضرتك وناوله الكتاب ففضه وقرأه ثم وضعه على رأسه بعد ان قبّله وقال لبيبرس لاجل خاطرك وخاطر سيدي الملك الصالح لا احد يحرس البنت غيري ولا آخذ أجرة ابدا وهذا المال هبة مني اليك فقال الامير بيبرس وانا لا يتبعني منه شيء فقال المقدم معروف حيث أبينا ان لا يتبعنا من المال شيء صاح على الرجال وقال فرقوه على المحتاجين والارامل والايتام ثم أجلسه بجانبه وأكرمه وآنسه وأمر بايقاد النار على رؤوس الجبال لجمع الرجال فاجتمعت الابطال والمقدمين عند السلطان معروف بن جمر ثم ذبحت الاغنام ونحرت النوق والفصلان وقامت المهرجانات ولعب السيف وطراد الخيل كله لاجل الامير بيبرس أخي فكل من أطاعه فقد أطاعني ومن خالفه فقد عصاني وأقاموا مدة عشرة أيام وهم بهناء وسرور وبعد ذلك استأذن الامير بيبرس من المقدم معروف في المسير فأذن له فركب وركب معه المقدم وساروا طول ذلك النهار ثم ان الامير أقسم على المقدم مغروف بالرجوع فأعطاه جواب كتاب الملك الصالح وقال له انا ان شاء الله من الغد متوجه الى يافا لاجل حراسة البنت ورجع المقدم معروف الى مكانه وثاني الايام وضع وكيلا عنه وسار الى يافا مع بعض الرجال .

اما الامير بيبرس فانه بعد ان ودع المقدم معروف وسار ، قال بنفسه ان هذا الرجل صاحب عز ووقار وقد ظهر منه الكرم والاحتشام والهيبة وعلو المقام وما زال سائرا حتى وصل الى مصر وبينما الملك جالس واذ بالامير بيبرس داخل الى الديوان ويقبّل يد الملك ويدعو له قال الملك أهلا وسهلا بركن الدين ماذا فعلت من الامور قال له كل خير ببركة دعائكم يا امير المؤمنين ثم ناوله الكتاب واذ فيه بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من خادمكم ومقبّل أياديكم المقدم معروف بن جمر قد حضر عندنا كتاب امير المؤمنين وعملنا بما فيه من الامر وها نحن خدامكم على طول الامد فلا تنسونا من الدعاء والسلام على نبي ظلله الغمام فانشرح الملك اما المقدم

معروف فانه لما وصل الى يافا نزل هناك مع رجاله وأقام ينتظر قدوم البنت مدة خمسة ايام واذ أقبل المركب من ظهر البحر وأرخى مراسيه فنزلت منه النوتية ونصبوا الخيام ثم نزلت منه مريم بنت ملك جنوا ونزلت معها الخدم والمرافقين فلما استقرت بالجلوس وصل الخبر للمقدم معروف ان الملكة أقبلت فسار الى صيوانها فسألوه من انت قال لهم خبروا الملكة اني انا الحارس لها فخبروها بذلك فأذنت له بالدخول فلما رأته نهضت على الاقدام وقد أخذتها منه هيبة ووقع حبه في قلبها فقالت له انت الحارس لي قال لها نعم قالت له مرحبا بك اجلس يا سيدي فجلس معروف فقالت له ما اسمك قال معروف فأمرت أتباعها باحضار الطعام والشراب فأحضروا ما لذ وطاب فأكلت هي واياه والوزير الذي مرافقها ثم بدأ يحرسها هو ورجاله وثاني يوم أمر الرجال بالارتحال فحملوا الاموال والاثقال على ظهور الخيل والبغال وركبت مريم في تخت ومعروف ورجاله راكبين على الخيول ومحتاطين بها وبأتباعها الى ان وصلوا الى بيت المقدس فأمر المقدم بالنزول وقال لها ها هو بيت المقدس فادخلي فنهضت مريم ودخلت القدس ومعها المقدم معروف وأتباعها وصارت تتنقل من مكان الى مكان الى ان وصلت الى القيامة فزارت ووهبت ثم خرجت من القيامة ومعها حارسها المقدم وأتباعها فسارت فرأت مسجد الاقصى فقالت للحارس أيسمحون لي ان ادخل قال لها لا بأس بشرط ان لا يدخل اتباعك فأدخل انا وانت فوافقت ودخلت مريم مع حارسها المقدم معروف وصارت تتأمل في الجامع وزارت قبة الصخرة الشريفة فانشرحت وقالت للمقدم ان نفسي زهت لرؤياي هذه القبة الشريفة وهذا المقام • وصارت تتنقل من مكان الى مكان فرأت الاستاذ الامام النووي وصحبته أهل العلم وهو يقرأ عليهم والطلبة حواليه فقالت للمقدم من هذا قال لها ان هذا الشيخ عالم جليل يلقي العلم على تلاميذه قالت اني رأيت مناما أريد ان يفسره لي قال لأعرض عليه ذلك فاستأذن من الشيخ وقال يا استاذي ان هذه البنت تريد ان تفسر لها

مناما فقال لها قولي ماذا رأيت فقالت رأيت نفسي في واد لا ماء فيه فعطشت فرأيت نهـــرا أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وانا في شدة الظمأ فأخذت منه غرفة وشربتها فلما استقرت في جوفي برد لهيب قلبي وزالت عني حرارة الظمأ ثم خرجت من فمي ذبابة سوداء وسقطت الى التراب ثم أقبلت نحوي ذبابة بيضاء فدخلت في فمي فابتلعتهـــا واستقرت في جوفي وازداد حبي فيها ثم تأملت في ذلك النهر فرأيت مركبا فنزلت فيها وعديت الى البر الثاني وطلعت من المركب فرأيت نفسي في واد وسيع ذي انهـــار وأطيار وأشجار فرقدت تحت شجرة عالية واذ بطير أبيض نقرني بمنقاره فخرج مني طير صغير ففرحت به واذ بطـــير اسود قد انقض عليه وأخذه مني وطار به حتى غاب عني فجعلت أبكي عليه فانتبهت من منامي فهذا ما رأيت فقال لها الشيخ اعلمي ان الوادي هو مكانك الاقفر وقد أنقذك الله منه وأما الوادي الاخضر ذو الانهار والاشجار فهو دين الاسلام وكذلك الذبابة السوداء هي الظلمة خرجت من قلبك والذبابة البيضاء التي دخلت في فؤادك هي كلمة التوحيد وهي لا اله الا الله محمد رسول الله واما السفينة فهي سفينة النجاة واما الطير الذي نزل عليك هذا رجل كبير من الاشراف يتزوج بك وتأتي منه بذرية صالحـــة ولكن تتربى بعيدا عنك وهذا تأويل منامك والله اعلم فان أردت السلامة فاخلصي النية لله تعالى واسلمي قالت له يا سيدي والذي يسلم ماذا يقول قال لها يقول كلمـــة التوحيد وهي أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله فقالتها الست مريم واسلمت اسلاما صادقا ثم قبّلت يد الشيخ فدعا لها بالتوفيق والثبات على الايمان ثم قالت للشيخ بما ان الله منّ علي بالاسلام فليس لي رجعة الى بلادي فمرادي ان اتزوج رجلا يكون لي عضدا ومؤنسا فقال لها الشيخ ومن تريدينه لك زوجا لأجري لك العقد عليه قالت لن اجد أفضل من هذا الرجل واشارت الى المقدم معروف فالتفت الشيخ الى معروف وقال له هذه البنت قد طلبتك ان تكون لها زوجا فماذا انت قائل

فلما سمع معروف ذلك الكلام اعلم الشيخ بقصتها وكيف ان الملك أرسله حارسا لها قال له الشيخ يا ولدي انا اكتب لك كتابها وأعطيك فتوى تكون لك سلاحا لكل من عارضك فأجاب بالقبول ثم ان الشيخ قال للبنت من تريدين ان يكون وكيلك في العقد قالت له انت وكيلي في جميع اموري قال الاستاذ وانا رضيت بذلك ثم التفت الى معروف وقال له امهرها فقال امهرتها بعشرة آلاف دينار في ذمتي لحين وصولي الى دياري فقال الاستاذ وانا قبلت وعقد الشيخ العقد ثم ان السيدة مريم قبّلت يد الاستاذ وأعطته خمسين دينارا فشكرها ثم كتب لهم الفتوى وختمها وسلمها لمعروف وأمر مريم ان تلتف بالشال ولا تخرج مثل ما دخلت ففعلت ما قال الشيخ ثم أخذهـا معروف وسار الى باب المسجـد وأشار الى الوزير بالسير هو والاتباع الى ان وصلوا الى الخيام وباتوا الى ثاني يوم امر المقدم بالرحيل وركبت الست مريم في الهودج وأرخت الستائر وقد فرح المقدم معروف ولم يزالوا سائرين الى ان أتوا الى مفرق الطريق الى يافا فقال المقدم لرجاله سيروا بنا من هنا الى قلعة صهيـون فساروا كما أمر قال الوزير المرافق للبنت الى اين يا سيدي من هنا طريق يافا الى البحر قال المقدم حتى تأكلوا ضيافتي فساروا وهم فرحين بذلك فلما وصلوا الى الحصن دارت الافراح واجتمعت الرجال والفرسان مدة عشرة ايام فلما كانت ليلة الزفاف دخـل المقدم معروف على مريم ولما اصبح الصباح نزل المقدم وجلس على كرسيه وأحدقت به رجاله وجعلوا يباركون له اما الوزير فتقدم اليه وصحبتـه اتباعه وقال يا سيدي معروف كثر الله خيرك فقد اكرمتنا فأعطنا بنت الملك ودعنا نسير بالامان قال له معروف سر من هنا الى ملك جنوا وقل له بنتك اسلمت وتزوجت بالمقدم معروف سلطان القلاع والحصون فقال الوزير ودخلت عليها قال نعم دخلت عليها ليلة امس فلما سمع الوزير بذلك لطم على وجهه وقال للمقدم يا سيدي اقتلني لاني لا استطيع الرجوع الى جنوا بدونها فقال المقدم معروف نحن لا نجبرها على الذهاب او البقاء عندنا

فاسألها عن رأيها ثم أمر باحضار مريم فلما حضرت سألها الوزير ورغبها في العودة الى بلادها فأبت ان ترجع عند ذلك خرجوا من عنده وساروا الى يافا ونزلوا في مركبهم طالبين جنوا هذا ومعروف مقيم مع زوجته مريم ولم يبال بأبيها ولا بغيره اما ما كان من ملك جنوا فانه جالس واذ بالوزير والمرافقين لبنته وهم يدعون بالويل والثبور وعظائم الامور فلما رآهم قال لهم ما دهاكم ومن بشره رماكم قالوا له بنتك أسلمت وتزوجت معروف سلطان القلاع والحصون وهذا الذي جرى فلما سمع ذلك لطم على خده واشتد به الغضب ثم بعد ذلك كتب كتابا وأرسله الى الملك الصالح أيوب مع أربعة اشخاص وساروا طالبين مصر فبينما الملك جالس واذ بباب الديوان داخل أربعة رجال بزي الافرنج وهم يسلموا قال الملك من أين أنتم قالوا له من جنوا ومعنا كتاب من الملك فأخرجوا الكتاب وأعطوه الى السلطان فبعثه الى القاضي وقال اقرأه لنا فقرأه علنا واذ به خطابا من ملك جنوا الى بين أيادي السلطان انا ارسلت بنتي تحت امانة الله واماناتك وارسلت خمسة آلاف دينار للحارس الذي يحرسها فخان الحارس العهد والامانة وأخذ البنت فحال حضور كتابي اليكم ترسل لي بنتي كما أخذتها مني والسلام فلما قرأ القاضي الكتاب قال يا مولانا السلطان هذا الملك قد جعل بنته تحت أمانة الله وأماناتك وأنت بعثت بيبرس وأعطيته كتابك واماناتك وسار وقد اتفق مع سلطان القلاع فأخذها وتزوج بها وقد طرد أتباعها فقد أضاعوا أماناتك وزمامك ان هذا شيء لا يصح أبدا وان هذا الغلام بيبرس هو أصل هذا العمل فقال الملك ارسلوا لنا خبرا الى بيبرس يحضر لنحقق هذه الدعوى فأرسل له الوزير بالحضور فأتى على عجل وطلع الى الديوان وقبّل يد الملك ودعا له قال الملك أهلا بولدي بيبرس اما تدري ما فعل المقدم معروف صديقك وحكى له ما جرى قال يا مولانا السلطان والله لا أعلم بشيء من ذلك أبدا قال الملك اذهب يا بيبرس هات لنا البنت وهات لنا معروف بن جمر حتى ننظر ما الخبر فأجابه بالسمع

والطاعة ثم نزل الامير بيبرس فقال له عثمان ما الخبر فأخبره بالقصة وأخذه معه وسار طالب الحصول فهذا ما كان واما المقدم معروف فانه في بعض الايام نزل الى ديوانه وهو منزعج فسأله مرافقه موسى القصار ما الخبر يا مقدم قال له زوجتي حصل لها مرض فلأجل هذا أصابني ما تراه من الغم قال يزول الشر يا سيدي قال له اذهب الى الشام وائتني بطبيب يكون ماهر ويكون يدري بالحكمة قال سمعا وطاعة ثم انه سار كما أمره وعاد بطبيب فلما دخل عليه قال له يا حكيم زوجتي هذه مريضة فجس الطبيب نبضها وسألها ماذا يجري معها فأخبرته بألمها ثم قال يا مقدم اعلم ان زوجتك تغير عليها الهواء ودواؤها ان تكون في مكان منفرد معتدل الهوى وتجعلها فيه مدة ثلاثة اشهر فقال له هل يوافقها دير الشقيف قال نعم يناسبها ذلك لكونه على جانب البحر ثم انه أنعم على الطبيب فانصرف شاكرا له واما معروف فانه أقام موضعه ابن اخته عماد الدين وأركب مريم وأخذ معه بعض الرجال وسار طالب دير الشقيف الى ان وصل وأنزلها في الدير وأفرد لها من يتكفل بخدمتها فهذا ما كان منه واما ما كان من بيبرس فانه سار طالب حصن صهيون فلما وصل اليه نزل فسأل عن المقدم معروف فذكروا له انه توجه الى دير الشقيف وذلك لان زوجته حصل لها مرض وتغير عليها الهوا قال لهم لا بد ان أسير اليه وأنظر ما الخبر ثم ركب ومعه عثمان وسار طالب دير الشقيف فلما وصلوا استقبلهم المقدم معروف وسلم على الامير بيبرس وعمل لهم ضيافة ولما جن الليل جعل الامير يتحدث مع المقدم معروف فقال الامير بيبرس يا أخي بالله عليك أنت الذي أرغمت مريم ان تسلم ام هداها الله للاسلام ومن أمرك بالزواج بها وكيف كانت القصة فحكى للامير ما جرى بالتمام كما ذكرنا وقال هذه فتوى من شيخ الاسلام النووي فخذ راجعها حتى تقف على حقيقة الحال ثم ان الامير اخذ الفتوى وقرأها فوجد فيها كل ما ذكر من الكلام فقال الامير والله يا أخي ان هذه الحجة قوية وشرعية ولكن اعلمك ان ملك جنوا أرسل الى

أمير المؤمنين يطلب بنته وتكلم القاضي في حقنا بما لا خير فيه وقد أتيت اليك حتى أكشف الخبر ويظهر الحق ويبطل الشك فظهر انه ما عليك في هذا الامر ملام ومن الرأي اني اعود الى امير المؤمنين أعرض عليه هذا الامر ليرسل الى ملك جنوا ويعرفه بالواقع فقال له المقدم معروف ان كان الامر كذلك فأنا لا احوج امير المؤمنين الى التعب ولا اكلفك انت الآخر بما لا تطيق ومن الرأي عندي ان اسير بنفسي الى ملك جنوا وآتي به الى أمير المؤمنين يفعل به ما يريد والسلام فقال له الامير بيبرس لقد قلت الصواب ثم ان المقدم معروف قال له يا أخي دير بالك على المكان وعلى السكان حتى أرجع ثم ركب جواده وسار الى يافا ونزل في مركب قاصدا جنوا الى ان وصل فبينما هو على الميناء وهو يفكر ماذا يفعل واذا برجلين من بني اسماعيل يسلمـــان عليه فسألهما عن حالهما ووصولهما الى هذه الديـــار فقال يا سيدنا أتينا الى هنا بتجارة بمركب لنا وها هو وأخذنا تجارة من هنا ومرادنا المسير صباح غد وأنت يا سيدنا ما جاء بك الى هنا فامرنا بخدمة تفوز بقضائها فقال لهم يا رجال ان لي حاجة في هذه البلد أتيت لقضائها فقالوا وما هي يا مقدمنا فقـــال لهم سيروا بنا الى المركب لأحكي لكم عنها فساروا الى المركب فلما وصلوا قال يا رجال مرادي أخذ ملك جنوا وحكى لهم قصته وما جرى له فقالوا لأي شيء تأتي أنت ونحن لك من بعض الخدام فنحن الليلـــة نأتي به ذليـــل مهان وانت انتظرنا في المركب لا تتعب سرك وصباح غد نقلع ونسير الى الديار فقال لهم بارك الله فيكم ثم انهم صبروا حتى انتصف الليل وسار ثلاثة من الرجال الى سراية الملك ونصبوا مفاردهم فصاروا داخل السرايا فصبروا حتى ما بقي أحد يتجول وانقضوا على غرفة الملك فبنجوه ووضعوه في كيس وشالوه ودلوه الى خارج السرايا ونزلوا وحملوه وساروا به الى المركب فاستقبلهم المقدم معروف وأثنى عليهم ثم انهم فردوا القلوع وساروا طالبين الديار حتى رأوا انهم صاروا بأمان أمرهم المقـــدم معروف ان يخرجوا الملـــك

فأخرجوه وصحوه فصاح أين انا قال المقدم أنت بين يدي صهرك المقدم معروف ثم قال له انت كتبت الى أمير المؤمنين تذكر له اني انا خنتك في ابنتك وأغويتها والحقيقة ان الله هداها للاسلام فأسلمت بدون اكراه ثم تزوجت حسب رغبتها وبموجب فتوى من شيـــخ الاسلام فقال الملك انا ارسلت الكتاب حسب ما بلغني من الاخبار قال المقدم معروف انا مرادي ارفع العتب واللوم عني واذهب بك الى امير المؤمنين بمصر وما زال المركب سائرا الى ان وصل الى الديار فخرج المقدم معروف وملك جنوا وساروا طالبين دير الشقيف فوجد المقدم ينتظره ففرح بيبرس بوصول المقــدم معروف بالسلامة ومعه الملك وثاني يوم ركب المقدم والامير وجعل الاتباع حراسا على مريم وساروا طالبين مصر وملك جنوا معهم الى ان وصلــوا فبينما السلطان جالس في الديوان واذ بالمقدم معروف داخل وصحبته الامير بيبرس وقد دعوا للملك بدوام العز والبقاء قال الملك أهلا وسهلا بالمقدم معروف بن جمر سلطان القلاع والحصون ثم أجلسه بجانبه وجلس بيبرس في مكانه ولما استقر بهم الجلوس قال الملك يا مقدم معروف انت من أذن لك ان تتزوج بنت ملك جنوا وهي في أماناتي فلما سمع المقــدم معروف ذلك الكلام قال خذ يا امير المؤمنين هذه الفتوى تنبئــك بالحقيقة قال الملك سلموها للقاضي لانه يعرف الاحكام الشرعية فأعطوها له وقال الملك اقرأها وافتي لنا بكل ما تقــدر عليه من الاحكام فقرأها القــاضي وقال يا امير المؤمنين من أبطلها أبطل الله رجاءه قال الملك والحق لمن قال القاضي الحق مع المقدم معروف وكذلك بيبرس ليس لهما ذنب في ذلك الامر ابدا وان الاسلام هداية من الله تعالى الى من أراد من عباده قال الملك ولاي شيء يكتب لي ملك جنوا ما تقدم ذكره قال القاضي يا مولانا السلطان من عدم اطلاعه على الحقيقة كتب ذلك فلما سمع الملك من القاضي ذلك الكلام قال وكيف نطلعه على الحقيقة فقال معروف يا امير المؤمنين أتيت به معي وها هو خلف باب الديوان قال الملك قد أصبتم بما فعلتــم احضروه لنرى ما

يقول فعند ذلك نهض الامير بيبرس وأحضر عثمان ومعه الملك وبعد ما جلس قال له السلطان انت ارسلت لي كـتابا تتهم فيه معـروف بالخيانة طلبت ان تتزوج سلطـان القلاع والحصون وجـرى الامر حسب طلبها ورغبتها فقال ملك جنوا اذا كانت هذه رغبتها فلا مانع بذلك ثم قال القاضى للسطان ارجو انتسمح لي بضيافة الملك عندي فسمح له بذلك فاخذهالى منزله آخر النهار ولما ان استقر بالجلوس خلع القاضي ما عليه من الملابس فظهر من تحتها ملابس الرهبان ودخل على ملك جنوا فلما رآه تعجب منه وقال له من انت قال له انا جوان فقـال له ولاي شيء انت عامـل قاضي المسلمين قال له لاجل مساعدة أتباعنا والقضاء على أخصامنا ثم قال أمض يا ولدي غدا الى بلادك وأرسل لي خزنـة مال حتى أستعين بها فقال له ارسل معي غلامك لاستلام المال فبعثه ثم سار الى بلاده فلما وصل أحضر المال وكتب كتابا الى جوان وأعطاه الى غلامه وبعث رجلا مع المال لاجل حمايته وصحبته غلام جوان وساروا طالبين مصر الى ان وصلوا واستلم جوان المال وأعطاه غلامه الكتاب ففضه وقرأه واذ خطابا من ملك جنوا الى بين أيادي أبونا جوان اعلم انني أرسلت بنتي تزور القيامة وتعود بالسلامة فأخذها معروف وبنجني وأخذني الى السلطان وما نابني الا ضياع بنتي وانت ايضا اخذت مني خزنة مال ولكن وحق ديني ان لم تبعث من يسرق بنتي وترسلها الى عندي والا أرسل الى ملك المسلمين كتابا وأعلمه بحقيقة حالك وأخليه يسفك دمك ويأخذ مالك فلما قرأ جوان المكتوب خاف على نفسه ثم كتب كتابا وأعطاه الى غلامه وقال له خذ هذا المكتوب يا ولدي وسر الى دير الزيتون وسلمه الى نعنع اميلي وقل له اعمل بما فيه وعد لي ثم كتب كتابا وأرسله الى جنوا الى الملك وهو خطابا من جوان اعلم ايها الملك انني أرسلت أسرق لك ابنتك وأعيدها اليك وسوف أدبر على بيبرس وآتي الى عندك وليس لك الا ما يسر خاطرك ولا بد من حضور ابنتك

اليك وحين وصول كتابي ارسل اولاد اختك الاثنين ورجالهم العياق الى الاسكندرية يسرقوا ويقتلوا فلابد ان تشتكي الناس الى نائب الاسكندرية وهو يرسل الى السلطان فأشير عليه بأنه ليس لها الا بيبرس وانزل انا معه بنفسي واذا وصلت الى الاسكندرية قبضت عليه وأرسلته اليك ثم ختم الكتاب وأعطاه الى رجل من أتباعه وقال له سر بهذا الى ملك جنوا فسار به ولم يزل سائرا الى ان وصل الى جنوا وأعطى الكتاب الى الملك فقرأه وفهم معناه وفرح بذلك وأنعم على السيار فانصرف الى حاله ثم انه أحضر أولاد أخته ماتون وبراميل وأعلمهم بما قال عليه جوان فجهزوا أنفسهم وساروا طالبين الاسكندرية ونزلوا عند أصدقاء جوان •

اما ما كان من المقدم معروف بينما هو في دير الشقيف واذ داخل عليه رجل تاجر وقدم اليه هدية قماش وغيره وقال له اكراما الى جدك أبي السبطين الامام علي عليه السلام ان تأخذ مني هذه الهدية فقال له المقدم معروف قبلتها ولكن لاي شيء تقدم لي هذه الهدية قال التاجر اريد ان ادخل بزمامك وعاريتك وتعطيني وريقة من يدك حتى لا يتعدى عليّ أحد وانا الآن انزلت أحمالي جانب الدير فقال له المقدم حبا وكرامة وكتب له ورقة وختمها وأعطاه اياها بأن لا أحد يتعرض لحامل كتابي هذا ومن يتعرض له لا يلوم الا نفسه والحذر ثم الحذر والسلام فأخذ الورقة من المقدم وشكره وعند الصباح حمل احماله ورحل فلما بعد قدر ساعتين بعث الاحمال والبغال مع رجاله الى دير الزيتون فساروا وبعد مسيرهم ضرب رأسه بحجر ومزق ثيابه وعفر حاله ورجع الى دير الشقيف وهو ينعي بالويل والثبور وعظائم الامور الى ان وصل الى المقدم معروف فقال له المقدم ما دهاك ومن بشره رماك قال يا حضرة المقدم بينما انا سائر مع تجارتي واذ طلعت علينا خيل واحتاطوا بالقافلة وأشهروا علينا السلاح وضربوا بعض رجالي فتقدمت اليهم وقلت لهم أنا ماشي بزمام ورعاية المقدم معروف بن جمر ، وهذه ورقة معي من يده بأن لا احد يتعرض لي قالوا

ني أننا لا نعرف معروف ولا غيره ثم انهم أخذوا متجري ومتاعي وقتلوا أتباعي وذهبوا طالبين الفلوات ثم اني بعد ذلك سألت عنهم فقيل لي هؤلاء من بني اسماعيل العاصين على المقدم معروف فقال المقدم بأي جهة جرى لك ذلك فذكر له جهة على بعد عشرين ميلا فقال له المقدم ابق انت هنا ثم ركب وركبت رجاله معه وأبقى في الدير رجلين لحراسة زوجته وسار الى الجهة التي ذكرها التاجر أميلي وفي اثناء جلوس أميلي مع حراس زوجة المقدم معروف صار يتأسف على متجره ويضع في فمه ملبسا فقال له احدهم ما هذا الذي تأكله فقال لهم ما هو من قدركم وناول لكل واحد كمشة ملبس واذ به جاعل جيبته قسمين قسم واضع به ملبس فيه مخدر وقسم كان يأكل منه خالي من المخدر فبعد ان أكلا منه بنصف ساعة داخا ووقعا على الارض مثل القتلى لا يعيا على شيء فلما رآهما هكذا انقض على مريم زوجة المقدم وبنجها وحملها وسار بها الى ان أقبل الى يافا ودخل على ملكها فسلم عليه فقال له من أين والى أين قال له أمرني جوان بسرقة مريم بنت ملك جنوا فسرقتها من عند زوجها المقدم معروف وها هي معي قال له وما الذي تريد ان تصنع بها قال أريد ان أسير بها الى أبيها قال له خذها وانزل بها حالا الى البحر لانني لا اقدر ان أحميك من معروف بن جمر فنزل بها الى البحر وسار طالبا جنوا وهذا ما كان .

واما معروف فانه وصل الى الجهة التي ذكرها التاجر وسأل عن هذا الامر فقالوا يا مقدم لا أحد يتعرض عندنا لاحد قال هل سمعتم او رأيتم رجالا أخذوا قافلة ومتجرا من هنا قالوا يا سيدنا ما سمعنا ولا رأينا أبدا ولو على بعد يومين والذي بلغك بهذا غلطان او غشاش فرجع المقدم هو ورجاله الى الدير فوجد الرجلين مغشيا عليهما فتفقد زوجته مريم فلم يجدها ثم ان معروف صار ينعي مريم وهو يبكي وعلم ايضا انها حامل منه فزاد لذلك وجده وتلهب فؤاده وتحسر ثم انه جمع الرجال وقال لهم قد جرى من الامر ما هو كذا وهو قضاء من رب السماء ولا بد ان اسير

في البلاد وأدور على زوجتي مريم وأقتل الذي كان السبب فانتبهوا لاعمالكم حتى أعود الى الاوطان فأجابوه بالسمع والطاعة وركب جواده وسار الى ان وصل الى يافا ودخل على ملكها وسأله عن مريم فقال له نعم أتى بها رجل الى هنا وسار بها الى أبيها ملك جنوا فتركه وقصد جهة البحر فرأى مركبا قاصدا جنوا فركب به وسار أما أميلي بعدما وصل بزوجة معروف الى يافا ركب في مركب هو ومريم وسار الى جنوا اما مريم فانها فاقت من غشيتها ورأت نفسها في مركب وسط البحر قالت من جاء بي الى هنا قال انا قالت ومن تكون انت قال انا نعنع أميلي قالت له ولاي شيء فعلت ذلك قال لها لان أباك أرسل يطلبك من جوان فجئت بك اليه فلما رأت ذلك الحال وما حل بها من الذل وما قد أصابها بعد العز بكت وسلمت أمرها لربها وباتت تطلب الفرج من الله واذ بالبحر هاج وماج وعصفت الرياح كما يريد الملك الفتاح فانكسر الصاري ودامت هذه العاصفة مدة ثلاثة ايام والقبطان لم يقدر يسير المركب ثم بعدها راق البحر فتوجه القبطان الى جزيرة تسمى العرانيس وفيها دير خراب وبها أخشاب وأحراش ليقطعوا لهم صاريا للمركب فخرجوا من المركب لاجل ذلك اما مريم فانها دب بها الطلق وزاد بها الوجع فقالت لسارقها أريد ان أقضي حاجة قال لها سيري وأقضي حاجتك لانه يعلم ان ليس لها سبيل للهرب فسارت بعيدا ودخلت هذا الدير فرأت حوضا فنزلت فيه وقد اشتد عليها الطلق فوضعت غلاما ذكرا كأنه البدر فلما وضعته لم تدري ما تصنع وخافت على ولدها فمدت له ثوبها في ذلك الحوض ووضعته عليه وقبّلته وقالت أودعتك عند الملك الديان الذي لا يخيب من قصده لان يا ولدي هنا آمن عليك لاني اذا أخذتك معي يرمونك في البحر ثم انها جعلت تودعه ثم تركته في ذلك المكان وهي تقول أقسمت عليكم يا خدام هذا المكان بالله العظيم وبحق جميع الانبياء والمرسلين انكم تحرسوا هذا الغلام من كل الانام ولا تسلموه لاحد من الناس الا لمن يحلف لكم بالاقسام انه يأخذه

ويوصله الى أمه وأبيه وهذه وديعتي عندكم فاحفظوها ثم انصرفت بعد ذلك الى المركب فأظهرت الجلد وأخفت الكمد ونزلت الى المركب وساروا ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى جنــوا فأخذها أميلي وطلع بها الى أبيها الملك وقال له هذه ابنتك قد أتيت بها فتقــدم الى ابنته ونظر اليها نظرة قاسية وقال لها أصحيح انك خرجت عن دينك وتزوجت مسلما الويل لك مني يا فاجرة سوف تلقين جزاء اعمالك ثم أخذهــا وهي تبكي الى السرايا حتى تراها أمها ولما دخلت على أمها وجدتها حزينة باكيــة لا يهدأ لها حال حزنا على ابنتها فأشفقت عليها ودخلت غرفتها وصارت تبكي على ابنتها ليلا ونهارا •

قال الراوي : اما ما كان من المقدم معروف فانه قصد جنوا الى ان وصل وطلع الى الديوان وسلم على الملك فسلم عليه ثم سأله عن مريم قال له هي عندي يا سيدي فاطمأن معروف وجعل الملك يحدثه بما كان من أمرها وقصتها وذكر له أنها ملازمة للاحزان فقال دلني على مكانها فبعث معه خادما دله عليها فقال يا مريم قالت من انت قال انا معروف فقالت مريم انت يا معروف سائر تدور عليَّ وتارك ولدك فأنا لا أبرح من هذا المكان حتى يأتي الي ولدي والا تكون هنا مقبرتي ثم بكت حتى أبكت معروف ثم قال لها وأين وضعتيه فقالت له بجزيرة العرانيس قال لها وما سميتيه قالت له عرنوس نسبة لهذه الجزيرة فقال لها والاسم الاعظم ما بقيت آتي اليك الا وولدك بصحبتي ثم تركها وسار الى الجزيرة ودخل ذلك الدير فلم يجد ولده وكان السبب في فقد عرنوس ان كنيار ملك القطلان كان في مركبه بالبحر فاختلفت عليه الرياح فطلع برجاله الى جزيرة العرانيس الى ان يهدأ البحر وصار يتجول في هذه الجزيرة الى ان دخل الدير الخراب واذ به يسمع بكاء طفل صغير فتعجب وأقبل على الصوت فرأى طفلا عاري الجسد فمد يده ليأخذه فما شعر الا وكف القاه الى الارض فنهض وقال يا أهل هذا المكان اعلموا اني انا أبو هذا الغلام وأريد ان أوصله الى أمه

لترضعه ثم مد يده فلم يعارضه احد فأخذه وسار الى ان وصل الى جماعته فركبوا وساروا في البحر واذ بمركب حجاج قاصدين البيت الحرام فتعرض كنيار ورجاله للمركب وأخذه فجعل أهل المركب يستغيثون فقال لهم كنيار ان كان معكم امرأة ترضع هذا الغلام أخذتها وترككم تسيرون بسلام وبالامر المقدر كان فيهم امرأة ترضع ومات ولدها فنهضت تلك المرأة وقالت انا افديكم ولكن ان وصلتم الى زين الاحبـاب فاقرأوه عني السلام ثم تقدمت الى كنيار وقالت له انا ارضعه لك فلما رأى كنيار المرأة أرضعت الغلام ترك الركاب يمضون حيث شاءوا وأخذ المرأة والغلام ووضعهما في مركبه وسار لبلاده ولما وصل أخلـى لتلك المرأة مكانا ورتب لها كل ما تحتاج اليه وسمى الغلام الديابرو ولقبه بعرنوس نسبة للجزيرة وظلت هذه المرأة ترضعه وتربيه عامين ثم انها فطمته وفي احدى الليالي كانت نازلـة على الدرج فوقعت من أعلى الدرج فقضت نحبها وفارقت الحياة فجـاء الخدام صباحا فوجدوها ميتة فأخذوا الغلام وطلعوا الى كنيار وأعلموه فتأسف وأخذ الغلام في حضنه وجعل يلاعبه فرفع الطفل يده فصابت عين كنيار فصرخ من الالم فجاؤوا له بمن يداوي له عينه فقالوا له عينك ما لها خواص فلما سمع ذلك قال ائتوني بالغلام فجاءوا به اليه فأراد ان يقتلـه فقال له احد وزرائه ان هذا الطفل لا يؤاخذ لانه لا يعرف الضار من النافع فقدم له التمر والجمر فان هو عـرف أيهما أحسن فهو يعرف فان أخذ التمر فاقتله وان اخذ الجمر فما عليه ملام فقال له لقد قلت الصواب ثم انه قدم له التمر والجمر فمد يده الى الجمر وأراد ان يأخذه فمنعه من ذلك وقال لا يلزمه شيء ثم كفل الغلام الى احد أتباعه ليربيه ويعتني به ويعلمه ما يلزمه وأخلى له وللغلام مكانا ووضع لهما كل ما يحتاجان اليه فصار هذا يربيه ويلاطفه وكل يوم يأخذه الى ظاهر البلد فنشأ الطفل وصار يمشي ويلعب وصار آية في الجمال الى يوم كان يلعب ومعه مربيه خارج البلد واذ بمعروف سائر في الطريق فرأى الغلام فخفق قلبه وحن اليه فتقدم الى

مربيه وسلم عليه وصار يتحدث معه وقال له هذا الغلام ابنك قال لا هذا ابن الملك كنيار وانا المربي له فأكد معروف بالغلام فرآه كثير الشبه به وله شامة على خده قدر العدسة وكان لمعروف مثلها فتعجب معروف وقال في سره هذا ولدي وليس هو ابن كنيار ثم قال لمربيه يا أخي انت كل يوم تأتي الى هنا قال نعم لاجل ان يلعب الغلام ويتنشط فصار معروف كل يوم يأتي الى هذا المكان ويأتي للغلام بأشياء تحلو للاطفـــال فصار عرنوس يستأنس بمعروف ويلقي نفسه بين ذراعيه مدة عشرة ايام وكان معروف يظهر الجلد ويخفي الكمد ومراده يأخذ الغلام ويرحل بسلام ولكن كان ينتظر الفرص لان الارض جزيرة وليس منها مفر الا بركوب البحر فلمـــا رأى مربي الغلام هيام معروف بالغلام رابه أمره وحكى الى كنيار بذلك الشأن فقال له كنيار اذا جاءك اليوم ضيفه عندك خذ هذه الصرة وضع منها في الطعام الذي يأكل منه وعندما يأخـــذ عليه المخدر تأتي الى عندي وتخبرني قال سمعا وطاعة فجاء معروف مثـــل عادته ولا يعلم بما دبر له وصار يلاعب الغلام ويقول له انت شريف من ظهر شريف انت ابني ونور عيني وكان هذا دأبه كل يوم فالتفت اليه مربي الطفل وقال اريد ان اضيفك عندي فهل تتكرم عليّ بقبول دعوتي فقال معروف على الرأس ثم العين لان معروف كان يرغب بمعرفة مكان الغـــلام فذهب معه واذ به يقـــدم لمعروف المآكل المخدرة فأكل مما قدمه اليه فما استقر في جوفه الاكل الا ووقع الى الارض لا يعي على شيء فذهب المربي وأخبر كنيار بما جرى فأتى بالحال فرأى معروفا فاقد الحس والادراك فتفقد سلاحه فرأى مكتوبا عليه المقدم معروف سلطان القـــلاع والحصون فاندهش وصار يثني على مربي الغلام ثم أتى بقيود وأغلال وقيـــده من رجليه ويديـــه بجنزير من الحديد وسار به الى سجن مبني من الرصاص والبحر يحيط به من ثلاث جهات وله طاقة بالعالي وشباك له قضبان حديد بالعرض والطول وهو على علو رأس الانسان وله باب من الحديد المصفح من داخل سراية كنيـــار

وجعل له مقعدا من الخشب وعليه لباد وحرام ومخدة من القش وجعل له داخل السجن محلا لاجل زيح الضرورة وعلق سيفه ودرعه بالعالي في السجن ذاته ثم صحاه وأغلق الباب وقفله ووقف على الشباك فتفقد معروف نفسه فاذا هو على هذا الحال فقال اين انا قال كنيار انت عندي اما انت معروف بن جمر الذي يقولون لك سلطان القلاع والحصون انت الذي تريد ان تأخذ ولدي وتهرب به ولكن هنا قبرك حتى تلقى وجه ربك فقال له معروف وقد رأى نفسه مسجونا يا كنيار اعمل معروف وأطلق سبيلي فأكون عدوا لاعدائك وصديقا لاصدقائك وقال عمري ما قلتها لاحد قبلك وانا في وجهك يا كنيار فقال كنيار هيهات هيهات فقال معروف وانا ان أحسن ربي خلاصي ونجاتي مما انا فيه لانتقم منكم انتقاما فظيعا وأجعل من دمائكم بحرا فقال له لما تنجو من الموت افعل ما تريد ثم تركه وصعد على الدرج ووكل له جارية تأتي اليه بالطعام وعرفها كيف تعمل ٠

اما معروف فانه أظلمت عليه الدنيا ودوى عليه البحر قال أين الاصحاب أين الاهل والاحباب اين الذين كانوا يقولون نحن لك ولو جار الزمان أين عيناك يا عماد الدين يا ابن الاخت ثم قال يا رب أدركني بفرجك القريب فهذا ما كان من أمره نرجع بالنص الى الملك الصالح أيوب بينما هو جالس بعد ان تكامل الديوان واذ بنجاب داخل وهو يقول سبحان هادي الطير فقال الملك وساتر العيب وراحم الشيب من أين قال يا مولاي من الاسكندرية فأخذ الملك الكتاب وقال خذ يا قاضي الديوان اقرأ لنا فأخذه القاضي وقرأه واذ فيه خطابا من نائب الاسكندرية الى بين أيادي امير المؤمنين الذي نعلمكم به انه قد ظهرت عندنا سرقات كثيرة فتعقبنا الامر بذلك وعجزنا ان نقبض على الفاعل وأصحاب الاموال المسروقة يلحون علينا في القبض على المجرمين وارجاع أموالهم اليهم لذلك أرسلت اليك يا أمير المؤمنين ان تدركنا بمن يساعدنا على قبض الغريم والسلام على نبي ظلله الغمام وكان سبب ذلك ماتون وبراميل اللذين أرسلهما ملك

جنوا الى الاسكندرية بمشورة جـوان قال الملـك يا قاضي ومن الذي يكشف لنا هذه الغمة قال القاضي ولدكم بيبرس ليس لنا غيره وانا اكون معينا له فألبسوا بيبرس نائب الاسكندرية ثم ساروا الى الاسكندريـة فاستقبلهم نائبها وطلع الامير بيبرس ورجاله وعثمـان الى الديـوان اما القاضي فانه من اول وصولـه الى الاسكندرية ما ظهر له خبر اما الامير بيبرس فصبر الى الليل بعد ان نامت العيون ونزل وهو متنكر واذ برجل ماش ومسرع لكنه غريب الشكل فقال في سره ان صدقني حزري هذا هو الغريم فتعقبه فصار الشخص يتلفت على الامير فزاد يقين الامير انه هو الغريم وله رفقاء فتبعه الى ان دخل في حارة وعبر من بوابة فلحقه الامير الى ان انتهى الى مكان واسع والامير وراءه فرأى جوان جالسا وغلامه البرتقش الى جانبه وحوله أربعون عايقا فلما رأى الامير ذلك قال هذا هو القاضي لا محالة ليتني طاوعت عثمان فلا شك انه من اصحاب الكرامات فكم مرة حدثني بأن القاضي جوان وأنا لم أصدقه في ذلك وقد تقـدم العايق الى جوان وقال له لقد تبعني شخص من رجال بيبرس او هو نفسه لم أدر وهو خلف الباب يشاهدنا ويسمع ما نقول فأسر جوان في أذنـه اذهب انت ورجل آخر ومع كل واحد حجر وقفوا فوق الباب وانا أشجعه على الدخول فحين دخوله أرموه بالحجارة فعملوا مثل ما أشار به جوان فصاح جوان بصوت عال لا يختبىء وراء الحيطـان الا الجبان فانحمق الامير بيبرس ودخـل عليهم بقلب أقوى من الصخر وأراد أن يضربهم بالحسام واذ بحجر جاءه على رأسه وحجر آخر على ظهره فوقـع على الارض فارتموا عليه وبنجوه ووضعوه في صندوق وأغلقوه عليه وقال لهم جوان خذوا هذه الصناديق الى البحر وأكون انا بزي القاضي وأجلس على هذا الصندوق وأنتم في زي التجار فاذا رآني امير البحر لم يتعرض لي بشيء اما انتم فامضوا بكل ما معكم الى جنوا فقالوا سمعا وطاعة ثم انه لبس ملابس القاضي وسار مع الصناديق الى ان وضعت على المينـاء

وجلس القاضي على الصندوق الذي فيه بيبرس فأتى امـير البحر فرأى القاضي فسلم عليه واحترمه فقال له القاضي اسمح لهم بانزال هذه الصناديق يا ولدي لانهم تجار محترمين وانا اعرفهم فلا تكلف نفسك بفتحها وتفتيشها فقال له امير البحر كما تريد يا سيدي وسمح لهم بالنزول بدون ان يفتشهم ومعهم الصندوق الذي فيه الامير بيبرس ومن ساعتهم أقلعوا وساروا في البحر الى جنوا اما جوان فانه اختفى هو وغلامه وما عاد بان .

قال الراوي : اما عثمان فانه سأل عن الامير بيبرس فقالـوا له خرج بالليل وما نعلم الى أين ذهب فما عرف عثمان أين يفتش عنه فخرج هائما على وجهه حتى أقبل على ميناء البحر فسأل أمير البحر عن الامير بيبرس فقال ما رأيته أبدا ولكن جاء القاضي الى هنا وتكفل تجارا معهم صناديق وقال لي انه يعرفهم وأرسل معهم صندوقا كبيرا لا اعلم ما به فقال له عثمان يا مغفل لاي شيء ما كشفت على الصناديـق وبالاخص الصندوق الكبير وان صدقني حزري يكون الامير بيبرس موجودا فيه وما هذه الصناديق التي أنزلوها الا اموال الناس والتجار بالاسكندرية يا مغفل يا قصير النظر والله حرام عليك ان تقوم بهذا العمل والى أين كان اتجاههم قال أظنهـم توجهوا الى جنوا فضرب عثمان كفا على كف ثم قال في نفسه لم يكن سبب ذلك الا الملك الصالح ثم انه ترك الاسكندرية وسار الى مصر فبينما الملك الصالح جالسا في الديوان واذ بعثمان طالع فقال الملك أهلا بعثمان فقال لا سلام ولا كلام أنا ما أطلب سيدي بيبرس الا منك قال الملك وأين هو يا عثمان قال له انت قد أرسلته الى الاسكندرية والقاضي ظهر أمره وهو اكبر مساعد على سرقة اموال الناس وحكى للملك قصة الصناديق وكيف أنزلهم ومعهم صندوق كبير وقال ان به سيـدي بيبرس وبعدها اختفـى القاضي المزيف وما عاد له أثر لانه ظهر عليـه فكم مرة حذرتكم منه يا مولاي فلا تعتبروا كلامي فقال الملك لا يعلم بالغيب الا الله يا عثمان ثم ان الملك قال يا وزير شاهين اكتب كتابا الى ملك جنوا ان يرسل لنا الامير

بيبرس قال أمرك يا مولاي اما العياق ماتون وبراميل ورجالهما بعدما توسط لهم القاضي جوان بأن لا يكشف امير البحر على الصناديق نزلوا في البحر طالبين جنوا وبعد ان بعدوا عن الاسكندرية وصاروا بأمان اخرجوا الامير بيبرس من الصندوق فأنعشوه وصحوه اما جوان وغلامه البرتقش بعدما ساروا انزوى جوان الى مكان في الميناء ونزع عنه زي القضاة وتزيا بتجار الافرنج ونزل في مركب قاصد جنوا هو وغلامه الى ان وصل وقصد ديوان الملك وجد العياق سابقينه ولما استقر به الجلوس قال جوان هاتوا بيبرس فأتوا به الى بين يديه فأمر ان يرموه في نطعة الدم فرموه وهو مكبل بالقيود والاغلال وقال لبيبرس الآن قد بلغت مرادي منك وقد وقف السياف عند رأسه منتظر الاشارة واذ نهض وزير وقال للملك أمهل هذا الشاب لا تقتله الآن بل اسجنه لنرى ما تأتي به الايام لان هذا من ورائه ملك المسلمين والفداوية وأنا أنصحك ان لا تستعجل بقتله قال جوان وانت كل هذا خايف من ملك المسلمين قال له الوزير أنا خايف على تجارنا واموالهم لان مراكبنا دائما ذاهبة الى الاسكندرية وعائدة منها فأخاف ان ينتقموا منهم ونحن اذا قتلنا هذا نكون قد جلبنا الى غيرنا الاذى والضرر وثانيا لاي شيء تقتل هذا! هل قتل لك ولدا او أخذ لك اموالا فقال الملك انا ليس لي عنده ثأر ولكن هذا رأي جوان قال له الوزير ان جوان يقتله ويذهب الى حال سبيله ونحن نقع بالمصيبة والضرر قال الملك رأيك هو الصواب فأمر بأخذ بيبرس الى السجن وان يتلطفوا به ويخففوا عنه القيود هذا ما كان من هؤلاء واما الوزير شاهين بعدما أمره السلطان ان يكتب الكتاب فكتبه وأعطاه الى الملك ليراجعه ويختم عليه واذ فيه خطابا من أمير المؤمنين وخادم الحرمين الى ملك جنوا أيها الملك ما هذه المهازل التي تقومون بها ان الملوك تركب بجيوش وتغزو وليست ترسل عياقا ولصوصا لاذى الغافلين والضعفاء والآن اقسم بمسير الاكوان ان لم ترسل ولدي الامير بيبرس معززا مكرما وترسل معه اموال الناس والتجار بالاسكندرية

وترسل خزنتين من المال الواحدة لولدي بيبرس والثانية للذين تضرروا بهذه الاحوال والا صادرت اموال تجاركم وذبحتهم ذبح النعاج وأسير اليك بجيوش لا قبل لك بها واخرب ديارك فالحذر ثم الحذر من الاهمال لانك سترى ما لا يسرك والسلام ثم ان الملك بعدما قرأه وافق عليه وختمه وأعطاه الى السيار وأمره بالسرعة برد الجواب اما جوان عندما أمر الملك بوضع بيبرس في السجن رحل وهو مقهور اما ملك جنوا فيوم جالس واذ بنجاب حامل كتاب فأعطاه اياه ففضه وقرأه واذ به صار يرتجف كالبردان واصفر لونه فقالوا له ما دهاك يا ملك فأعطاهم الكتاب فقرأوه ووجدوا فيه ما لا يسر فقال الوزير الذي نصحه هذا الذي كنت حاسبه فلو كنت قتلته كنا ندمنا ولا نفعنا جوان ولا غيره والآن أسرع وأبعث الى السلطان بما طلب قبل فوات الاوان فحالا ارسل الى السجان باخراج بيبرس من السجن ونزع الاغلال عنه وأقبلوا به الى الملك فاستقبله واكرمه واعتذر له وأمر باحضار اموال الناس بالاسكندرية وخزنتين من الاموال صحبة الامير بيبرس واعتذر له عن الاعمال التي اقترفها جوان اما الامير بيبرس فانه ركب احد المراكب الى الاسكندرية وصحبته أموال وأسلاب الناس والتجار وخزنتان من الاموال والنجاب الذي جاء بكتاب أمير المؤمنين ولما وصل أرسل الى التجار والى كل من فقد له شيء من مال وغيره يأتي يأخذه من الديوان الى ان ما بقي لاحد شيء مفقود وثاني يوم ركب الى مصر وعند وصوله توجه الى الديوان فاستقبله الملك وقبّل بيبرس يده ودعى له بالنصر وسلم على الوزير شاهين وباقي الوزراء والامراء وقال بهمتكم يا مولاي أرجعت أموال الناس بالاسكندرية وأعطيتها لاصحابها وها هما الخزنتان أرسلهما ملك جنوا كما أمرتم فقال له الملك بارك الله فيك خذ يا ولدي لك خزنة والاخرى فرقها على المتضررين بهذه الاحوال بالاسكندرية وخذ هذا الامر السلطاني برجوع نائب الاسكندرية الى منصبه وعد اليّ حالا فثاني يوم سار الى الاسكندرية وسأل عن الذين تضرروا وعوض عليهم

اضرارهم وأعطى الامر السلطاني الى نائب الاسكندرية ورجع بالحال فأخبروه ان الملك الصالح مريض فعاد مع الوزير شاهين وأحضرا له طبيبا فجس نبضه وقال يا أمير المؤمنين انك بخير من رب العالمين ولكن يوافقك مكان يكون معتدل الرياح تقيم فيه شهرا من الزمان تبرأ باذن الله قال الملك وأين يوجد ذلك المكان قال له بأرض المنصورة يا مولاي قال الملك توكلت على الله ثم ركب الملك والوزير بالمركب المعد للسلطان حتى أتوا الى المنصورة والحكيم معه وقد اصطنع له فيها مصطبة قريبة من البحر وحوله الاشجار والازهار فأقام بها شهرا فبريء باذن الله ثم ان الملك أمر بالرحيل فنزلوا في المركب وعادوا الى مصر ونجاه الله مما اعتراه ولما أتى الى مصر زار الامام الشافعي وزار الصالحين وعاد الى مكانه ومكث قليلا من الايام ثم عاد اليه المرض الذي كان اعتراه وزاد به الحال فقال أين ولدي بيبرس فأتى اليه وقال له الملك يا ولدي أريد ان تبني لي جامعا ومقاما فنزل بيبرس وأحضر المعلمين والمهندسين وشرعوا في المقام والمسجد فلما تم البناء أعلم السلطان باتمامه فقال الملك لازم نصلي الجمعة في مسجد سيدنا الحسين وننزل تتفرج على المسجد والمقام فلما كان يوم الجمعة ركب الصالح ايوب وهو مريض وصلى ثم سار الى المسجد والمقام فأعجبه البناء ورجع الى تخته وأراد الجلوس فلم يمكنه ذلك لشدة المرض ثم انه قام وسندوه من تحت ابطه الى ان وصل الى مضجعه ولما كان في بعض الايام والملك في فراشه قال انا لله وانا اليه راجعون ديروني على القبلة فأداروه وقال أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله وفارقت روحه الدنيا رحمة الله عليه فعند ذلك حضر كافة ارباب الدولة وشاع الامر في سائر البلدان بأن الملك الصالح توفاه الله فهرعت العالم وأذنوا في المنارات ثم جهزوه وقرأوا عليه ما تيسر من القرآن الكريم وحملوه على الاعناق وهو أخف من ريش النعام حتى أتوا به الى مقام سيدنا الحسين فصلوا عليه وواروه في مقبرته التي بناها فسبحان الحي الذي لا يموت

وبعد مـرور أربعين يوما على وفاته جمـع الوزير شاهين أرباب الدولة والوزراء وقال ما رأيكم ومن تريدون ان يجلس على كرسي السلطنةفطمع بعض الوزراء والامراء وصار كل واحد يريدها لنفسه فقالت الاكـراد وأبناء عم السلطان لا ملك يكون الا من نسل الملك وان السلطان الراحل له ولد في بلدة تكريت يقال له عيسى طوران شاه فقال الوزير لنرسل اليه مكتوبا ثم انه سطر له كتابا وختمه وأرسله مع رجل من الاكراد الايوبية وصحبته عشرة فوارس فلم يزالوا سائرين الى ان وصلوا الى ديار عيسى طوران شاه فدخلوا عليه فاذا هو جالس تحت شجرة وبين يديه الكأس والخمر فقال بعضهم انظروا ما يفعل هذا وأبوه الملك الصالح ما كان يأكل الزفر الا يوم العيد وهذا يشرب الخمر فتقدموا اليه وسلموا عليه فـرد السلام وناولوه الكتاب واذ فيـه خطابا من الوزير شاهين الى بين أيادي عيسى طوران شاه اعلم ان الدنيا لا تدوم لاحد من الناس وان اباك قد انتقل منذ شهرين الى رحمة الله وقد تقرر الحال على انك تكون ملكـا علينا وها نحن أرسلنا اليك لتحضر وتجلس على تخت والدك والسلام .

فلما قرأ الكتاب اغرورقت عيناه بالدموع وأراق الخمر الذي بين يديه على الارض ثم أمر لهم بضيافته وثاني يوم تجهز للرحيل الى مصر وأخذ معه بعض الرجال وحامل الكتاب ورجاله وتوجه الى مصر هذا ما كان منه واما ما كان من الوزراء والامراء فانهم ركبوا لاستقبال الملك عيسى طوران شاه فاجتمعوا به في دمشق الشام ثم أقيمت الافراح والعزائم مدة سبعة ايام وبايعه الوزراء وامراء الجيوش وارباب الدولة على ان يكون ملكا عليهم وان يطيعوه ثم ارتحلوا الى مصر ودخلوها في نهار يعد من الاعمار الى ان وصل الى قلعة الجبـل وجلس على تخت السلطنة فبايعه الخاص والعام ولقب بالمعظم وثاني يوم ترتب الموكب وركب امير المؤمنين عيسى المعظم في موكب عظيـم حتى أتى الى مقـام الحسين وصلى وزار وفرق وأوهب ثم سار الى مقام والده الملك الصالح ومسك التابوت وقرأ الفاتحة

ودعا لابيه ثم أخذته سنة من النوم فرأى الملك الصالح في نومه وقال له تسلطنت يا عيسى قم قاتل على خيرة الله فقام وهو يبكي وسار الى الديوان وجلس يتعاطى الاحكام فقال الوزير مرادنا نزوج السلطان فخطبوا له بنتا من ابناء عمه وزوجوه من غير مهرجان فبارك له الجميع فقال له الامير بيبرس سرا سمعت انك تشرب الخمر وهذا شيء حرام فقال له انا تبت ولم أعد أشرب ابدا فأشهد عليّ بذلك والله خير الشاهدين وفي يوم من الايام بينما الملك جالس في الديوان واذ بنجاب يدخل ويسلم فقال له الملك من اين قال من دمياط يا مولاي قال الملك اعط الكتاب الى الوزير شاهين يقرأه فأخذه وقرأه واذ به خطاب من نائب دمياط الى بين أيادي أمير المؤمنين بينما نحن مقيمون يوم تاريخه واذ اظلم الجو وبان لنا عن عسكر جرار مقبل من ناحية البحر فأرسلنا نكشف الخبر فاذا احد ملوك الافرنج خرج من البحر وصحبته جوان وجيوش كالجراد المنتشر أدركنا يا امير المؤمنين قبل ان يحل بنا ريب المنون ربنا يؤيدك بنصره والسلام على صاحب المعجزات قال الملك ما ترى يا وزير الزمان فقال له الوزير ارسل بالحال الجيوش لتقف في وجههم وأعلن الجهاد في سبيل الله فقال من يكون قائد الجيش قال له الوزير ابعث الامير بيبرس الآن بالجيش وبعده تخرج انت بجيوش المسلمين والله يعطي النصر لمن يشاء ثم ان الملك ألبس بيبرس قائدا للجيش وسيره لملاقاة الاعداء وأعلن الجهاد الاكبر وخرج على أثره مع ارباب الدولة وأبطال ورجال الاسلام اما سبب مجيء هذه الجيوش وغزوهم بلاد الاسلام فهو جوان لما خرج من عند ملك جنوا قال له غلامه سيف الروم الى أين تريد قال له اريد ان اتوجه الى ملوك الافرنج لعلي أغريهم بغزو بلاد المسلمين ثم سار الى ان وصل الى لويس السابع ملك الافرنج وكان كثير الجنود ويحكم على ثلاثة أقاليم فلما دخل عليه جوان استقبله وحياه ثم أجلسه في أعز مكان فصار جوان يرغبه بالغزو والجهاد ويغريه الى ان طاوعه فأمر بتجهيز الجيوش وجمع العساكر من كل

مكان وساروا بالبحر وخرجوا الى أراضي مصر وزحفوا الى ان وصلـوا الى المنصورة فالتقاهم الامير بيبرس بجيش المسلمين وقد غر لويس الطمع بامتلاك البلاد فقسم جيشه الى قسمين الاول حاصر دمياط والثاني توجه الى المنصورة اما بيبرس أمر الفلاحين وأهل البلاد ان يحولوا ماء بحـر النيل لجهة جيش اللئام الموجـه الى المنصورة فلما حولوا الميـاه غرقت خيولهم بالماء والوحول وغرق منهم ناس كثير في مياه النيل فانقضت عليهم جيوش المسلمين وأهل البلاد وقتلوا منهم مقتلة عظيمة والذي بقي منهم أسروه ومن جملتهم الملك لويس ووضعوهم في سجن المنصورة ثم توجهوا الى دمياط واذ بالملك المعظم أتى بجيوش المسلمين الى دمياط فانضم جيش بيبرس المنتصر الى جيش الملك المعظم ثم نصبوا الخيام مقابل جيش الاعداء وباتوا يتحارسون الى الصباح فقال الملك ابرزوا اليهم يا عصبة النبـي المختار فنزل الامير بيبرس وبرزت اليه اللئام وهو يتلقاهم بحد الحسام ولم يزل على ذلك الحال الى آخر النهار ثم بات الفريقان الى ثاني الايام نزل الامير بيبرس بعزم واهتمام وصار يقتل ويأسر حتى جاء وقت الظهر فقال جوان ما هذا التوانـي والكسل ابرزوا اليه بأجمعكم فساروا اليه فتلقاهم بقلب أقوى من الصخر وكان الوزير شاهين أمر بالهجوم وطلع الملك المعظم الى المنظرة وجعل يتفرج على الحرب فجاء على باله ان يتناول كأسا من الخمر فقال لخادمه اسقني فتقدم اليه يناوله الكأس فسطع الكأس ولمع في الشمس فلمحه الامير بيبرس فأتى اليه وسيفه مشهور وهو يقول مه يا أمير المؤمنين لا تشرب المنكر بل اطلب الفرج من الله تعالى والنصر على الاعداء فقال معاذ الله يا بيبرس ان اشرب وأراد ان يرد الكأس الى خادمه فسقط من المنظرة الى الارض على أم رأسه ومات بالحال فحملوه الى الصيوان وعاد الامير الى المعمعـة وصار ينخي الرجال فكرت معه الشجعان وحملوا حملة صادقة فما كانت الا ساعة حتى ولت اللئام وركنوا

الى الفرار وتبعتهم الابرار وصارت تقتل منهم وتأسر الى ان ولى النهار وهرب جوان وغلامه البرتقش ولم يبق من جيوشهم أحد •

اما الامير بيبرس فقد اتهمه أعداؤه بقتل الملك طوران شاه فقال الوزير شاهين هاتوا بينة عليه بذلك قالوا نحن كنا مشغولين بالقتال ما رأيناه ولكن هكذا سمعنا فقال الوزير هاتوا خدام الملك فشهدوا انه وقع قضاء وقدرا ومات وما احد رماه فبرأوا الامير بيبرس من قتله اما الوزير شاهين فانه اهتم بأمر السلطان فبعدما غسلوه وكفنوه شيعه وعمل له مشهدا عظيما ودفن بقبره في فارس كور ثم أمر الوزير بالرحيل الى مصر فرحلوا ودخلوها بغير زينة ولا مهرجان وجلس الآغا شاهين في الديوان وفرق الغنائم وأعطى كل انسان ما يستحقه ثم تشاوروا فيمن سيكون سلطانا عليهم قال أيبك للوزير انا وليتك سلطانا فاحكم بالعدل قال الوزير هذا لا يكون ابدا فاختلفوا فيما بينهم فوصل الخبر للست شجرة الدر زوجة الملك الصالح فأرسلت اليهم تقول انا احق بالسلطنة ومعي حجج بذلك وانا اتولى امركم وأقيم وكيلا عني يحكم بالعدل فقال الأكراد رضينا بذلك ورضي ايضا الاتراك وتسلطنت الملكة شجرة الدر وضربت العملة باسمها والخطبة كذلك ولم تزل الاخبار تصل من مكان الى مكان حتى وصلت الى الحجاز فلما سمع شريف مكة بذلك أرسل يلوم الوزراء في دولة الاسلام وان هذا تقليد الكفار فاما ان تولوا من تعتمدون عليه من الرجال والا فنحن أحق منكم بهذا فلما وصلت الاخبار وسمعت بها شجرة الدر قالت انا تنازلت لكم فولوا عليكم من تريدون فوقعت المشاجرة فيما بينهم فقالت العلماء اقترعوا ثم كتبوا الاوراق بالقارعة وكل انسان كتب اسمه في ورقة ومد الوزير شاهين يده فسحب ورقة وتأملها واذ مكتوبة باسم أيبك قال العلماء الآن صارت السلطنة حقا له فنصبوه سلطانا عليهم وجلس على تخت السلطنة الى يوم من الايام واذ مقبل نجاب فسلم ودعى للملك بالنصر ودوام العز والنعم قال له الملك من اين قال من الاسكندرية

يا مولاي فأخذ الحاجب منه الكتاب وأعطاه للملك ففضه وقرأه واذ به من نائب الاسكندرية الذي نعلمكم به يا امير المؤمنين يوم تاريخه ورد على ميناء الاسكندرية مركب وهو رافع علم السلام ورسى على المبناء اذ ينزل منه وزير واتباع وهم من الافرنج فسألناهم ماذا تريدون قالوا نريد مواجهة السلطان فأنزلناهم في دار الضيافة واعلمناكم والامر أمركم فلما قرأ الملك الكتاب أعطـاه الى الوزير وقال له اقرأه وأعطنا الجواب فقرأه الوزير وقال ارسل يا امير المؤمنين لهذا الوزير ان يمثل بين يديك لنرى ما يريد فقال الملك اكتب ايها الوزير الى نائب الاسكندرية ان يرسله لنا واتباعه فكتب الوزير الى النائب بارسالهم حالا الى مصر فأرسلهـم فبينما الملك جالس بالديوان واذ مقبل هذا الوزير وأتباعه وهم يسلمون ويخضعون للسلطان فسأل كبيرهم بواسطة الترجمان ماذا تريد قال يا ملك الزمان جئت بهذا الوفد لاجل المفاوضـة في فك أسر الملـك لويس السابع ومن معه من الاسارى فاطلبوا يا جلالة السلطـان ما تريدون من المال نأذن لكم بالحال لاننا أحضرناه معنا وهو في المركب بالاسكندرية فسأل الملك الوزير شاهين ما نطلب منهم من الاموال فسأل الوزير كبير الوفد ما هو المبلغ الذي أتيتم به لاجل فك الملك ورفقائه من الاسر قال كم تريدون قال مائتي الف دينار قال كبير الوفد أتينا بمائة الف دينار لا غير فتشاور السلطان والوزير في هذا الامر فوافقوا على ان يأخذوا المائة الف دينار ويعطوهم ملكهم والاسارى فقال الوزير شاهين لكبير الوفد أحضر المال وخذ الملـك لويس والاسرى فاحضروا المال فلما استلموه أخذوا الملك والاسرى وتوجهوا الى بلادهم •

قال الراوي : اما السلطان أيبك التركماني فقد أشار عليه بعض محبيه ان يخطب الملكة شجرة الدر ويتزوجها فيصير اقوى له بالملك قال لهم انا موافق على ذلك فمن يخطبها لي قالوا ليس لها الا الامير بيبرس لانهـا اتخذته ابنها وله وجاهة عليها فلما كان الغد جلس المعز أيبك على تخت

ملكه وخاطب بيبرس بقوله يا ابني بيبرس قال نعم قال مرادي أتمنى عليك قال له اطلب ما تريد يا مولانا قال له ما في الحلال عيب لاني جئتك خاطبا راغبا في أمك الست فاطمة شجرة الدر فلا تردني خائبا فلما سمع الامير ذلك الكلام سكت وما أجاب بشيء فقال له الوزير اعلم يا ولدي أنـك رسول وما على الرسول الا البلاغ اذهب اخبر الست بذلك فان رضيت فلا بأس وان لم ترض فتكـون قد أديت الامانة فأجاب بيبرس السمع والطاعة وسار الى أمه ووقف لا يدري ما يقـول فلما رأته الست فاطمة قالت له أهلا وسهلا بك ما تريد يا ولدي قال لها لا شيء وكانت وصلت لها الاخبار بذلك فقالت له ألست آتيا تخطبني لابيك قال نعم ثم قالت له والله يا ولدي كنت مصممة ان لا اتزوج بعد زوجي الملك الصالح ولكني رأيته في نومي وهو يقول لي يا حجة فاطمة ما في الحلال عيب اذا دعيت الى الزواج فتزوجي والآن مقبل اليك بيبرس فاقبلـي وساطته والا غضبت عليك والآن قد قبلت وساطتك فاخبرني بما جرى فأعاد عليها القصة فقالت له اذهب الى الآغا شاهين وقل له ان يكون وكيلي فذهب الى الديـوان وقال للوزير شاهين لقد قبلت والدتي بأن تتزوج السلطـان أيبـك وقد وكلتك في هذا الامر فقال الوزير قل لامك تأتي وتقف خلف الستار حتى نسمع كلامها والعلماء حاضرين فأخبرها بذلك فأتت ووقفت خلف الستار قال الوزير لايبك يا ملك الزمان انا وكيل الست فاطمة فهل أنت رضيت بذلك قال رضيت قال الوزير وأنت ما تقولين يا سيدتي قالت قلت ولكن لي شرط أن لا أسكن بغير سرايتي قال أيبك رضيت ثم قرئت الفواتح على هذه النية وثاني يوم عقدوا على أيبك وشربوا الشرابات وأقيمت الافراح سبعة ايام ثم أدخلوه على الست شجرة الدر فاستقبلته الجواري والمغنيات وصارت ليلة عرس لايبك ما لها مثال وثاني يوم خرج الى الديوان وجلس على تخته وصار يتعاطى الاحكام مدة من الزمان الى يوم من الايام ضاق صدره فخرج هو وبعض الامراء والمماليك من مصر لاجل الترويح عن

النفس وبينما هو راكب على جواده والمماليك وراءه رأى بدوية حاملة جرتها ومتوجهة الى بحر النيل لتملأها منه وهي ذات حسن وجمال فتعلق قلب أيبك بها وقال لها يا ذات الحسن انت بنت من من العربان قالت له أنا بنت شيخ العرب حسان ثم مضت بعد ذلك الى أهلها فسار أيبك ومن معه خلفها حتى عرف قبيلتها فسأل عن أبيها حسان شيخ العربان فقالوا له ها هو جالس مع العربان فسار اليه وسلم عليه فاستقبله حسان بالاكرام والانعام وأضافه تلك الليلة ولما ان طاب الكلام قال الملك يا مقدم حسان قال له نعم قال انا جئتك خاطبا وبك راغبا ان تزوجني ابنتك فقال له لم تتشرف بعد بمعرفة اسمكم الكريم قال انا السلطان المعز أيبك فلما سمع ذلك حسان قام على الاقدام هو وأكابر عشيرته وقال يا امير المؤمنين ليس علينا ملام بتقصيرنا بالخدمة والواجبات لاننا لم نعرف جلالتكم اول الامر واني وابنتي سالمة خادمان للسلطان قال أيبك بارك الله بكم ثم أمهرها أرضا واسعة وأسقط عنهم الخراج وكتب له حجة بذلك ففرح ابوها بتلك النعمة ثم أقام أيبك عندهم الى الصباح وركب وسار مع مماليكه الى ان وصل الى الديوان وجلس وأمر باحضار رئيس المهندسين فحضر بالحال قال له عمّر لي قصرا في جهة الغواطة وسمه بقصر البدوية فأجاب بالسمع والطاعة وبنى ذلك القصر المشهور وبعد ان تم بناء القصر أقبل الى السلطان وأعلمه به فأنعم عليه واكرمه ثم أمر بنقل البنت الى قصرها فأتت بها أمها وأختها الى القصر وأقيمت الافراح مدة سبعة ايام والناس في حظ ولعب فلما كانت ليلة الجمعة دخل عليها أيبك وتملى بحسنها وجمالها وأقام ليله ونهاره عندها لا يسير الى ديوان ولا يذهب الى زوجته شجرة الدر ولا الى زوجته الاولى ام احمد مدة شهر كامل هذا وقد تعطلت بعض المصالح في الدولة ودبت الغيرة بامرأته شجرة الدر وامرأته ام احمد ولذلك اتفق الوزير مع العلما ان يزوروه ويذكروه بالعودة الى الديوان فركبوا وساروا الى قصر البدوية وطلبوا الاذن بالمثول امام الملك فلما دخلوا سلموا على

الملك وهنأوه ثم قالوا له قد أطلت الغيبة علينا يا امير المؤمنين فمتى تعود الى الديوان فقال الملك بلغني ان شجرة الدر حاقدة عليّ وغضبانة لاني تزوجت عليها وهي شديدة الغيرة فأريد منكم ان تتوسطوا بيني وبينها ليروق بالها فقال له الوزير سمعا وطاعة ومتى تشرفون الى الديوان فقال له غدا ان شاء الله عند ذلك استأذنوا من الملك وساروا الى شجرة الدر وقالوا لها لاجل خاطرنا ان تصفحي عن جلالة الملك ولا تغضبي عليه فقبلت السيدة شجرة الدر قولهم وأطاعتهم في طلبهم فأرسلوا الى أيبك اعلموه بأنها رضيت وراق بالها ففرح بذلك وسار الى الديوان وسلم على الاخوان وجلس يتعاطى الاحكام الى ان انفض الديوان وسار كل واحد الى حاله ولما جن الليل طلع أيبك الى السرايا فاستقبلته شجرة الدر ببشاشةوأجلسته الى جانبها وحصل بينهما عتاب ثم وقع الصفاء واستطاب حتى أتى الصباح وكان تجهز الحمام الذي في السرايا ودخلا الى الحمام فقالت شجرة الدر يا ملك الزمان هل رأيت البدوية أحسن مني شعرا او أبيض مني جسما او أحسن مني وجها فقال لها لا والله يا شجرة الدر أنت أحسن منها ومن غيرها ولكن انت كبيرة امام البدوية فهي صغـيرة بنت اربعة عشر وهذا الكـلام يغيظ النساء كثيرا فعندما سمعت منه ذلك الكلام تغير لونها وأضمرت له الاذى وأخفت الكمد واللوم وصارت تسايره في الكـلام وتلهيه عنها ثم خرجت من الحمام لاجل ان تأتـي ببعض الحاجات وأتت بخنجر وأخفته داخل فوطتها ودخلت الى الحمام وصارت تحكي مع أيبك وتسليه ثم أخذت الصابون وصارت تغسل رأسه وعينيه ووجهه الى ان ما عاد يرى ما تفعل ثم سحبت الخنجر وذبحتـه من الوريد الى الوريد فسال الدم في الحمام وجرى مع الماء الى الجنينة وكان احمد بن أيبـك قاعدا في الجنينة فرأى الماء يجري وهو مخلـوط بدم كثير فأخذه الفزع وطلع يجري الى السرايا ليرى ما السبب ودخل الى الحمام فرأى والده مذبوحا من الوريد الى الوريد فطار صوابه وخرج من الحمام ليرى من

المجرم فرأى شجرة الدر بيدها خنجر يقطر دما وهي شبه عارية فعند ذلك لحقها بالحسام فخافت على نفسها منه فهرعت الى أعلى السرايا وأرادت ان تقفز من مكان الى مكان فزلت قدمها وسقطت الى الارض فوقعت على رأسها وفارقت الحياة واذ اقبل احمد بن أيبك والحسام بيده مشهورحتى وقف على رأسها وقال لقيت جزاءك يا مجرمة فبينما هو كذلك واذ بالوزير شاهين أقبل ومعه بعض الرجال فرأى احمد واقفا على رأس الست وبيده السيف مسلول فصاح بمن معه اقبضوا عليه وأوثقوه فقبضوا عليه وأمر به الى السجن فصاح انا لست القاتل انا بريء فقال الوزير ان كنت بريئا سنطلق سراحك وكان السبب في مجيء الوزير انه رأى الملك الصاح ايوب في المنام فقال له ان أيبك مات في الحمام فتعجب من ذلك المنام فلما اصبح الصباح سار الى الديوان وأخذ معه بعض الرجال فوجد احمد على هذا الحال ورأى أيبك مذبوحا في الحمام فأمر باخـراج أيبك من الحمـام فأخرجوه وأمر ايضا بنقل الست فنقلوها الى داخل السراية وشاع الخبر بموت الاثنين فتحزبت الاكراد الى شجرة الدر وتحزبت التركمـان الى أيبك وكادت الفتنة تقع بينهم فصاح الوزير شاهين قائلا وحق المتعال كل من اعتدى وباشر القتال فمأواه السجن والاغلال وكل واحد منكم يذهب الى مكانه وانا احقق في هذا الامر واحكم فيه بما يقتضي الحال ثم شيعهما الوزير وعمل لهما ما يلزم ودفنهما في القرافة قريبين من بعضهما اما القضاة والوزير شاهين باشروا التحقيق في هذه القضية فما وجدوا لاحد يدا فيها وما هي الا قضية عائلية سببها غيرة النساء بعضها من بعض وقضاء وقدر فأطلقوا سراح احمد بن أيبك من السجن لانه ليس له يد فيها وانتهى الامر ثم ان الوزير والامراء بدأوا يتشاورون من يكون سلطانا عليهم فقـال الاكراد يلزم ان ترجع السلطنة الى أهلها وان الملـك عيسى طوران شاه المعظم له ولد اسمه علاء الدين وعمره سبع سنوات فهو احق بالملك من غيره فوافقهم الوزير فجعلوه ملكا ولقبـوه بالمظفـر واقاموا عنه وكيلا

بالسلطنة من ابناء عمه الاكراد الى يوم من الايام ورد كتاب من نائب حلب يقول فيه يوم تاريخه ظهرت جيوش كقطع الغمـــام فبعثنا من يكشف لنا الاخبار فقالوا لنا ان هذه جيوش عباد النار تتر ومغول لا يعلم عددهم الا الله وبعد عشرة ايام ورد كتاب من نائب الشام يـــوم تاريخــه وردت لنا الاخبار من المهاجرين والعساكر الذين هربوا من وجه العدو بأن حلب وحماه وحمص ملكها العدو ونحن ما لنا قدرة بالوقوف امام اعدائنـــا أدركونا وصارت ترد المكاتيب من نواب البلاد بامتلاكها من التتر والمغول وقد وصل الاعداء الى غزة فبعثوا وفدا مؤلفـــا من أربعين رجلا ومعهم كتاب الى أولي الامر بمصر بالتسليم والا يقتلوا ويسبوا ويخربوا الى ما هنالك من تهديد ووعيد وكان رجال هذا الوفد يتظاهرون بالكبر والعظمة ويحتقرون كل من واجههم فوضعوهم في دار الضيافة لترى الدولة ماذا تفعل فاجتمعت الوفود من جميع البلاد من المهاجرين الى مصر ومن اهالي مصر وبرها ومن شيوخ العربان من كل مكان والعلماء وشيوخ الاسلام بالازهر وغيره والوزراء وامراء المماليك وجعلوا يتباحثون بماذا يفعلون فقال المهاجرون من البلاد المحتلة ليس لهذا العدو ذمام ولا عهد ولا ميثاق فانهم يقتلون من يحاربهم ومن يستسلم اليهم على السواء وقد ارتكبوا من المحرمات ما لا يخطر على بال فقال لهم امير من امراء المماليك يقال له قطز ان هذا الامر له ثلاثة أوجه الوجه الاول ان تترك لهم مصر ونرحل عنها وهذا لن يكون والثاني ان نستسلم لهم يفعلوا بنا ما يشاءون من قتل وسلب وسبي وما أشبه ذلك وهذا مستحيل فلن نستسلم اليهـــم بدون حرب ولا قتال والثالث هو الذي نقدر ان نقره وهو القتال بهمة عاليـــة ونية صادقة ونعلن الجهاد الاكبر رجـــالا ونساء ومالا ونأخذ فتوى من شيخ الاسلام فما أنتم قائلون فصاحوا جميعا القتال هو الصواب والله يعطي النصر لمن يشاء ثم ان شيخ الاسلام أعطى فتوى بذلك وهي كل من كان له قوة على حمل السلاح والجهاد ولم يقاتل أعداء الله فهو كافر ولا

يدفن في مقابر الاسلام وكل من كان لديه مـــال ولا ينفق في سبيل الله لاجل نصرة الاسلام فهو كافر وتصادر امواله وتنفق في سبيل الله فوافقوا على ذلك ثم قالوا ما نفعل بهذا الوفد ما دام نيتنا القتال قال البعض أبقوهم في السجن لنرى ماذا يجري وقال آخرون اقتلوهـــم لانهم غدارون ولا يعترفون بعهد وميثاق وقد وافق على ذلك شيخ الاسلام وأفتى بقتلهم لانهم قتلوا الذين استسلموا لهم ثم ان الوفود تشاوروا وقالوا من يكون قائد هذه الجيوش يلزم ان يكون صاحب همة وتدبير فاعتمدوا على امير من امراء المماليك وهو الامير قطز لانه أعجبهم عندما خطب فيهم فوجدوه صاحب ارادة قوية وتدبير فعرضوا عليه القيادة فأبى ان يكون قائدا الا بشرط فقالوا ما هو قال لهم ان اكون السلطان المنفذ لما يلزم دون ان يكون عليّ آمر وان تعزلوا هذا الملك الطفل وأوصياؤه عن الحكم ويكون لي الامر بقيادة الجيوش وتجهيزها قالوا رضينا بذلك ثم انهم عزلوا الملك عن الحكم وأعطوا السلطنة الى الامير قطز فحالا أرسل مكاتيبا الى جميع الجهات يجمع الجيوش وجهز جيش المماليك وأرسل مكاتيبا الى جميـــع شيوخ العربان بأن يغزوا العدو وهددهم بفتوى شيخ الاسلام بأن كل من لم يقاتل في سبيل الله فهو كافر ويقتل وتصادر أمواله وأعلن النفير العام والجهاد الاكبر وخرج الى ظاهر مصر وصار يستقبل الجيوش وينظمها بهمة عالية وسرعة زائدة ثم أمر بشنق وفد الاعداء المؤلف من اربعين شخصا على باب زويلة حتى يكونوا أرهب للعدو وقال فلنكن نحن المهاجمين للعدو لا مدافعين ثم انه بعد ما تكاملت الجيوش وانتهى من تعبئتها وتنظيمها أمر بالمسير الى ان وصل الى غزة ففاجأ العدو بهجـــوم صاعـــق فولت الاعداء مدبرين لا يعولون على شيء لانهم ما كانوا حاسبين قوة أعدائهم بهذا المقدار وكانوا من نشوة النصر غير مكترثين لهم فلما ركنوا الى الفرار تبعتهم جيوش الابرار وصارت تقتل منهم كل من قصر الى ان أوصلوهم الى سهل بيسان وعين جالوت وهناك طلبوا جيوشهم من البلدان التـــي

احتلوها اما السلطان قطز فانه نظم خطة حربية ومكيدة للعدو ليقضي عليه فكان سهل بيسان مرج بن عامر ينفذ عليــه ثلاثة وديان من جهة جيش الاسلام وهو وادي اللجون ووادي بركين ووادي جينين فعبأ هذه الوديان بالجيوش وبرز الى السهل بالفرسان وصدم العدو مدة ساعتين من الزمان وأمر الجيش ان يولي من وجه العدو ويوهمه بالانكسار وكان مع الاعداء سلاح ليس له وجود في جيش مصر وهو السهام الثقيلة وهي مركزة على دولابين ويجرها جوادان وهي تمثل المدفع وتطلق سهاما لا نار فيها ولا قنابل وقد قتل بهذه السهــام فرسان كثير فعندمــا ولت فرسان المسلمين وأوهمت العدو بالانهزام فتبعهم العدو وطمع بالانتصار ففاجئتهم جيوش المسلمين وخرجت من الوديان ففصلت جيش الاعداء الى قسمين واحتاطوا بالاعداء شبه السوار بالمعصم وتكاثرت عليهم جيوش المسلمين من كل مكان الى ان صارت الشمس في قبة الفلك فانشلت مقاومة العدو فصارت جيوش المسلمين تنقض عليهم كالصواعق وتقتل فيهم وتفتك فما أبقت منهم الا من عمره طويل وفر من المعركة وعندما انتهت المعركة بانتصار جيــوش الاسلام وصاروا يتفقدون المجاريح ويسعفونهم والقتلى منهم يدفنونهــم وقتلى العدو يتركونهم الى وحش الفلا فتفقدوا السلطان فوجدوه مقتولا بسهم من السهام فتأسفوا عليه وواروه التراب فاستلم قيادة الجيوش الامير بيبرس فأمر بملاحقة فلول الاعداء فلحقوهم وطمعت بهم العربان وأهل البلاد بعد الانكسار فما أبقوا منهم انسانا وخلصوا منهم البلاد ورقاب العباد وكانت هذه الموقعة من المواقع الفاصلة في تاريخ الاسلام وتسمى بموقعة عين جالوت ومن فضــل الله على الاسلام انتصارهم على الاعداء ولو ان هؤلاء الاجلاف الغلاظ الاكباد انتصروا في هذه الحملة ودخلوا مصر كانت ضربة للمسلمين قوية لا سمح الله ثم ان الامير بيبرس بعد ان طهر البلاد من الارجاس صار يرتب نــواب البــلاد ويوصيهم بالعــدل والانصاف ووضع مراصد خارج المدن لمراقبة الاعداء على مسافات بعيدة

لئلا تؤخذ الناس على حين غرة وأوصى النـواب باصلاح أسوار المـدن والتحصن وان يكونـوا دائما على استعداد لملاقاة أي عدو يأتي اليهم ورتب البريد بين البلدان وان يكون بأقصى السرعة وأوصى النواب بالسهر على الامن وملاحقة اللصوص وقطاع الطرق وان يقضي عليهم بلا امهال ثم ان الامير بيبرس وضع في كل بلد من البلدان قسما من جيشه لمساعدة النواب وقفل راجعا الى مصر ودخل مع جيشه بيـوم يعد من الاعمـار واستقبله الاهالي بالترحاب والمهرجانات وهنأوه بالنصر على الاعداء هذا ما كان من الامير بيبرس واما ما كان من الوزيـر شاهين فانه صبر ثلاثة ايـام حتـى استراحـوا مـن عنـاء السفـر ثـم أمـر بالاجتمـاع في الديـوان لبحـث أمـر هـام وبعـد ان اجتمعت ارباب الدولـة قال الوزير ما رأيكم أشيروا علينـا بمن نجعلـه سلطانا فصار كل انسان يبدي رأيه في هذا الشأن الى ان بت رأي الجميـع على تنصيب بيبرس سلطانا فحالا بايعوه بالملك وحلف اليمين الشرعية بأن يقوم بالعدل بالرعية ثم انهم بعدما بايعوه على السلطنة على كرسي قلعةالجبل فضربت لهالمدافع وشاع الخبر وصارت تتوافد الاهالي لتهنئه بالجلوس على كرسي السلطنة ففرحت الناس وصارت المهرجانات في الشوارع ثم ضربت العملة باسمه وخطب له على المنابر ودعوا له ثم خلـع على الوزير خلعة سنية وألبس تختمر وزير ميسرة وأيد غدي حاجبا وأيد غمش قائم مقام وأيدمر أمير الترك وعز الدين الحلبي أمير الاكراد وقلاوون امير الشراكسة واحمد بن ايبك امير التركمان وسليمان الجاموس مقدم السلطنة ثم ان الملك نظـم الرتب كما يريد وجعل يولي على كل جماعة أقدرهم واذ طالع الى الديوان الشيخ العز بن عبد السلام فألبسه الملك قاضي القضاة وكذلك الشيخ ابن دقيق العيد وابن غريق الزيت ألبسهما ثيـاب القضاة والعلمـاء وكذلك الاشراف والسادات البكريين وغيرهـم ثم ان الملـك بعث مكاتبات الى مقدمي الحصون والقلاع بالحضور اليه بدون امهال فحضروا بالحـال

فأمر عليهم أميرا يقال له شيحة ويكنى بجمال الدين وجعله سلطان القلاع والحصون وقال لهم الملك هذا امير عليكم الى ان يظهر ويرجع اليكم سلطانكم المقدم معروف بن جمر فقالوا بالاجماع سمعا وطاعة فأقامهم في الديوان ورتب لهم المعاشات وجعل لكل مقدم راية وكرسيا بالديوان ومحل اقامة له ولرجاله فبينما الملك يرتب الرجال واذ بعثمان بن الحبلة داخل الى الديوان وهو يقول انت لبست كل الناس الرتب ولا تسأل عن أخيك عثمان قال له الملك أهلا وسهلا بالاسطى عثمان ما تكرم جعلتك اميرا ثم انفض الديوان اما الملك فانه طلع لسرايته فاستقبلته زوجته الملكة تاج بخت التي جاء بها بهذه الغزوة من جهات حلب وأصلها من بلاد خوارزم فاستقبلته بالبشاشة وهنأته بالسلامة فأقام الى الصباح ثم صلى صلاة الافتتاح ونزل الى قاعة الجلوس وجلس فأتى اليه الاغوات وأعلموه بأن الديوان تكامل فنهض الملك الى الديوان ودخل فنهضوا اجلالا له فسلم عليهم فردوا عليه السلام ثم أقبل الملك الى التخت وجلس واذ داخل من باب الديوان فداوي طويل القامة عريض الكتفين وهو الذي كان كاتما اسمه وقال الحمد لله لقد كملت بك الافراح يا امير المؤمنين فتبسم الملك وقال أهلا وسهلا بك ثم التفت الى بني اسماعيل وقال من هذا فقالوا هذا المقدم ابراهيم بن حسن الحوراني قال له الملك اطلب ما تريد يا ابراهيم قال اريد ان اكون مرافقك الاول قال انت رفيقي اذهب وائتني بمرافق ثاني قال ابراهيم يا امير المؤمنين لي ابن خالة يعجبك كثيرا ولكن لا يعرف يتصنع الكلام فلا تؤاخذه بما يقول قال له الملك احضره لنراه فذهب ابراهيم وأتى به فتعجب الملك من طوله الفارغ وقال بنفسه هذا يليق به ان يكون مرافقي حقا لانه طويل وجسيم فقال له الملك ما اسمك قال سعد يا امير المؤمنين قال الملك أنشاء الله أقبل الينا السعد واستبشر بذلك ثم أنعم عليهما الملك وأعطى كل واحد طبرا من السلاح فوقف واحد الى اليمين وواحد الى الشمال فيوم من الايام بينما كان الملك جالسا

بالديوان واذ برجل داخل وهو يقول مظلوم يا أمير المؤمنين خذ بناصري ربنا ينصرك قال الملك من ظلمك قال يا أمير المؤمنين أنا تاجر من تجار الشام وكل سنة أجيء بتجارة الى مصر وفي هذه السنة حزمت بضاعتي وهي أقمشة وحراير وحملناها على الجمال وسرنا طالبين مصر وعندما وصلنا الى العريش طلع علينا ملك العريش فرنجيل فأخذ البضاعة والجمال وأسر رجال القافلة وانا ساعدني الحظ وهربت منهم وجئت أشكو أمري اليكم فلما سمع الملك من التاجر ذلك الكلام قال الى متى ونحن نصبر على أذى هذا اللعين وانه دائما يعتدي على كل من يقصد مصر فهذا يجب ازالته من طريقنا فأمر الملك ان يأخذوا التاجر الشامي الى دار الضيافة وأمر الامراء وقادة العساكر بالتجهيز وخرجت الى ظاهر مصر وتبعتهم الفداوية بنو اسماعيل الى ان تكامل الجيش في مدة اسبوع من الزمان وارتحل الملك وعساكره حتى وصل الى العريش واحتاط بالقلعة فلما رأى اللعين فرنجيل الملك الظاهر أتى بالجيش أخذه الانذهال وقال هذا رأيك يا جوان انت الذي أغريتني على تلك الفعال فقال له جوان لا تخف انا أضمن لك النصر ثم ان جوان أمر بقفل الابواب وحاصروا وتحصنوا في أماكنهم اما الملك الظاهر فدخل عليه جمال الدين شيحة وقال يا أمير المؤمنين كن الليلة على حذر أنت والعساكر لاني عرفت ان جوان ذهب الى ملوك الساحل يطلب منهم المساعدة الى فرنجيل فالليلة مرادي افتح لكم الابواب فكونوا يقظين ثم ان جمال الدين شيحة غير ملابسه ولبس بصفة جوان ودخل البلد وحمل المبخرة وذهب الى باب البلد فلما رآه الحرس مقبلا عليهم ظنوه جوان فصاروا يقبّلوا يديه فقال لهم يا اولادي اقعدوا لابخركم فقعدوا قباله فوضع المبخرة وفيها البنج فصار يدخن عليهم وقال لهم تنشقوا وديروا وجوهكم الى الحائط ففعلوا ما أمرهم وخرج من المكان وسكر عليهم فوقعوا مبنجين لا يعون على شيء فتقدم جمال الدين الى الباب وفتحه وأعطى الاشارة لجيش السلطان بالدخول

فدخلوا الى البلد وشاع الخبر فأمر السلطـان الظاهر بالهجوم فهجمـوا وصاحوا الله اكبر فتح ونصر وخذل من كفر ولم يزل السيف يعمل والدم يبذل ونار الحـرب تشعل حتى صاحت اللئـام الامان الامان وأيد الله الاسلام الابرار والباقين أخذوهم أسارى وأمر الملك بجمع ما في البلد من مال وارزاق وأمر بهدم القلعة وأرسل الاسرى والارزاق لمصر وتوجه الى عسقلان كل هذا بمشورة شيحة جمال الدين الذي سبق الملك الى عسقلان فرأى الابواب مغلقة والحصارات قائمة فصبر الى الليل وعبر الى البلد وتنكر في زي حكيم وأقام في مكان من الخانات وصار يداوي النـاس ويعالجهم بكل ما يقدر عليه وأسبل الله عليه خيمة الستر حتى ان جوان دخل عليه أربع مرات فما عرفه لانه جعل له لحية بيضاء ودهن وجهه بما يعرفه من العقاقير فصار كل من رآه يظن به جدري وأقام في ذلك الخان حتى يدبر أمرا من الامور .

اما الملك الظاهر بينما كان ينتظر من جمال الدين جوابا واذ أقبـل رجل بكتاب من شيحة فقبّل يد الملك وأعطاه الكتاب ففضه وقرأه واذ به خطاب من خادم الركاب جمال الدين الى مولانا السلطان الذي نعلمك به اننا سرنا من عندك وقصدنا الى عسقلان فرأينا جوان والبرتقش وكفرين وفرنجيل أتوا الى عسقلان وأغروا ملكها على الحصار والعصيان فقطـع الطرقات على المسافرين وأقاموا محاصرين فحال وصول الكتاب الى يديك تأتي بالجيش وتحط على عسقلان بعد ان تهدم قلعة العريش واما الذي أوصل لك الكتاب فكان أسيرا عند اللئام المرجو اكرامه .

اما الملك فانه أكرم الاسير وصرفه وأمر بالرحيل وسار بالجيش الى ان أتى الى عسقلان واحتاط بها من كل الجوانب ثم ان اللئام بعد ثلاثة ايام دقوا طبول الحرب وبرز منهم فارس وطلب النزال فبرز اليه فارس من الفداوية وانطبق عليه وضربه بالحسام اطاح رأسه بالحال فنزل له الثاني فما أبقاه والثالث أبلاه وما انتصف النهار حتى قتـل منهم جملة فرسان

فتضايق جوان والملوك من هذا الحال فأمروا بفتح باب البلــد وخرجت الافرنج للقتال جملة واحدة ، فلما خرجوا تلقتهم الابطال واشتعل الحرب ودار السيف في الطائفتين ودارت المنيــة وكثرت الرية وقد قل الكلام واشتغل الحسام وما زال السيف يعمل ونار الحرب تشعل حتى ولىالنهار وأقبل الليل بالانسدال وقد بان في اللئام الفشل وظهر عليهم التعبوالشلل وعملت فيهم السيوف أي عمل فهربوا الى داخــل البلد وازدحموا على الابواب فمات منهم خلق كثير مما نالهم من سيوف المجاهدين واغلقت الابواب .

أما ما كان من جوان فانه نزل عليه الخذلان فقال له البرتقش كل هذا بسببك ومن تحت رأسك فقال جوان لملك عسقلان الرأي عندي انترسل الى ملكيافا تستنجد به لعله يدركك بالعساكر فقال له هذا رأي سديد ثم انه سطر كتابا وأرسله الى يافا فلما وصل الى ملك يافا دیافيل فضــه وقرأه خطابا من ملك عسقلان الى بين أيادي دیافيل ملك يافا الذي نعلمك به ان ملك المسلمين خرب العريش وأتى الى عسقلان فأغلقنا الابوابوقطعنا الطرقات على المسافرين فوصل الخبر الى السلطان فتوجه الينا وحط على البلد وحاصرنا وتحاربت انا واياه فقتل من عندنا كثيرا من الرجال والآن أنجدني بعساكرك والسلام فلما قرأ دیافيل الكتاب بكى فقال له كفرياط ابن أخت ديافيل ما الذي يبكيك فأعطاه الكتاب فلما قرأه قال له لا تحمل هما أبدا فأنا أكون لك الفدا ، ثم انه جعله قائد الجيش وجهز له خمسة آلاف من الفرسان وقال له سر بهؤلاء الى عسقلان وانصر الملك بريجيت فأجابه بالسمع والطاعة وطلب عرض البر وما زال يجد المسير حتى بقى بينه وبين عسقلان يوم واحد فبينما هم سائرون واذ بالغبار قد ثار وعلا وسد الاقطار وانكشف الغبار وبان عن رجال وهم ينادون الى أين تطلبون يا أنذال ثم انهم أوقعوا فيهم الحسام فكانت وقعــة عظيمة قتل فيها القائد كفرياط ومن معه عن آخرهم وأخذوا ملابسهم فلبسوها وخيولهم فركبوها

وساروا يجدون المسير الى ان اشرفوا على عسقلان فلما رآهم عسكـر عسقلان فتحوا لهم الابواب ظنوهم نجدة من عند ملك يافا فعبروا من باب البلد حتى توسطوها وخبروا جيش السلطان فأقبلـوا وصاحوا بصوت واحد الله اكبر فتح ونصر وكان سبب مجيئهم ان جـوان لما دبـر هذا التدبير الذي ذكرناه وقال لملك عسقلان استنجد بملك يافا كان شيحـة جمال الدين واقفا بينهم بصفة خادم وسمع ما جرى بينهم من الكلام ثم صبر الى الليل وسار الى جيش السلطان ودخل على الملك الظاهر فسلم عليه فاستقبله الملك وهنأه بالسلامـة فقال له جمال الدين نعرفكم ايها الملك ان بريجيت ملك عسقلان أغراه جوان فأرسل يستنجد بديافيل ملك يافا والرأي عندي أنك ترسل لهم قسمـا كبيرا من الجيش يكمنون لهم وسط الطريق فاذا أقبلت النجدة يخرجون عليهم ويقتلونهـم عن آخرهم فاذا فرغوا من قتل هؤلاء يأخذون ألبستهم ويلبسونها ويحملون راياتهم ويأتون من ناحية يافا قاصدين عسقـلان فاذا رآهم أهل البلـد ورأوا راياتهم يفتحون لهم الابواب فيدخلون ويخبرونك بالحال ايها السلطان فتدركهم فتملكون البلد وتقبضون على الملوك فلما سمع الملك الظاهر ذلك الكلام فعل بما أشار به شيحة وما زال حتى دخـل البلد وفتحها وأهلك اللئام وطلب السلطان الملكين وجوان فما وجد لهم خبرا والسبب في ذلك ان جوان لما رأى ذلك الانكسار قال ارحلـوا بنا فانسلوا من المعركـة وساروا الى يافا ودخلوا على ديافيل وقالوا له ما منعك من نجدتنا قال لهم وحق ديني أرسلت اليكم ابن اختي في خمسة آلاف من الفرسان ولا أدري ما جرى عليهم قال جوان اعلم انه قد جـرى لنا ما هو كذا وكذا وقد رأينا ابن أختك وعساكره ملقحين في احدى المعارك فلما سمع ديافيل بذلك الخبر لطم على وجهه من عظيم مصابه فقال له جوان أغلق الابواب واقطع الطرقات فاغلق الابواب وقطع الطرقات وأقام على الفساد .

اما جمال الدين شيحة فانه تودع من السلطان قاصدا يافا فلما وصل

اليها وجدها محاصرة فصبر الى الليل وغير زيه ودخل البلد وذهب الى خان فجلس مع الخاناتي وسأله عن اسمه قال طنوس فصبر شيحة الى الليل فقتله وصرفه وأقام مكانه ونكر نفسه في صفاته وأقام بالخان وكل من رآه يظن انه طنوس الخاناتي بالذات فبينما هو جالس واذ بالخادم أتى من بيت طنوس وقال يا طنوس أجب ابنتك فانها تدعوك اليها فسار جمال الدين مع الخادم حتى وصل الى البيت فاستقبلته البنت وهتفت قائلة أهلا وسهلا بجمال الدين شيحة سلطان بني اسماعيل الذي جاء الى هذا البلد وقتل والدي ولبس ثيابه فارتعب جمال الدين على نفسه عندما سمع ذلك الكلام لانه قد كشف أمره ولكنه أظهر عدم المبالاة وقال لها ما الذي تقولين ومن أعلمك بذلك قالت له لا تخف يا شيحة فأنا مسلمة وسبب اسلامي انه أتاني انسان من أهل الله وقال لي انت من الفرقة الناجية يوم القيامة وقد مات والدك فلا تحزني عليه قتله جمال الدين شيحة وتزيا بزيه فارسلي خلفه وتزوجيه فسوف تأتيك منه ذرية صالحة فلما أفقت من نومي أسلمت وهذه حكايتي فقال لها الحمد لله رب العالمين خذي هذا العقد فهو يساوي الف دينار فهو مقدم صداقك ثم ودعها وقال لها غدا اكتب كتابك فأجابته على ذلك ونزل من عندها وسار الى السجن وقتل السجان خريستوفان وأخفاه وتزيا بزيه وجلس على باب السجن حتى نامت العيون وعبر الى الاسارى وأخذ منهم اثنين وسار بهم الى بيته وأشهدهم على الزواج وأعتقهم ودخل على زوجته ثم تركها في مكان أبيها وسار الى السجن فرأى رجلا يقال له حمدو الانكاري وهو يبكي فسأله عن حاله فقال له دعني يا معلم فقال له لا تخف انا مسلم مثلك قال له بينما كنت سايرا في تجارتي ووجهتي مصر واذ طلعت علينا الافرنج اللئام اخذوا اموالنا وسجنونا وطول النهار نقطع الاخشاب وقد طال علينا المطال فبكيت على نفسي وما حل بي فقال له جمال الدين يا حمدو انا أرسلك بكتاب الى السلطان في عسقلان فأوصله له وخذ منه ما يعطيك وسر الى حال

سبيلك ففرح حمدو بذلك ثم أخذ الكتاب وسار حتى أقبل الى جيش السلطان ثم وصل الى بين أيادي الملك فدعا له فقال له من اين قال من يافا يا أمير المؤمنين من عند جمال الدين شيحة فأخذ الملك الكتاب منه وقرأه واذ فيه خطابا من جمال الدين الى بين أيادي أمير المؤمنين ساعة وصول كتابي اليك يا مولاي تأمر بهدم عسقلان وتأتي الى يافا بالجيش وهناك قد اجتمع الملوك وجوان وغلامه وجاء لهم عايق جبار يقال له الكفير وانا اليوم سجان باسم خريستوفان الرجاء اكرام حامل الجواب لان له حكاية محزنة ومنكسر والسلام عليكم •

اما الملك فانه أعطى حمدو الانكاري حامل الكتاب الف دينار وصرفه ثم أمر بهدم البلد فهدموها والى الآن مهدومة على شاطىء البحر وأمر الملك بالرحيل وسار بالجيش الى ان وصل الى يافا واحتاط بها وأقام ذلك النهار ولما كان ثاني يوم أمر جوان بدق طبول الحرب وفتحت البلد ونزل الى الميدان فارس يمزق الحديد وهو الكفير فابتدرت اليه الابطالفقاتلهم الى آخر النهار وقد أسر خمسة عشر فارسا ساقوهم الى البلد وهمفرحون بذلك الانتصار اما الملك الظاهر فانه اغتم لهذا وقال غدا لا يخرج اليه الا انا فقالت له الفداوية نحن حاضرون بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك يا ملك الزمان ثم انهم باتوا على تلك الحال اما جوان فانه لما جاءوا بالاسارى قال اقطعوا رؤوسهم فقال له الملك ديافيل لا تقتلهم لاننا نبادل عليهم بأسرى فسكت جوان على مضض ثم ان ديافيل ملك يافا صاح على الخدام ائتوني بالسجان خريستوفان فأتى اليه فقال له اسجن هؤلاء عندك فلما رأى جوان السجان ارتعشت أعضاؤه وقال هذا شيحة فقال له الملك ديافيل يا أبانا ان هذا السجان له عندي اكثر من عشر سنوات وهو حافظ السجن من كل انسان فلا تتكلم بحقه بما لا يليق من الكلام ثم انالسجان خريستوفان لما سمع من جوان ذلك الكلام بكى وانقهر فطيب خاطره ديافيل وقال لا يصعب عليك ذلك فخذ الاسارى وسر بهم الى السجن

فأخذهم وجعلهم في الاغلال وأقام ينتظر ما يقوم به من الاعمال وثاني الايام عند طلوع الفجر أمر جوان بقرع طبول الحرب ونزل الكفير الى الميدان وعير على الفرسان فقال الملك ابرزوا له يا بني اسماعيل واذ بفارس غاير من كبد البر وانقض على الكفير وصدمه بالميدان وجرى بينهم قتال يشيب الاطفال فكرا وفرا مدة ساعتين من الزمان حتى كلت من تحتهما الخيل الى ان خرجت منهما ضربتان كان الفارس السابق خصم الكفير أطاح رأسه فكان هذا الفارس فخـــر الدين حسن من بني اسماعيل وهو من الرجال الذين ذهبوا للتفتيش على معروف بن جمر فلما وصل الى قلعته واستقر بالجلوس ودارت حواليه رجاله سأل عن القلاع ومن السلطان عليها وهل معروف ظهر ام لا فقالوا له قد تسلطن على القلاع رجل من عرب غزة يقال له شيحة بن سيف القبائل واما معروف فلم يظهر ولا أتى عنه خبر فقال انا اعرف بيبرس من عهد المقدم معروف وانه يستاهل السلطنـــة لكن أخطأ بسلطنة شيحة علينا وسأذهب الى مصر وأرى ذلك الامــر فقالوا له لا تكلف نفسك بالذهاب الى مصر فالسلطان وأولاد عمك يقاتلون الاعداء في يافا وثاني يوم سار طالبا يافا الى ان وصل ورأى الكفير بالميدان وهو يغير على الفرسان فصدمه وقتله في حومة الميدان فقال الملك الظاهر من هو هذا الفارس قالوا لا نعلم ٠

قال الراوي : ولما لم ينزل للفارس احد يبارزه ترك الميدان وسار الى جهة جيش السلطان فوقف بين يدي الملك ودعى له بدوام العز والنعـــم والنصر على الاعداء ثم قال انا المقدم فخر الدين من بني اسماعيـــل وقد سمعت يا مولانا السلطان انك ركبت على الاعداء فجئت لاجاهد في سبيل الله فترحب به الملك وقال له تمنى عليّ يا مقدم فقال أتمنى على مولانا السلطان سلطنة القلاع والحصون فقال الملك تمنى غير هذا فقال يا ملك الزمان لا أتمنى غيرها فقال الملك في نفسه لنجرب هذا الرجل ونرى بطولته فقال له ان كنت تريد سلطنة القـــلاع فاقبض على أعدائنا الملوك وعلى

جوان وانا أسلطنك على القلاع والحصون فقال هذا من أسهل ما يكون ثم تركه وسار الى يافا وصبر الى الليل وتخفى بزي الاعداء وعبر من أعلى الاسوار وتسلل الى سراية الملك ديافيل ووقف بين الرجال ورأى جوان جالسا هو والملوك الثلاثة فلما رآه جوان عرفه وصاح به ألست قاتل الكفير في الميدان قال نعم وسأقتلكم جميعا وهجم عليهم ليفتك بهم ولكنهم تغلبوا عليه وقبضوا عليه وأودعوه السجن فتسلمه السجان خرستوفان وثقل له الحديد فقال في نفسه انا ما أصابتني هذه المصيبة الا بسبب كلامي بحق شيحة وان أحسن المولى خلاصي اكون له خادما ومطيعا واذ بالسجان أقبل اليه وقال له تمنى لك موتة يا رجل فقال له ابعد عني لئلا أصيح على مين يخلصني فقال له ومن الذي يقدر يأتي ويخلصك من قبضتي فقال له اصبر وانظر ثم قال الهي ادركني بجمال الدين شيحة سلطان الحصون واذ بالسجان قال له لبيك وانحنى عليه وخلصه مما هو فيه فتعجب المقدم فخر الدين وقال له من انت قال انا شيحة الذي طلبته فقال انت شيحة ما دامت هذه افعالك فأنا خادمك الامين فسأله جمال الدين ما سبب مجيئك الى يافا فقال اني تعهدت للملك بفتح البلد وأخذ الملوك وجوان والبرتقش اليه فوقعت في الاسر فقال له شيحة ابشر فأنا اساعدك وآتي لك بهم فسار واياه ونزلوا الى السراية وبنجوهم وأتوا بهم جميعا ثم ان جمال الدين شيحة خلص الاسارى الموجودين بالسجن وقال للمقدم خذ الملوك وجوان والبرتقش وهؤلاء الاسارى اخوانك يساعدونك واذهب الى الملك وقال له ان يهجم بالجيش على البلد لاني ذبحت الغفراء وفتحت له ابواب البلد وأيد قولك عند السلطان واعلمه انك انت فعلت هذه الافعال ثم انه سار بالملوك وجوان وساعدوه اخوانه الى ان أتوا الى بين أيادي السلطان وقدموا له الملوك وجوان وقالوا يا امير المؤمنين اسرع في مهاجمة البلد لان جمال الدين قتل الغفراء وفتح باب البلد وينتظر هجومك فأمر الملك بالهجوم فهجمت الرجال وصاحوا بالتهليل والتكبير فما أفاقت الافرنج الا

وحيهم مكبوس والسيف يلعب في أعناقهم فلم تكن الا ساعتان حتى أفنوا اللئام وزعق عليهم غراب البين فأخذ شيحة زوجته وأخذوا من البلد ما كان من الاموال وأسروا الرجال وأمر الملك بهدم المدينة ثم جلس في صيوانه وتقدم اليه المقدم فخر الدين حسن وسلمه الثلاثة ملوك وجوان والبرتقش وأمر الملك بضرب رقابهم فمنعه شيحة من ذلك وقال يا امير المؤمنين ابقهم وكل شيء له أوان ثم أمر بمد جوان وضربوه علقة وقال هاتوا البرتقش فضربوه علقة ثم ان الملك أخذ عليهم العهــود والمواثيق وأطلق سراحهم واما الملك الظاهر فانه أمر بالرحيل الى مصر ومعه الثلاثة ملوك مقيدين بالاغلال وصار كل ما حل في مكان تستقبله الاهالي بالاهازيج والمهرجانات حتى وصل الى ظاهر مصر فسبقت البشائر الى سائر الرعية بقدوم الملك المظفر وجيشه المنصور فزينت مصر لقدومــه واقامت المهرجانات في كل مكان ونادوا في سائر الاماكن بأن غدا موكب السلطان العادل فلما أصبح الصباح انعقد له الموكب وغلت أيادي الملوك وساروا بهم قدام جــواد السلطان فدخل الملك وجيشه من باب النصر واذ بالدنيا قامت وقعدت من ازدحام الخلق والناس يتأملون في هؤلاء الملوك الذين بين يدي السلطان فلما وصل الموكب الى قلعة الجبل طلع الملك وأرباب دولته الى الديــوان وجلس على تخته ثم انه أمر بسجن الملــوك الثلاثة فهذا ما كان من أمر السلطان وأقام بتعاطي الاحكام مدة من الزمــان فبينما هو جالس واذ بنجاب مقبل ويسلم قال الملك من اين قال من حلب يا امير المؤمنين واخرج الكتاب وأعطاه الى السلطان ففضه وقرأه واذ فيه خطابا من عماد الدين نائب حلب الذي نعلمك به يا أمير المؤمنين يوم تاريخه واذ بغبار ثار وانكشف وبان واذ بابن الملك الفرتماكوس حاكم انطاكية وصحبتــه جيش جرار حطوا على أرض حلب فنزل ابي اليهم برجاله وتقاتلوا قتالا شديدا وجاهد والدي جهادا عظيما حتى قضى نحبه ومات شهيدا الى رحمة الله فأغلقت الابواب وأقمت الحصارات وأرسلت أعلمــك يا امير المؤمنين فأدركنـــا

بسيفك المسنون وجوادك الميمـــون قبل ما يحل بنا ريب المنون فلما قرأ الكتاب امر بتجهيز الجيش اما الوزير أمر العساكـــر بأخذ الاهبـــة الى الرحيل فجمع الجيش في ثلاثة ايام ووضع الملك نائبا عنه ثم ارتحل طالبا أرض حلب حتى أقبل عليها ونزل وثاني يوم أمر بدق طبول الحرب فأول من نزل الى الميدان أيدمر البهلوان لانه مفتاح الحرب فصاح جوان ابرزوا اليه فبرزوا له فارس بعد فارس فصار أيدمر يقتلهم ولم يزل كل من برز أكل العلقة وأطلق سراحه أخذ غلامه وسار الى انطاكية ودخل على الملك اليه يعجل فناه حتى قتل منهم عشرة فوارس فعاد الامير أيدمر فلما وصل الى السلطان أكرم مثواه وكان السبب في هذه المعركة جوان وذلك انه لما الفرتماكوس فنهض له واستقبله وسلم عليه وأكرمه وهرعوا اليه يقبّلون يديه وأجلسوه فلما استقر به الجلوس أخذ يغـــري الملك بالحرب على السلطان الظاهر فلما سمع الفرتماكوس ذلك الكلام قال اعلم يا جـــوان انني لا أحارب السلطان أما تنظر الى الملوك الذين أخذهم أسارى وخرب مدنهم بعد العمار فان كنت تقعد عندي أهلا وسهلا وان اردت ان ترحـــل فمع السلامة فسكت جوان على مضض وأقام الى جانبه وتأمل في رجاله فرأى فتى واقفا بين يديه قال جوان أظن ان هذا الفتى ابنك لانه يشبهك تماما قال نعم هذا ابني كرفوس قال جـــوان ولماذا لا ترسله على رأس جيش ليحارب أعداءنا فاني أراه بطلا شجاعا وهو كفؤ لهذه المهمة فقال سله ان كان يوافق فسأله فقال هذا طلبي ومناي فقال له جوان خذ معك العساكر وسر بهم الى حلب وحارب نائبها هذا كان سبب الركبة على حلب ثم ان الملك بات تلك الليلة وعند الصباح دقت طبول الحرب ونزل الامير قلاوون برجاله وفعل فعل الشجعان وقتل من الاعداء جملـــة وعاد آخر النهـــار فاستقبله الملك الظاهر وأثنى عليه وما زالـــوا على ذلك عشرة ايام فقال كرفوس لجوان طال الحال على الرجال وهلكت الابطال فما يكون الرأي عندك فقال له هل تسمع كلامي قال نعم قال ان هذا الامر ليس له غيرك

فاذا كان الغد ابرز اليهم أنت بنفسك عسى انك تبلغ المرام ولما جاء الصباح نزل الى الميدان وطلب المبارزة وكان دور الجاولي فابتدر اليه وتحاربوا مدة ساعة من الزمان فوجهوا الى بعضهم ضربتين كان السابق الامير الجاولي فجاءت صائبة وخرجت روح كرفوس من بين جنبيه فلما رأى جوان ذلك الحال أمر الجيش بالحملة فحملوا عن آخرهم ثم التفت الى البرتقش وقال ارخ العنان للجواد ودعنا نسلم بأرواحنا لان هذا الجيش لا يثبت الا ساعة امام جيش السلطان فقال له البرتقش ما دمت تعرف ذلك فلأي شيء أمرتهم بالهجوم وتسببت لهم بالفناء فقال له تربت يداك أما تعرف انه صارت لي عادة وميل شديد الى الحروب وسفك الدماء ثم انهما انسلا من المعركة ونفذا بالسلامة أما جيش السلطان عندما رأوا اللئام هاجمين تلقوهم بالتهليل وصاحوا الله اكبر وضربوا فيهم بالسيوف الثقال فلم تكن الا ساعة حتى حمي الهجير واشتد الزفير وقام الحرب على قدم وساق وضاق الخناق وكثر الزعاق وقد أوقدت الحرب نيرانها وما زال الحرب قائما حتى صارت الشمس في قبة الفلك فولت اللئام وركنوا الى الفرار فتبعتهم الابرار وصارت تقتل منهم وتأسر حتى ولى النهار وما سلم منهم الا من كان له عمر مديد وأيد الله الاسلام بنصره ثم ان الملك أمر باسعاف المجاريح ودفن قتلى الموحدين وجمعوا الغنائم ووضعوها بين يدي السلطان فأخرج الخمس منها الى بيت المال والباقي فرقه على الرجال ثم ان الملك قال أين جوان والبرتقش فدوروا عليهما فما وجدوا لهما أثرا فأقام السلطان ثلاثة أيام لاجل الراحة ثم أراد الرحيل الى مصر واذ بنجاب قد أقبل عليه وقبّل يديه قال له الملك من أين قال له من انطاكية يا أمير المؤمنين ثم أعطاه الكتاب فأخذه منه وفضه وقرأه واذ فيه خطابا من جمال الدين شيحة الى بين أيادي السلطان العادل الذي نعلمك به ان جوان لما هرب من حلب سار الى ملك انطاكية الفرتماكوس وأعلمه ان ابنه قد قتل في حلب وأغراه على القتال والاخذ بالثأر فأطاعه وأغلق الابواب وأقام

الحصارات وقطع الطرقات فحين وصول جوابي اليك يا مولانا تأتي بالجيش الى انطاكية وعلى الله الاتكال وكان السبب في ذلك ان جوان لما هرب الى انطاكية ودخل على الفرتماكوس فاستقبله وسأله عن ولده وماذا جرى قال له اعلم ان ولدك قتل ولا بد من مجيء السلطان اليك فان أردت ان تأخذ بثار ولدك فافعل وان جبنت عن الاخذ بالثأر فانتظر الهجوم الصاعق على بلدك وها اني قد أنذرتك ونصحتك فدبر أمرك قبل ان يحل بك الوبال فلما سمع الفرتماكوس بهذه الاخبار وان ولده قتل لطم وجهه ونتف شعره ورمى طيلسانه وقال كل هذا منك انت أغريت ولدي على القتال قال له جوان لا تخف فها انا عندك فاستشار الفرتماكوس وزراء دولته في ذلك فقالوا له اما اذا كان لا بد للملك الظاهر من القدوم الينا والهجوم علينا فينبغي ان نحترس لانفسنا ونحصن بلدنا فان هو أتى الينا حاربنا ونكون على حذر من امره والسلام عند ذلك اطاعهم وغلق الابواب وأقام الحصار وجعل جوان يرسل اللصوص ليجلب الشر ويقطع على المسافرين البر •

قال الراوي : فلما قرأ السلطان كتاب شيحة قال كيف نعمل مع جوان الذي يسبب لنا الحروب والاهوال ثم أمر الجيش بالرحيل الى انطاكية فركبت الرجال وأخذت الاهبة للسفر والقتال ولم يزالوا يجدون المسير حتى أقبلوا الى انطاكية فرمى الاعداء عليهم النبال فنزل الملك بجيشه على حد الرمي واحتاط بالبلد من كل جانب ومكان ثم أقام الملك ثلاثة أيام وأمر بدق طبول الحرب فعند ذلك فتحت ابواب البلـــد ونزل للميدان فارس وطلب مبارزة الفرسان فابتدر اليه الامير أيدمر البهلوان وتقاتل معه ثم هجم عليه وضربه بالحسام على عاتقـــه فنزل اليه الثاني كأنه المهبول فما لحق ان يجول حتى تركه أيدمر مقتول والثالث كمثله والرابع والخامس عجل لهم الفناء ثم دق طبل الانفصال فعاد أيدمر وهو مسرور وفرحان •

اما ما كان من الملك الفرتماكوس أقبل عليه جوان وقال له غدا افتح الابواب واخرج في عساكرك واحمل على جيش الاسلام حملة واحـــدة

لعلك تبلغ المرام قال له هذا هو الصواب وباتوا على هذه النية اما ما كان من شيحة جمال الدين فانه كان سامعا ما دار بينهم من الكلام فلما فهم ذلك المرام خرج من البلد وأتى الى جيش السلطان فقال له الملك أهلا وسهلا بسلطان الرجال ماذا وراءك من الاخبار قال يا امير المؤمنين قد اتفق الفرتماكوس وجوان نهار غد صباحا على انهم يخرجوا في حملة واحدة فأنا مرادي ان آخذ الرجال وأدخلها الى البلد من محل أنا أعرفه وأكمن بهم الى الصباح فحين خروج اللئام الى القتال تهجمون عليهم فاذا تراجعوا نخرج اليهم ونجعلهم بيننا ونقضي عليهم ان شاء الله وتفتح البلد فقال له الملك اعمل ما بدا لك أصلح الله أعمالك ثم ان جمال الدين أعلم بني اسماعيل بما كان من التدبير وأخذ منهم قسما كبيرا وذهب في غسق الظلام وأدخلهم البلد وكمن بهم الى الصباح بعدما أوصى الملك بالاستعداد لملاقاة الاعداء وعند الصباح فتحت الابواب وخرجت الاعداء وهجموا على جيش السلطان فتلقوهم كما يتلقى الجوعان أطايب المأكولات والتقت الرجال بالرجال فلا بقيت تسمع للسيوف الا الرنين ولا للمجاريح الا الانين ولم يزل الملك وجيشه يضربون في الاعداء الى ان أدخلوهم الابواب فخرجت عليهم الرجال من داخل البلد وهم يصيحون الله اكبر وما مالت الشمس الى الزوال الا والبلد ملكت وصاحت اللئام الامان فمن قتل قتل ومن أسر أسر قد فرغوا البلد من الاهالي وأمر الملك بلم الاسلاب فلموها والى بين أياديه قدموها فأخذ منها الخمس لبيت المال والباقي قسمها بين الرجال بالسوية وجلس الملك على كرسي انطاكية وخلص المأسورين الذين في السجون وهم يقدرون بألفي أسير منهم نساء وأطفال وقد أنعم عليهم وأركبهم وأمرهم بالمسير الى بلادهم فمنهم من سار طالب الديار ومنهم من خدم عند السلطان ثم ان الملك الظاهر أمر بهدم الاسوار •

قال الراوي : وبعد ذلك تقدم رجل وقبّل يد السلطان وقال معي كتاب من سلطان الحصون شيحة من مدينة سيس وأخرج الكتاب وأعطاه

الى الملك ففضه وقرأه واذ به من جمال الدين شيحة الذي نعلمك به يا امير المؤمنين عند فتوح البلد تفقدت جوان والفرتماكوس فسألت عنهم فقيل لي توجهوا الى مدينة سيس فتبعتهم على الاثر فرأيت فرنسيس صاحب سيس قد أتى اليه جوان والفرتماكوس وقد أغرياه على العصيان فأغلق المدينة وأقام الحصارات وقطع الطرقات على المسافرين فدخلت البلد وقمت بها فحين وصول كتابي اليك يا مولانا تأتي بالجيش الى سيس ويفعل الله ما يريد وحامل كتابي هذا من بني اسماعيل وهو ابن اخت حنس النسر بن عجبور وقد أطاعني والسلام ختام فلما ان قرأ الملك الكتاب أمر الجيش بالرحيل ولم يزالوا كذلك حتى أقبلوا الى مدينة سيس واحتاط الملك الظاهر بها وأقام ثلاثة ايام ثم ان السلطان كتب الى فرنسيس وأعطاه الى مرافقه ابراهيم سياج العذاري وقال له خذ هذا الكتاب وسر به الى ملك هذه البلد وهات منه رد الجواب فأخذ الكتاب وسار طالب سيس فلما وصل قالوا ماذا تريد قال معي كتاب من الملك الظاهر ففتحوا له فسار الى الديوان فتقدم الى الملك وأعطاه الكتاب ففضه وقرأه واذ فيه خطابا من امير المؤمنين السلطان الظاهر بيبرس الى فرنسيس صاحب سيس اعلم انك ان أردت السلامة من النقم والحياة قبل العدم تقبض على جوان والبرتقش والفرتماكوس وتأتي الى عندي وانت طايع مختار وتدفع الجزية في كل عام وأتعهد لك بالامان فان فعلت ذلك كان لك الحظ الاوفر وان لم تفعل فانك سترى ماذا أفعل والعاقل من يحسب للعواقب والسلام .
قال فلما قرأ الكتاب خضع ولان فقال جوان ما كتب لك السلطان فناوله الكتاب فقرأه جوان وقال اكتب له رد الجواب بالحرب والقتال فكتب ما أمر به جوان وناول الجواب لابراهيم فأخذه منه وظل واقفا قال الملك لجوان ما يريد قال أعطه حق الطريق لازم اكرام حامل الكتاب فأمر له بخمسين دينارا أخذها وسار طالب جيش السلطان الى ان وصل الى بين أيادي الملك وأعطاه الكتاب وجده بالحرب فمزقه ورماه ثم أمر بدق طبول

الحرب فسمعت اللئام ففتحوا ابواب البلد وخرجوا الى ظاهرها وأمر جوان الفرسان بالنزال فبرز فارس وصال وجال وطلب الحرب والقتال فقال الملك الظاهر ابرزوا اليه يا عصبة الاسلام فابتدر اليه مقدم من بني اسماعيل وتقاتل واياه مدة ساعة من الزمان فخرجت منهما ضربتان صائبتان كان السابق فارس العدو أبطلها المقدم وعاجله بضربة من الحسام قطع رأسه فبرز له الثاني فجندله والثالث والرابع أوردهم الدمار الى وقت الاصفرار أهلك جملة من اللئام ورجع سالما فاستقبله الملك وحياه واكرم مثواه ولم يزل الحرب قائما بالنزال مدة عشرة ايام واللئام كل يوم يخسرون جملة من الفرسان أما جوان فانه ازداد هما وحزنا واحتار ما يفعل فاذا أمر بالحملة جملة فان جيشه لا يثبت ساعة قدام جيش السلطان.

هذا ما كان من هؤلاء واما ما كان من الملك الظاهر بينما كان جالسا في بعض الليالي واذ بالمقدم جمال الدين شيحة داخل عليه فاستقبله وحياه وقال ما عندك من الاخبار يا سلطان الرجال قال يا مولاي بينما الملكان فرنسيس والفرتماكوس جالسين يتعاطيان الخمر ويتذاكران في امور الحرب خرج من عندهما خادمهما فتقدمت اليه وصرفته وقمت موضعه ووضعت البنج والمخدرات في الخمر فشربا وتبنجا فأخفيتهما في مكان حتى لا يراهما أحد وجئت اليك أخبرتك بهذا العمل اما جوان فسألت عنه فقيل لي انه ذهب يسعى للملك فرنسيس بمن يساعده في العساكر والآن مرادي ان آخذ بعض الرجال من بني اسماعيل وأفتح لك باب البلد فحالا تأمر يا أمير المؤمنين بالهجوم على البلد فما يصبح الصباح الا وانت مالكها والملكان بقبضة يدك فقال الملك افعل ما بدا لك أصلح الله أعمالك فأخذ جمال الدين ما أراد من الرجال وأدخلهم البلد وأكمنهم وتبدل في صفة جوان وسار الى باب البلد وتقدم الى الحراس فوجد أكثرهم نائمين فقال ما هذا هكذا تحرسون الباب فلو ما جئت اليكم كانت الاعداء ملكوه وفتحوا البلد ثم قال لهم الآن أبعث غيركم فسلموهم الباب قالوا له أمرك

فرجع شيحة الى رجاله وقبل ان يصل اليهم شلح زي جوان وسعى لهم بألبسة عسكر الاعداء ولبس هو مثلهم ولكن كرئيس عليهم وقال لهم لا احد يتكلم بشيء فأنا أتكلم بصفتي رئيس عليكم ثم انه أخذهم وكانوا يقدرون بمائتين وسار بهم الى ان وصل الى البـاب وصاح على رئيس الحراس وقال له أمرني جوان ان تذهب انت ورجالك الى مكانكم وأستلم انا ورجالي حراسة الباب ففرحوا بذلك وذهبوا ثم ان شيحة فتح الباب وبعث أحد الرجال يخبر السلطان بما فعـل وان يهجم حالا على البلـد ويملكها فلما وصل الخبر أمر الملك بالهجوم ودخلوا من باب البلد ووضعوا السيف برقاب الاعداء وصاحوا الله اكبر فتح ربي ونصر فما أصبح الصباح الا والبلد ملكت وجلس الملك على تخت سيس وأمر الرجال بجمع الاسلاب والمال فجمعوها ووضعوها بين يدي السلطـان فرفع الخمس لبيت المال والباقي فرقه على الرجال ثم ان الملك أمر باحضار الملكين فأتوا بهما اليه وصحوهما مما كانا فيه فقال الملك الظاهر لفرنسيس ما حملك على هذه الفعال قال يا امير المؤمنين أغراني جوان قال جمال الدين شيحة ايها الملك اجعل الملكين عندك في القيود الى ان تدخل مصر المحروسة وهم في ركابك فأخذهما الملك معه مقيدين وارتحل ولم يزل سائرا الى ان اقبل الى ارض مصر فوصلت الاخبار الى نائبه فأمر بالزينة والمهرجانات ثم ان الملك الظاهر دخل مصر بجيوشه والناس يدعون له ويثنون عليه حتى جلس على تخته وأمر بسجن الملكين فسجنوهما مع الملوك المحبوسين .

قال الراوي : واما ما كان من مصعب ابن اخت النسر بن عجبور فانه عاد كما ذكرنا بعدما أوصل الكتاب الى الملك حتى اجتمع بخاله المقـدم نسر بن عجبور فلما رآه قال له دخلت القلاع قال نعم فقال له هل ظهر المقدم معروف قال لا يا خال ولكن قد تسلطن على القلاع واحد من غير بني اسماعيل فغضب النسر وسار حتى أتى قلعته فسلمت عليه رجاله ثم نظر الى باب القلعة فرأى مكتوبا عليه اسم جمال الدين سلطان القـلاع

والحصون فقال ومن جعله سلطانا علينا قالوا له الملـك الظاهر قال هذا معزول قالوا افعل ما بدا لك فان قدرت عليه أطعناك وان هو غلبك فنحن على ما نحن عليه من اطاعة الرجل فقال لهم هذا هو الصواب فبينما هو يتحدث معهم واذ باثنين داخلين عليه وهما داود وشاهين المسايطة فسلما عليه فأمر لهما بالجلوس ثم قال لهما هل أنتما طائعان لشيحة ام عاصيان فقالا نحن عاصيان قال لهما وانا كذلك فأقيما عندي حتى أنظر حالي مع شيحة فأقاما عنده ثم انه التفت الى ابن اخته مصعب وقال له هل رأيت شيحة ام لا قال رأيته يا خال فقال له كيف شكله قال له هو قصير ململوم ونشيط كثير الحركة يتبدل مائة لون ولون قال انتظر لنرى ما يكون ثم انه سار وطلب البر فبينما هو سائر واذ رأى رجلا فقيرا على رأسه عمامة من الليف ومعه ابريق وطبلة وهو يذكر الله فأقبل اليه وقال له ما اسمك قال الشيخ عدس فقال له أقسمت عليك بالله ألست انت جمال الدين شيحة فقال له انا سلطان الحصون فماذا تريد قال له النسر مرادي أنصحك ان تترك السلطنة وتمضي الى حال سبيلك قال له ان شاء الله يا مقدم قال له الآن أمنت على نفسك فقال له يا مقدم ما رأيت من يصلح للسلطنة غيرك وانت أحق بها مني ومن غيري قال صدقت أمض الى حال سبيلك فذهب شيحة وهو لا يصدق بالنجاة ثم ان المقدم نسر ذهب الى قلعتـه وحكى لرجاله ما جرى بينه وبين شيحة وانه تنازل له عن السلطنة فقالوا له يا مقدم استيقظ لنفسك واعلم ان بينـك وبين السلطنـة كما بين الارض والسماء فقال لهم ما هذا الكلام يا رجال قالوا له سوف ترى الآن يا مقدم خذ حذرك من هذا الرجل لانه لا يصطلى له بنار والملك ما سلطنه علينا الا وهو جدير بها فتحير النسر في أمره وعرض على والده ما قالوه له قال له أبوه ما تكلموا به صحيح فطعه وخلصنا من هذا الامر مثل ما أطاعه ابناء عمك فقال يا ابي انا لا اطيعه ولو ذقت كأس الردى فقال له افعل ما بدا لك وانصرف الى مكانه ونام وذهب النسر الى منامه واما ما كان من

شيحة جمال الدين فانه لبس كرجل من الاتباع ودخل القلعة ثم صعد الى المكان الذي فيه النسر فرآه نائما فبنجه وجعله في حرام ودلاه بمن أعلى السور بعد ان ترك لابيه كتابا في المكان ثم أخذه وسار به الى الفلـوات فهذا ما كان من امر شيحة •

واما ما كان من المقدم عجبـور والد النسر فانه ذهب عند الصبـاح يصحي ولده فما رآه ووجد الكتـاب فقرأه واذ فيه ما عمل هذا العمل وأخذ النسر الا شيحة اعلم يا عجبور ان ابنـك مغرور بنفسه ومتكبـر فأخذته لاربيه ولا أتركه الا اذا أطاعني والا فلا يلوم الا نفسه فعند ذلك ضرب المقدم عجبور يدا على يد وخبـر زوجته فبكت وتبدل سرورهـا بالاحزان اما شيحة فانه أخذ المقدم حسن النسر كما ذكرنا وسار به الى الخلوات وأقبل به الى غابة من الغابات وصحاه فقال اين انا قال له شيحة انت بين يدي سلطان الرجال جمال الدين انت تقول لي اترك السلطنة وقد هددتني بتركها كان لازم منك لما عرفتنـي تكرمني وتأخذني الى قلعتك بالعز والاكرام لا كما قلت اعطني السلطنة فهل السلطنـة جبـة اشلحها وألبسك اياها ومن انت يا صعلـوك حتى تكون سلطان القلاع اما اذا اطعتني فاني اسامحك واجعل لك مقاما بين اخوانك بني اسماعيل فقال اعلم اني لا اطيعك ولو قطعت لحمي واطعمتني منه قال له وانا غني عنك ثم اخرج سوطا وضربه ضربا مؤلما ثم اخذه وسار طالبا مصر وكل ما وصل به الى مكان يضربه علقة الى ان وصل الى مصر وأدخله سرايته وعرض عليه الاطاعة فأبى وما ازداد الا عنادا اما والده عجبور بعد ان تفقد ابنه قال ما رأيكم يا رجال ماذا افعل لاخلص ابني من يد شيحة قالوا له اذهب الى مصر وادخل لعند المقـدم ابراهيم بن حسن فهو يدبر لك هذا الامر فسافر الى ان وصل الى مصر ودخل على ابراهيم وقال له انا في جيرتك ان ولدي حسن النسر رجع من التفتيش على معروف وجعل دأبه ضد السلطان جمال الدين وابني لا يرضى ان يطيعه فأخذه شيحة وترك لي ورقة يقول

فيها اذا لم يدخل ابنك تحت اطاعتي فاني اعدمه الحياة فأرجوك انتتوسط بينه وبين سلطان الحصون قال ابراهيم انا احكي مع سلطان الرجال ولكن على شرط ابنك يطيعه والا ما يخلص من شره فذهب ابراهيم الى جمال الدين شيحة وقال له ان عجبور جاء يترجاني ان اخلص له ابنه فقال له كما تريد يا ابراهيم ولكن انصحه ان يطيعني وانا اجعله مقدما بين اخوانه بني اسماعيل وله كرسي بالديوان مثل أقرانه قال ابراهيم بارك الله فيك فدعني أواجهه وأنصحه ان يترك هذا العنـاد من رأسه فسمح له بالدخول عليه فلما دخل المقدم ابراهيم عليه وجده مشبوحا من يديه على الجدار فقال ابراهيم ما هذا يا ابن عجبور ولاي شيء تحمـل نفسك ما لا تطيق كل الرجال أطاعته ثم انه تقدم اليه وفكه من الاشباح ومن القيود وصار يسرد له مناقب جمال الدين شيحة وألاعيبه ومقدرته وقال له والله قليل مثله بين الرجال وانه يدافع عن كل واحد من بني اسماعيـل كأنه أمه وأبوه فالاحسن يا حسن ان تطيع هذا الرجل لانه قال اذا أطاعني سيكون له كرسي في الديوان بين اخوانه المقدمين فخفف حسن النسر من عناده وقال كما تأمر يا ابن العم انا اطيعه فذهب ابراهيم الى جمال الدين شيحة وقال له أطاعك الرجل ففرح ودخل عليه وصافحه وأخذه الى بين أيادي السلطان فقدم الاطاعة للسلطان ولجمال الدين فأنعم عليه الملك وترحب به وجعل له كرسيا بالديوان بين المقدمين بني اسماعيل ثم ان المقدم حسن النسر سار الى قلعته وكتب اسم شيحة على السيوف ورجع الى مصر برجاله لاجل الاقامة بالديوان وبأثناء رجوعه صار مروره على قلعة مشنة وجدها قائمة بالحصار ومعلنة العصيان سأل ما الخبر قالوا له ظهر المقدم حسن المشناتي وأتى من التفتيش على معروف وأعلن عصيانه فمر حسن النسر وبعد عن القلعة خوفا ان يجبره على العصيان اما حسن المشناتي لما فتش عن معروف ولم يجده شكت نفسه من الغربة فعاد طالب الاوطان الى ان أتى الى قلعته فلما أتى اجتمعت عليه الرجال فرأى في صدر القاعة مكتوبا

سلطان القلاع والحصون شيحة ورأى ان القلعة فيها تلوين وتزويق وكتابة فقال يا رجال ما هذا وما هذه الزينة التي على الحيطان وسأل عن القلاع ومن هو عليهم سلطان فأخبروه بالمقدم جمال الدين شيحة سلطان القلاع والظاهر بيبرس سيد الملوك فلما سمع ذلك الخبر ضحك حتى استلقى على قفاه وصاح بملء رأسه وقال شيحة مقتول والظاهر معزول وما أحد سلطان الارض بالطول والعرض الا المقدم حسن المشناتي فلما سمعت رجاله هذا الكلام قالوا له ان الملك الآن راكب على طرابلس بجيشه فسر اليه وأظهر نفسك لديه ولكن ما انت اعظم من حسن النسر وغيره الذين قدموا الطاعة وما قدروا يطلعوا رأس مع جمال الدين شيحة وحكوا له على ما جرى وما فعل شيحة مع الرجال من الابتداء الى الانتهاء فلما سمع بذلك الكلام قال لهم سوف ترون ما افعل ثم قال هاتوا الفرس فأتوه بها فركب وسار ومعه قليل من الرجال طالبا طرابلس الشام .

قال الراوي : اما الملك الظاهر بينما هو جالس على تخته في الديوان وحواليه أكابر دولته واذ بأربعة تجار يقبّلون رداء السلطان ويدعون له بالنصر ودوام العز والنعم فقال الملك ما الخبر قالوا يا ملك الزمان ان الملك البرنز صاحب طرابلس قطع الطرقات على القوافل السائرة وأخذ بضاعتنا وأسر رجالنا فأقبلنا اليك نستنجد بك يا امير المؤمنين فخذ بيدنا وخلص لنا أموالنا ربنا يأخذ بيدك وينصرك على الاعداء فلما سمع الملك كلام التجار تأثر وصمم ان لا يرجع الى مصر الا بعد ان يفتح طرابلس ويأخذ ملكها البرنز أسيرا ويجعله مع الملوك الذين عنده فحالا أمر بتجهيز العساكر بمدة ثلاثة ايام ورحل الى طرابلس الشام وكان السبب في ذلك جوان وذلك انه لما ذهب ليأتي بنجدة الى ملك سيس وصل الى طرابلس فبلغه خبر ان سيس فتحت فبقي بطرابلس الشام ودخل على البرنز فاستقبله وأكرمه فلما استقر بهم الجلوس قال جوان اما تريد ان تغزو الملك الظاهر فقال اعلم يا جوان ان الملك الظاهر لا احد يقدر عليه وما انا

بمجنون حتى احاربه وأغزوه اما رأيت كيف اخذ الملوك أسارى بعدما قتل رجالهم وخرب مدنهم فان قعدت عندي فلا بأس وان رحلت فمصحـوب السلامة فلما سمع جوان منه ذلك سكت وقال في نفسه انا لا ادخل مدينة عامرة واخرج منها الا وهي خراب ولا بد ان اجعل البرنز مع الملوك في سجن السلطان ثم انه أمر بعض اللئام ان يقطعوا الطرقات وينهبوا القوافل فساروا في البر وهجموا على قافلة وقتلوا بعض رجالها وأخذوا الاموال والجمال والدواب عن بكرة أبيها ولم يزالوا يفعلون هكذا حتى وصلت الاخبار الى الملك الظاهر وركب وتوجه الى طرابلس وكان البرنز بلغـه خبر ما كان يفعله جوان وما نهاه عن أفعالـه ولما صار له خبر بأن الملك الظـاهر ركب على طرابلس قال لجوان أنظر نتيجـة أعمالـك بارسالك اللصوص لقطع الطرقات ونهب الاموال فقد وصل الخبر الى الملك الظاهر وهو راكب علينا بجيوش جرارة ولولا أفعالـك هذه كنا بغنى عن هذه العالة فلما سمع جوان من البرنز هذا الكلام قال له ألا يكفيك فخرا ان تنتصر على الملك الظاهر وان تكون سببا لخلاص الملوك من السجن فلما سمع البرنز ذلك استبشر بالنصر وأغلق ابواب البلد وأمر بقطع الطرقات وغزو القوافل اما الملك الظاهر لما وصل الى طرابلس الشام نزل واحتاط بها ثم كتب كتابا وأعطاه لابراهيم وقال له سر بهذا الكتاب الى البرنز وهات منه الجواب فسار ابراهيم بالكتاب الى ان وصل الى الباب قالوا له ما تريد قال لهم حامل كتاب من امير المؤمنين الى البرنز ففتحوا له الباب ودخل وسار الى ان وصل الى الديوان قال جوان أهلا بابراهيم الحوراني ماذا تريد قال حامل كتاب امير المؤمنين قال البرنز هات الكتاب قال له ابراهيم قم على اقدامك وخذ الكتاب فقام على اقدامه وأخذ الكتاب ففضه وقرأه يجد فيه خطابا من امير المؤمنين الملك الظاهر بيبرس الى البرنز اعلم انه وصلتني أخبار عنك انك تقوم بنهب القوافل وقطع الطرقات وانهذه الافعال ما هي أفعال ملوك بل هي أفعال لصوص أشرار فان أردتالسلامة

تقبض على جوان وغلامه وتأتي بهم الى عندي ومعك أموال التجار وحق دم من قتل منهم اثناء الاعتداء فان عملت هذا كان لك الحظ الاوفر وان لم تفعل سوف ترى ما لا يسرك وتكون مع الملوك المسجونين والسلام ثم أعطى الكتاب لجوان فقرأه وتغير لونه فقال جوان اياك ان تقبض عليّ وتسلمني للملك المسلمين فانها تغور بك الارض قال البرنز اكتب له انت ما تريد فكتب جوان جواب الجواب وقال فيه ما عندنا الا الحرب وناوله لابراهيم فأخذه منه وظل واقفا قال جوان أعطوه خمسين دينارا فأخذها وسار الى السلطان أعطاه الكتاب فقرأه الملك ولما وجده بالحرب والقتال مزقه ورماه ونادى على الامراء والرجال بأخذ الاهبة للقتال اما المقدم حسن المشناتي بعدما ركب وخرج من قلعته كما ذكرنا سار الى طرابلس الشام ودخل الى الديوان رأى جوان فسلم عليه فقال له من انت قال انا حسن المشناتي صاحب قلعة مشنة وقد جئت اليك يا جوان لاساعدك على الملك الظاهر فقال له جوان مرحبا بك سلطنوه على القلاع والحصون ثم أمر بدق طبل الحرب وفتحوا باب البلد وقال جوان نعم يا مقدم حسن انزل الى الميدان وأرنا فروسيتك فأجابه الى ذلك ونزل الى حومة الميدان ونادى من عرفني فقد اكتفى ومن لم يعرفني فما بي خفا انا المقدم حسن المشناتي سلطان القلاع والحصون فلما سمع الملك ذلك قال لبني اسماعيل من هذا ولاي شيء يحارب مع الاعداء قالوا يا امير المؤمنين هذا المقدم حسن المشناتي جاء من التفتيش على معروف وأتى لقلعته وعصى سلطان الحصون وأراد الآن ان يظهر نفسه بهذا الشأن فلما سمع الملك ذلك الكلام قال ابرزوا اليه يا عصبة الابرار فابتدر اليه الامير أيدمر البهلوان فتغلب عليه حسن وأسره ونزل الجاولي فأسره أيضا وعلاء الدين كذلك حتى أسر خمسة من الامراء وكل ما أخذ واحدا صاح بصوته ما في الميدان الا حسن سلطان القلاع والحصون ثم دقت طبول الانفصال فعادت كل طائفة الى مكانها ففرح جوان وقال للملك البرنز اقتلهم فقال له البرنز اما الآن فنجعلهم في

السجن والحرب سجال يوم لك ويوم عليك فاذا أسر منا أحد نفديه بأحدهم فسكت جوان اما الملك الظاهر فصعب عليه ما جرى وقال لوزيره كيف يكون هذا من الاشراف ويفعل هكذا فقال الوزير يا امير المؤمنين هذا قد تمكن منه الشيطان فاصبر على هذا الشأن فان قلبي يحدثني بكل خير وفي ثاني الايام نزل المقدم حسن الى الميدان فأسر خمسة من الفداوية ثم دقوا طبل الانفصال ولم يزل على ذلك الحال مدة ستة ايام وقد أسر ثلاثين بطلا من أعيان الدولة وجوان يشكره على ذلك ثم ان الملك ضاق صدره فقال يا ابراهيم خذ سعدا وادخل به البلد لعلكم ان تجدوا لنا مدخلا ندخل منه فقال ابراهيم سمعا وطاعة يا مولانا وأخذ سعدا ولبسا كملابس الاعداء وسارا الى ان وصلا الى الاسوار فرميا مفردا ونزلا الى البلد ثم سارا من مكان الى مكان حتى وصلا الى خمارة فقال ابراهيم يا سعد أدخل بنا الى هنا فدخلا وجلسا فاستقبلهما صاحب الخمارة وأكرمهما وقال لهما قوما الى الداخل واستريحا فدخلا فقال لهما هل عرفتماني قالا انت صاحب الخمارة قال لهما انا جمال الدين شيحة ففرحا به وسلما عليه ثم قالا ان الملك ضيق الصدر من هذا الحال لا سيما من حسن المشناتي فانه ساعد الاعداء وأخذ من رجال السلطان ما يقدر بثلاثين أسيرا وتكبر وتجبر وصار يصيح في الميدان انا سلطان الحصون والقلاع وخجل بني اسماعيل امام السلطان فقال جمال الدين لا يكون لكما فكرة من هذا القبيل سأجيء به طائعا مختارا ثم انه أحضر لهما الطعام وتركهما ووقف في باب الخمارة واذ بالمقدم حسن المشناتي يمر فلما رآه جمال الدين عرفه فاستقبله وترحب به فسأله حسن المشناتي هل مر من هنا جوان فقال نعم لقد مر من هنا ومعه غلامه وقال لي اذا سأل عني احد فدعه ينتظرني في الخمارة حتى أعود لاني أريد ان افحص البلد ولا بد من الرجوع الى هنا الآن فلما سمع المقدم حسن المشناتي ذلك اطمأن قلبه وعبر الى الخمارة وجلس فأتاه بالخمر فشرب وداخ وغاب عن الوجود فكتفه من يديه ورجليه

ودخـــل به على ابراهيم وسعد وشيحة وصحـــاه فقال أين أنا فقال له الخمار انت عندي فقال ومن انت قال له انا سلطان القلاع والحصون فما تقول في الاطاعة يا حسن فقال له اخرس يا قرد فقـــال له شيحة المهم ان تطيعني فقال انا لا اطيعك ابدا فعند ذلك اخرج جمال الدين السوط من وسطه فلما رآه المقدم حسن ضحك وقال ما هذا يا رجـــل فقال له هذا مؤدب العصاة فقال له والله انك لمجنون أتضربني بقطعة جلد اضربنـــي بالسيوف والخناجر قال له شيحة ان كنت تتحمل عشر ضربات من هذه الجلدة أفوت لك السلطنة قال حسن أصحيح ما تقـــول يا شيحة قال له والاسم الاعظم ما اقول الا الصحيح ولكنك اذا لم تتحمل العشر ضربات هل تطيعني قال حسن له أطيعك وأكون لك عبدا قال جمال الدين اشهد يا ابراهيم واشهد يا سعد اشهدا علينـــا في هذا الرهان قالا شهدنا بذلك فخلع عن حسن الثياب وتشمر وكان بالسوط مسامير رفيعة مغروزة فيه اذا أكل الضرب انسان لا يتحمله لانه يغرز باللحم فيشده ويقلع اللحم على قدر عرضه ثم ان جمال الدين رفع يده بالسوط وضربه الضربة الاولى فلف السوط عليه فتمتع به شيحة وشده فسحب معه من الجلد واللحم على قدر عرضه فشعر المشناتي كأن روحه خرجت منه ولكنه كابر على نفسه ثم بعدما سحبه وعلق عليه من لحمـــه نظف ما فيه وضربه الضرب الثاني فاستجار حسن المشناتي وقال الجيرة يا ابراهيـــم قل له لا تضرب باقـــي العشرة وها انا مطيعه من الآن فلما أطاعه رفع السوط عن جسده بلطف حتى لا يزيد في آلامه وفك عنه القيود ودهن له جراحاته وداواه فقـــال حسن المشناتي خاب من عاداك يا سلطان الرجال والف طاعة لك وللسلطان الظاهر فصافحه جمال الدين وطيّب خاطره وقال له ابشر يا مقدم حسن بكل شيء حسن ثم انه قال لهم ابقوا انتم هنا لاسعى في خلاص اخوانكم من السجن وسكر عليهم باب الخمارة ودخل على السجانين فبنجهم وخلص المأسورين من السجن وألبسهم ألبسة السجانين وأتى بهم الى الخمـــارة

وتبعوه الى ان وصل الى باب البلد فأكمنهم قبل الباب وأتى الى الحراس وبنجهم ورجع الى الرجال وقال لهم اذبحوا الحراس فذبحوهم وفتح الباب ثم قال لحسن المشناتي اذهب حالا واخبر السلطـان فبينما الملك جالس منتظر الاخبار واذا بالمقدم حسن المشناتي مقبل عليه فسلم على الملك وقال له سر بالعساكر وافتح البلد لان جمال الدين فتح الباب وخلص الاسارى منتظر هجومك على البلد وانا قد دخلت تحت طاعتكم يا مولاي وطاعته فحالا أمر الملك بالهجوم على البلد فهجمت الرجـال والابطال وصاحت بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ثم ان شيحة جمال الدين لما رأى جيوش السلطان دخلت البلد اخذ ابراهيم وسعدا وقصد سراية البرنز فرأى جوان والبرنز والبرتقش يهمـون في الفرار فقبضوا عليهم وكتفوهم وأتوا بهم الى بين أيادي السلطان فما تضاحى النهار حتى ضعفت مقاومة اللئام فصاحـوا الامان الامان ثم ان الملك الظـاهر أخذ الذين استسلموا أسرى وأخذ خزائن البرنز وصادر الامـوال وخرب الاسوار وأخذ ملكها البرنز وجوان والبرتقش وقيدهم بالحديد ثم رحل بجيشه وسار طالبا مصر فدخلها بمهرجانات وأهازيج الى ان وصل الى قلعة الجبل وجلس على تخته وأمر بالملك البرنز وجوان والبرتقش بالسجن مع الملوك وعين المقدم حسن المشناتي من أرباب خدمتـه ورتب له ما يلزمه وجلس يتعاطى الاحكام الى يوم من الايام فبينما الملك جالس واذ بنجاب مقبل وهو يدعو فقال الملك من اين فقال يا امير المؤمنين من ثغر الاسكندرية واخرج الكتاب وأعطاه الى الملك ففضه وقـرأه واذ به خطابا من نائب الاسكندرية الى بين أيادي مولانا الملك العادل الذي نعلمكم يوم تاريخه وصل للثغر مركب رافع علم السلام فبعثنا من يكشف خبره فرجع وقال ان هذا المركب وارد من رومه المدائن وعليه وزراء ومعهم هدايا للسلطان وكتاب من الملك باش قران فسمحنا لهـم بالرسو بالمينا ونزلوا الى البر فاقمناهم في دار الضيافة وأعلمناكم بالحال والامر لكـم في هذا الشأن

والسلام ثم ان الملك أعطى الكتاب الى الوزير شاهين وقال له اقرأه فأخذ الكتاب وقرأه ثم قال يا مولانا السلطان ابعثأحضرهملنرى ما هو مرادهم فعند ذلك قال الملك لقلاوون اذهب الى الاسكندرية وخذ معك مائةمملوك بأحسن الملابس وائتني بهؤلاء الضيوف فأخذ معه المماليك وسار الى ان وصل الاسكندرية ودخل على وزراء باش قران وسلم عليهم وقال لهم انا موفد من قبل السلطان لاكون برفقتكم اليه ففرحوا وثاني يوم ركبوا في نهر النيل وساروا الى بولاق فوصلت الاخبار الى الملك بوصولهم فبعث اليهم اربعة امراء لاستقبالهم واصطفت العساكر والمماليك والفداويةبطريق الديـوان وهم بأحسن الملابس وشاهرين السلاح ثم ان الوزراء ساروا بطريق الديوان فدهشوا مما رأوا من سطوة الملك الى ان وصلوا الى بين أيادي السلطان فخضعوا وانحنوا وسلموا فاستقبلهم الملك الظاهر ببشاشة وأمر لهم بالجلوس فجلسوا فقال لهم الملك من اين انتم وفيما أقبلتمفقالوا له نحن وزراء الملك باش قران وجئنا من رومـة المدائن ومعنا كتاب من ملكنا الى جلالتكم ثم أخرجوا الكتاب وأعطوه الى الملك ففضه وقرأه واذ به خطابا من باش قران ملك رومة المدائن الى بين أيادي السلطان الملك الذي نعلمكم به أنه قد حضرت عندنا نساء الملوك المأسورين عندكم وقالوا لي المرجو منك يا ملك ان تتوسط لنا وتكتب الى السلطان الملك الظاهر ان يفك أسر رجالنا الملوك من الذل والهوان فوعدتهم بالخير بذلك الشأن وكتبت اليكم راجيا بأن تطلقهم ولكم على كل واحد منهم خزنـة مال مني وخزنة مال للذين يوصلونهم الى عندي فالمرجو من جلالتكم ان لا تخيبوا رجائي والسلام عليكم ثم ان الملك أعطى الوزير الكتاب ليقرأه وقال يا أمـير المؤمنين لا مانـع من ذلك وانا أوافق فقال الملـك وانا كذلك ثم قال الملك للوزير خذ وزراء الملك وضيفهم عندك الى وقترحيلهم فأجاب بالسمع والطاعة ثم ان الملك ثاني يوم جلس على تخته في الديوان وجلست الوزراء والامراء والابطال فقال الملك من نرسل مع الملوك الى

رومة المدائن قال الوزير حسب ما تريد يا امير المؤمنين فنهض ابراهيم وقال يا أمير المؤمنين أرجو منك ان ترسلني مع الوزراء الى رومة المدائن وأكون حامل كتابك .

فقال الملك سمحت لك بالرواح معهم فخذ معك رفقاء فاختار أيدمر وزيرا وسعدا مرافقا له وعرض الامر على السلطان فوافق على ذلك وقال لهم سافروا الى رومة المدائن لاخذ الملوك وتسليمهم الى باش قران وهاتوا معكم خزنات المال التي وعدونا بها قالوا حسب ما يأمر أمير المؤمنين ولما تقرر الامر بينهم على ذلك أخرج الملك من خزانته ثلاثة صناديق وقال لهم لا تفتحوا هذه الصناديق الا عند باش قران فقالوا سمعا وطاعة هذا وقد أمر الملك باحضار الملوك وهم في الاغـلال وسلمهم الى ابراهيم وأيدمر وسعد وتودعوا من الملك وتودع منهم وأخذوا معهم عشرة مماليك وعشرة خدام وشرعوا في قضاء مصالحهم ثم انهم توجهوا الى بيت الوزير شاهين واعلموه انهم غدا سائرون الى الاسكندرية فاعلم الوزير شاهين وزراء الملك باش قران بالمسير ثم أخذهم الى عند السلطان فترحب بهم وخلـع عليهم خلعا سنية وقال لهم ان رجاء الملك باش قران مقبول واني أرسلت له الملـوك مع وزيري أيدمر وابراهيم وسعد وهم مسافرون معكم الى رومة المدائن وحاملو كتابي الى الملك باش قران فانسروا من الملك على حسن وفادته لهم وقالوا اننا لا ننسى هذا الاكرام من السلطان ومن الوزير شاهين ما دمنا أحياء ثم انهم تودعوا من الملك والوزير وساروا صحبـة أيدمر وابراهيم وسعد الى ان وصلـوا الى بولاق ونزلوا بالمركب المعد للسلطان وساروا طالبين الاسكندرية الى ان وصلوا ثم انهم نزلوا في المركب وساروا طالبين رومة المدائن الى ان وصلوا اليها اما ابراهيم وأيدمر وسعد والملوك الاسارى نزلوا من المركب ونصبوا الخيام لاجل لراحة ذلك النهار اما وزراء الملك باش قران فانهم وصلوا الى الديوان فترحب بهم الملك وسألهم عن حالهم وما جرى معهم فحكوا له كيف أكرمهـم السلطـان

والوزير شاهين والملك الظاهر قبل رجاءكم يا مولاي وبعث معنا الملوك الاسارى صحبة وزير السلطان ورفيقه وها هم ناصبين خيامهم على الميناء لاجل الراحة من سفر البحار فبعث الملك أربعة أتباع الى الميناء وطلبوا الاذن بالدخول على الوزير أيدمر فأذن لهم فدخلوا وسلموا عليه وقالوا له يا سيدي أجب الملك باش قران وصحبتك الملوك الاسارى وجوان وغلامه وصحبتنا الملوك فنهض ابراهيم وسعد وتسلحوا ولبسوا أحسن ما عندهم وأيدمر لبس بذلة الوزراء والعشرة مماليك لابسين مسلحين ومحتاطين بالملوك وجوان وغلامه وابراهيم وسعد قدامهم والوزير أيدمر على رأسهم الى ان وصلوا الى الديوان واصطف الملوك وجوان والبرتقش بآخرهم ثم ان الملك باش قران ترحب بالوزير أيدمر وبابراهيم وسعد وأمر لهم بالجلوس فجلسوا ثم قال اين كتاب السلطان قال له أيدمر حاضر أعطه كتاب السلطان يا مقدم ابراهيم فنهض ابراهيم وأعطى الكتاب للملك باش قران وجلس ففضه وقرأ في أوله بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من أمير المؤمنين وخادم الحرمين السلطان الظاهر بيبرس الذي نعلمكم به ايها الملك انه ورد علينا كتابكم فقرأناه وجدنا فيه رغبتكم في خلاص الملوك المأسورين عندنا ونعرفكم عن هؤلاء الملوك الذين شوهوا سمعتهم لانهم كانوا يفعلون فعل اللصوص وقطاع الطرق الاشرار ويعتدون على الصغار والمسافرين في القفار فوصلتنا اخبارهم فكتبت لهم ان يمتنعوا عن هذه الاعمال المشينة وقلت لهم الملوك تركب بجيوش وتغزو الاعداء ولا تفعل فعل اللصوص الانذال فما زادهم الا طغيانا فقلت هؤلاء ليس لهم الا السيف فجئت بهم واحدا بعد واحد كما وقع بأيدينا جوان وغلامه مرات عديدة ونحن نعفو عنه فيعود ويحرض الملوك بالركوب علينا وكان دأبه الاذية والعدوان وقتل الانسان بدون حق والآن فقد حققنا رغبتكم وأطلقنا سراح الملوك وجوان والبرتقش وهم مع وزيرنا أيدمر والمقدم ابراهيم وسعد فاحكم عليهم بما يستحقون والسلام •

فلما قرأ الملك باش قران الكتاب وفهم رموزه ومعنــاه التفت لاول واحد من الملوك وسأله ما حملك على العدوان وقطع السابلة فقال جوان قال له هو عقلك الذي يدبره وسأل الثاني والثالث الى آخرهــم وكلهم ادعوا ان جوان هو الذي حرضهم وأمرهم بهذه الاعمال ثم ان الملك قال انا ترجيت بكم السلطان الظاهر ودفعت عنكم كل واحد خزنة مال لترجعوا الى بلادكم ولكن على شرط ان لا تأتوا بأعمال شائنة ودعوا القوافل تسافر بينكم وبين جواركم فيشترون منكم بضاعتكم وتشترون بضاعتهم فهو أحسن وأنفع من قطع الطرقات والخراب قالــوا رضينا بذلك ايها الملك قال لهم سيروا الآن الى بلادكم وعمروها وكل واحد منكم يرسل لي خزنة المال الذي أرسلتها الى السلطان فانحنــوا امام الملك وحيوه وانصرفوا وهم يدعون علي جوان وما فعله ثم التفت الملك الى جوان والبرتقش وقال لهما ما هذه الاعمال التي ظهرت منكم فسكتا ولم يجيبا بكلمة فقال لهما اذا عدتما الى هذه الاعمال الشائبة فلن أعفو عنكما والآن اذهبا واستقيما في معبد او دير قال جوان كما تأمر ايها الملك ثم صرفهما فذهبا يفتشان على جرائم جديدة •

قال الراوي : ثم ان الامير أيدمر أمر الخــدم ان يدخلوا الصناديــق الثلاثة فأدخلوها الى الديوان وقدمها الامير أيدمر للملك باش قران قائلا أقدم لك هدية السلطان أمير المؤمنين فتبسم الملك وقال مقبولة وأمر بفتح الصندوق الاول فوجد فيه تحفا وآنية مطعمة بالفضة والذهب من مصنوعات الشرق ففرح بها وقال لأتباعه افتحوا الثاني ففتحــوه فوجد فيه سلاحا وسيوفا وخناجر مطلية بالذهب وكانت هذه من كنــوز باديس السبكي فدهش الملك وأعجبه ذلك ثم قال افتحوا لنا الثالث لنرى ما فيه ففتحوه فرأى فيه أقمشة مطرزة بالذهب والفضة من مصنوعات مصر والشام ليس لها مثيل في بلادهم فانسر الملك بهذه الهدية وتشكر السلطان على ارسالها اليه ثم قال الملك للوزير أيدمر وابراهيم وسعد أنتم وأتباعكم ضيــوف

عندي عشرين يوما واذا أعجبتكم الاقامـة فاقعدوا ما شئتم في ضيافتي وخصص لهم سرايا على البحـر ووضع لهم الخدم والاتبـاع ومترجمين وجميع ما يطلبون فأقاموا في ضيافة الملك باش قران وفي يوم من الايام بينما ابراهيم وأيدمر وسعد يتجولـون ومعهم الترجمان فوجدوا عمالا يحملون الاحجـار على ظهورهم والجنود يضربونهم بالسياط اذا قصروا والعمال يقولون عيون الملك الظاهر ترى ما بنا من الذل والهوان فسمع ابراهيم ما يقولون فصاح بالجنود كفوا عنهم ثم أقبل ابراهيم الى أسير وسأله من أنتم ولاي شيء يحملونكم هذه الاحجار فقال يا مولانا نحن أسراء وكل يوم يحملوننا هذه الاحجار من طلوع الشمس الى مغيبهـا فصاح ابراهيم على العمال بأن يرمـوا ما على ظهورهم فلما سمعوا ذلك رموا الاحجار وأتوا الى ابراهيم وأيدمر فقال لهم ابراهيم من أنتم قالوا نحن أسراء الملك باش قران نموت بالاسر والذل والهوان وأنتم تترفهون بالعز والانعام ولكن لنا وقفة معكم بين يدي المنتقم الجبار لانكم لم تسألوا عنا ولا خلصتمونا مما نحن فيه من الذل والحرمان فدمعت عين ابراهيم لما سمع منهم ذلك الكلام ثم قال لهم كفـوا عن هذه الاشغال وانا الآن ذاهب الى باش قران لاجل خلاصكم من الهوان والتفت الى الترجمـان وقال له قل لرئيس الاعمال ان لا يشغلهم الآن ثم ان ابراهيم قال لأيدمر وسعد اذهبوا معي لنسعى بخلاص هؤلاء الاسارى فذهبوا ودخلوا على باش قران فاستقبلهم بالبشاشة وسألهـم عن حالهـم فقال ابراهيم انتم تهتمون بأسراكم وتزعجون العباد من أجلهم وعندكم الالوف من رجالنا أسارى بالذل والهوان ولم تذكروهم لا بشفة ولا بلسان فهذا لن يكون أبدا فأنا أقسم برب العباد اننا لا نخرج من رومة المدائن وبها أسير الا ويعود معي الى الاوطان فقال له الملك أبشر يا مقدم ابراهيم بما تريد وحالا أمر بجمع الاسارى من كل مكان وأقاموهم بمحـل واسع ونظيف وأمر لهم الملك بالكسوة والطعـام الى ان مضى وقت الضيافـة فهم ابراهيم

وأيدمر وسعد بالمسير الى الاوطان فاستأذنوا من الملك بالرواح فأذن لهم وقال لابراهيم وأيدمر اطلبوا ما يلزمكم فأنا أقدمه لكم فقال ابراهيم انا مرادي ان اسير في البر الى الاوطان لان البحـــر صعب ركوبه في الشتاء ودائما هايج ومتلاطم بالامواج فقال له باش قران افعل ما بدا لك قال ابراهيم هؤلاء الاسارى صار عددهم ستة آلاف وأريد لهم خيولا يركبونها فقال له باش قران لك كل ما تطلب يا ابراهيم وأمر له بأربعة آلاف حصان وبغل وأمر لهم بمؤن وتجهيزات وكل ما يلزم ولما انتهى المقـــدم ابراهيم سار هو وأيدمر وسعد لعند الملك باش قران وطلبوا الاذن لهم بالرواح فأذن لهم وودعهم وودعوه ثم جدوا بالمسير الى الاوطان .

قال الراوي : ان جوان قال للبرتقش قم بنا ننظر ماذا جرى في رومة المدائن ونأخذ خبرا عن ابراهيم وجماعته هل ساروا الى الاوطـــان ام لا فلبس جوان والبرتقش ملابس التجار ثم مرا قريبا من الديوان فنظرا المقدم ابراهيم وأيدمر وسعد خارجين من الديوان بعدما تودعوا من باش قران ووجهتهم معسكر الاسرى فساروا وراءهم الى ان وصلوا الى الاسرى وقالوا لهم خذوا أهبتكم غدا نسير وبات الجميع على أهبة الرواح والمسير اما جوان والبرتقش فقد عرفا انهم سيرحلون في البر فقال جوان للبرتقش هيا بنا لنأخذ أمتعتنـــا ونذهب قدامهم لنرى ما تفعل بهم اما المقدم ابراهيم عندما أصبح الصباح حمل الاحمال وخزنات المال فكاك الملوك وما يخصه هو ورفقاؤه وأمر الاسارى كل اثنين ان يأخذا حصانا او بغلا ويتعاونا عليه بالركوب وما بقي من الخيل والبغال حمل عليهم المؤن وأمتعة الاسارى ثم سار في القفار طالب الاوطان اما جوان القرنان مشى قدامهم مسافة نهار وصار كلما وصل الى ملك من الملوك يصير يطلب منه الاعتداء على ابراهيم وجماعته الاسرى ويقول لهم قوموا خذوا منه هذه الاموال ولا تخافوا من سلطان ولا من احد فيقولون له هذا كان عند الملك باش قران فنخـــاف يغضب علينا ولا تنس سلطان المسلمين فانه ينتقم منا وليس لنا طاقة على

هذا الحال فلما وصل جوان مدينة الانجبار دخل على الملك وقال له أنت الذي دلت عليك الدلائل قم حالا واجمع عساكرك وخذ هذه الغنيمة والمال وهي آتية اليك بدون تعب فقال له ملك الانجبار وأين الغنيمة ومن يحرسها فقال جوان الغنيمة مع ابراهيم الحوراني وهو آت في الطريق على بعد نهار ومعه أسارى جاء بهم من رومة المدائن من عند باش قران والغنيمة عشر خزنات من المال فقم لهم واقتلهم وخذ المال والنوال فقال هذا الامر خطير وأخاف من الملك الظاهر ان يأتي اليّ ويخرب بلدي لاني لا أقدر على قتاله فقال له جوان لا تخف انا اطلب لك المساعدة من جميع الملوك ولابد ان تنتصر عليه وما زال يلح عليه ويرغبه ويقربه حتى وافق معه على الغدر والعدوان ثم انه أمر بجمع عساكره بالحال وعندما أقبل ابراهيم بالاسرى تصدى لهم هذا اللعين وصار يقاتلهم فنشب القتال بينهم على قدم وساق فاستقبلهم ابراهيم وأيدمر وسعد بضرب يهد الشامخات ودار الحسام البتار ذات اليمين وذات اليسار وما زال القتال مستمرا الى وقت الزوال فرجعوا عن القتال الى ان اصبح الصباح هجم اللئام فتلقاهم ابراهيم وأيدمر وسعد وباقي الاسرى بالسيف البتار وصاح ابراهيم على سعد اترك المال واقطع أعناق اللئام فصار سعد يضرب بسيفين ويقطع الرؤوس ثم ان ابراهيم اشتد وصار يضرب بالاعداء ضربات قاطعات فانكشف الميدان عنه وتنشط فلله دره وما فعل فصارت اللئام تبتعد عنه وتخشى الاصطدام معه حتى قتل منهم مقتلة عظيمة الى وقت الزوال فأراد اللئام الانفصال فقال لهم جوان ولاي شيء الانفصال وما بقي من أعدائكم الا اليسير فانقضوا عليهم بالحال فثابروا على القتال فعندما رأى ابراهيم ذلك الحال قال لسعد اذهب يا سعد الى الاوطان وقل لمليكنا الملك الظاهر ان يأتي بالجيوش ويأخذ لنا بالثأر فقال له سعد انا ان وصلت الى السلطان يقتلني لفراري من المعركة والميدان فقال له ابراهيم لا تفكر بهذه الافكار فما انت الا بطل شجاع فانا مرادي ان تخبر عنا السلطان ورجال الاوطان

لاجل ان يأتوا ويخربوا هذه الديار على هذا العدوان وخبر بني اسماعيل وكل ما مريت على بلد من الاوطان او قلعة خبر عنا لاجل ما ينمحي اثرنا وما احد يعرف ما جرى لنا فاذهب يا سعـد وخبر امي الشمطا ووالدي حسن وقل له اجمع الرجال وخذ لولدك بالثأر فانفرد سعد وصاح برفيع صوته وقال ابشروا يا أهل الانجبار بالخراب والدمار واني ذاهب لآتي لكم بالبلاء الاعظم وسار وهو يركض مثل الغزلان اما الحرب والقتـال فقد دام الى ان ولى النهار وأقبل الليل بالانسدال فصـار ابراهيم يقتل ويجندل وحمى وطيس المعركـة وقد أصيب أيدمر البهلوان بالجراحات فجعل ابراهيم يحمسه ويشجعه على متابعة القتال فصار أيدمر يقاتل على قدر استطاعته حتى سقط من على ظهر الجـواد وقد استشهد الاسارى جميعهم وما بقي بالميدان غير ابراهيم وقد انطبقوا كلهم عليه فقاتل وقد اشتد عليه الامر فضعف عزم ابراهيم عن القتال ثم أراد ان يرفع سيفه فلم يقدر ان يرفعه ولحقته الدوخة وسقط الى الارض وكان ذلك قريبا من نصف الليل وصاحت الافرنج على بعضها وخيل لهم ان ابراهيم ما دام يقاتل فصاروا يقتلون بعضهم البعض الى ان ولى الليل وأقبل النهـار ثم فتشوا على ابراهيـم فما رأوا له أثرا وكان السبب في ذلك جمال الدين شيحة كان حاضرا ولكن العـين بصيرة واليد قصيرة فلما رأى ابراهيـم سقط عمل جهده وأخذه من قلب المعمعة وذهب به وأخفـاه ورجع ليأتي بأيدمر فما وجد له أثرا فرجع وصار يعتني بابراهيم اما فقدان الامير أيدمر فسببه ان وزير ملك الانجبار ذهب الى داره وهو فرحان بهذا الانتصار فاستقبلته امرأته وكانت ذات عقل وتدبير فلما رأت زوجها الوزير ضاحكا مستبشرا قالت له لاي شيء انت مسرور وفرحان قال لها أما سمعت بهذا الانتصار الذي انتصرناه قالت وأي انتصار ولاي شيء ما تسمي هذا الانتصار دمارا وخرابا فعن قريب تجدون الملك الظاهر أتاكم بجيوش كقطع الغمام لانه لا يسكت على هذا العدوان وعلى قتل وزيره ومرافقه المقدم

ابراهيم وهو من بني اسماعيل وغدا تراهـــم مقبلين لاخذ الثأر وهم مثل الاسود الضارية ولماذا قتلتم الاسرى وهم العزل من السلاح هل لكم ثأر عند السلطان الظاهر لماذا ما فكرتم قبل هذه الاعمال التي تجلب لكم البلاء الاعظم والدمار وانا اقول ان هذا الملك لا يستحق ان يكون بواب خان فيا ويلكم من هذه الافعال لانكم جنيتم على الاهالي والاوطـــان والآن اذهب وائتني بالوزير ومرافقه فان وجدنـــا بهما روحـــا داويناهما وان وجدناهما فارقا الحياة صبرناهما الى ان يأتي السلطان وان جرى أمر على هذا البلد نفك أنفسنا ونفديها بهما من السلطان وان ما أتيت بهم الى هذا البيت انا غدا أرحل عن هذه الديـــار لاني أرى انه سوف تكون خرابا ينعق فيها البومَ والغراب فلما سمع كلامها الوزير اخذ اثنين من الخدم وذهب الى محل المعركة وصار يدور فما وجد الا الامير أيدمر فعرفه من ملابسه وهو بين الموت والحياة فأمر الخدم بحمله الى بيته وقال لامرأته ما رأيت الا هذا الامير فصارت امرأة الوزير تعتني بأيدمر وتداويه وهو لا يعي على شيء لمدة ثلاثة ايام صحى مما هو فيه وقال أين انا فقالت له امرأة الوزير انت عندي فشكرها على أعمالها اما شيحة جمال الدين فصار يداوي المقدم ابراهيم حتى صحى وفتح عينيه وقال أين انا قال له انت بين يدي سلطان الحصون ما عليك بأس انشاء الله وانا أفديك بروحي يا ابراهيم فقال له بارك الله فيك يا سلطان الرجال ثم صار يعتني به وأما ما كان من سعد فانه صار كل ما مر على بلد او قلعة يدب الصوت ويحكي لهم ما جرى على ابراهيم وأيدمر والاسارى الى ان وصل الى مصر وطلع الى الديوان .

وعندما دخل وجد الطبر الذي كان ينقله ابراهيم معلقا في حائط الديوان فوقع مغشيا عليه فاندهش السلطان الظاهر والوزراء وكل من حضر في الديوان فأنعشوه وصحوه قال له الملك ما بالك وأين ابراهيـــم وأيدمر فقال سعد سمعنا الفاتحة يا أمير المؤمنين انت والسامعين على روح

ابراهيم وأيدمر وستة آلاف أسير قتلوا جميعهم على جسر الانجبار فلما سمع أهل الديوان بما جرى على ابراهيم وأيدمـر صار البكاء والنحيب وصارت ساعة يا لها من ساعة عندها صاح الملك الظاهر بصوت دوى منه الديوان وقال ما هذه الافعال التي لا تفعلها الا النساء ان الرجال لا تفعل هكذا بل تأخذ بالثأر وكشف العار ثم ان الملك قال لسعد قل لنا مفصلا عما جرى فصار يسرد للملك ما جرى عليهم بالتمام فقال الملك الظاهر وحق من أولاني رقاب العباد لا بد ان اخرب الانجبار واجعلها ينعق فيها البوم والغراب ثم انه أمر بجمع الجيوش والابطال وبعث مكاتيبـا الى جميع البلاد والقلاع يأمرهم بالاجتماع على أراضي حلب والتفت الى فداويـة بني اسماعيل وقال لهم كل مقدم يذهب الى قلعته ويجمع رجاله ويأتي الى حلب فساروا كما أمر السلطان فجمعت العساكر والرجال من كل مكان في مدة اسبوع من الزمان ورحل الظاهر وسار من مصر بجيش كقطع الغمام وكانت تنضم له جيوش أهل البلاد الى ان وصل الى حلب وجد فيها أمما لم يحصها قلم كلهم أتوا لاخذ الثأر لابراهيم ثم انه بعد ثلاثة ايام رحل عن حلب بجيش ليس له اول يعرف ولا آخر يوصف وكلهم ينـادون يا لأخذ الثأر من الاعداء اللئام وسار الجيش على عرض البر مسافة نهار ثم ان الملك قال لقادته عندما تتخطى الحدود لا تبقوا على انسان من اللئام وخذوا الاموال والانعام .

اما ملوك السواحـل فقد وصلت لهم الاخبار من جواسيسهم بمصر يقولون خذوا حذركم فالملك الظاهر خـرج من مصر بجيش جرار وأمر بجمع الجيوش على حلب ووجهته الانجبار وأقسم بأن لا يبقي من أهل هذه الديار من ينفخ بنار لان ملك الانجبار تعـدى بجيشه على وزيره أيدمر والمقدم ابراهيم وأخذ الاموال وهي عشر خزنات وقتل ستة آلاف أسير فلما سمعت ملوك الساحل ما خبرهم جواسيسهم لاموا ملك الانجبار على هذه الاعمال التي لا يعملها مجنون فحالا كتبوا المكاتيب وأعلموه بأن

السلطان آتيك بحملة من الحملات الكبــار وحلف انه لا يترك أحدا في ديارك والاوطان فكيف تفعل هذه الافعــال اما سمعت ما جرى لنا منه خرب بلادنا وأخذ الاموال ولولا الملك باش قران ما توسط لنا وخلصنا من الاسر والهوان ودفع عن كل واحد منا خزنة مال لكنا الى الآن فيالاسر والهــوان فلما قرأ ملك الانجبار مكاتيب الملوك قال لوزرائه لقد غشنا جوان وما كنت أظن ان هذا الامر يسبب هذه الاخطار فارسل الى جوان فحضر وأعطاه المكاتيب وقال له خذ اقرأ ودبر لنا الخلاص مما رميتنا فيه.

فلما قرأ المكاتيب قال هذا أمر هين لا يزعج فسوف أجمع لك الرجال من كل مكان ثم انه أخذ خزنتين من المال وذهب يجمع الرجال ويرسلهم الى الانجبار وصار جوان يستنجد في الملوك ليرسلوا العساكر والجنود فأرسل كل منهم على قدر حاله الى ان اجتمع على الانجبار جيش للئام عظيم الشأن اما الملك الظاهر ما زال سائرا في جيشه الى ان وصل الى الانجبار فثاني يوم دقت طبول اللئام وبرزت الى الميدان فرسان يطلبون النزال فطلبتهم فرسان بني اسماعيل وصار النزال فارس لفارس وعشرة لعشرة ومائة لمائة الى ان ذهب النهار وأتى الليل بالانسدال فتشاور الامراء والمقدمون مع السلطان كيف يكون القتال غدا فقال لهم السلطان بعدما تصطف العساكر والابطال يبرز الى الميــدان فارس من صناديد الرجال ويطلب من الاعداء المبارزة فينزلون الى الميــدان وبعد مضي ساعة من الزمان قوموا بالحملة جميعكم على الاعداء .

وثاني يوم طلب المبارزة مقدم من بني اسماعيل كما أمر الملك وصار يقتل ويأسر من الاعداء قدر ساعة من الزمان واذ دقت العماريات بالحملة على اللئام فدارت الحرب فلا ترى الا خيول غائرة ودماء فائرة ولا تسمع الا رنين السيوف وصياح الابطال فلله در بني اسماعيل وما فعلت بالاعداء وما دامت الحرب قائمة والمعركة دائرة الى ان صارت الشمس في قبة الفلك واذ بكوكبة فرسان آتية من الفلوات تقدر بماية فارس على خيول عربية

كالغزلان يتقدمها فارس بالحديد غاطس وهو يصيح بأخذ الثأر لابراهيم وكانت هذه كوكبة الشمطا ام ابراهيم ومعها اللبوات وكن يهتفن بأخذ الثار لابراهيم واقتحمن الميدان بسرعة البرق وفتكن بالاعداء فتكا ذريعا فلما رأت الرجال والابطال أفعال اللبوات هاجوا كما تهوج فحول الجمال وحملوا على الاعداء حملة صادقة وانقضوا عليهم انقضاض العقبان على الحمام فلما رأت اللئام هذا الحال وما جرى لهم ولوا الادبار وركنوا الى الهزيمة والفرار فقسم منهم راح طعم السيف البتار وقسم حصل باب البلد ودخل والباقي هج في الفلوات فتبعتهم جيوش الابرار وكل من قصر منهم قتل او أسر الى ان ولى النهار وجاء الليل بالانسدال فرجعت الابطال وصارت تجمع الخيول الشاردة والامتعة المبددة ثم ان السلطان الظاهر فرح بهذا النصر وجلس بصيوانه يستقبل المجاهدين ويحييهم ويعلق على صدورهم الاوسمة واذ دخل الى الديوان فداوي طويل وقال الطاعة لمولانا السلطان ملأ الله قلبه بالايمان انا عيشة الشمطا ام ابراهيم قال لها الملك أهلا وسهلا بأم الرجال وأجلسها الى جانبه وقال لها لاي شيء كلفت نفسك بالمجيء الى هنا اما تعلمين ان ابراهيم يعز عليَّ كما يعز علي ولدي السعيد فشكرت الملك وقالت يا مولانا السلطان لم يعد لي اصطبار لما سمعت هذه الاخبار عن ولدي وما جرى له ودمعت عيناها فلما رأت الرجال ان عيشة الشمطا بكت تأثروا وبكوا لبكائها فبينما هم على هذا الحال واذ بشيحة جمال الدين مقبل فاستقبله السلطان وسلم عليه وجميع من كان في الصيوان حياه وسلم عليه ثم ان الملك قال ما وراءك من الاخبار يا سلطان الرجال قال ابشرنا يا امير المؤمنين بأخيك المقدم ابراهيم وانه الحمد لله بخير ومشرف على العافية كما ان الامير أيدمر بخير وبدور النقاهة ومشرف على الصحة والعافية قال الملك وأين هما الآن فقال في داخل المدينة اما المقدم ابراهيم فهو تحت عنايتي واما أيدمر فاني اكتشفت أمره فوجدته عند وزير الملك وامرأته وقد اعتنيا به كثيرا حتى اذا وقعوا بين أياديك يا مولانا السلطان

يفتدون أنفسهم به ولما سمعت عيشة الشمطا بسلامة ولدها فرحت فرحا عظيما وشكرت المولى تعالى وقالت لجمال الدين بارك الله فيك ما خاب رأي مولانا السلطان الذي جعلك سلطان الحصون وأميرا على بني اسماعيل واذا كنت تطلب ان يطيعك النساء فأنا أول مطيعة لك فقال لها شيحة جمال الدين يا سيدتي انا خادم لبني اسماعيل الكبير منهم والصغير فقالت له وفقك الله في خدمة مولانا الملك والمسلمين ثم ان السلطان سأل شيحة ما رأيك يا جمال الدين في امتلاك البلد قال يا مولانا ان القوم مرتبكون مما أصابهم في الميدان لا سيما وقد رأوا الملك مقتولا وجوان هربان وهم الآن رعية بدون راع يقودهم ويدبر أمرهم فرأيي ان نهاجمهم قبل ان يطلع الصباح وان الاسوار ما عليها احد فاذا أهملناهم يعودون فيحمون الاسوار ويدافعون عنها ويخلقون لنا الاتعاب .

قال الملك هذا الرأي الصواب ثم ان جمال الدين استأذن من الملك وقال له انا راجع الى البلد ومنتظر الهجوم لاجل ان اقوم بما يتوجب عليّ فأذن له السلطان وقال اذهب أصلح الله أعمالك ثم أمر الملك بالهجوم واقتحام الاسوار فهجموا هجوما صاعقا فما جاء الصباح الا والاسوار ملكت من دون قتال ثم ان الجيش صاح بصوت واحد الله اكبر وكروا على البلد فلم يجدوا من مقاوم ولا من مقاتل وصاحت الاهالي والرعية الامان الامان ايها السلطان ثم انهم فتحوا الابواب ورفعوا رايات التسليم فأمنهم الملك على أرواحهم ودخل البلد وحوله الجنود والابطال واذ أقبل شيحة جمال الدين فسأله الملك أين مكان ابراهيم فدله عليه فلما رآه الملك سلم عليه وعانقه وقبّله وقال لا بأس عليك وكان ابراهيم مستلقيا على التخت وقليل الحيل فأمر الملك ان يخرجوه الى خارج البلد الى الصيوان ثم قال الملك وأين أيدمر فأخذه اليه فوجده في سراية وزير الملك وهو بحالة حسنة ومقبل على العافية فسلم عليه وسأله عن حاله قال له بخير يا أمير المؤمنين ثم أمر الخدام ان ينقلوه الى الخيام وبعدها توجه الى الديوان

وأمر بمصادرة أموال ملك الانجبار ثم سأل عن الاموال التي كانت مع ابراهيم فوجدوا منها ثمانية خزنات في خزينة ملك الانجبار ثم ان الملك أراد اخراج الرعايا من المدينة لاجل خرابها على الاطلاق فقال له جمال الدين شيحة الاصوب ايها السلطان ان تتركها عامرة وتفرض عليها المال في كل عام وتصير من رعاياك فقال له الملك انا حالف اني أخربها على هذا العدوان قال له تخرب قسم ضئيل لاجل اليمين وكفاهم ما نالهم من العذاب والذين قاموا بهذا العدوان نالوا جزاءهم وليس على الرعية حق والمسؤولية تقع على رأس الراعي فوافق معه الملـك على ذلك وقال من نضعه مكان الملك ويكون عاقلا ويليق بهذا المقام فقال شيحة انا أدبر هذا الامر ثم ان جمال الدين جمع أعيان البلد وقال انتخبوا منكم رجلا يكون حاكم البلد فأنتم أخبر ببعضكم فانتخبوا احدهم فقدمه جمال الدين الى السلطـان وقال هذا الشخص قد أرادوه حاكما عليهم بأمرك يا ملك الزمان فأملى عليه الملك الشروط وانه يقدم في كل سنة المال الى السلطان وان يحسن الادارة ويحكم بين الناس بالعدل والانصاف وقال له اذا جاءني شكوى عليك بظلم او عدوان صلبتك على باب البلد وأشهد عليه وزراءه وأعيان بلده في هذا الشأن ثم ان الملك ذهب الى صيوانه خارج البلد وأمر بصنع تخت لابراهيم وتخت لأيدمر وكل واحد يحملـه بغلان قويـان حتى لا ينزعجان في المسير ثم بعد ذلك دق طبل الرحيل وسار الملك الى ان وصل مع جيوشه الى حلب فاستأذن بعض الرجال من بني اسماعيل من الملك بالمسير الى الديار فأذن لهم بالرواح وأعطاهم من الغنيمة والاسلاب شيئا كثيرا وذهبوا الى أهاليهم وثاني يوم ارتحل الملك الى ان وصل الى دمشق فخرجت الاهالي بالاهازيج والمهرجانات لاستقبال السلطان وجيوشه المظفرة وأقام في الشام ثلاثة أيام زار الاهل والاصدقـاء فبينما هو جالس واذ بالمقدم حسن والد ابراهيم وأمه الشمطا داخلين على السلطان وقالا ائذن لنا أيها الملك بالرواح لحوران وصحبتنا ولدنا ابراهيم لاجل الاستشفاء

والاستجمام وعندما يتكلل ابراهيم بالعافيـة يحضر لخدمتكم فأذن لهم وأعطاهم من الاموال والغنيمة شيئا كثيرا ثم سار الملك الى مصر المحروسة فلما وصل استقبلته الاهالي بيوم يعد من الاعمار وأقاموا الزينة في كل مكان ثم طلع الى قلعة الجبل وجلس على كرسيه في الديوان وصار يتعاطى الاحكام وبينما هو جالس في الديوان اذ بنجاب مقبل وهو يقول سبحان هادي الطير قال الملك وراحم الشيب وساتر العيب من أين والى أين قال النجاب من حلب يا مولانا السلطان ومد يده وأعطاه الكتاب ففضه وقرأ فيه خطابا من نائب امير المؤمنين بحلب الى مولانا خـادم الحرمين نصره الله الذي نعلمكم به انه بينما نحن جالسين نتعاطى الاحكام واذ بأربعة رجال من التجار بحلب داخلين وأخبرونا انه ورد لهم مركب محمل بالبضاعة ومراده الرسو على ميناء السويدية لاجل ان يفرغ بضاعتهم واذ تعـرض له مركب زاخر بالرجال المسلحين وأخذوه بما فيه من بضاعة وناس وقادوه الى ميناء اللاذقية مأسورا وقد هرب واحد من النوتية وأتى الينا وأخبرنا ماذا جرى قال بينما نحن في ظهر البحـر ووجهتنا ميناء السويدية واذ هاجمنا مركب ملآن عساكر وأجبرونا بارخاء شراعنا والوقوف فأذعنا لهم مرغمين وبعد ان اكتشفوا مركبنا وعرفوا ما فيه اقتادونا الى ميناء اللاذقية وعندما نزلنا الميناء صار لي انا فرصـة فهربت وجئت اخبـرت التجـار اصحاب الاموال قـال النائب هذا ما علمناه عرفناكم به ولكم الامر يا جناب السلطان والسلام .

وبعدما قرأ الكتاب أمر حاجب الديـوان ان يأخذ النجـاب الى دار الضيافة حتى يعطيه الجواب وكتب كتابا وأرسله مع نجاب الى امير البحار ابو علي البطرلي بالاسكندرية ان يحضر بالحال فلما قرأ الكتاب أقبـل الى مصر ودخل الى الديوان فسلم على الملك ودعى له بدوام العز والنعم والنصر على الاعداء ثم ان الملك أمر الحاجب ان يخبر جمال الدين شيحة بالحضور لمواجهة السلطان وبعد ان جمع الملك الرجال الذين يعتمد عليهم

اخرج الكتاب وقال لاحد الحاضرين اقرأ هذا وسمعه لنا فقرأه كما أراد الملك ثم ان السلطان قال لامير البحار ابو علي البطرلي ما تقول في افعال هذا القرنان ملك اللاذقيــة وما هو رأيك قال يا امير المؤمنين لقد جاءني شكاوى بهذا الشأن وكنت أرسل المراكب تجوب البحر والسواحل ظانا ان بعض مراكب الافرنج هي التي تقوم بهذه الاعمال واذ اتضح لي ان هذه الافعــال من ملك اللاذقية فالواجب علينــا ان نغزو مدينة اللاذقية ونفتحها وتكون ميناء لمراكبنــا في هذه الجهــات ومرسى لسفن التجار وبضائعهم فاذا أمرني مولانا السلطان جمعت مراكبي وعساكري وهاجمتها من البحر ويحاصرها جيش من البر فقــال شيحة جمال الدين اذا أمرني صاحب الدولة أجمع الرجال من بني اسماعيل وأحاصرها من البر ونفتح البلد ولا نكلف مولانا السلطان بالمشقة فقال الملك بارك الله فيكم ونجح اعمالكم ثم ان جمال الدين قال لابي علي البطرلي انا ابعث اليك خبــرا بالهجوم على اللاذقية ويكون هجومنا في آن واحد من البر والبحر فقال ابو علي هذا هو الصواب وان شاء الله نكون موفقين في هذه الاعمــال وثاني يوم توجه كل منهم الى مكانه وصار يستعد لجمع الرجال والابطال وقد جهز ابو علي البطرلي مراكبه بالمدافع والبارود والمؤن وجمع المغاربة من كل مكان الى ان جمع مراكب كثيرة وكلها ملآنــة بالرجال المغاربــة الاشاوس اولاد عيشة وقعد ينتظر الجواب من جمال الدين شيحة بالمسير الى اللاذقية اما سلطان القلاع والحصون أمر الرجال باشعال النيران على رؤوس الجبال وهذه اشارة الحرب فاجتمع مقدار اثني عشر الف مقاتل من ابطال بني اسماعيل على قلعة صهيون القريبة من اللاذقية فسار بهم جمال الدين قاصدا اللاذقية وبعث كتابا الى ابو علي البطرلي بالمسير الى اللاذقية فلما صار عنده خبر أقلع في البحر الى ميناء اللاذقية وبآن واحد وصلت جيوش بني اسماعيل وحاصرت اللاذقية ووصلت مراكب ابو علي البطرلي وحاصرتها من البحر ثم انهم هجموا على المدينة من البر والبحر

معا فرمى القبطان ابو علي بمدافعه الابراج وكبس الميناء وملكها بالحال وخرجت رجاله المغاربــة الاشاوس من المراكب وتصايحوا على اللئــام وابو علي قدامهم يقول اولاد عيشة يا ابطال البحار جاهدوا في سبيل الله اما سلطان الحصون جمال الدين فانه هجم برجالــه بني اسماعيل وهو بأولهم وتبعه اثنا عشر الفا من صناديد بني اسماعيل واقتحموا الاسوار واعتلوا فوق الابراج وصاحوا الله اكبر ومكنوا السيف برقاب الاعــداء وفتحوا أبواب البلد ودخلت الخيل أما أبو علي فملك باب البحر ودخل البلد فما دار الحرب الا ساعات حتى ملكوا اللاذقية اما ملكها عندما رأى ذلك ولى هاربا والى النجاة طالبا اما جمال الدين وابو علي البطرلي فقد توجها الى ديوان الملك واستلما المال والارزاق ثم فتحا السجون وأخرجا منها الاسارى وكانوا يقدرون بألفي أسير بين رجال ونساء وأطفال وكان ملك اللاذقية يأخذ المال ويبيع الناس بيع النعاج ثم ان جمال الدين شيحة وابو علي البطرلي بعد ما استقر بهما الحال واطمأنت الرعية أرسلا كتابا الى السلطان أعلماه بالنصر والفتح المبين فلما وصل الكتاب الى السلطان فرح واستبشر وقال لكاتب الديوان اكتب الجواب حالا واعلم سلطان الحصون جمال الدين ان النائب عن السلطان في اللاذقية أبو علي البطرلي وله أمر مكرم ودستور معظم من جلالة الملك ان يتصرف بأموال المكوس على البضائع حسب القوانين المرعية الاجراء وان يبني المراكب ويأتي برجال بحرية ويخدمهم وان اللاذقية هي محطة مراكبه وانشائها وقاعدة لهولرجاله شرففتحها وعليه ان يجتهد فيتحصينها وتنظيممراكب الدولة فيها ويوصي التجار ان يكون سير مراكبهم اليها ويحسن معاملته معهم من اي جنس كانوا وأوصيه بالعدل والاحسان ومراعاة رجاله وتدريبهم ويكثر منانشاء السفن ويؤمن طرق البحار ويحافظ على مراكب التجار وأموالهم ويضرب بسيفه رقاب القرصان واللصوص والسلام على سيد ولد عدنان •

ثم ان الملك أعطى الكتاب الى النجــاب وقال لوكيل الخزنة أعط

خلعتين واحدة الى جمال الدين شيحة والثانية لابي علي البطرلي وأعط النجاب كسوة وأكرمه لبشارته لنا بالنصر ، ثم ان النجاب أخذ الجـواب والانعام وسار طالب اللاذقية الى ان وصل وسلم الجـواب الى سلطان الرجال فقرأه ثم ان جمال الدين استدعى أبا علي البطرلي وأعلمه ما كان من السلطان وأعطاه الكتاب وأمر الملك ففـرح بذلك ابو علي البطرلي واستبشر وبدأ ينشيء ويجهز حسب ما أمره السلطان هذا ما كان منه ، واما ما كان من جمال الدين شيحة فانه فرق الغنيمة على الرجال كل منهم على حسبه ثم ذهب الى اشغاله .

اما الملك الظاهر بينما كان جالسا بديوانه ، واذ بنجاب مقبل ومعه كتاب قال السلطان من اين قال يا مولانا من ثغر الاسكندرية ثم أخـرج الكتاب وأعطاه الى الملك فأخذه وقرأه واذ به من نائب الاسكندرية الى مولانا أمير المؤمنين الذي نعلمكم به انه ظهر عندنا أناس يسرقون الاولاد وأموال الناس وكثرت الينا الشكاوى من الاهالي ولم نعرف الغريم الذي يفعل ذلك ولما أعيانا الحال أرسلنا لك هذا الكتاب فادركنا يا ملك الزمان أيدك الله بنصره وجعلك ذخـرا للمسلمين والسلام على سيد الانبيـاء والمرسلين ، فلما سمع الملك ذلك قال لا بد لي ان اروح الى الاسكندرية بنفسي واكشف هذا الامر ثم ان السلطان تنكر في صفة تاجر بعد ما أوصى ولده السعيد على الملك وركب وسار الى الاسكندرية ولم يعلـم بحاله احدا ودخل الى خان ثم أقام الى الليل لينظر الغريم وكان السبب في ذلك ان جوان لما أعيته الحيل قال للبرتقش سر بنا الى جنـوا لعلنا ان نرسل جماعة من عند ملك جنوا الى اللاذقية ليساعدوا ملكها فدخل جوان على ملك جنوا فاستقبله فقال جوان يا ابني انا أتيت اليك لتساعد ملك اللاذقية لان الملك الظاهر أرسل اليها جيشا لامتلاكها فقال له ملك جنوا انا لا اطاوعك ابدا لانه ما طاوعتك الا حصل لي الاذى والضرر واذا كان مرادك مساعدته فاذهب الى حصن السلاسل القريب من هنا وحرض المقدم براميل لعله

يساعدك على مرادك ثم انه أرسل معه خادما ليدله عليه فسار الى الحصن فلما وصل استقبله براميل فقال له جوان انت ألذي ترجى مساعدته فقال له المقدم براميل اذا كنت تريد خدمة انا حاضر فقال انت عندك اخ اسمه بتوت قال نعم فأمر ان يحضر ولما حضر علمه جوان ما يفعل وعبى مركب تجارة ونزل بصفة تاجر وكتب له كتابا الى احد التجـار في الاسكندرية اسمه علاء الدين الصوري يظهر امام الناس بالصلاح اما بالخفاء فهو لعين غدار ثم ان بتوت اخذ معه عشرة عياق على شاكلته اولاد حرام واخذ كتاب من جوان وتودع من أخيه براميل وسافر على ظهر البحر من حصن السلاسل طالب الاسكندرية الى ان وصل ونزل بضاعته ثم نقلها الى احد الخانات وصار يتعاطى التجارة وسأل عن علاء الدين التاجر فدلوه عليه فمضى اليه واعطاه كتاب جوان ففـرده وقرأ فيه خطابا من جـوان الى علاء الدين الصوري المطلوب منك يا ولدي ان تساعد حامـل الاحرف بتوت على اعماله لاني انا أرسلته وعلمته ما يفعل وعليك ان تكرمه وتهديه هو ورجاله العشرة وان تسكنه في منزل يوافقه على أعماله واني أرسلت معه بضاعة تسترا على عيون الناس فأجابه بالسمع والطاعة وأخذه الى منزله واكرمه ثم سعى له بمحل طبق مرامه فسكن فيه هو ورجاله العشرة وبدأوا يعملون فيما امروا بعمله من أخذ اطفـال وسرقـة امـوال الناس الى ان ضجت الاسكندرية من اعمالهم واشتكوا الى نائبهـا فصار يتعقب الغريم فلم يوفق في القبض فأرسل وأعلم السلطان بهذا الامر والشأن فأتى الملك بنفسه ليكشف عن هذه الاحوال كما ذكرنا سابقـا ثم ان الملك صار يدور في البلد في ظلام الليل حتى دخل الى سوق التجار فرأى شخصا رابه أمره فتبعه فكان هذا بتوت الغريم الذي يرتكب الجرائم وما زال سائرا حتى وصل الى بيت هناك والملك خلفه فدخل الملعون وقفل الباب اما الملك فانه رفع الباب بيد الدبوس وفتحه ودخل وراءه واذ بباب مفتوح على شمال الملك فدخل ليرى هل دخل الغريم الى هنا فعندما صار داخل المكان أغلق

الباب وأظلمت الغرفة فرموا على الملك البنج والمخدرات التي ترمي الجمال فوقع الى الارض مغشيا عليه فانقض عليه بتوت ورجاله وقيدوه بالحديد من يديه ورجليه وأنزلوه الى الطابق الارضي مع الاولاد الذين سرقوهم من الاسكندرية ثم أعطوه ضد البنج حتى صحى فرأى نفسه مقيدا بالسلاسل والاغلال فقال من فعل هذه الافعال فقال له بتوت انا يا بيبرس واني سآخذك الى جوان ليفعل بك ما يريد لانه ما سلم احد من أذاك وان هذه الواقعة هي آخر ايامك من الدنيا ثم انهم أغلقوا باب الطابق على الملك والاولاد وذهبوا ليؤذوا عباد الله هذا ما كان من هؤلاء .

قال الراوي : واما ما كان من امر المقدم ابراهيم وسعد فانهما عادا الى مصر بعدما طاب ابراهيم من الجراح فلم يجدا السلطان فسألا الوزير عنه فقال انه أتاه كتاب من نائب الاسكندرية وأظن انه توجه اليها لانه ما أعلمني عن مرامه بالتمام قال ابراهيم لا بد لي ان اتبعه ثم انه اخذ سعدا وتوجه طالب الاسكندرية وما دام سائرا حتى وصل وسأل عنه نائب الاسكندرية قال يا مقدم ابراهيم ان السلطان ما أتى الى الاسكندرية ولا علمنا به قال ابراهيم كيف ما علمت به وهو خرج من مصر الى هنا من أجل كتابك الذي أرسلته اليه قال ما رأيته قط فعند ذلك نزل ابراهيم وسعد وصارا يفتشان عليه في الاسكندرية الى ان وصلا الى خان فدخلا اليه فوجدا حصان السلطان فسأل ابراهيم الخاناتي عن صاحب هذا الحصان قال انه طلع ليلة البارحة ولم يعد فبينما هم في الكلام واذ بضجة بالطريق العام فقال ابراهيم لسعد انظر ماذا جرى للناس فطلع سعد من الخان فرأى ريس الميناء الاسطى جمعة قابضا على انسان وهو يصيح ويقول يا ناس هذا هو غريم البلد بعينه فهجمت عليه الناس تريد الفتك به فرجع سعد أخبر ابراهيم بما رأى فأسرع ابراهيم وخرج من الخان ليرى ويستفسر من الريس جمعة فسأله عن هذا الشخص وكيف عرفه انه الغريم قال يا مقدم ابراهيم رأيته غريب الديار فسألته عن حاله فارتبك وما أتاني باليقين

فحصل لي منه ارتياب لما يحصل بالبلد من الجرائم فأخذه أبراهيم وسعد الى الديوان فسأله ابراهيم أين السلطان فبدأ ينكر فقال له اين رفقاؤك قال ليس لي رفقاء قال سعد لابراهيم اتركه اليّ وانا اقرره وأتى بفحم وأوقده حتى صار جمرا ووضع بالنار قضبـــان حديد وعراه من ملابسه وصار يكويه بالحديد وهو يصيح وقال اصبروا علي فأنا أحكي الصحيح ثم انه حكى القصة التي جرت من يوم أقبل من جنوا من قلعة السلاسل الى ان وصل الى الاسكندرية ووضع تجارته في الخـــان وسمى اسمـــه والكتاب الذي أتى به من جوان الى علاء الدين الصوري التاجر المعروف بالاسكندرية وسرقة السلطان واولاد الناس فقال له ابراهيم والآن اين هم فقال بأحد الدور أهديكم اليهم فقال له ابراهيم وكم هم رفقاؤك فقال له عشرة فقال ابراهيم قم دلنا على السلطان وعلى رفقائك ونهض ابراهيم وسعد ونائب الاسكندرية ولحقهم بعض الرجال الى ان وصلوا الى الدار التي فيها فحالا قبضوا على العشرة ثم انهم دخلوا على السلطان فوجدوه مكبلا بالحديد وداقين له سكك في الحيطان ووجدوا الاطفال المسروقين في أسوأ الحالات فخلصوا الملك والاطفال وسأل الملك ابراهيم كيف عرفت اني هنا فحكى له بما جرى من الاول الى الانتهاء فحـــالا امر السلطـــان بشنق العشرة في الاسواق اما بتوت رئيسهم فأبقاه ليسأله ثم أمر الملك بهدم الدار وقتل ما فيه من السكان وكلهم افرنج لانهم كانوا يعلمـــون بأفعال بتوت ورفقائه وساكتين عنهم وما أعطوا خبرا للدولة عنهم ثم سار الى الديوان فقال ائتوني بهذا اللعين بتوت فأتوا به قال له السلطان من أين أنت قال من جنوا فسأله ومن الذي بعثك الى هنا تفعل هذه الجرائم قال جوان قال الملك احكي لي بمن اتصلت من سكان الاسكندرية فحكى له على المكتوب الذي أتى به الى علاء الدين الصوري التاجر فحالا أمر الملك باحضار هذا التاجر فحضر فسأله الملك أين المكتوب الذي أتى به اليك هذا من جوان فأنكر معرفته وقال ما أتى لي مكتوب من أحد فسأل الملك

بتوت أما هذا الرجل الذي قلت عنه وأتيت له بالمكتوب قال نعم هذا هو بعينه واستأجر لي الدار التي كنت فيها ودفع الاجرة منه قال الملك أنت تعرف الشخص الذي أجركم الدار قال نعم اسمه رفول فبعث الملك رجلا أحضر مختار الحارة فقال له الملك هل يوجد بالحارة عندك رجل يدعى الخواجا رفول قال نعم يا جلالة السلطان فقال اذهب وائتني به فحالا أتى به فسأله الملك ما اسمك قال رفول يا سيدي السلطان قال انت صاحب الدار قال نعم قال لمن أجرته قال الى علاء الدين التاجر المعروف وأعطاني اجرته منه وقال لي عنده ضيوف يريد ان يسكنهم فيه وها هو واقف بين يديك ودل عليه وقال له أليس كذلك فسكت علاء الدين فقال له الملك كيف تنكر انك لا تعرف احدا ولا جاءك مكتـــوب فسكت ثم ان الملك صرف رفول والمختار وقال لهما اذهبا الى حال سبيلكما ثم ان الملك أمر بصلب بتوت والتاجر اللعين وأمر بمصادرة اموالهما وتوزيعها على الفقراء وأهالي الاطفال الذي سرقوا ثم ان الملك استقام بالاسكندرية مدة عشرة ايام واذ يسمع صوت مدفع من على الميناء فسأل ما الخبر قالوا يا جلالة السلطان أتى أمير البحار ابو علي البطرلي بمراكبه ومعه مراكب أسارى وهذا صوت مدفع ضربته المراكب تحية له قال آتوني به فحالا حضر وسلم على الملك ودعى له فاستقبله بالترحاب وأجلسه جانبه وقال ما وراءك من الاخبار قال كل خير يا امير المؤمنين واعرفكم يا مولاي انه وجد قرصان ولصوص بحار في طريق سفن التجار فجهزت عشرة مراكب كبار وأوسقتها بالرجال وصرت أجوب البحار وأدور على القرصان اللئـــام فوجدناهـــم يعتـــدون على احد مراكب التجـــار وكانوا ثلاثة مراكب مسلحة بالمدافع فهاجمناهم واحتطنا بهم من كل جانب فاشتعل الحرب بيننا وبينهم الى ان قضينا على أكثرهم وأخذنا الباقي أسارى مع المراكب الثلاثة وسألنا الجنود وجدناهم من مراكب جنوا وقالوا انه بعثهم ملكهم وجوان لاجل يقطعون الطرق في البحار وبالاخص على مراكب رعية السلطان فقال الملك احضر

لي الاسارى لأراهم فحالا جاءوا بهم فسألهم الملك من أرسلكم قالوا ملك جنوا وجوان قال وما علموكم قالوا ان نأخذ مراكب التجـار وأموالهم المتوجهة الى سواحل مصر والشام قال خذوهم الى السجن ثم التفت الى أمير البحار قال ما رأيك يا ابو علي بهذا اللعين حاكم جنوا لانه لا يهدأ عن أذيتنا قال يا أمير المؤمنين أؤمرني بضربه وأطلق يدي في هذا الشأن ترى مني ما يذهل الاذهان فقال له السلطان لك الحرية في ذلك فافعل ما بدا لك أصلح الله اعمالك فاستأذن ابو علي من السلطان بالرواح وبدأ بالاعمال ثم انه فتش الميناء فوجد بها بعض مراكب جنوا فأمر بمصادرتها مع أموالها والرجال ثم بعث الى اللاذقية ان يأتوه بالمراكب الموجودة هناك مع رجالها ثم بدأ يجمع الرجال والمراكب ويجهزها على أحسن حال وأعلم السلطان بما كان وقال له أرسل لي العساكر والجنود المجربين في القتال بدون خيل فأرسل الملك الى مصر الى الوزير شاهين ان يرسل العساكـر بالحال وان يخففوا من الاثقال ليكونوا خفافـا في التنقل فحين وصول الكتـاب الى الوزير شاهين أمر بجمـع العساكر حسب ما أمر السلطان وتوجهوا طالبين الاسكندرية فعند وصولهم ترجلوا عن خيولهم بأمر امير البحار وأنزلهم في المراكب بالحـال وهم يقـدرون بخمسين الف مقاتل واستلمت قيادة المراكب البحارة المغاربة الشجعان ثم ان امير البحار ابوعلي البطرلي استأذن من الملك بالرواح لغزو جنـوا وتأديب ملكها فأذن له السلطان بالذهاب ودعى له بالنصر والتوفيق ثم انه أقلع بالبحر الى جنوا الى ان صار على مقربة منها عند الغسق فوقف هناك وأرسل مركبا صغيرا به عشرة رجال على صفة أهل البلاد ومعهم بارود لاجل لغم باب البلـد بالبارود وكان الاتفاق بينهم وبين أمير البحار ان يولعوا النيران وينسفوا باب البلد عند الفجر ففعلوا ما أمرهم الامير ولغموا الباب وقعدوا ينتظرون الصباح واذ ابو علي البطرلي يقتحم الميناء قبل الصباح بساعة من الزمان فاحتل الميناء وعند بزوغ الفجر انفجرت الالغام وخرب باب المدينة فأمر

أمير البحار بالهجوم على جنوا بالحال فتصايحت الشجعان الله اكبر فتح ونصر ودخلوا المدينة فما نهض اللئام من المنام الا والسيف البتار يرمي الرقاب اما ملك جنوا وجوان والبرتقش فقاموا من المنـام على الصياح فذهلوا وقالوا ما هذا الحال ثم انهم رفعوا حجر البالوعـة ونزلـوا الى السياق خوفا من القتل والاسر اما الاهالي فصاحت الامان الامان فأمنهم أمير البحر على أرواحهم ودخل مع الشجعان الى سراية الملك وديوانـه وأخذوا خزينة الاموال وكل ما غلى ثمنه وخف حمله اما ملك جنوا وجوان والبرتقش فما رأوا لهم أأثرا ثم اقتحموا السجون وأخرجوا ما فيها من الاسارى وهم يقدرون بألف أسير بين رجـال ونساء وهم الذين كانوا يأسرونهم من على المراكب في البحار اما رجال ملك جنوا فقتل منهم كثير والباقون أسروا وهم يقدرون بخمسة آلاف أسير فلما أمسى المساء أمـر أمير البحار بالخروج من المدينة من بعد ما أوسقوا المراكب وحملوها من الارزاق والاموال ثم أمر بالركوب بالسفن وأخذوا معهم الاسارى وأركبوا الذين كانوا مأسورين في مراكب الاعداء الراسية على الميناء ثم ان ابو علي كتب كتابا وأعطاه الى أسير ضعيف وقال له خذه الى مليكك فأخذه وسار الى ملكه وناوله الكتاب ففضه وقرأه وجد فيه خطابا من أمير البحار ابو علي البطرلي قبطان امير المؤمنين الظاهر بيبرس اعلم يا قرنان ان الملوك العظام ترسل أبطالها نهارا وتغزو عدوها جهارا اما انت يا جبان فترسل العيـاق واللصوص لسرقة الاطفال والاعتداء في البحـار على المسافرين الضعفاء العزل وتأخذ اموالهم وتأسرهم فاعلم اني واقف لك بالمرصاد في كل وقت وأوان واني قادر في كل ساعة ان أخرب بلدك على رأسك يا نذل يا أخس الملوك وقد صادرت مراكبك في الاسكندرية مع رجالها وبالاخير لا سلام عليك ولا أمان يا لعين يا قرنان • فلما قرأ ملك جنوا الكتاب صار يرجف مثل الكلب البردان ثم التفت الى جوان وقال له انت السبب في ذلك لانك ما ارتأيت لي رأيا الا عاد علينا بالخراب والدمار وسوء الحال فاخرج من

بلدي بالحال لانه في اقامتك عندي هلاك الرجال وخراب الاوطان فاذهب ولا ترني وجهك على طول الزمان فذهب جوان والبرتقش مقهورين هذا ما كان من هؤلاء .

اما امير البحار ابو علي البطرلي فما زال مقلعا في البحر الى ان وصل الى ميناء الاسكندرية وضرب مدافع السلام فسمع الملك الظاهر وقال ما الخبر فقالوا يا جلالة السلطان عاد امير البحار وهو مؤيد منصور ومعه من الغنائم والارزاق شيء يعجز عن وصفه اللسان ومعه الذين كانوا أسروا في بلاد الافرنج ففرح السلطان واستبشر بهذا الانتصار وبعد قليل واذ بأمير البحار داخل على السلطان فاستقبله الملك وأجلسه الى جانبه وهنأه بالسلامة والنصر على الاعداء ثم سأله عن غزوته وما جرى له فبدأ ابوعلي يسرد له كيف انه اخذ الاعداء على حين غرة وانه ما نقص من رجاله ولا واحد لان الاعداء عندما بوغتوا في الصباح ذلوا واستسلموا ولا عاد احد منهم يقدر ان يرفع السلاح كل هذا يا مولانا بحسن دعائكم لنا ورضاكم علينا فتبسم السلطان وقال له بارك الله فيك يا ابو علي وأوصيك دائما بتحصين مدن السواحل والاستعداد التام لخوض المعارك البحرية فقال أمرك يا مولاي ثم انه استأذن من السلطان وذهب الى اشغاله اما الملك فقد استدعى نائب الاسكندرية ورئيس الميناء وقال لرئيس الميناء تفقد دائما الاجانب عندما يأتون الى الاسكندرية واعلم بهم النائب ليعلم من أتى ومن راح وانت ايها النائب اكثر من الدرك واجعل عليهم رجلا ماهرا يقظا لا تفوته فائتة ودائما يجوب الحارات والشوارع ليلا كان او نهارا وأوعز الى مخاتير الحارات ان ينبهوا الاهالي ان يكونوا على استعداد لملاقات الاعداء اذا خرجوا من البحار ويكون السكان سلاحهم دائما على مقربة منهم ليساعدوا العساكر والجنود الى ان تأتي جيوش السلطان ثم انه صرفهما الى اعمالها وثاني يوم اخذ ابراهيم وسعد وتوجه الى مصر وطلع الى قلعة الجبل وجلس على تخته في الديوان اما امير البحار ابو علي

البطرلي فانه فرق الغنائم على العساكر وأبقى الخمس للاستعداد وصرف العساكر والجنود كل منهم الى قاعدته وبدأ يعمل في انشاء المراكب ويخدم المغاربة البحرية وأتى بهم من سواحل المغرب الى ان صار عندم جيش عظيم من البحارة ونظم لهم مراكب قوية بالمدافع وفرقهم على سواحل مصر والشام وأمرهم بالتيقظ وان يجوبوا البحار وعين لكل فرقة منهم جهة من البحر يراقبها وهو يتنقل فيما بينهم ويتفقد قواعدهم •

اما المقدم جمال الدين شيحة سلطان الحصون فانه كان يلاقي صعوبة ومشقة من الفداوية الذين كانوا يعودون من التفتيش على المقدم معروف وكل منهم كان لا يرضى بهذه الاحكام ويظهر العصيان فيجبره جمال الدين بالاطاعة والبعض منهم يقنع باللطف والاحسان الى ان يطيع الجميع ويكرمهم ويجعل لهم مقاعد في الديوان ليكونوا على استعداد للحرب والنزال وعاد اليه كثير من الرجال الاقوياء مثل المقدم جبل واولاد اخته والمقدم صوان والمقدم منصور العقاب وغيرهم •

قال الراوي : وفي بعض الايام دخل الى الديوان نجاب غريب الزي فتكلم فما فهم كلامه احد الا الملك أجابه بلغته وأمر له بالجلوس واحترمه كثيرا حتى تحيرت أهل الديوان من هذا الشأن ثم ان الملك اخذ منه الكتاب وقرأه فدمعت عيناه فتعجب الوزير شاهين وأهل الديوان وقالوا للملك ما جرى لك يا امير المؤمنين نحن نفديك بأرواحنا فأنبئنا عن احوالك اطال الله عمرك وجعلك ذخرا للمسلمين فقال الملك ان هذا النجاب الحامل الكتاب هو رسول من عند والدي الشاه جمك فلما تكلم عرفت ما تكلم به فاستبشر وقال لي لا شك انك انت ابن سيدنا الشاه فقرأت المكتوب وجدت فيه بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من الشاه جمك حاكم خوارزم العجم والدربندات الى بين أيادي ولدنا أمير المؤمنين وخادم الحرمين سلطان مصر والشام من اسمه محمود بن جمك وامه السيدة آبق اعلم يا بني انه من يوم الذي قدر الله علينا بفراقك انا ووالدتك ما تهنينا لا بطعام ولا

بنوم وأمك دائما تبكي وتنوح وانا اصبرها واقول لها انشاء الله اللقاء قريب وفي يوم من الايام ذهب الحجاج من عندنا الى الاراضي المقدسة لاجل الفريضة وعند رجوعهم جعلوا طريقهم الى مصر ودخلوا جامع الازهر لاجل صلاة الجمعة واذ بك انت مقبل الى الجامع ومحتاطة بك عساكرك وأكابر دولتك فلما رآك الحجاج قالوا ان هذا الملك يشابه ملكنا الشاه جمك وما نحسبه الا ابنه بالذات واذ بهم يسمعون الخطبة والخطيب يدعو لك بالنصر والتأييد ويذكر اسمك ولقبك فلما رجع الحجـاج الى البلد دخلوا عليّ وأعلموني بهذا الشأن فأعلمنا يا ولدي هل انت محمود ولدنا ام ان الحجاج أخطأوا فاكراما الى الله انك تعرفنا بالجواب مع حامل كتابنا هذا والسلام عليكم فهذا كان سبب بكائي لما قرأت الكتاب ثم ان الملك أمر بأخذ النجاب الى دار الضيافـة والتفت الى الآغا شاهين وقال له ما الرأي عندك ايها الوزير قال يا ملك الزمان اكتب الجواب الآن وأرسله مع النجاب الذي أتى بالكتـاب وبعدما تهيىء أسبـاب السفر الى عند والديك وتقيم عندهم شهرا من الزمان لان لهما حـق عليك يا مولانـا السلطان وطاعتهما من طاعة الرحمن قال الملك هذا هو الرأي الصواب ثم ان الملك كتب الجواب لوالديه وأعطاه للنجاب وأنعم عليه وأمره بالمسير الى والديـه فأخذ الجواب وسار الى ان وصل الى مدينـة الدربندات ودخل على الشاه جمك وأعطاه الكتـاب ففضه وقرأه واذ به بسم الله الرحمن الرحيم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نعرفكم يا والدنا الشاه جمك أطال الله عمرك انه وصلنا كتابكم فقرأناه ونحن مسرورون فحمدت الله الذي أنتم ووالدتي بخير ونحن يا والدنا نقول لكم ان الحجاج الذين أتوا من عندكم ومروا بمصر ونظروا اليّ لم يخطئوا الرؤيا والحسبان فأنا ولدكم حقا وانشاء الله في مدة وجيزة من الزمان اكون عندكم وفي خدمتكم وأطلب منكم الرضا والدعاء واعلموا يا والدي ان الذي جرى عليّ ما هو الا من مسير الاكوان والا من اين لي ان اكون سلطان مصر والشام لو ما

جرت علي هذه الاحكام فهذا مقدر علي من الازل وان المقــدر كائن لا ينمحي وان الله سبحانه وتعالى يجزل لكم الاجر والثـواب جزاء صبركم مما أصابكم بفقدي من الاحزان واعلمكم يا والدي اني عن قريب اكون عندكم وفي خدمتكم واني مهتم في هذا الشأن والسلام عليكم ورحمةالله.

ثم ان الملك صار يتجهز للسفر الى والديه في مدة عشرة ايام فأوصى بالملك لولده السعيد في غيبته ويكون المستشار لديه الصدر الاعظمالوزير شاهين وأوصاه بابنه السعيد وأوصى بالاطاعة للوزير ثم هم بالرحيــل الى الخوارزم والدربندات بلاد والديه ثم عين الذين سيذهبون معه وهم ابراهيم وسعد وأيدمر وعشرون مقدما من بني اسماعيل والف مملوك من مماليكه وهم في أحسن اللباس والسلاح على خيل عربية أصيلة وجمع من الهدايا من كل شيء مستظرف جميل وثمين وعبأ الصناديق من قماش صنع مصر والشام والبعض منه مزركش بالفضة والذهب والبعض حراير وتحف ثمينة مرصعة بالذهب والبعض منها كنــوز باديس السبكي وأخذ معه صواوين وخياما ومؤنا وذخائر وكلها محملة على بغال وأخذ عشية وخداما ثم أمر الملك بالخروج الى ظاهر مصر وأقام بالخيام فصارت تأتي الوزراء والامراء وأعيان البلاد لوداعه والسلام عليه وهم يدعون له بالسلامة في الذهاب والاياب وبعد ثلاثة ايام ركب هو ورجاله وحملوا احمال الهدايا وسار طالب الخوارزم فصار يمر على البلاد وتستقبله النواب الى ان جاوز حدود البلاد ودخل بلاد الاعجام وصار قريبا من مدينة والديه فبعث المقدم سعدا ليعلم والديه حتى لا يكون لهم ازعاج من مفاجأة اللقاء فتوجه سعد بالحال ودخل على الشاه جمك والد السلطان الظاهر فتعجب الشاه من سعد ولباسه الفاخر وطوله الفارع فقال له ماذا تريد ايها الفتى فقال له سعد انا مرافق ولدك السلطان الظاهر امير المؤمنين جئت لابشرك فيقدومه يا حضرة الشاه وهو على بعد فرسخين من هنا فلما سمع الشاه ما قالسعد أمر بالركوب الى ملاقاة ولده السلطان فركبوا بالحال وفي أوائلهم الشاه

جمك الى ان وصلوا الى‌مكان نزول السلطان الظاهر وأتباعه‌وكان‌السلطان قد خرج من الصيوان وركب هو ومن معه من المقدمين والمماليك واستقبل والده قبل ان يصل اليه ثم عندما تقابلوا وهم على ظهور الخيل ترجلوا وأقبل الملك الظاهر وهو فاتح ذراعيه كذلك والده فتح ذراعيه وتعانقا باشتياق عظيم وبكيا من شدة الفرح ثم ان السلطان أجلس أباه في‌الصيوان وجلست الوزراء والامراء وصاروا يهنئون الشاه والسلطان بجمع الشمل بعد الفراق وبعد ان اقاموا ساعة من‌الزمان نهض الشاه والسلطان‌والوزراء والامراء وركبوا على الخيول وسار السلطان جانب الشاه ومحتاطة بهم أكابر دولتهم والعساكر والجنود من ورائهم وساروا الى ان وصلوا الى مدينة الدربندات عاصمة الشاه فاستقبلهم الشعب أعظم استقبال الى ان دخلوا سراية الشاه وبلاط الملك ثم دخلوا الى الديوان وأقام السلطان مع والده الشاه فطلب السلطان الظاهر من‌والده مواجهة والدته‌فدخل‌الشاه الى الحرم وأعلم زوجته آيق أم السلطان بأن ولدها محمود يريد مقابلتها فقالت ادخله بالحال فرجع الشاه الى ولده وقال له ادخل يا بني لعند والدتك فنهض السلطان ودخل الى عند والدته فهجمت عليه وعانقته وصارت تقبّله وتبكي وتقول انت محمود وحق الرب المعبود وكاد يغشى عليها من شدة الفرح فأجلسها ولدها السلطان بلطف في مكانها وأتوا لها بالمنبهات والمنعشات فضحيت مما هي فيه وصارت تشكو له ما لاقت من الاحزان لاجله وانها الان لا تصدق انها تراه وتحسب نفسها بمنام فقال لها السلطان خففي عنك يا اماه وكوني فرحة ومسرورة وخلي عنك الحزن والتحسر من شيء قد مضى والان أريد ان ترفهي عن نفسك بما أتيت لك من الهدايا الفاخرة وأمر باحضار الصناديق فاحضروها بالحال فصار يفتح صندوقا بعد صندوق من الاشياء التي توافق النساء وصار يخرج ما بها من قماش مطرز ومزركش شغل مصر والشام وتحف وعقود تحير العقول ففرحت أمه بما قدمه لها ولدها من العطايا الثمينة فصارت تدعو له وتقبله

ثم استأذن منها بالخروج لعند والده لاجل استقبال المهنئين فاذنت له بذلك فخرج وجلس في الديوان وصار يستقبل الوفود من المهنئين ويسلم عليهم ويصافحهم وبعد ذلك قدم لوالده باقي الصناديق وأخرج منها ما يوافق الشاه وأكثره من الكنز الذي وجده في بيت باديس السبكي من سلاح محلى بالذهب والفضة وأوان قديمة المثال وتحف لا يقوم لها ثمن مما سر والده الشاه سرورا عظيما ثم أهدى وزراء أبيه أشياء كثيرة نفيسة فشكروه شكرا جزيلا أما الشاه فصار يقدم لهم ما يسرهم وأقامهم في اعلى مقام وامر رجاله بمرافقتهم ومؤانستهم وأخذوهم الى المتنزهات وعمل لهم الحفلات حتى نسوا بلادهم وأوطانهم مما نالهم من الحظ والانشراح في مملكة والد سلطانهم الشاه جمك ثم ان الشاه قال لابيه يا بني ان الملك هلاوون عابد النيران مركب عليّ جزية كل عام وان هذه الجزية أرهقت الرعية فالمراد يا بني ان ترسل اليه ان يمنع عنا هذه الجزية لانه لا يقدر ان يخالفك في هذا المنوال فقال له السلطان على العين ثم الرأس فحالا كتب كتابا وسلمه لابراهيم وقال له خذ هذا الجواب وأعطه لمقدم من بني اسماعيل وقل لمن يأخذه ان يضعه فوق رأس الملك هلاوون وهو نائم ولا يزعجه ولا يفيقه ويرجع حالا فأخذ ابراهيم الكتاب وطلع لعند المقدمين وقال لهم ان امير المؤمنين باعث كتاب الى هلاوون وشرط ان من يأخذه يضعه فوق رأسه وهو نائم ويعود فورا فنهض المقدم صوان وخطف الكتاب من يد ابراهيم وقال انا أضعه فوق رأسه بدون ان يشعر ففرح ابراهيم بهذا المقدم لانه لا يصطلى له بنار وان هذا الشيء عنده كشرب الماء فأخذ الكتاب وسار الى ان وصل الى توريز العجم عاصمة الملك هلاوون وصبر الى الليل ونصب مفرده وطلع عليه ونزل الى داخل السراية واختفى بها حتى عرف اين مرقد الملك هلاوون فلما أقبل الى قاعة الملك وجد الغفر نائما فوضع منديل البنج على وجهه فصار معه نوم على نوم ثم دخل الى القاعة فوجد الملك نائما على تخت من العاج فوضع كتاب السلطان

الظاهر فوق رأسه وخرج حسب ما هو مأمور به ثم انه نزل من السرايـا وتوجه الى مدينة الدربندات الى عند ابراهيم وأعلمه انه نفذ المهمة على احسن ما يرام فقال له المقدم ابراهيم بارك الله فيك يا مقدم صوان ثم ان المقدم ابراهيم أعلم السلطان بذلك اما الملـك هلاوون عندما أفاق عند الصباح وجد مكتوب السلطان فوق رأسه فتعجب من هذا الامر وقال من وضعه هنا ومن تجرأ ودخل عليّ وانا نائم فخرج من القاعة وجد الغفر لا يعي وهو مثل القتيل فصاح على الخدم ان يصحوه وبعدما صحى سأله من دخل عندي اثناء نومي فقال لا احد يا جلالة الملك فصاح به الملك ايها الخائن كيف تسمح لاعدائنا ان يدخلوا عليّ وانا نائم ارموا رقبته فحالا قطع الجلاد رأسه ثم ان الملك هلاوون فض الكتـاب وقرأه فوجـد فيه بسم الله الرحمن الرحيم من امير المؤمنين سلطان مصر والشام السلطان الظاهر بيبرس بن الشاه جمـك ملـك الخوارزم والدربندات الى ملك هلاوون بن منكتم اعلم ايها الملك انه عرفني والدي انك في كل عام تأخذ منه الجزية وان هذه الجزية أرهقت رعيته فأنا آمرك ان ترفـع عنه هذا الخراج بالحال وانا منتظر جوابك الى خوارزم والدربندات واعلم ان الذي وضع كتابي فوق رأسك قادر ان يأتيني برأسك او بشخصك كما ان اي عدوان او أذية تصل منك الى والدي او الى رعيته وبلاده فحـالا أجتاز حدودك بجيوشي الجرارة وأجعل الحرب داخل بلادك التي اغتصبتها وظلمت أهلها بجمع المال والخراج فأنا عندما أسير اليك فانهم يساعدونني عليك فلا أبقي منكم ديارا ولا عابد نار فالحذر الحذر من الغدر والعصيان فلما فرغ هلاوون من قراءة الكتاب جمع الـوزراء واستشارهم في هذا الامر فالبعض منهم قال نهجم عليه ونغـدر به وقال البعض لا تفعل ايها الملك لان السلطان ما جاء الى هذه الديـار الا وهو على أعظم استعداد والآن ابعث له الجواب باللين وأجبه الى ما طلب فهو أحسن فقال لهم الملك هلاوون هذا هو الصواب فكتب كتابا وأرسلـه مع نجاب الى خوارزم

والدربندات الى ان وصل الى السلطان وأعطاه الكتاب ففضه الملك الظاهر وقرأه واذ به باسم النار والنور الذي نعرفكم به ايها السلطان انه قرأنا كتابكم فسرنا كثيرا انك قريب من بلادنا واني أدعوك لزيارتي بعد انتهاء زيارتكم لوالدكم لاقوم بما يجب عليَّ تجاهكم ثم انكم عرفتموني من جهة الجزية التي نأخذها من والدكم في كل عام فهي من الآن ملغاة ولا عدنا نطلبها منه حسب رغبتكم ونحن لم نعلم ان الشاه جمك هو والدكم والا ما كنا رتبنا عليه مالا أبدا وبالختام تقبلوا منا فائق الاحترام فعندما قرأه الملك الظاهر اعلم والده بالحال وأعطاه الكتاب ففرح الشاه بهذا الشأن وعلم انه صار له سطوة على عابد النيران وصار يهابه خوفا من السلطان الظاهر ولده ثم ان الملك قال لوالديه اني أقمت مكاني حفيدكم على الحكم ولا يزال حديث السن وأخاف ان تكثر عليه الامور او يخطىء مع رعيته وان مملكتي واسعة جدا وأعداؤها كثيرون من الافرنج لا سيما على السواحل فالمرجو منكما ان تسمحا لي بالعودة الى مصر لاني اخاف ان تتخذ الاعداء غيابي فرصة وتهاجم البلاد فقال له والده الشاه يسر الله أمورك ونصرك على اعدائك عد الى مملكتك مصحوبا بالسلامة ولكن لا تطول الغيبة علينا ولا تؤخر عنا المكاتيب قال ان شاء الله ثم ان السلطان قبّل يدي والديه وطلب منهما الدعاء فتعانقا وتودعا من بعضهم اما الملك الظاهر اعلم جماعته الامراء والمقدمين بالعودة الى الاوطان ثم انه بعد ثلاثة ايام ركب السلطان وجماعته ووالده الشاه وجماعته وساروا معه مسيرة نهار فحلف السلطان الظاهر على والده ان يرجع الى مملكته فرجع الشاه ووزراؤه ورجاله الى مدينتهم ولم يزل الملك الظاهر سائرا الى مصر الى ان بقي بينه وبينها نهارا فبعث سعدا اعلم السعيد بن السلطان والوزير شاهين فركبوا واستقبلوا السلطان ورجاله بالترحاب وهنأوهم بالسلامة وسار الموكب الى ان وصل الى قلعة الجبل وضربت المدافع لقدوم السلطان وفي الصباح جلس الملك على تخت ملكه يتعاطى الاحكام مدة من الزمان

الى ليلة من بعض الليالي وهو نائم رأى مناما كأنه في بلاد الروم ودخل مدينة وتفرج في شوارعها فرآها مدينة عامرة ورأى كأن البحر محتاط بها وقد عطش عطشا شديدا فرأى بئرا فنظر فيه لعله يجد فيه ماء فسمع صوتا قريبا من البئر فالتفت فوجد رجلا جالسا على تخت وقد اعتراه المرض والسقام وهو يصيح الي الي يا امير المؤمنين انقذني فاني على وشك الفناء فتأمله السلطان فاذا هو معروف بن جمر الذي كان سلطان القلاع والحصون فلما صحا من نومه تأثر كثيرا وصمم على انقاذه من السجن ولما دخل الى الديوان وجلس على تخته قال لابراهيم انا الليلة رأيت معروفا بن جمر في المنام وهو في أشد العذاب وسمعته يقول الي الي أنقذني يا امير المؤمنين فقال ابراهيم خير رأيت يا أمير المؤمنين ان منامك صحيح لانك لا تنام الا وانت طاهر ولو اني اعلم في اي بلد هو لكنت سرت اليه وأنقذته ولو كلفني حياتي لان البلاد التي في البر لا تخفى علينا اما التي على البحار فما يعلم عنها الا القبطان الذي عند مولانا السلطان فأرسل اليه فلعله ينبئنا عنها قال الملك هذا هو الصواب فكتب الملك كتابا وأرسله الى أمير البحار ابو علي البطرلي ان يحضر بالحال فلما وصله الكتاب توجه الى المثول امام السلطان ودخل الى الديوان وسلم على الملك فأمر له بالجلوس وقال له يا امير البحار هل تعرف جميع المدن التي على البحار قال ابو علي نعم أعرفها يا امير المؤمنين فاسألني عما تريد فقال له الملك يوجد مدينة على جزيرة والبحر محتاط بها من ثلاث جهات وهي عمار هكذا رأيتها في المنام فقال ابو علي خيرا رأيت يا مولانا السلطان وأرجو ان تمهلني قليلا لاحضر الخارطة التي فيها مواقع البلدان التي على البحار فغاب وعاد ومعه كتاب كبير فيه جميع ما حول البحر من بلاد ففتح الكتاب وصار يبين للسلطان بلدا بلدا وقال يا مولانا أظن ان هذه هي البلد التي رأيتها في المنام واسمها مدينة القطلان لانها هي التي يحيط بها البحر من ثلاث جهات فقال الملك اذهب يا ابو علي الى هذه المدينة واكشف لي عن اخبار اخيك المقدم

معروف بن جمر هل هو مسجون في هذا البلد حتى نسعى انشاء الله في خلاصه وان قلبي يحدثني انه فيه فقال امير البحار امرك يا جلالة السلطان فاني من الآن ذاهب وأركب البحار وأنظر هذه المدينة التي وصفتها لي في المنام وأمر على القطلان وأفتش على معروف فقال له الملك بارك الله فيك يا ابو علي فذهب في الحال له معنى كلام اما الملك بينما هو جالس في ديوانه واذ بنجاب يدخل الديوان ويقول سبحان هادي الطير فقال الملك من اين والى اين قال يا مولانا من دمشق الشام وحامل كتاب من نائبها الى امير المؤمنين فأخذه الحاجب منه وأعطاه الى السلطان ففضه وقرأه فوجد فيه بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من نائب الشام الى مولانا السلطان امير المؤمنين وخادم الحرمين الذي نعرفكم به انه يوم تاريخه بينما نتعاطى الاحكام واذ بالوالي داخل ومعه رجل فداوي من بني اسماعيل وأحد التجار بالشام فسألت الوالي ما الخبر فقال لي ان هذا الفداوي معه عملة مزيفة ويريد ان يمشيها بالسوق الى التجار بالقوة فشكوا لي التجار بهذا الامر فأتيت لك بالعملة وبالذي يريد ان يمشيها فلما أخذت العملة منه وجدت مكتوبا على الوجه الاول يا قاضي الحاجات وعلى الوجه الثاني ضرب هذه العملة السلطان عماد الدين علقم سلطان الدنيا والدين فسألت الفداوي من أين لك هذه العملة ومن هو السلطان عماد الدين فقال عماد الدين سلطان القلاع والحصون وسائر بلاد المسلمين فقلت له وأين يقيم هذا السلطان قال في قلعة صهيون فحالا وضعنا الفداوي في السجن وعرفناكم في هذا الامر والذهب الذي عرضه أرسلنا لكم منه قطعة مع النجاب والامر أمركم مولاي فلما قرأ الملك الكتاب وفهم معناه سأل النجاب أين قطعة الذهب المرسلة معك فأخرجها وأعطاها الى السلطان فوزنها فوجدها ثقل الدينار الظاهري فسأل الملك بني اسماعيل من هو عماد الدين علقم قالوا يا مولانا هو ابن اخت المقدم معروف وانه كان من المفتشين على المقدم معروف فقال الملك لا بد لي ان اذهب الى الشام وأرى

هذا الشأن ووصى ابنه السعيد بالجلوس على كرسي مصر وأخذ ابراهيم وسعدا مرافقيه وسار الى دمشق الشام اما سبب ضرب العملة من المقدم عماد الدين بن فخر الاصيل ابن اخت معروف انه لما قدم من التفتيش عن خاله ووصل الى قلعة صهيون رأى الشعار مغيرا ومكتوبا على باب القلعة اسم شيحة جمال الدين سلطان القلاع والحصون فتعجب وسأل الرجال من هذا شيحة فأخبروه عن المقدم شيحة جمال الدين واعماله واوصافه وان الذي سلطنه الظاهر سلطان مصر والشام ثم سأل عن خاله معروف حضر ام لا فأعلموه انه لم يظهر فقال شيحة مقتول والظاهر معزول وما احد سلطان الارض بالطول والعرض الا السلطان عماد الدين بن فخر الاصيل ثم انه قال ارفعوا هذا الشعار وأمحوا هذه الكتابة وأحضر رجلين يعرفان بصنع قوالب العملة فأمرهما ان يصنعا له قالبا لدينار ويكون اسمه مكتوبا عليه فصنعوا له ما أمر فضرب عليه عملته وأخذ يفرقها في القرى والمدن الى ان وصلت الى الشام اما ما كان من الملك فانه ما زال سائرا الى ان وصل الى الشام ونـزل في قصر الابلق وضربت المدافع اشعارا بقدومه ثم أقبل عليه نائب الشام وأعيان دمشق والامراء وسلموا عليه ودعوا له بدوام العز والنصر على الاعداء ثم ان الملك بعدما أخذ راحته من عناء السفر أمر باحضار الفداوي الذي مراده ان يمشي عملة سيده عماد الدين فأحضروه بالحال فرآه الملك رجلا مسنا فقال له من انت قال انا المقدم شاهين ابو غطاس قال له من اين هذه العملة التي مرادك ان تمشيها بين الناس قال هذه عملة السلطان عماد الدين علقم فقال له ومن سلطنه قال لقد عزلك وصار هو السلطان فتأثر الملك من كلامه وقال له لو لم احترم شيبتك لقطعت رأسك بالحال وأمر ان يطلقوا سراحه فقال ابراهيم قصف الله عمر عماد الدين اما وجد غيرك ايها الجاهل لترويج عملته انصرف فقد عفا عنك جلالة السلطان اما الملك بعد ثلاثة ايام أمر ابراهيم وسعدا ان يتنكرا فتنكر هو بصفة تاجر كردي وساروا طالبين قلعة صهيون وما

زالوا سائرين الى ان قاربوا الوصول اليها فبعث الملك ابراهيم ليعلم عماد الدين بقدومه فدخل القلعة وسأل عن المقدم عماد الدين اين هو قالوا له في القاعة وعنده الرجال فدخل ابراهيم على عماد الدين وسلم عليه وقال له انهض استقبل السلطان ها هو قادم اليك فقال عماد الدين ومن يكون سلطانا غيري فقال له ابراهيم قم بلا ثرثرة وكلام فارغ ما تلفظه المجانين فقال له عماد الدين لو لم تكن داعسا على بساطنا لكنت أدبتك على هذا الكلام قا لله ابراهيم أترك هذا البساط واخرج لبساط الفلا لأريك فعل الرجال •

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والرمح والسيف والقرطاس والقلم

فنهض عماد الدين وأخذ سلاحهوركب مهرته وقاللأريه شقشقةلسانه وأدع أمه الشمطا تندب عليه وخرجا الى الفلاة واصطدما معا واشتد بينهما الخصام والقتال وتضاربا بشجاعة نادرة وشخصت لهما الابصار وطال بينهما المطال وأيقنا بالزوال فشعر عماد الدين انه كلما أراد ان يبطش بابراهيم يراه ثابتا لا يتزحزح فانحمق منه وسدد اليه ضربة قاتلة أبطلها ابراهيم بالحال فبينما هما على هذا المنوال من الحرب والطعان واذ بفارس يصيح بهما ما هذا قفا عن القتال ودخل بينهما حاملا الدبوس ومنعهما من متابعة القتال فترجل ابراهيم عن فرسه اما عماد الدين فقال لابراهيم لولا هذا الكردي لاريتك قيمتك بين الرجال فقال له ابراهيم تأدب يا عماد الدين امام امير المؤمنين فخجل عماد الدين وترجل عن مهرته وأعاد سيفه الى قرابه وتقدم من الملك وقبّل يده فترحب به الملك والتفت الى ابراهيم وقال لماذا القتال فقال ابراهيم كنا نسلم على بعضنا ايها السلطان فقال لهما أصلحكما الله أيكون السلام بالسيف والسنان ثم ان عماد الدين دعى السلطان الى داخل القلعة ليقوم بما يتوجب عليه من الضيافة والاكرام وقال يا مولاي قدومكم الى قلعتي وضيافتكم عندي أفتخر بها على جميع الاقران ثم ان عماد الدين أرسل رجلا الى القلعة لينبه الرجال لاستقبال

جلالة الملك الظاهر فأسرع الرجل ونبه الرجال فتأهبوا وأتوا مسرعين ثم انهم دخلوا القلعة باحتفال عظيم وذبحوا الذبائح قدام السلطان فسر الملك ورضي عن عماد الدين وأقام ثلاثة أيام في قلعة صهيون وكل يوم يزيد اكرام عماد الدين عن يوم وفي هذه الاثناء وردت بنو اسماعيل من القلاع وصار سباق خيل ولعب سيف ومهرجانات الى ان كان يوم الرابع من اقامة الملك عند عماد الدين فقال له مرادي الذهاب الى مصر الآن وتكون برفقتي يا عماد لاني مهتم بالتفتيش عن خالك المقدم معروف واني رأيته في المنام يستجير ويقول الي الي يا امير المؤمنين وقد بعثت امير البحار ابو علي البطرلي ليرى هذه المدينة ويكشف لنا الاخبار قال عماد الدين السمع والطاعة لك يا امير المؤمنين ما انا الا خادم ركابك والاعتاب ثم ان السلطان ركب وركبت الرجال وأخذ معه عماد الدين وسار الى مصر فلما وصل طلع الى قلعة الجبل وجلس على تخته في الديوان واذ بأمير البحار ابو علي البطرلي داخل الى الديوان فسلم ودعى للسلطان وجلس ثم قال للسلطان ذهبت كما أمرني مولاي وجبت البحار وتفقدت البلاد بالعيان الى ان وصلت الى مدينة القطلان فوجدتها تطابق الوصف بالتمام وان البحر محيط بها من ثلاث جهات ثم اني نزلت الى المدينة وتجولت فيها الى ان وصلت الى قرب سراية كنيار القطلان فوجدت السرايا متاخمة للبحر ومياه البحر تغمر نصف الحيطان ورأيت البئر الذي وصفته لي في المنام فقال له الملك صفه لي لأرى هل هو بالذات فقال ان البئر مدور الاركان وله ثلاث درجات مدورات حول البئر وله خرزة من حجر أسود وفوق الخرزة قنطرة حديد بعرض الكف وبنصف القنطرة حلقة مدورة حديد لأجل وضع الحبل للدلو فقال له الملك هذا الذي رأيته انا بالمنام بالذات وما هذا البئر الا علامة على مكان السجن الذي فيه المقدم معروف ثم ان الملك أمر باحضار سلطان الحصون شيحة جمال الدين فحضر بالحال وسلم على السلطان والرجال ثم جلس وقال أمر يا أمير المؤمنين قال السلطان اسمعه يا أمير

البحار ما رأيت بالعيان فحكى له مفصلا ما قاله للملك فقال شيحة هل أنت متأكد ان معروفا مسجون عند كنيار القطلان قال الله اعلم ولكن الذي وصفه لي أمير المؤمنين ورآه في المنام رأيته بالعيان وهذا سر الهي ليكون دليلا لنا لنسعى بخلاص المقدم معروف من سجنه وانه لا شك على قيد الحياة لانه يستنجد بأمير المؤمنين في المنام وهذا دليل على أنه حي وانه آن الاوان لخلاصه من السجن فقال الملك ما رأيك يا جمال الدين قال سوف نرى يا أمير المؤمنين ما يقتضيه الحال وأشار للسلطان ان البحث في هذا الموضوع ينبغي ان يكون سرا فأخذ الملك شيحة جمال الدين ودخل به الى قاعة الاسرار ثم أرسل الى الوزير شاهين وأبي علي البطرلي أمير البحار وابراهيم وعماد الدين ان يحضروا بالحال فلما حضروا قال السلطان ما الرأي عندكم بخلاص المقدم معروف من الاسر قال سلطان الحصون شيحة ها هو ابن أخته عماد الدين يا ملك الزمان يسعى لخلاصه قال الملك ولماذا لم تتعاونا معا قال يا أمير المؤمنين ان عماد الدين لم يطعني وهو ينافسني في سلطنة القلاع والحصون فاذا كان ولا بد كل واحد منا يذهب بطريق لخلاص المقدم معروف والذي يقدر على خلاصه يكون له السلطنة فقال السلطان ان أمر سلطنة القلاع والحصون هي في الاصل للمقدم معروف فعند خلاصه نرى ما يكون وان جمال الدين وكيل عنه الى حين حضوره يستلم سلطنته على القلاع فالآن اذهبامعا واسعيا في خلاصه من الاسر وزيلا عنكما هذه الاحقاد فقال عماد الدين ولماذا يا مولانا السلطان نحقد على بعضنا طالما السلطنة موقوفة حتى خلاص خالي المقدم معروف قال الملك بارك الله بكما حيث صفت قلوبكما اما شيحة فقال لامير البحار هيىء لنا مركبا يكون كمراكب الافرنج وتكون النوتية متنكرين بألبستهم وعلى صفاتهم ثم انهم تعاهدوا على ان يكونوا يدا واحدة ويتعاونوا باخلاص على خلاص المقدم معروف من الذل والهوان ثم ذهب كل واحد الى مكانه والملك دخل سراية الحريم •

قال الراوي : بعد ثلاثة ايام دخل شيحة وعماد الدين وأبو علي البطرلي على السلطان واستأذنوا بالمسير فأذن لهم فتوجهوا طالبين الاسكندرية وما زالوا سائرين الى ان وصلوا فهيأ ابو علي البطرلي مركبا على صفة مراكب الاعداء وجعل فيه نوتية أشداء وألبسهم ثياب الاعداء وأعلم شيحة جمال الدين انه تم كل شيء على المرام ثم انهم نزلوا الثلاثة في المركب وساروا مدة عشرة ايام في البحار الى ان أقبلوا على القطلان ورسوا على المينـاء فتنكر جمال الدين شيحة على صفة أهل البلد ونزل من المركب وقال لعماد الدين وابو علي انتظراني في المركب لأرى البلد وافتش عن المكان المسجون فيه المقدم معروف ثم ان جمال الدين أخذ يدور في البلـد من مكان الى مكان فرأى عجوزا محنية الظهر وشعرها أبيض ولابسة خراطات كثيرا وفي يدها عصاة منحنية وكل من رآها يناغشها ويمزح معها ويسلم عليها والكل ينادون لها بأم طنوس فهذا ترد عليه وهذا ترفع عليه عصاتها وهي سائرة في طريقها الى ان وصلت الى بيتها ففتحت الباب ودخلت فدخل شيحة وراءها والتفتت وأغلقت الباب فكان شيحة يبرم خلفها بخفة ولا يدعها تراه الى ان دخلت غرفة من البيت واخرجت من جبتها الطعام وقعدت تأكل وشيحة يراها ثم فتحت صندوقا ووضعت فيه دراهمها التي جنتها في نهارها وأقفلت صندوقها .

وأقبلت الى تختها وتمددت عليه أما شيحة فانه صبر الى ان غفلت فقام اليها وخنقها وجردها من ثيابها ودفنها بالحوض ولبس ثيابها وصار يقلدها بالذات وربط صرة وضعها في ظهره ليكـون مثلها وقص شعرها الشايب ووضعه على رأسه وتلفع بملفعتها ولبس خراطاتها وأخذ عصاها وخرج والذي يراه يعتقد انه أم طنوس وسار في الازقة فصارت الناس كعادتهم مع أم طنوس يناغشونه ويمزحون معه الى ان وصل الى سراية الملك كنيار فرأى الناس مجتمعين ومحتفلين فعلم انهم في عيد اكثرهـم سكارى من شرب الخمر فصار شيحة يتنقل وهو في صفة أم طنوس الى ان توغل في

السرايا وهو يفتش عن مكان المقـدم معروف فرأى جارية حاملة طعاما وبيدها شمعدان فقال لها الله يعطيك العافية يا مسكينة فالتفتت الجارية فرأت أم طنوس فقالت لها أهلا وسهلا بأم طنوس قالت لها الى أين ذاهبة يا مسكينة بهذه الحملة قالت الجاريـة آه يا أم طنوس ما كنت أمـوت وأستريح فهذا الاكل الى السجين المسجون في سجن الحسرات من سبعة عشر عاما فلا كان يموت ويخلص من هذا العذاب ولا كان أحد يسأل عنه ويخلصه من ظلم كنيار وانا مليت من هذا الحال فقالت أم طنوس هاتي لأعاونك بهذه الحملة فقالت لها الجارية خذي احملي الشمعدان وأضوي قدامي فأخذ شيحة الشمعدان ومشى معها الى ان وصلت الى باب حديد مصفح وأخرجت المفتاح وفتحت الغال وقالت لأم طنوس ادخلي قدامي بالشمعدان لأرى وأغلقت الباب وقالت لأم طنـوس انتبهي على الدرج فنزلت أم طنوس على الدرج ثم مشت في دهليز طويل الى ان وصلت الى باب من النحاس وفتحت باب غرفة مظلمة فرأى شيحة معروفا وهو سارد فصارت الجارية تصرخ عليه وتسبه ليصحى فأخرج شيحة سكينة منحزامه وذبحها وأخذ منها المفاتيح وأغلق الابواب وخرج وهو بزي أم طنوس الى ان وصل الى الميناء وقال لعماد الدين وأبي علي البطرلي أن يلحقاه بالحال وأوصاهما ان يمشيا وراءه على بعد عشر خطـوات عنه وكأنهما ثملان زي أهل البلد ففعلا كما أمر شيحة الى ان وصلوا الى سراية كنيار ودخل شيحة قدامهم وعماد وابوعلي بعده وسار شيحة الى أول بابوفتحه وأدخلهم ثم فتح باقي الابواب الى ان وصلوا الى معروف فقال لهما خلصاه من الاغلال وانا احرس الباب فصاح عماد من فرحه أبشر يا خالي فقـد جئنا نخلصك من السجن فظن معروف ان الصياح من الجن عمار السجن فقال يا عمار هذا المكان انا عند نزولي عاهدتكم على ان لا تؤذوني فلأي شيء هذا الصياح أتريدون ان تنقضوا العهد والميثـاق فقال عماد الدين لا حول ولا قوة الا بالله ثم قال يا خال انا ابن اختك عماد الدين فقال له

اذا كنت تقول فائتني عن اليمين فسار عماد في جهة اليمين فوصل الى خاله ووقف بجانبه فقال له خذ الشاكرية من على الجدار واقطع بها القيد فمد عماد يده وأخذ الشاكرية وصار يضرب بها القيد حتى فككه وخلص خاله فحمله ابو علي البطرلي على ظهره وخرج من الابواب اما عماد الدين أخذ عدة سلاح خاله معروف وخرج وراءهم الى ان خرجوا من المكان وجدوا شيحة جمال الدين ينتظرهم وبيده حرام وضعه فوق المقدم معروف وقال لهم اصبروا لأرى باب السرايا هل يوجد عليه غفراء فوجد عليه غفرا فرجع وقال انا رايح اسحب لكم الغفر الى بعيد وانتم تخرجون بسرعة وتقدم جمال الدين وهو على صفة أم طنوس الى الغفر وناغشه وضاحكه وسحبه بعيدا عن الباب وفي هذه الاثناء خرجوا وتبعهم جمال الدين الى ان وصلوا الى شاطىء الميناء وجدوا الشختورة واقفة بانتظارهم فركبوا وذهبوا الى المركب ثم ان جمال الدين شيحة قال لعماد الدين ارجع معي لأريك فعل الرجال وأنتقم لخالك معروف بالحال وآخذ كنيار أسيرا مهانا فحالا رمى ما عليه من كراكيب أ مطنوس وتصفى بصفة خادم من خدم القصر وأبقى عماد بزي أهل البلد وأخذه وسار ودخلا سراية الملك كنيار ووضع عمادا في مكان وقال له انتظرني ولا تبرح هذا المكان وسار طالبا مكان كنيار. فوجد قريبا من المكان غرفة كبيرة معدة للغفراء ووجدهم يشربون المدام وهم عشرون جنديا فدخل عليهم جمال الدين وهو بصفة خادم خفيف الروح وصار يمازحهم ويرقص لهم فقاموا وعربدوا وفي هذه الاثناء غافلهم ووضع لهم البنج في البرميل الذي يشربون منه الخمر وصار يسقيهم فصاروا يشربون فما استقر في جوفهم الخمر الا وصاروا كأنهم أموات عندها أغلق الباب وطلع الى غرفة كنيار وجد غفرا على الباب وهو سكران وقاعد على كرسي ونائم فأخرج منديل البنج ووضعه على منخريه فصار معه نوم على نوم. ثم دخل على كنيار وجده نائما من كثرة الشراب فوضع البنج على وجهه وخرج فذبح الغفير الذي على الباب ثم دخل الى عند

الخفراء السكرانين وجدهم كالاموات من تأثير المخدرات فجرد سكينه وصار يذبحهم كذبح الغنم فيالمسلخالى ان ذبح الجميع ثمذهبوأتىبعماد الدين ومرا على غرفة الغفراء فنظر عماد المذبوحين في الغرفة فتعجب من مقدرة شيحة الفائقة وجرأته النادرة ولما وصل الى قاعة كنيار وجد الغفير مذبوحا وكنيارا مبنجا فكتب شيحة كتابا وضعه على تخت كنيار قال فيه ما فعل هذه الفعال وخلص معروفا من السجن وأخـذ كنيارا الا سلطان الرجال جمال الدين شيحة ثم قال لعماد احمل كنيار واتبعني فحمله عماد ولحقه فصعد شيحة على درج الى الاساطيح وتبعه عماد فوصلا الىسطح يشرف على البحر فقال شيحة لعماد الدين انزل وتدلى لأدلي لك كنيـار فنزل عماد على الحبال الى الارض فدلى له شيحة كنيارا وسار ولحقهم ثم انهم ركبوا شختورة الى ان وصلـوا الى المركب وطلعوا اليه ومعهم كنيار ففردوا قلوعهم وسافروا على البحار ثم صحوا كنيار من البنج بعد ان قيدوه ثم قال جمـال الدين لأبي علي البطرلي وجه المركب على غير طريقنا الذي أتينا منه لان الاعداء سيلحقوننا فساروا على هذا المنوال مدة خمسة ايام اما الاعداء فلما أصبح الصباح وجدوا الغفراء مذبوحين ولم يجدوا الملك كنيار ووجدوا على تخته كتابا فقرأوه فعرفوا من الذي فعل هذه الافعال ووجدوا أبواب سجن معروف مفتوحة والجارية مذبوحة فيه ومعروف مطلق السراح فجن جنونهم وطار عقلهـم واحتاروا في أمرهم فاجتمع وزراء كنيار وتذاكروا بهذا الشأن فأجمع رأيهم على ان يسيروا وفدا منهم الى الملك مغلوين وكان يحكم على أربعين مدينة وكل مدينة لها ملك من تحت أمره وكان له سيطرة على كنيـار وله عليه كل سنة جزية فساروا اليه وشكوا أمرهم فلما سمع منهم مقالهم وما فعل شيحة جمال الدين أرغى وأزبد وتكبر وتجبر وقال لا بد ان أغزو بلاد المسلمين وأخربها على رأس ملكهم ورأس شيحة ثم انه أرسل رسلا الى أتباعهالملـوك بأن يرسل كل منهم الف فارس مجهزين بكامل سلاحهم ويكون على كل الف

ابن ملك المدينة بالذات فيكون جملة ما يرسلوه اربعين الف مقاتل مع اولاد ملوكهم وهو قد جهز قدر ما جهزوه كلهم اربعين الف فارس وجعل القائد على الجيش ولده عرنوسا اما ما كان من جوان والبرتقش فيوم من الايام وهما في احد البلاد سمعا بهذه الحملة لغزو بلاد المسلمين ففرح جوان وتوجه طالبا الملك المغلوين ومعه البرتقش فلما وصلا اليه دخلا عليه استقبلهما بأحسن استقبال ثم أجلسهما بجانبه فقال جوان قد بلغني خبر الحملة العظمى التي ستغزون بها بلاد المسلمين فسررنا لذلك جدا فهل من سبب لهذه الحملة فحكى له ما جرى في القطلان وما فعله شيحة وانه اخذ كنيارا أسيرا وقد فعل هذه الفعال انتقاما من كنيار لانه سجن عنده معروفا سلطان الحصون فجاء اليّ أهل القطلان وشكوا لي من هذا الحال وان شيحة هددهم بخراب الديار فقمت أنا بناصرهم وخبرت الاقران الذين لي عليهم سيطرة بأن يبعثوا لي فرسانهم ولبست ولدي عرنوسا قائدا على هذا الجيش وكل ملك من الذين تحت يدي يبعث ابنه مع جيشه والآن ولدي عرنوس خارج المدينة وناصب الخيام وقائم بترتيب الفرسان وتنظيم الجيش فقال جوان قم يا سيف الروم لنرى هذا الجيش ونشجع قائده وذهب جوان ليراه بالعيان وعندما وصل أخبروا عرنوسا بمجيء جوان فقال عرنوس ولاي شيء يأتي لعندي فلما دخل جوان لم يقم له عرنوس ولا اعتبره فجلس جوان وتعجب من جبر عرنوس فقال له عرنوس ما تريد يا ديان هل لك حاجة عندي قال جوان جئت لاشجعك على غزو الاعداء وأحذرك من حيلهم فقال عرنوس لا لزوم لذلك فأنا عندي ضرب سيف وطراد خيل فلا تكلف نفسك الحضور الى هنا فنهض جوان ومعه غلامه سيف الروم وصارت ترجف ذقنه مما اعتراه من عرنوس فقال له البرتقش بخورك ما قطع مع عرنوس يا جوان وانه ما تشربك ولا نزلت له على معدة وانا اقول لك يا جوان انه عاقل ومصيب لانك ما تدخل بين اثنين الا وتفرقهم فكيف اذا توغلت في هذا الجيش وصرت صاحب الامر والنهي

فقال جوان للبرتقش والله انه قطع قلبي ولا رأيت مثل جبره لا قادة ولا ملوك فقال البرتقش اني استبعد ان يكون عرنوس أبن الملك مغلوين فهذا الطين ليس من هذا العجين فمغلوين أصفر رقيق وقصير وما له شبه بعرنوس فكيف يكون ذلك الثعلب أبا لهذا الاسد فالثعالب لا تلد الاسود اما عرنوس فهو طويل القامة جميل الطلعة والصورة وله شامة على كرسي خده قدر قرص العنبر عريض المنكبين واسع الصدر قوي الزندين سريع الحركة وهو كأنه النمر وله سطوة تقطع الظهر والشجاعة تشهد له لا عليه فلما سمع جوان من غلامه البرتقش هذا الكلام قال صدقت ونظرك في موضعه وانا أوافق معك بهذا الرأي بأن عرنوسا ما هو ابن مغلوين لانه بعيد الصفة عنه ثم قال له جوان انهض معي لأرى وأتدبر وعاد جوان مع البرتقش الى ان وصلا الى ديوان الملك مغلوين ودخلا عليه فقال الملك كيف رأيتما هذا الجيش قال جوان كل شيء فيه على غاية ما يرام الا القائد عرنوس فهو متكبر متجبر فقال مغلوين هذا ابني قال جوان معاذ الله ان يكون ولدك او ينسب اليك فقال مغلوين الحقيقة ان كل الناس تعرف ان عرنوسا ولدي مع انه ليس لي اولاد لا ذكور ولا اناث ولكني ذهبت في يوم من الايام الى القطلان لعند كنيار فوجدت عنده هذا الغلام وهو ابن خمسة اعوام فتعلق قلبي به فقلت له من أين لك هذا الغلام فقال كنيار وجدته في جزيرة العرانيس في جرن الدير المهجور وكانت الجان تحرسه لاني عندما أردت أخذه منعوني من أخذه فقلت لهم مرادي ان آخذه لامه تربيه فما منعوني عنه فأخذته وجئت به الى القطلان وعند وصولي أعطيته الى اسيرة عندي فأرضعته وكنت اكرمها لاجله الى ان صار عمره ثلاثة سنوات فرتبت له خادمة ومربيا يعلمه وقد سميته بعرنوس نسبة للجزيرة التي وجدته بها قال الملك مغلوين فلما علمت قصة الغلام قلت لكنيار القطلان أعطني هذا الغلام وانا أعفيك هذا العام من الخراج لانه ليس لي أولاد وأريد ان أتبناه ليخلفني في ملكي فرضي وسمح لي به فكيف عرفت يا جوان انه

ليس ابني قال جوان لانه ليس يشبهك وانت تعزني وتكرمني وهو أهانني وطردني كأني حيوان أجرب فلما سمع الملك مغلوين من جوان هذا الكلام تأثر وبعث الى عرنوس ان يحضر فلما حضر قاموا له ثم جلس وقال لوالده ما تريد مني يا ابي ولماذا طلبتني قال له يا ولـدي لماذا طردت جوانا ولم تحترمه قال انا لست بحاجة اليه يا ابي فما عندي الا فرسان وابطال وطعن رماح وضرب سيوف وطراد خيل فقال له هذا لا يكفي يا ولدي أريد منك ان تحترمه وتعمل برأيه ومشورته لانه يعرف كثيرا عن البلاد التي أنت قاصدها قال عرنوس كما تريد يا أبي ثم قال مغلوين لجوان سامح عرنوسا ولا تؤاخذه وزوده بنصائحك الثمينة فهو يجهلك قال جوان سامحتـه بشرط ان يقبل نصائحي فقال مغلوين نعم يسمع كلامك ولا يخالفك في أمر هذا ما كان من هؤلاء واما ما كان من شيحة ومعروف وابو علي البطرلي عندما ساروا من ميناء القطلان وغيروا اتجاههم خرج عليهم ريح عاصف وهاجت البحار وتلاطمت الامواج وكادوا ان يغرقوا لولا لطف الله ولمـا هدأ البحر وجدوا أنفسهم قريبا من خليـج مسيسبي وجبل النار فسار ابو علي بالمركب نحو المينـاء وأرخى المراسي لاجل الراحة وطلعـوا الى اليابسة فوجدوا في بلدة حمامـات معدنية وماؤها سخن فأدخل شيحـة جمال الدين المقدم معروف الى هذه الحمامات وصار يغسله ويعتني به فلانت عروقه وتمددت أعصابه ودهن جسمه بمراهم وكحل له عينيه وصار يغذيه ويطبخ له الدجاج ويسقيه مرقه حتى قوي واشتد ساعده ثم أقلعوا في البحـار ووجهتهم الاسكندرية فلما وصلـوا ضربوا مدافـع السلام فجاوبتهم المراكب من على الميناء بمدافعها واستقبلهم نائب الاسكندرية وهنأهم بالسلامة فأقاموا ثلاثة أيام في الاسكندرية وبعدها ساروا طالبين مصر الى ان وصلوا ثم توجهوا الى الديوان فنهض الملك واستقبلهم أحسن استقبال وعانق المقدم معروف وسلم على جمـال الدين وسلم على أمير البحار وعلى عماد الدين ثم أمر لهم بالجلوس وأجلس معروف بجانبه وصار

جمال الدين شيحة يحكي للسلطان ما جرى معهم من وقت ما فارقهم ففرح الملك بمجيئهم سالمين وبخلاص معروف من سجنه ثم قال جمال الدين وقد اسرنا ملك القطلان كنيار فقال الملك احضروه لاراه فلما أحضروه بين يديه قال له لماذا سجنت عندك المقدم معروف هذا الزمن هل لك عليه ثأر يا ظالم يا عديم الوجدان والضمير فقال كنيار كان عندي ولد عزيز عليّ عمره ثلاث سنوات وجدته في جزيرة العرانيس في جرن الدير المهجور فجاء المقدم معروف وصار يكرمه ويقول له انت ولدي فأعلمني مربي الغلام بهذا الامر فخفت ان يأخذ عرنوسا مني وهو العزيز عليّ فحبسته لهذا السبب فلما سمع معروف من كنيار أين وجد هذا الغلام قال هذا ولدي ورب الكعبة لأن أمه أعلمتني أنها وضعته في جزيرة العرانيس في جرن الدير المهجور فذهبت الى الجزيرة ودخلت الدير المهجور وأتيت الى الجرن فما وجدته فقال الملك لكنيار والآن أين الغلام قال في جزائر الغلف عند الملك مغلوين قال الملك ومن أوصله الى مغلوين قال كنيار ان مغلوين له علينا كل سنة جزية فيوم من الايام مر بمراكبه على القطلان ونزل ضيفا عندي فرأى الغلام وسألني عنه فحكيت له أين وجدته واني سميته عرنوسا نسبة للجزيرة فقال لي ان قلبي أحب هذا الغلام وانا ليس لي أولاد لا اناث ولا ذكور فاعطني اياه لاجعله ولدي وأخلفه على ملكي من بعدي وانك معفى هذا العام من الخراج فأعطيته اياه فأخذه الى بلاده ورباه وجعله ابنه وكل الرعية تعرف عرنوسا ابن مغلوين وولي عهده وصار عمره ما ينوف عن العشرين عام فهذه قصة الغلام بالتمام أيها السلطان •

فلما سمع جمال الدين كلام كنيار قال للسلطان يا أمير المؤمنين ضعوا كنيارا بالسجن لنرى عرنوسا ونرده الى أبيه عن قريب انشاء الله اما المقدم معروف فانه أقام في ضيافة السلطان مدة شهر تمام فقال له عماد الدين متى تذهب الى القلاع يا خالي لتفرح بك الرجال لانهم بعثوا لي خبرا انهم في انتظار قدومك اليهم قال لنأخذ اذنا من السلطان يا عماد

ثم قال المقدم معروف للملك أتأذن يا أمير المؤمنين بالرواح الى القلاع لنرى الاهل والاحباب واننا بشوق عظيم لرؤياهم وهم بانتظارنا فسمح له الملك فسافر الى القلاع ويكون لنا معه كلام اما ما كان من عرنوس فانه لا زال يرتب جيشه وينظمه ويعلمه الضرب والطعان فقال له جوان الى متى هذا الحال اعلم انه ما كل العسكر تحارب فاجمع عساكرك وسر في الحال قبل ان تصل أخبارك الى أعدائك انك آت الى قتالهم فيستعدون لقتالك بتجهيز الجيوش والعساكر فقال عرنوس لقد تكلمت بالصواب ثم انه أمر جيوشه بالمسير الى ان ظهرت لهم مآذن حلب وأسوارها فسأل عرنوس جوان ما اسم هذه المدينة فأخبره ان هذه حلب الشهباء فان أخذتها تأخذ بعدها حماه وحمص والشام ومن بعدها تأخذ القدس وغزة وتملك مصر وأقطارها فأمر عرنوس بنزول العساكر ونصب الخيام فلما رأى نائب حلب عماد الدين ابو الخيش تلك العساكر حصن الابراج وقفل الابواب وأمر الرجال بالطلوع على الاسوار ونصب المنجنيقات فلما نظر عرنوس هذا الحال وان البلد استعدت للقتال كتب كتاب وأعطاه الى نجاب وسار الى تحت الاسوار وقال لهم انا نجاب وحامل كتاب من عند الملك عرنوس فتناولوا منه الكتاب وأعطوه الى نائب حلب فقرأ الكتاب واذ به من الملك عرنوس الى نائب حلب اعلم انني انا قاصد حرب السلطان فان انا انتصرت عليه تبقى انت على ما انت عليه وان أسرني وغلبني أكن تحت حكمه فالرأي عندي ان تفتح البلد وتدع الناس تبيع وتشتري على عساكري وانا مسؤول وملزوم بكل شيء يفقد وأقوم بالتعويض لبينما يأتي السلطان فانظر ما ترى وأرسل لي الجواب فكتب نائب حلب الجواب قائلا هذا لن يكون أبدا وان هذا المكر والاحتيال لا يمشي على مثلي فان أردت القتال فنحن مستعدون وان أردت الرواح فارحل بسلام فاخذوا الكتاب وأعطوه للنجاب فأخذه وسار اما نائب حلب فكتب كتابا الى السلطان وأرسله مع نجاب فلما وصل الى الملك قال من اين قال من حلب

يا أمير المؤمنين ففضـــه وقرأه واذ به بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على البشير النذير خطابا من خادم أمير المؤمنين نائب حلب عماد الدين ابو الخيش الذي نعلمكم به انه يوم تاريخه ظهر لنا في الفلا غبار سد منافس الاقطار واذ انكشف الغبـار عن عسكر جرار واقام الخيـام فاستحضرنا للقتال ثم أرسلنا جواسيس يكشفـوا لنا أخبار هذا الجيش فأتوا وأخبرونا ان هذا الملك عرنوس ابن مغلوين ملك ملوك البرتغـال وصحبته أولاد ملوكها وجيش عدده ثمانون الف مقاتل بين فارس وراجل فأدركنا يا أمير المؤمنين والسلام على من ظلله الغمـام وبعد ما قرأ الملك أعطاه الى قارىء الديوان فقرأه على الخاص والعام قال الملك ما عندكم من الرأي والتدبير قال الوزير شاهين الرأي الصواب ان نجمع العساكر بالحال ونرحل بعد ثلاثة ايام ويكون مسيرنا بالسرعة قبل ان يضايق هذا الجيش أهل البلاد ويؤذي العباد قال الملك هذا هو الصواب فحالا أمر الوزير شاهين بجمع الجنود والعساكر وأمر السلطان بالنفير العام لكل من يقدر يركب الخيل ويحمل السلاح فاجتمع الجيش ظاهر مصر وتجهز على قدم وساق ثم رحل الجيش وجد المسير الى ان وصل الى حلب ونصب الخيام مقابل الاعداء والحرب كان قائما بين اللئام وأهل حلب اما الاعداء فلم يقدروا ان يصلوا الى الاسوار اما معروف فأعلموه انه ركب على حلب جيش من جزائر الغلف بقيادة عرنوس فلما سمع المقدم معروف بذكـر عرنوس قال هذا ولدي يا رجال فانهضوا وشعلـوا النيران على رؤوس الجبال لجمع الرجال من كل حدب وصوب وركب المقدم معروف في أوائلهم وتبعتهم أهل الرتب والابطال وهم يقدرون بخمسة عشر الف مقاتل من بني اسماعيل الاشاوس وسار طالبا حلب الى ان وصل فرأى جيش السلطان وعساكره ناصبة الخيام فترجل ودخل الى الصيـوان لعند الملك الظاهر فترحب به السلطان وأجلسه بجانبه فقال المقدم معروف يا أمير المؤمنين ان عرنوسا قائد هذا الجيش هو ولدي فقال السلطان نرجو الله ان يكون

هذا ولدك وان يهديه على يديك فيساعدنا على أعدائنا ثم ان الملك كتب كتابا وأرسله مع ابراهيم للملك عرنوس فسار ابراهيم وأخذ سعدا بركابه الى ان وصل الى جيش عرنوس ترجل عن ظهر فرسه وسلمها لسعد وسار الى ان وصل الى الصيوان وصاح رسول وما على الرسول الا البلاغ سلامي على من اهتدى وخشي عواقب الردى واللعنة على من كذب وتولى ثم دخل الصيوان فوجد عرنوسا جالسا وجوانا بجانبه قال عرنوس ماذا تريد قال له معي كتاب من أمير المؤمنين قال هاتــه لنقرأه فأعطاه الكتاب ففضه وقرأه واذ فيه خطابا من أمير المؤمنين الملك الظاهر بيبرس الى الملك عرنوس أعلم انك من نسل الامــام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ولست من نسل اللئام والواجب عليك يا ولدي ان تعرف أصلك لتكون على بينة من أمرك فأبــوك المقدم معروف بن جمر سلطان القلاع والحصون صاحب الاصل الاثيل فاترك الآن أعــداءك وأعداءنا واحضر الى عندي واحسن اسلامك واطلب الرضا من والدك وهو الآن موجود عندي اني أنصحك ولن أغشك ولا تظن اني أقول ذلك لأخدعك او اني خائف منك فأنا أعرف أنك لا تحتمل جولة او جولتين حتى تكون فيقبضة يدي انت وجيشك وبالختام السلام على من اهتدى وخشي عواقب الردى واللعنة على من كذب وتولى فلما قرأ عرنوس الكتاب تعجب وقال لجوان اسمع ما يقول لي الملك الظاهر قال انا ابن المقدم معروف قال له جوان هذا كله خوف منك لئلا تملك البلاد منه فاكتب له الجواب بالحرب فكتب الجواب مثل ما قال جوان وأعطاه لابراهيم وأعطاه خمسين دينارا فأخذها وسار الى عند سعد وركب فرسه وعاد الى ان وصل الى السلطان فأعطاه الجواب فقرأه ووجده بالحرب والطعان فمزقه ورماه ثم اصطفت العساكر على الجانبين وقرعت الطبول فخرج من جيش الاعداء فارس في الحديــد غاطس صال وجال في الميدان وطلب المبــارزة فغار عليه مقــدم من بني اسماعيل وزعق فيه وضربه بالحسام على رقبته أزاح رأسه عن جثته فنزل

له الثاني ألحقه بأخيه والثالث دحاه والرابع ارماه والخامس كذلك وما دام يقتل ويجندل من اللئام الى ان قتـــل منهم ثلاثين فوقفت عنه فرسان الاعداء مما لاقوا من شجاعته وقوة زنده فلعب في الميـــدان وصار يعير عليهم وكان هذا المقدم حسن المشناتي فلما أعياه الامر ولم ينزل احد الى الميدان رجع الى الخيام فهنأه الرجال بالسلامة وترحب به السلطان وتشكره على فعاله وعلق له على صدره وسام الفرسان وثاني يوم نزل حسن النسر ابن عجبور وفعل افعالا في الميدان تعجز عنها صناديد الرجال ورجع الى عند السلطان فترحب به وأكرمه وعلق له الوسام على صدره قال ابراهيم أريد من مولانا السلطان ان يسمح لي غدا بالنزول، الى الميدان لاني تشوقت للقتال قال له الملك مقامك محفوظ عندي يا ابراهيم لمقاتلة الابطال والمعارك الكبرى فسكت ابراهيم ودام الحرب بالمبارزة مدة عشرين يوما وكل يوم تخسر الاعداء جملة فرسان حتى ضجت الافرنج وشكوا للملك عرنوس فقال جوان يا ملك هذا شيء يطول شرحه أؤمر العساكر بالحملة جملة حتى تبلغ الارب قال عرنوس حتى أنزل أنا والتقط فرسانهم وبعدها تحمـــل العساكر جملة وفي الصباح أعلم الملوك ان لا احدا يبرز الى الميدان لان الملك عرنوس يريد النزول الى الميـــدان فنزل عرنوس وهو راكب جواد متقلد بسلاحه ومصفح بالحديد ولما توسط الميـــدان صال وجال وطلب مبارزة الفرسان وقال دونكم والقتال فبرز له أيدمر البهلوان فتضاربـــا وتقاتلا وتباعدا وتقاربا قدر ساعة حتى تعب أيدمر فانقض عليه عرنوس واقتلعه من سرجه وأخذه أسيرا فبرز له الامير علاء الدين فما جال معه الا قليلا حتى طعنه بكعب الرمح شقلبه فنزل اليه الامير سنقر وبعده الامير بشتك والجاولي أخذهم كلهم أسارى وثاني يوم نزل المقـــدم النسر بن عجبور وتقاتل مع عرنوس ساعة فعرف عرنوس انه بطل شجاع وقرم مناع فاستل من تحت فخذه حربة ماضية وقذفها على المقدم بن عجبور فأصابت فخذه فقال له عرنوس اذهب الآن داو جرحك فعاد النسر من الميـــدان

وهو مكسوف فلما رأى معروف فعال ابنه عرنوس سر وابتهج ثم دقت طبول الانفصال فلما علم السلطان أفعال عرنوس غضب غضبا شديدا وقال لابراهيم جاء دورك فانزل غدا لعرنوس وائتني به ذليلا مهانا قال السمع والطاعة يا أمير المؤمنين وثاني يوم من الغد برز عرنوس الى الميدان وطلب الفرسان للمبارزة فتأهب ابراهيم للنزال وأراد ان يركب فرسه واذ بالمقدم خاله معروف أتى اليه وقال يا ابن الشمطا مرادك تنزل لولدي عرنوس وتكسر نفسه وهو ابن خالك قال ابراهيم أمرني الملك قال لو أمرك ضيعها لاني أخاف عليه منك لانه لم يزل طري العود قال كيف نعمل يا خال قال المقدم معروف دعني انا أنزل اليه وانت واجه السلطان ودبرها قال ابراهيم لخاله معروف تفضل انزل اليه وحسبي الله ثم ان معروفا عندما نزل ولده عرنوس الى الميدان برز اليه فقال له عرنوس من انت ايها الشيخ قال انا معروف ابو عرنوس الواقف امامي لقتالي اسمع يا ولدي انا ابوك وامك مريم بنت ملك جنوا والآن هي موجودة عند والدها وقاعدة حزينة مقهورة لاجل فراقك والآن انا جئت اليك راجيا ان ترحم شيبتي وتطيع أمري واعلم انك انت ولدي وهذه العلامة التي في وجهك بوجهي مثلها بالذات وانت لست ابن مغلوين فمن أين للقرود ان تلد الاسود فأنا عندما رأيتك تفوقت على الفرسان فرحت بك وسررت والآن قاتلني لأرى ما تعرفه من أبواب الحرب والطعان ثم ان عرنوسا صار يقاتل أباه ويضربه ضربات صائبات وأبوه يبطلها ويعلمه الذي لا يعرفه من فنون الحرب الى ان زال النهار ورجع معروف من الميدان اما ابراهيم فسار الى السلطان فقال له الملك أين عرنوس يا ابراهيم قال يا أمير المؤمنين ان عرنوسا فارس شديد وبطل صنديد وان شاء الله غدا آتيك به أسيرا مهانا فاطمأن الملك الى ثاني يوم أراد ابراهيم ان ينزل الى الميدان عندما برز عرنوس واذ بالمقدم معروف أقبل وقال لابراهيم أرجوك ان تسمح لي ان انزل الى ابني فسمح له فبرز معروف الى ابنه وصار يعلمه ابواب الحرب الى ان زال النهار رجع من

الميدان ودام هذا الحال ثلاثة ايام فغضب السلطان وقال غدا أنا ابرز الى الميدان فخاف معروف على ولده من السلطـان فكتب كتابا وأرساه الى عرنوس وقال له خذ حذرك فان السلطان غدا سيبرز لك ويأسرك فاربط وسطك بالسلاسل الى السرج فاذا أراد ان يقتلعك من فوق السرج ويأسرك تكن ثابتا فكن على حذر منه لانه جبـار لا يصطلى له بنار فلما وصـل مكتوب معروف الى ابنه عرنوس أتى بسلسلة من حديد ولفها على خصره وجعل لها اربع حلقات وعمل لكل حلقة سلسلـة وثبتها في السرج حتى صار هو والسرج قطعة واحدة وثاني يوم برز الى الميدان وقال لا يبرز لي الا السلطان فاعلموا الملك ان عرنوسا برز الى الميدان وقال لا يبرز لـه الا انت يا مولانا فتعجب السلطان وقال كيف صار عنده خبر ان مرادي أبارزه في الميدان فنهض السلطان الظاهر واستعد للقتال وقدموا له الجواد الادهم فركب وانحدر الى الميدان وصار يتقاتل مع عرنوس مدة ساعة من الزمان الى ان رفع الملك الدبوس وضرب به عرنوسا فتلقى عرنوس الضربة بالترس فثنت يده الى كتفه فشعر ان كتفه انخلع من قـوة الضربة امـا عرنوس فضرب السلطان بالسيف على رأسه فتلقى الظاهر الضربة بالدبوس فانكسر السيف وما بقيت بيد عرنوس الا قطعـة من السيف فعند ذلك انقض عليه السلطان وقبضه من خصره وأراد ان يقتلعه من بحر سرجه واذ هو والسرج قطعة واحدة فعرف السلطان انه مثبت نفسه بالسرج عند ذلك قوى عزمه وشده بساعده وقلعه هو والسرج من ظهر جواده وغار به وهو رافعه بيده الى ان وصل الى باب الصيوان ورماه الى الارض وقال ضعوه على نطع الدم فاذا لم يطع آباه ويسلم اقتلوه اما عرنوس فانه صحى من غشيته فرأى نفسه في محل الاعدام والسياف منتظـر أمر السلطان بقطع رأسه فغمض عرنوس عينيه ونام سبحان الذي لا ينام ففي هذه الاثناء رأى جده الامام علي أمير المؤمنين يقول له اعلم ان أباك معروفا من اولادنا وانت ابنه فأسلم فقال له عرنوس ومن انت يا زينة الاخيـار قال له انا

علي بن ابي طالب فقال عرنوس اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فأسرع ابراهيم الى خاله معروف وقال أريد منك البشارة يا خالي ان ولدك عرنوسا أسلم في هذه الساعة فقال له اطلب مني ما تريد قال يا خال بعد عمر طويل اطلب منك ان توصي لي ببذلة السلاح وذي الحيات قال هما لك يا ابراهيم ولا يلبس بدلة الزرد وينقل ذا الحيات الا انت لانك انت السابع بنقلهم فتقدم ابراهيم ووضع يده على جبهة عرنوس فأفاق من سهوته وأقر بالشهادتين فلما سمع أبوه المقدم معروف كان افرح الناس بولده عرنوس وتقدم وخلصه من نطع الدم وصار يقبّله ثم أخذه لبين أيادي السلطان وقال يا أمير المؤمنين ولدي عرنوس أسلم فنهض الملك واستقبله وصافحه وقال له هنيئا لك بما أعطيت يا بني فاطلب مني ما تريد ثم أجلسه بجانبه وقال عرنوس أريد يا أمير المؤمنين ان أسير الى الجيش الذي معي وأعرض الاسلام على العساكر فمن اسلم قبلناه ومن أبى رحلناه الى بلاده ومن طغى وتجبر وأراد القتال قاتلناه فقال السلطان افعل ما تريد نجح الله اعمالك فركب عرنوس جواده ورجع الى جيشه اما جوان قال له غلامه البرتقش أظن ان عرنوسا أسلم وتعرف على والده وها هو قادم فلما وصل دخل صيوانه وجلس فجلس معه أولاد ملوك البرتغال قال له جوان الحمد لله على السلامة يا ملك قال عرنوس مرادي ان تذهبوا معي الى عند السلطان في أمر من الامور العظام قالوا له سمعا وطاعة ثم ان عرنوسا أخذ أولاد ملوك البرتغال وجوان الى السلطان فاستقبلهم السلطان بالترحاب وأجلسهم فقال عرنوس لجوان من هو أبي قال جوان أبوك المقدم معروف فقال والكلام الذي كنت تقوله قال كله زور وبهتان فتبسم السلطان فقال جوان وأمك مريم بنت ملك جنوا وحكى جوان لعرنوس على أخذ مريم الى القدس واسلامها وجوازها من المقدم معروف وسرقتها من عند والده وهي حامل وقد ولدتك في دير العرانيس فتعجب عرنوس مما جرى ثم قال لجوان لقد منّ الله علي

بالاسلام فأسلمت فهل لك ان تسلم فقال جوان أهذا الامــر المهم الذي دعوتنا اليه قال نعم قال لا أريد قال له اذهب الى حال سبيلك ولكن اياك ان تدخل الجيش فما تعرف ما يجري عليك ثم التفت الى اولاد ملــوك البرتغال فقال لهم انا اسلمت وبالله آمنت فمن يريد ان يتبعني فيسلم ومن أبى فليرحل الى بلاده فقالوا نحن خرجنا من بلادنا معا فلنبق معا فقال لهم انا اسلمت فأسلموا مثلي فأسلموا كلهم وقالوا نحن نعرض الاسلام على أتباعنا فمن أسلم قبلناه ومن أبى طردناه الى بلاده ثم نهضوا وساروا طالبين الجيش وأول شيء عملوه اطلقوا الاسارى الذين أسرهم عرنوس وعرضوا الاسلام على العساكر فأسلموا الا قليل منهــم ثم قالوا لمن أبى الاسلام ارحل الى بلادك بسلام ثم انهم امروا بهد الخيام ونصبوها بجانب خيام عسكر السلطان وصاروا مثلهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ففرح الملــك الظاهر بهم ثم ان السلطان دخل حلب وأقام بها سبعة ايام وبعدها دق طبله وارتحل طالبا مصر ومعه عرنوس وأولاد ملوك البرتغال وعساكرهم صحبة عساكره وما زال سائرا الى ان وصل مصر المحروسة وأمر بنزول عساكر عرنوس في قلعة الكبش وأخلى لعرنوس واولاد ملوك البرتغال بيت ابن باديس السبكي اما معروف طلب من السلطان الاذن بأن يأخذ ولده عرنوس الى جنوا الى عند امه بنت ملك جنوا ليتعارفا فأذن لهما السلطان بالرواح فسارا الى مدينة جنوا ودخلا ديوان الملك فلما رآهما استقبلهما وامر لهما بالجلوس فقال له معروف اما عرفتني قال نعم عرفتك انت صهري المقدم معروف ولكن هذا الشاب لم اعرفه فمن هو قال هذا الملك عرنوس ابن بنتك مريم ففرح بهما وأمر بضرب المدافع وزينت جنوا لقدومهما ثم ان معروفا سأل الملك اين زوجتي مريم قال ان زوجتك حاضرة ولكنها في قاعة الاحزان فقال معروف بشرها بابنها انه حضر ومراده يراها حتى لا تفاجئها مفاجأة فبعث الملك خادما اعلمها بقــدوم ابنها عرنوس وزوجها المقــدم معروف فما صدقت الخادم وصارت تبكي من شدة الاشتياق ثم ان معروفا

وابنه سارا الى قاعة الحسرات وصاح معروف اين انت يا مريم قالت من انت قال انا معروف وهذا ولدنا الملك عرنوس أتيتك به لتفرحي وتتركي الاحزان والحسرات فقالت له يا سيدي معروف انا لي علامة بولدي فان وجدتها فيه يكن ولدي وهي شامة كبيرة في وسط خده ثم قامت تجـري وهي فرحانة باللقاء ورأت ابنهـا عرنوسا فنظرت اليـه فعرفت انه ابنها فهجمت عليه وعانقته وغابت عن الوجود من شدة فرحها واشتياقها اليه فحملها ابنها عرنوس بين يديه وأدخلها القاعة وأجلسها على تختها وأتوا لها بالمنعشات والمنبهات الى ان زال ما بها ثم انها قبّلته وفرحت به وكانت لا تصدق انها تراه فزال عنها ألم البؤس والفراق وجلست في قصرها يحيط بها الاحباب ورجعت اليها صحتها وانقلبت من حال الى حال وقعد ولدها عرنوس الى جانبها وأقبل الناس يهنئونها برجوع ولدها عرنوس اليهـا وصارت تقدم لولدها من كل شيء أحسنه ودام هذا الحال مدة عشرين يوما .

اما معروف فقال لابنه وامرأته هيا بنا لنرجع الى الاوطان فقـالا له كما تريد فعرضوا على الملك هذا الشأن فقـال لهم شأنكم وما تريدون فحزمت الملكة أمتعتها وأنزلتهم في المركب وثاني يوم ركب معروف وعرنوس وأمه وساروا طالبين ميناء اللاذقية الى ان وصلوا وطلعوا من البحر وتوجهوا طالبين حصن صهيون فوصل الخبر الى بني اسماعيل فهرعوا لاستقبالهم وقرعت الطبول وقامت الافراح والمهرجانات وأدخلوهم الى القلعة وذبحت الاغنام وكثرت الضيافات مدة سبعة ايام وصار طراد خيـل ولعب سيف وتهريج وهم جالسون يشاهدون هذه الاحتفالات بهم وهم بغاية السرور والفرح اما رجال بني اسماعيل فقالوا للمقدم الحمد لله على سلامتـك وجمع الشمل يا سلطان الرجال فقال لهم يا بني اسماعيل الذي يطيع شيحة جمال الدين يسلم عليّ والذي يأبى يرحـل من قلعتي فتركـوا ما كانوا عازمين عليه .

اما الملكة مريم وعرنوس طلبا الاذن بالذهاب الى مصر من معروف قال لهما وانا ذاهب الى مصر معكما ثم انه أقام ابن اخته عماد الدين نائبا عنه في القلعة وثاني يوم ركبوا طالبين مصر ولما وصلـوا نزلـوا في بيت ابن باديس السبكي وفي الصباح طلع الملك عرنوس الى الديوان فاستقبلـه السلطان أحسن استقبال وأجلسه قريبا منه وأمر له بخلعة ثمينة وضعت على اكتافه وقال له انت ملك من تحت أمـر أمير المؤمنـين واولاد الملوك الذين معك كل واحد منهم أمير وانت قائدهم وملكهم ولك كرسي فـي الديوان بين كبار الوزراء ومن أهل المشورة في الاحكام ودام هذا الحال مدة من الزمان الى يوم من بعض الايام والسلطان جالس في الديوان واذ بنجاب دخل الى الديوان قال الملك من أين قال من بورصة يا امير المؤمنين وأخرج الكتاب فأخذه منه الحاجب وأعطاه الى السلطان ففضه وقرأه ، واذ به بسم الله الرحمن الرحيم من الامـير مسعود حاكم بورصة شقيق الوزير الآغا شاهين الى سيدنا امير المؤمنين وسلطـان المسلمين وخـادم الحرمين الشريفين الذي نعرفكم به يا مولانا السلطان انه توجد قريبا منا مدينة الرخام والحاكم على هذه المدينة ملكة لعينة تسمى شمقرين الساحرة، وقد جاءنا منها كتاب تطلب منا الجزية وقالت اذا لم ترسلوا لي المال بعد ثلاثة ايام اهاجمكم وأخرب بلادكم فبعثت لها جوابا يا امير المؤمنين انه ليس لها عندي مال وما عندي الا ضرب البتار فحصنت مدينتي وجهـزت العساكر والجنود وأرسلت الجواسيس ليأتوني بأخبارها فرجعوا وأخبروني ان اللعينة شمقرين طلبت من الملوك الافرنـج بأن يساعدوها بالرجـال والتجهيزات فأرسلـوا لها طلبها لانهم يخافـون منها لانها لئيمة ماكرة فتجمعت عندها فرسان ورجال ومرادها غزونا وقتالنا فأطلب منك يا امير المؤمنين مساعدتنا على هذه الفاجرة اللعينة والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والامر لكم يا مولانا السلطان والسلام عليكم .

فلما قرأ الملك الكتاب أعطاه لقارىء الديوان فقرأه وعرف ما فيه كل

من كان حاضرا قال الملك عرنوس مولاي امير المؤمنين أرجو ان ترسلني نجدة انا وعساكري الى الامير مسعود حاكم بورصة لافتح مدينة هذه العاهرة واجعلها مدينتي ومحل اقامتي انا وعساكري فقال الملك لك ذلك وانا اساعدك فيما يلزمك لهذا الشأن ٠

اما الوزير شاهين فقال أيأمرني امير المؤمنين ان اذهب انا وعساكري مع الملك عرنوس في هذه الغزوة لاني من أهل تلك البلاد واعرف أهلها فأدافع عن بلدي بورصة واساعد الملك عرنوس واكون نجدة للامير مسعود فقال السلطان لا مانع من ذهابك مع عرنوس بهذه الغزوة فحالا أمر السلطان بتجهيز الجيش وجمع الرجال والابطال وأذن لعرنوس بالخروج الى ظاهر مصر لترتيب جيشه وتنظيمه وأمر له بخيام وجمال وبغال وتجهيزات وصارت ترد عليه الرجال والفرسان بأمر السلطان مدة عشرة ايام ثم سار الملك عرنوس والوزير شاهين بالجيوش فدعا لهم الملك بالنصر والتوفيق وما زالوا سائرين الى ان قطعوا مدينة حماه بعث عرنوس مكتوبا الى بني اسماعيل قال فيه انفروا معي وجاهدوا في سبيل الله لفتح مدينة الرخام لان مرادي ان اجعلها بلدي ومسكني ٠

فلما وصل المكتوب الى بني اسماعيل اشعلوا النار على رؤوس الجبال علامة لجمع الرجال من القلاع فاجتمع ما ينوف عن عشرة آلاف من المقدمين والابطال وساروا طالبين جيش الملك عرنوس للانضمام اليه ٠

اما الملك الظاهر بعدما سار جيش عرنوس طالب بورصة بعث طلب جمال الدين شيحة فحالا حضر لمواجهة السلطان فأعطاه الملك المكاتبة التي وردت من بورصة واستنجاد الامير مسعود به وارساله عرنوس والوزير شاهين نجدة للامير مسعود قال يا مولانا السلطان ليس لي خبر بشيء من هذا لاني كنت غائبا عن مصر واليوم وصلت قال الملك مرادي ان تلحق بهم وتساعدهم على هذه اللعينة شمقرين قال جمال الدين لا يكون لك فكرة يا امير المؤمنين ان شاء الله عن قريب اكون معهم وأساعدهم اما

الملك عرنوس والوزير شاهين وجيشهما ما زالوا سائرين والابطال تنضم اليهم من جميع البلاد الى ان وصلــوا الى قرب بورصة وكان قد أمسى المساء فباتوا هناك على انهم يأتوا بورصة صباحــا فلما أصبحوا ركبت الفرسان وتوجهوا الى بورصة وقبل وصولهم بساعتين رأوا المعركة دائرة حول أسوار بورصة والامير مسعود وعسكره والرعيــة في أشد الضيق وكانت الاعداء محاصرتهم من مدة خمسة عشر يوما وهم يكافحون الاعداء ويردونهم عن الاسوار الى ان يئسوا من الحياة وهم على آخر رمق من الضيق ويدافعون دفاع المستميت فلما رأى عرنوس والوزير شاهين ان الاعداء مسيطرة على المعركة ومحتاطة بالاسوار أمر الجيش بالهجوم على الاعداء حالا فانقضوا عليهم مثل الصواعق وفتكوا فيهم فتكا ذريعا فلما رأت جنود شمقرين الساحرة هذه الغارة عليهم وجدوا انهم ليس لهمطاقة بالثبات امام جيوش الابرار ركنوا الى الفرار وولوا الادبار طالبين النجاة فتبعتهم الابطال وصاروا يقتلون منهم ويأسرون الى ان ولى النهار فرجعت الابطال عنهم وصارت تجمع الخيول الشاردة والعدة المبددة الى ان طلع النهار فخرج الامير مسعود من بورصة واستقبل أخاه الوزير شاهينوالملك عرنوس وصار يتشكرهم ويحييهم ويدعو للسلطان الظاهر وجيوشه بالنصر فأقام عرنوس والوزير شاهين في بورصة سبعة ايام ثم نظموا جيوشهــم ورتبوا صفوفهم وركبوا وساروا طالبين مدينة الرخام وهم على أتم استعداد الى ان وصلوا اليها فخرج عليهم من ابراج المدينــة نار ودخان وشرار فوقعوا بعيدا عنها واذ بعسكــر شمقرين الساحرة خارجين من باب البلد يريدون القتال فأمر عرنوس الجيش بالهجوم عليهم فانقضت عليهم الابطال انقضاض العقبان فما دام الحربمعهم الا ساعة حتى ولوا الادبار فلحقتهم الابطال الى ان قاربوا الابواب خرج عليهم من الاسوار والابراج نيران وشرار ودخان فرجعوا عنهم ودخلت اللئــام البلد ودام هذا الحال مدة شهر من الزمــان وكلما خرجــوا من البلــد تتلقاهم جيوش عرنوس

وتردهم بعدما تقتل منهم وتأسر ومتى قاربوا البلد تخرج عليهم النيران الى ان مل الملك عرنوس من هذا الحال واحتار كيف يعمل اما جمال الدين شيحة فأخذ ابنه محمد السابق وتوجه الى مدينة الرخام ودخل صيوان عرنوس فاستقبله بالترحاب هو والوزير شاهين وسلم عليهم فقالوا ما رأيك بهذه اللعينة شمقرين كيف نعمل معها لانها واضعــة أرصاد على الابراج وكل ما اقتربنا من الاسوار والابراج تطلــع النيران علينــا من الارصاد والدخان يكاد يعمينا حتى لم نعد نرى بعضنا فدبرنا يا ابو الهمم بهذا الامر فقال جمال الدين ابشروا بالنصر والتوفيق عن قريب ان شاء الله وانا ذاهب اليها انا وابني محمد السابق ونقضي عليها فادعوا لنا بالنصر على اللعينة شمقرين وأخذ ابنه وسار الى مدينة الرخام وعمل له حيلة ودخل المدينة هو وابنه وصارا يتواريان حتى لا تراهما شمقرين ثم ان شيحة تصفى بصفة بطرك يوناني ودخل على شمقرين وابنه امامه حامل مبخرة وصار يقــرأ لها قداديس ويبارك لها فاستقبلته شمقرين وأجلسته وقالت له مرادي تقيم عندي وتساعدني حتى أنال النصر فقال لها انا أتيت لهذه الغاية لما سمعت انك محاصرة ففرحت به شمقرين وصارت تعمل بمشورته وخطر ببالها ان تعرف تنيجة هذه الحرب فضربت الرمل فظهر لها نحس وبسببه تفتح البلد ويكون على رأس الجيش الفاتح ملك يسمى عرنوس بن معروف ويسكنها ويجعلها قاعدة لجيوشه يغزون منها الافرنج في البحار فقالت لا بد لي ان اعرف من هو هذا الذي يأتيني عن يده هذا النحس فاختلت في غرفتهــا وصارت تحلل وتشتغل بالسحر فظهر لها ان البطرك اليوناني هو شيحة وانه آتي لقتلها وفتح مدينتها فعملت أشباحا ووضعتهم في ثلاث غرف وصار كل من رآها في غرفة من الغرف يحسبها هي بالذات اما شيحة تنكر بصفة خادم هو وابنه وصارا يدوران على شمقرين وأوصى جمال الدين ابنه ان لا يترك الممرات التي تمــر بها شمقرين وقال له ان رأيتها مارة فاطعنهــا بالسكين عدة طعنات وسار شيحة يفحص الغرف والاركان لاجل ان يقضي

عليها فدخل الى غرفة من هذه الغرف فرأى شمقرين نائمة على سرير وهي تشخر فظنها هي بالذات فمد يده وسحب سكينا ماضية وذبحها من الوريد الى الوريد فما رأى الا الرأس قام من الارض وانتصب في أعلى مكان من الغرفة وصار الدم يتدفق من فمه مثل الانبوب فأراد شيحة ان يهرب واذ بالباب أغلق في وجهه وارتفع الدم حتى ملأ الغرفة فصار يسبح الى ان وصل الى سلسلة في سقف الغرفة وتعلق بها وهو يستغيث بالله ويتلـو اسم الله الاعظم فعرفت اللعينة شمقرين ما جرى على شيحة جمال الدين فأرادت أن تمضي اليه لترى انها انتقمت منه فمشت في ممر فلمحها محمد السابق ابن شيحة فقفز وراءها وطعنها عدة طعنات فهـوت على الارض وماتت فحالا غار الدم من الغرفة المعلق بسلسلتها جمـال الدين وبطلت افعال الارصاد فعند ذلك شدها محمد السابق من رجلها وأخفاها تحت الدرج وصار يدور على أبيه فرآه في غرفة من غرف القصر معلقا بالسقف فقال ما هذا يا والدي فقال له شيحة جئني بشيء أنزل عليه ثم أحكي لك فجاء بمنضدة وقف عليها محمد السابق وتناول أباه بيديه وأنزله فحكى له ما جرى فقال محمد السابق لم أر أثرا للدم هنا فأين راح قال شيحـة السحر أوهام يتخيلها الانسان حقائق كما فعل سحرة فرعون وأتوا بالعصي والحبال وخيل للناس انها أحناش وحيات تسعى وهي حبال وعصي والآن اذهب الى الملك عرنوس والوزير شاهين وقل لهما ان يهاجموا المدينة قبل الصباح وقل لهم أبي يسعى لكم بفتح ابواب البلد وبلّغ الملك عرنوس ان الارصاد على الاسوار والابراج بطل مفعولها لان الساحرة قتلت وقل لهم ان يهاجموا الاسوار لان الاعداء مؤمنين بالارصاد تحميهم فسار محمـد السابق وأعلم عرنوسا بما قال له أبوه اما جمـال الدين فانه تصفى بزي خادم شمقرين الساحرة وحمـل زقا من الخمر وذهب الى الابواب بعدما وضع البنج في الزق وصار يسقي الجنود الذين على الابواب ويقول لهم ان سيدتي شمقرين بعثتني اليكم لاسقيكـم وكان لمدينـة الرخام بابان

فسقى جنود الباب الاول وذهب فسقى جنود الباب الثاني فلما رجع الى الاول رآهم مطروحين على الارض فحالا فتح الباب على مصراعيه ورجع الى الثاني رآهم كذلك وفتح الباب فما انتهى من هذه العملية الا وجيوش عرنوس مطبقة على الابواب وعلى الاسوار وصاحوا الله اكبر فتح ونصر فما تضاحى النهار الا وصاح اللئام الامان فاعطاهم الملك عرنوس الامـــان وبعد ما استقر الامر صار يستقبل الرجال والابطال وينعم عليهم واذبشخص من بني اسماعيل يسمى نصير بن داغر العنيد قال الحمد لله على النصر يا مولاي الذي اعلمك به اننا من بني اسماعيل ومن الذين ابوا انيطيعوا شيحة جمال الدين الا سلطانهم الاصلي المقدم معروف بن جمر والدكم والان المقدم معروف تنصل من السلطنة علينا واعطاها لشيحة فالبعض من بني اسماعيل ابوا ان يطيعوه والآن والحمد لله ظهر خلفه وهو ابن سيدنا وسلطاننا الملك عرنوس ومرادهم ان يطيعوك ويكونوا من رجالك ويقاتلوا في سبيل الله تحت لوائك خير لهم من التشرد والعصيان فقال الملك عرنوس لاعرض هذا الامر على جمال الدين سلطان القلاع والجصون وأرى رأيه فحالا أرسل اليه بالحضور فحضر فاستقبله بالترحاب وأجلسه بجانبـــه فهنأه جمال الدين شيحة بالنصر والتوفيق ثم انه عرض عليه هذا الامر فقال له شيحة لا بأس ولا ضرر وهذا مما يسرني واذا اراد سيدي الملك عرنوس أن اكون انا في خدمته فعلت فتشكره الملك عرنوس وقال له بارك اللهفيك يا سلطان الرجال وصار الملك عرنوس يرتب الجنود ويحصن المدينة ويؤمن الرعية ويحكم بالعدل والانصاف اما الوزير شاهين بعدما فتحت مدينـــة الرخام بعشرين يوما طلب الاذن من عرنوس بالرجوع الى مصر مع جيشه فأذن له وثاني الايام تهيأ وسار هو وجيشه الى مصر وجعل طريقه على بورصة فاستقبله أخوه الامير مسعود أعظم استقبال هو وعساكره واضافهم ثلاثة ايام بعز واكرام وبعدها سار الوزير شاهين طالب الاوطان فسار اخوه الامير مسعود معه مسافة نهار للوداع فحلف عليه أخوه شاهين بالرجوع

الى مدينته فرجع أما الوزير شاهين فسار الى مصر ودخل في يوم يعد من الاعمار واستقبله الشعب بالترحاب لانه محبوب ومحسن للناس فلماوصل الى قلعة الجبل دخل الديوان فاستقبله السلطان الظاهر وسلم عليه ثم جلس في مكانه وحكى للسلطان ما جرى عليهم وكيف تم الانتصار على الاعداء بحسن دعاء أمير المؤمنين ففرح الملك وانشرح لما سمع هذه الاخبار من الوزير شاهين فتشكره السلطان وقال له جزاك الله خيرا .

قال الراوي : أما ما كان من بني اسماعيل الفداوية فقد حان وقت ميعادهم للرواح الى قلاعهم فطلبوا الاذن من السلطان فأذن لهم بالذهاب فتوجهوا الى وكيل الخزينة ليأخذوا مرتباتهم من المال فقال لهم ليس في الخزينة مال الان فاذا امكنكم ان تنتظروا عشرة ايام يكون جاء الخراج من البلاد فقالوا له نحن أخذنا الاذن من السلطان بالذهاب الى القلاع والديار فليس من المناسب ان ننتظر المرتبات فالان نحن سائرون الى القلاع فاذا أمكنك ارسالها لنا الى الديار أو نرجع ونأخذها فقال لهم انا ارسلها لكم وأنتم في أماكنكم فقالوا بارك الله فيك ثم ساروا الى الاوطان وبعد مرور عشرة ايام ورد المال من البلاد فجمع وكيل الخزينة مرتبات الفداوية من بني اسماعيل ووضعها في صناديق وأرسلها مع عشرة خيالة محملة على البغال وأمرهم بالسير الى قلعة صهيون الى عند عماد الدين نائب الجبل ليفرقها على الرجال أصحاب المرتبات فساروا كما أمرهم وعندما قاربوا قلعة صهيون على مسافة نهار خرج عليهم مقدم من العاصيين على سلطان الحصون ومعه رجاله فتصدى لهم وقال الى أين يا رجال وما هذا الذي محمل على البغال فقالوا له نحن قادمون من مصر ومعنا المرتبات من المال الى المقدمين ومرادنا الوصول الى قلعة صهيون فقال لهم خلوا عنكم هذه الصناديق المحملة وانجوا بأنفسكم بالحال ، فقالوا كما تريد يا مقدم ولكن اذا سئلنا من أخذ منكم المال وما اسمه فما نقول في الجواب قال لهم معكم حق والذي يفعل هذه الفعال لا يسأل عن رجال ولا عن سلطان اعلموا اني

انا منصور العقاب مقدم قلعة الكهف والقدموس هكذا أعلموا عني واذهبوا بسلام فذهبوا الى قلعة صهيون الى ان وصلوا واعلموا عماد الدين نائب الجبل بما جرى عليهم من المقدم منصور العقاب فأعلم عماد الدين المقدمين ان مرتباتهم من المال أخذها منصور العقاب هذا ما جرى والسلام وكان هذا الفداوي ظهر من جديد وهو صاحب قلعة الكهف والقدموس جبار من الجبابرة العظام وكان من المفتشين عن المقدم معروف فلما أتى الى قلعته ودارت من حوله الرجال سأل عن المقدم معروف ظهر أم لا وعن السلطنة فقالوا له اما المقدم معروف فقد ظهر وظهر له ولد يقال له عرنوس وأما السلطنة على الجبل فتنازل المقدم معروف عنها لشيحة جمال الدين وهو الآن سلطان القلاع والحصون فقال لهم ومن يكون هذا شيحة من الرجال قالوا له هذا رجل من عرب غزة نصبه علينا السلطان الظاهر بيبرس ملك مصر والشام فقال لهم شيحة مقتول والظاهر معزول ثم انه ركب من ساعته وكان قصده ان يدور على شيحة ويقتله فرأى الخيالة العشرة ومعهم المال المرسل الى المقدمين من بني اسماعيل الى الجبل فأخذه فلما علموا ان المال أخذه منصور العقاب قالوا من أين له حق يأخذ مرتباتنا من المال اذا كان هو عصيان على شيحة والسلطان فلأي شيء يأخذ مالنا فتشاوروا فيما بينهم وقرروا أنهم يذهبون اليه ويطلبون منه مالهم فانتدبوا منهم عشرة مقدمين وساروا الى قلعته وعندما وصلوا الى قرب قلعة الكهف بقدر ساعتين نزلوا على ماء هناك ليستريحوا ونصبوا لهم خيمة واذ بالمقدم منصور العقاب مقبل اليهم وبيده الرمح فلما رآهم ورأوه نهضوا له على الاقدام وقالوا له حول يا مقدم قال لهم لا لزوم لذلك ولكن الى أين ذاهبون قالوا اليك قال ولأي شيء قالوا لترد لنا مالنا الذي أخذته من النجاب قال لهم ولماذا لا تقولون هذا ثمن مروءتنا وشهامتنا التي بعناها الى شيحة والظاهر قالوا له أتكلمنا بهذا الكلام ونحن ضيوفك وقاعدون في أرضك كنا نأمل منك وقد رأيتنا ان تدعونا الى قلعتك وتكرمنا قال لهم

أن ما قلته لكم قليل بحقكم لانكم صرتم مهزلة امام الناس انهضوا واقلعوا هذه الخيمة وارحلوا من هذا المكان لان أرضي لا يدوسها الا اصحاب الشهامات والمروآت ثم غار عليهم فتصدى له مقدم منهم فطعنه منصور بالرمح بكتفه وسار بحاله اما المقدمون فضمدوا جرح رفيقهم ثم ساروا الى قلاعهم وجمعوا رجالهم ومرادهم الهجوم على قلاع منصور العقاب وبعثوا كتابا الى الملك الظاهر بصورة الواقع وقالوا مرادنا نغزو منصورا العقاب ونؤدبه لانه أهاننا ونهب أموالنا فلما قرأ السلطان الكتاب خاف من وقوع الفتن بينهم وتزيا بزي تاجر كردي وركب جواده الادهم وسار طالب القلاع عن طريق الساحل الى ان وصل الى سهل النواعير القريب من عكا فرأى خيالا مقبلا عليه فلما قاربه قال الملك بنفسه أظن ان هذا منصور العقاب العاصي والله لاعمل جهدي وآسره وأريح الناس من شره اما هذا الخيال فكان منصورا العقاب بنفسه لانه علم ان المقدمين سيأتون اليه فصار يستعد لقتالهم ويجمع الرجال وصار يقصد ملوك الافرنج الذين على السواحل لاجل مساعدته في قتاله مع أبناء عمه بني اسماعيل الموالين الى الملك الظاهر وفي اثناء خروجه من عكا بعدما استنجد في ملكها رأى السلطان في سهل النواعير فقال له الى اين يا آغا ساير وحدك في سهل النواعير اما تخاف عدوا يأخذ منك هذا الجواد فقال له الملك خفت على الجواد وما خفت على هذا الخرج الملآن ذهبا فلما سمع منصور هذا الكلام امتشق الحسام وقال للكردي انزل عن الجواد واترك خرج المال واذهب بسلام اما الملك فصار يتلطف معه بالكلام وصار يترجاه ان يتركه بحال سبيله وصار يدنو منه بالجواد لعله يستحكمه بضربة بالدبوس الدمشقي ويرميه عن ظهر جواده اما منصور فكان حذرا منه فغار على السلطان وضربه بسيفه فتلقى الملك ضربته بالترس ثم تقاتلا مدة ساعة من الزمان فسدد الملك الظاهر ضربة بسيفه لمنصور فأراد منصور ان يردها بالترس فسقط السيف على رقبة فرسه قطعها قال منصور ويلك اعدمتني الفرس

وأرتمى الى الارض وصار يقاتل السلطان فخاف الملك على الجواد من ضربات منصور فنزل عنه وصار يقاتله اما منصور العقاب قفز من الارض الى ظهر جواد الملك وسار بسرعة وترك الملك يمشي على رجليه ثم نظر الى الجواد وتأمله فوجده من خواص الخيل فقال الله عوض علينا بهذا الحصان فهو أحسن من فرسي بكثير اما ابراهيم استفقد الملك فما وجده فسأل عثمان قال له ان الملك ركب حصانه وذهب وهو متخف فقال ابراهيم لسعد أظن ان السلطان ذهب الى القلاع لاجل منصور العقاب ثم ان ابراهيم ركب فرسه وأخذ معه سعدا وسارا على أثر الملك عن طريق الساحل وفي اثناء سيرهما رأيا خيالا مقبلا فتأمل ابراهيم الخيال واذ به منصور العقاب راكبا على جواد الملك قال ابراهيم أظن ان هذا منصور متقاتل مع الملك وآخذ جواده فحالا أخرج منديلا أبيض ولفه على رأسه وعمل نفسه عويقل وتعرض لمنصور العقاب وقال يا عيني من أين طريق الناقورة فالتفت منصور الى ابراهيم وجد تحته فرسا تقطع الزرد وهي من أطايب الخيل فطمع منصور بأخذ الفرس منه فقال له انزل عن الفرس يا عويقل فقال لاي شيء يا عيني انزل عنها قال منصور لاني عاوزها انزل بالحال قبل ان اقطع رأسك وسحب سيفه وهجم عليه فتلقاه ابراهيم بقلب اقوى من الحجر ووقع بينهما القتال فصار منصور يوجه ضرباته الى فرس ابراهيم فخاف عليها ونزل عن ظهرها وصار يقاتل منصورا وهو راجل والثاني نزل عن الجواد وصارا يتقاتلان بدون خيل ففي اثناء قتالهما هجم الحصان على فرس ابراهيم فجاء سعد وأبعده عن الفرس فقفز منصور على الفرس وصار بظهرها وأسرع بالهرب فلما صار بالفلا تأمل الفرس فأعجبته فقال من أين هذه الخيل عند الدروز والاكراد والله تغيرت الدنيا وانقلب الزمان في مدة غيبتي عن الاوطان ثم سار طالب قلعته اما ابراهيم فركب جواد الملك وسار مع سعد واذ بالملك وهو ماش على رجليه فلما اجتمعوا حكى ابراهيم للملك ما جرى بينه وبين منصور العقاب وقال

لسعد اذهب واثتنا بدابة نركبها فذهب سعد واستأجر له بغلة من عنـد الفلاحين وأتى بها فركبها ابراهيم وساروا طالبين جيش الفداوية المرابطة على قلعة منصور العقـاب الذي سار يستنجد بباقي ملـوك السواحل ففي اثناء مسيره واجه رجلا محملا برميلين على بغلة فقال له ما معك يا معلم قال له هذا خمر يا سيدي لانه عندي كرم وكل سنة اعمله خمـرا وانزل أبيعه في المدينة فقال اسقني جرعة منه لاذوق خمرك فقال الرجل أمرك يا سيدي وناوله زقا به خمر فأخذه منصور وصار يشرب حتىارتوى ثم ناول الزق للرجل فما سارا غير قليـل الا ومنصور كبا على قربوس السرج عن بغلته وبرم منصور بالعرض على الفرس وربطه من يديهورجليه من تحت بطن الفرس وربط الفـرس بالبغلـة وركب وسار طالب جيش الفداوية على قلعة الكهف وما عمل هذا العمل الا جمال الدين شيحة اما الملك وابراهيم وسعد ما زالوا سائرين الى ان وصلوا الى جيش الفداوية فاستقبلوا الملك وسألهم ماذا جرى بينهم وبين خصمهم قالوا يا مولانا لم يجر شيء بيننا وبينه الى الآن ثم ان السلطان جلس في الصيوان واحتاطت به رجال الفداوية من بني اسماعيل وبعد قليل أتى جمال الدين سلطان الرجال ومعه منصور العقاب محمل على فرس ابراهيم فترجل شيحة عن البغلة وسلم على السلطان وصافحه فقال الملك ما هذا يا سلطان الرجال قال عدوك يا أمير المؤمنين فسر الملك وقال بارك الله فيك يا جمال الدين ثم أنزلوا منصور العقاب عن الفرس ووضعوا القيود في يديه ورجليه اما جمال الدين حكى للسلطان ما جـرى له مع منصور العقـاب وانه كان يستنجد بملوك السواحل ليساعدوه على حربه ضدك يا أمير المؤمنينوضد بني اسماعيل أبناء عمه وكنت ألاحقه أينما سار الى ان وقع وها هو ذليل مهان فقال الملك ما رأيكم يا بني اسماعيل برجـل أظهر العصيان وقاتل السلطان واستباح اموال رجاله وطلب المعونة من الاعداء ليحارب مليكه امير المؤمنين وأبناء عمومه بني اسماعيل فما جزاؤه بحكم الشرع الشريف

قالوا القتل يا امير المؤمنين فحالا أمر الملك بوضعه في نطع الدم فقاموا اليه ووضعوه ونبهوه فانتبه وصحى مما هو فيه فوجد نفسه في نطع الدم والسياف منتظر أمر السلطان بضرب عنقه فالتفت فرأى الرجال من بني اسماعيل واقفين وراء السلطان والمقدمين جالسين حواليه وجمال الدين سلطان الرجال جالسا جانب الملك فصاح بأعلى صوته الجيرة يا بني اسماعيل فما ردوا عليه بل أطرقوا رؤوسهم الى الارض فوقف أحد المقدمين وقال انت لم تترك مجالا لاحد يشفع فيك لدى جلالة الملك فلما يئس منهم قال انا في جيرتك يا امير المؤمنين اجعلني عتيق سيفك وخادمك وروحي فداؤك ما دمت حيا وانا انشدك بالله ان تعفو عني فقال له الملك عفوت عنك على شرط تقدم الطاعة الى جمال الدين شيحة سلطان القلاع والحصون فقال الف طاعة لمولانا امير المؤمنين وسلطان الحصون جمال الدين فقال فكوا قيده واطلقوه ففكوا قيده وقالوا واموالنا التي أخذها يا امير المؤمنين قال السلطان سامحته بها وأنا اعوض لكم غيرها عند حضوركم الى مصر ان شاء الله ثم قال له الملك صافح المقدمين اخوانك وصالحهم فتقدم منصور العقاب وصافح الملك ثم المقدمين فردا فردا وصار يستسمح منهم عما جرى منه ثم قال أرجو من أمير المؤمنين السلطـان ان يمن عليَّ بزيارة قلعتي ويكون ضيفا عندي ثلاثة ايام هو وكل من حضر من الرجال والمقدمين من بني اسماعيل قال الملك لك ذلك يا منصور ثم ساروا مع الملك وجمال الدين الى القلعة فصار منصور يذبح الذبائح ويقدم كل ما لذ وطاب واجتمعت الرجال والناس من كل مكـان وصارت المهرجانات وطراد الخيـل ولعب السنان والسيف بحضور السلطان مدة ثلاثة ايـام ثم ان السلطان أمر ابراهيم وسعدا بالمسير معه فوقف المقدمون والرجال لوداعه فقال للمقدمين عند رجوعكم الى مصر ليكن برفقتكم المقدم منصور العقاب ليفرغ عليه المناصب والرتب ثم انهم دعوا للسلطـان بالنصر والتأييـد وبدوام العز والنعم فركب الملك وأخذ معه ابراهيم وسعدا وسار طالب دمشق الشام

لأن قلبه دائما معلق بها ثم ان السلطان بعدما أقام بالشام سبعة ايام ركب وسار طالبا مصر المحروسة صحبة ابراهيم وسعد وما زالوا سائرين الى ان وصلوا وثاني يوم طلع الملك الى الديوان وصار يتعاطى الاحكام مدة من الزمان الى ان كان يوم من الايام بعدما انفض الديوان ودخل الملك الى الحرم فرأى ابنه السعيد سكران وهو يعربد ويشتم الجواري والخدم فغضب السلطان وأخذ قضيبا من الخيزران وصار يضرب ابنه السعيد على رأسه وعلى بدنه الى ان تدخلت أمه في الامر ووقفت بينهما وأبعدت ابنها عن والده فصار السعيد يبكي ويهدد فراحت من الملك التفاتة وجد ابنه السعيد يكوز يده ويقول انا له ثم ان السعيد بات ليلته وهو يفكر ويدبر أمره الى ان صمم على ان يرحل عن والده فنهض قبل الفجر ولبس لبس الدراويش وأخذ معه من المال ما وصلت اليه يده وفتح باب السرايا وسار طالبا البر الاقفر وما زال سائرا الى ان وصل الى بورصة وصار يدور على مكان ينزل فيه فلما رأوه مرتديا لبس الدراويش ظنوه درويشا فأرشدوه الى التكية فدخل وقعد في زاوية من زواياها منفردا ذليلا فرآه شيخ التكية الموكل عليها قاعدا منفردا عن الدراويش ومنطويا على نفسه فتعجب منه فسأل من أي البلاد أنت قال من مصر وسايح في ملك الله فقال له الشيخ قم يا بني اقعد بين اخوانك الدراويش وأمر الخدم ان يأتوه بالطعام فأكل ثم نهض فتوضأ وصلى وقعد بين الدراويش وصار يتذاكر معهم ويروي لهم من الاحاديث والتفاسير فسروا منه كثيرا الى ان سمع عنه شيخ التكية انه مهذب ومتعلم فجعله وكيلا عنه في التكية فأقام السعيد بها مدة من الزمان اما السلطان فانه سأل عن ولده السعيد فما عرف احد اين ذهب فأوصى الوزير شاهين بالملك وأجلسه مقامه وأخذ ابراهيم وسعدا وساروا ليفتشوا على السعيد ويسألوا عنه ودخلوا بلادا كثيرة فلم يقعوا له على أثر حتى دخلوا مدينة بورصة ولم يعلموا مسعودا حاكم بورصة بمجيئهم وصاروا يتجولون في بورصة وهم متخفون فسمعوا رجلا يقول

لرفيقه سر بنا لنصلي العصر بالتكية ونسمع الدرس من عالم جاء من مصر حديثا فلما سمع الملك ذلك قال لرفيقيه لنذهب الى التكية لنرى من هذا الشيخ الذي جاء من مصر فساروا الى ان وصلوا الى التكية فما كان الشيخ الا السعيد فلأجل المقدور وان شقاء السعيد لم ينته لمحهم السعيد من غرفته اثناء دخولهم فلبس ثيابه وخرج ولا يدري اين يذهب وما زال يمشي على غير هدى الى ان دخل بلاد الروم فرآه قطاع الطرق فسألوه من انت ولاي شيء سائر وحدك في هذه الفلاة قال لهم انا سايح في هذا الكون قالوا ما دينك قال مسلم فقيدوه وأخذوه أسيرا ثم انهم باعوه بخمسين دينارا لوزير ملك الافلاق فأخذه ووضعه في مزرعته يرعى الخنازير الى يوم من الايام وهو يرعاهم تفكر بحاله وما وصل اليه فتأسف وبكى حتى غفل ونام فلما أفاق من نومه لم يجد الخنازير فخاف على نفسه من الوزير ورأى خنزيرة عرجاء فأخذ العصا وصار يضربها ويقول لها لاي شيء ما ذهبت معهم فصارت تصيح من شدة الضرب واذ بالخنازير أتت اليه من كل حدب وصوب على صوت الخنزيرة فساقهم الى الزريبة فصار كل يوم يترك الخنازير تذهب ويربط الخنزيرة ويحط رأسه وينام وفي آخر النهار يضربها فيجتمعون فيسوقهم الى الزريبة ودام على ذلك الحال .

اما الملك وابراهيم وسعد دخلوا الى التكية وتوضؤا وصلوا ثم بعد ما انتهوا من الصلاة قال ابراهيم انا قائم أسأل عن الشيخ المصري لعله يكون السعيد فقام وصار يسأل عن الشيخ فأعطوه اشارته فعرف انه السعيد فقال وأين هو قالوا له كان موجودا وقت صلاة الظهر والآن لا ندري اين ذهب فرجع ابراهيم وأخبر الملك بما سمع وان الوصف الذي وصفوه به هو السعيد بالذات ولا نعلم أين ذهب قال الملك لا حول ولا قوة الا بالله ثم انهم صاروا يسألون عنه مدة شهر زمان الى ان دخلوا بلاد الروم فطلع عليهم قطاع الطرق فتلقوهم بضرب أحر من الجمر وقتلوا منهم ما ينوف عن العشرة والباقون هربوا فرأى ابراهيم جريحا بين القتلى فضمد له

جرحه وسأله من أنتم فقال نحن قطاع طريق ودائما مرابطين فيهذا الوادي الذي يتصل ببلاد المسلمين وكل ما مر أحد من هنا اذا كان مسلما أخذناه هو وماله وان كانغير مسلم أخذنا ماله وتركناه قال ابراهيم هلمر عليكم درويش من مدة شهرين قال نعم مر هذا الشخص وأخذناه أسيرا وبعناه الى الوزير مرين وهو عنده يرعى الخنازير ومزرعته تبعد عن هذا المكان يومين فتركه ابراهيم وأعلم السلطان بما قال الجريح ثم انهم ساروا مسافة يومين على ظهور الخيل الى ان وصلوا الى مزرعة الوزير مرين فحولوا على عين ماء وبعث الملك سعدا يفتش على السعيد فذهب يفتش عليهفرأى رجلا نائما تحت شجرة فتأمله سعد فاذا هو السعيد ابن الملك بذاته فما نبهه من منامه ورجع فأخبر الملك وابراهيم انه وجـد السعيد نائما تحت شجرة وما نبهه فساروا اليه فوجدوه نائما وبجانبه خنزيرة كبيرة فتعجب السلطان من هذه الحال وقال لابراهيم نبهه فنبهه ابراهيم ففاق وصار يلتفت يمينا وشمالا هل هو في منام فصاح فيه الملك ما هذا الحال الذي انت فيه فبكى السعيد وارتمى على ابراهيم قال ابراهيم للملك ان ما جرى على السعيد مقدور من الازل يا جلالة الملك فاحمد الله الذي وجدناه ولو قتله اللصوص كنا خسرناه دون ان نعرف من قتله فاعف عنه فالعفو من شيم الكرام وفجأة أقبل الوزير مرين وهو راكب جواده وحين وصوله ترجل وأقبل الى السلطان وقبّل يده وقال ايها الملك وحق من أولاك على رقاب العباد لم أعلم ان هذا ولدك الا في هذه الساعة فقد كنت نائمـا فرأيت رجلا لابسا ثوبا اخضر وقال لي قم يا مغرور قابل ولدي الملـك الظاهر وسلم عليه فان ولده عندك أسير فسلمه له واتبعه لعلك تكون من الابرار فانشرح صدري ودخل الايمان الى قلبي وها انا أقول على يديك أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله فقال له الملك افلحت فهنيئا لك فقال يا مولاي أريد أن أكون تحت حكمك وفي خدمتك حتى أموت ومرادي ان اجمع اموالي واسافر من هنا والحقك الى بلاد الاسلام

قال له السلطان افعل ما تريد ثم ان السلطان أخذ السعيد وسار وقال له من الذي أغراك حتى تسافر الى هذه الارض ويستعبدوك أقسم بالله العظيم انك لا تسافر معي الا ماشيا على الاقدام ولا تقلع ثياب الاسر الا في مصر وركب الملك من الافلاق وسافر السعيد بركابه يتكبد مشقات السفر ماشيا حتى وصلوا الى مدينة الرخام عند ذلك قال ابراهيم يا سعد اسبق واعلم خالنا المقدم معروفا وابنه الملك عرنوسا بقدوم الملك الى مدينة الرخام لاجل ان يأخذ السعيد الراحة فسار سعد وأعلمهما بقدوم السلطان وابنه وابراهيم فركبوا وطلعوا من المدينة واستقبلوا السلطان ثم ضربت المدافع لقدومه وكان يوما عظيما هذا والملك الظاهر متغير على ولده السعيد فسأل عرنوس الملك الظاهر عن القصة فحكى له ما كان من السعيد وكيف اتبعه مدة أربعة أشهر في البلاد والقفار وقال الملك انا حالف ان لا يخلع لباس الاسر الا في مصر فقال عرنوس اسمح لي يا جلالة الملك أن البسه ثياب المملكة فوق ثياب الاسر حتى لا تشمت به الاعداء اذا رأوه بهذا الحال فقال السلطان افعل ما تريد وبعد تمام الضيافة سافر الملك الى مصر هو وابراهيم وسعد وسار عرنوس والمقدم معروف معهم مسافة نهار فحلف عليهما السلطان ان يرجعا الى مدينتهما فتودعا من الملك ورجعا الى مدينة الرخام والملك يتنقل في البلاد الى ان وصل الى مصر والسعيد يمشي في ركابه حتى طلع الى قلعة الجبل وطلع السعيد الى السرايا ومن شدة حيائه أقام في السرايا لم ينزل منها أبدا الى يوم والملك جالس في الديوان واذ بنجاب داخل ومعه كتاب من الاسكندرية قدمه للسلطان واذ فيه بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان خطابا من نائب الاسكندرية الى بين أيادي أمير المؤمنين انه يوم تاريخه ورد علينا مركب من ظهر البحر وبه مرين وزير ملك الافلاق يريد القدوم الى مصر لمواجهة مولانا السلطان أدام الله ملكه وأيده بنصره فلما قرأ الملك الكتاب قال لولده السعيد اركب الى الاسكندرية وأحضر سيدك مرين الى هنا وانزله

في دار الضيافة فسافر السعيد الى الاسكندرية وسلم على الوزير ثم ركبوا في النيل طالبين بولاق وأنزله دار الضيافـة وثاني يـوم طلع الوزير الى الديوان وقبّل يد السلطان ودعى للملك بدوام العز والنعم فأسر الملك الى ابراهيم هل اسلامه صحيح فقال لا يعلم بالباطن الا الله يا امير المؤمنين ولنا الظاهر فأمر السلطان لمرين بخلعة أفرغوها عليه وقال له انت امير من جملة الامراء في الديوان وكان لمرين زوجة اسمها مرينة فلما باع املاكه قالت له ما مرادك فقال لها قصدي اذهب الى القدس فامتثلت له ولم تعلم انه أسلم وركب في البحر وركبت معـه الى ان صار في مصر وأقـام بها فأقامت معه فقال لها أنا أسلمت فاسلمي فاذا علم السلطان انك على غير دينه يقتلك فلم تجب وبينما كان مرين ذاهبا الى داره رآه شيخ جليل القدر ووراءه تلميذه فقال الشيخ السلام عليكم فرد عليه السلام باحترام فقال له الشيخ هنيئا لك يا بني بما أعطاك ربك ولكن يلزمك ان تتعلم امور دينك وتتفقه في الاسلام فاذا أردت أتطوع أنا لك وأعلمك في بيتك كل يوم بعد رجوعك من الديوان فقال له مرين تفضل الى عندي من الآن فسار معه الشيخ وتلميذه الى البيت وهو فرحان لانه سيعلمـه أمور دينه فلما دخلوا البيت رفع الشيخ العمامة وشلح الجبة وقال اعلم يا مرين ان الذي يكلمك جوان فكيف تركت دينك وأسلمت فهل تريد ان تزود المسلمين وما زال جوان يطغيه بدهائه ويغريه حتى ارتد لدينه ثم قال لمرينة وهل أسلمت انت قالت كلا انا لم اسلم فقال مرين والآن ما العمل قال له جوان اطلع غدا الى الديوان واطلب من السلطان ان يسمح لزوجتك بالدخول الى السرايا عند الحريم عسى يميل قلبها للاسلام فاذا وافق السلطان فتقيم اياما قلائل وتسلم اسلاما باطلا فاذا سألها الملك عن سبب اسلامها تقول له رأيت الملك الصالح ايوب في المنام وأسلمت على يـده واذا قال لها تمني عليّ تقول أتمنى على مولاي ان اكون مرتبة المائدة للملك فاذا بلغت ذلك فهذه زجاجة السم ضعي منها في طعام الملك فان فعلت ذلك رضيت عليك

فأخذت مرينة الزجاجة منه وبات جوان تلك الليلــة وعند الصباح ركب وسار الى حال سبيله اما مرين دخل ثاني يوم الى الديوان وقال للملــك ان زوجتي لم تسلم فاذا سمح لها الملك ان تحضر في السرايا لعلها تهتدي عند الحريم وتسلم فأمر السلطان بدخولها السرايا اما مرينة فانها أقامت شهرا كاملا وبعده أسلمت ونطقت بالشهادتين فقالوا للملك أسلمت مرينة فأحضرها بين يديه وسألها عن سبب اسلامها فقالت له ان الملك الصالح أيوب أتاني في المنــام وأسلمت على يده وقد أفقت من نومي وأنا انطق بالشهادتين ففرح الملك بها ولم يعلم ان هذه من مكايد جوان وتعليمه فقال لها السلطان تمني عليّ قالت اتمنى على مولانا امير المؤمنين ان ارتب له المائدة فأعطاها طلبها وصارت المشرفة على الطعام والشراب الى يوم من الايام رتبت المائدة حسب عادتها وبسرعة سكبت سما من الزجاجة على قطع البطيخ وغطتها ومضت فدخل السعيد غرفة الطعــام وأراد ان يأكل فشعر بالملك مقبل فخجل وخرج اما الملك دخل الى المحل وجلس ليأكل فمد يده الى البطيخ وأخذ قطعة فأكلها وأتبعها الثانية فشعر بالالم فيمعدته فصرخ صرخة عالية فأدركوه وقالوا ما الخبر يا مولانا قال لهم شعرت بألم شديد عندما تناولت من هذا البطيخ فحالا اخبروا رجال الدولة ان الملك تسمم فحضر الوزير شاهين وابراهيم وشيحة جمال الدين فقال شيحــة احضروا لنا طبيب الملك فورا وقولوا له احضر معــك خرزة ضد التسمم فحالا حضر وقال هاتوا حليبا ثم أخرج الخرزة وصار يحكها بالحليبوجعل يسقي الملك عدة مرات وكل مرة يستفرغ الى ان فرغت معدته وخرجالسم مع الطعام ثم صار يعطيه من لبن الجامــوس الى آن زال ألمه وبرىء من السم فأنعم الملك على الطبيب انعاما زائــدا وأذن له بالانصراف ثم قال الملك لابراهيم من هو المجرم الذي دس لي السم يا ترى قال يا امير المؤمنين أظن انها مرينة مرتبة المائدة فقال الملك لا أظن انها تتجرأ على هذا المنكر لاني ما أسأت اليها قط ولكني متأكد تماما ان ابني السعيد هو الذي فعل

هذا الفعل لاني رأيته بعيني ينسل من غرفة الطعام اذن هو الذي وضع لي السم فقال ابراهيم معاذ الله ان يفعل ابنك هذا الفعل فاكراما الى الله ان تخفف من غضبك ولا تظلم ولدك فهو بريء ثم ان الملك أمر ابراهيم باحضار السعيد فمضى ليأتي به من السرايا وطلب السعيد ليواجه السلطان فقالت الملكة لابراهيم ان ابني السعيد بريء من هذا الفعـل الخطير وعليك ان تقنع السلطان انه مظلوم قال ابراهيم سأبذل جهدي وأفديه بروحي لاني اعلم يقينا انه لم يفكر بهذه الامور ثم اخذه وأوقفه امام السلطان قال له الملك ما حملك على ان تضع لي السم في الطعام قال السعيد معاذ الله ان اقترف هذا الذنب العظيم يا مولاي واني أسأل الله العلي المتعال ان يجعل عمرك أطول من عمري انه سميع مجيب قال له الملك انا بعيني رأيتك تنسل من غرفة الطعام ايها العاق قال السعيد لقد خرجت من غرفة الطعام خجلا من نفسي ان امد يدي الى الطعام قبل ان يأكل جلالة الملك فلم يقتنع الملك بهذا الجواب وقال لابراهيم خذه واقطع رأسه قال مهلا يا امير المؤمنين ان ولدك السعيد مظلوم ولم يفعل هذا المنكر فاغتاظ الملك من ابراهيم وصاح به ائتني برأسه فورا والا انتقمت منك افظع انتقام فقال ابراهيم اكتب لي حجة بخطك اني لست مسئولا عن رأس السعيد ابنك لانك لا تعفو عني اذا ظهرت لك براءته بعد موته فأعطاه الملـك ما طلب وقال له اذهب الآن وائتني برأسه فأخذه ابراهيم وأخفاه عن أعين الناس وأوصاه ان لا يخرج من مكانه ووكل به خادما يأتيه بما يلزمه ونزل الى السجن وطلب مجرما محكوما عليه بالاعدام فدله السجان على أحد السجناء فأخذه ابراهيم وقطع رأسه وقدمه في طست بين يدي الملك وقال هذا هو عدوك يا ملك الزمان قال الملك من خان لا كان ولا عمـرت به أوطان خذه يا ابراهيم وادفنه مع الجثة ولا تغسله ولا تكفنه ولا يصلى عليه ففعل ابراهيم مثل ما أمر السلطان اما الملك فانه بقي في السرايا منزويا لا يكلم احدا ولا يطلع الى الديوان مدة سبعة ايام وبعدها طلع الى الديوان وقعد على تخت

ملكه وهو مقهور مما جرى الى يوم من الايام بينما الملك يتعاطى الاحكام واذ بالملك عرنوس داخل الى الديوان ومعه والده المقدم معروف فنهضوا لهما وسلموا عليهما اما الملك فاستقبلهما بالترحـاب والبشاشة اما سبب مجيء عرنوس ووالده معروف فقد اتاهما خبر تسمم الملك وان المتهم هو ابنه السعيد قال عرنوس لوالده مرادي ان نذهب الى مصر لنزور الملك ونحقق في مسألة التسمم قال كما تريد فثاني يوم ركبا وسارا طالبين مصر وما زالا الى ان وصلا الى الديوان واستقبلهما السلطان وأجلسهما فسأل عرنوس السلطان عن ولده السعيد فحكى له السلطان بما جرى وما كان من السعيد ولده فتأسف عرنوس وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم قال اما كان ينبغي ان تتمهل في الحكم يا امير المؤمنين لعله كان يظهر لنا الدافع في هذا الشأن قال السلطان هكذا توضح لي ان السعيد هو اكبر اعدائي فانتقمت منه قال يا مولاي مرامي ان ادخل الى السرايا واتحقق من الموجودين في القصر عن هذا الامر فقال له الملك افعل ما تريد فأرسل الى السرايا من يخبرهم ان لا احد يخرج منها ابدا لان عرنوسا مراده ان يحقق فيما جرى ثم استأذن عرنوس من السلطان وذهب الى السرايا وعند وصوله سأل من المسؤول في قصر السلطان فدلوه على الرئيس قال عرنوس اعلموه ان يحضر الى هنا فأخبروه فترحب به عرنوس وقال له اريد منك ان تأمر الخدم الموجودين في قصر السلطان ان يمروا من قدامي وأجلس انا وانت ازاء بعضنا وكلما مر أحد منهم تنبئني عنه وعن عمله في القصر قال له أمرك فحالا بلغ كل من في السرايا ان يمروا امـام عرنوس ورئيس الخدم وصار كل ما مر أحد منهم يسأله عرنوس من هذا فينبئـه عنه من أين هو وما مصلحته في القصر وكيف أخلاقه الى ان مرت مرينـة زوجة مرين فعندما وصلت امام الملك عرنوس صارت ترتجف وكادت ان تقع من عظم ما نابها من سطوة عرنوس فسأله من هذه قال هذه دخلت الى السرايا بأمر السلطان وبعد اقامتهـا بالسرايا شهرا من الزمان قالوا انها

أسلمت وأعطاها أمير المؤمنين تمنيتها وهي ان تكون مرتبة مائدة السلطان وهي زوجة الامير مرين ثم ان عرنوسا أتم التحقيق عن باقي الخدم بصورة سطحية وأخذ مرينة الى غرفة من غرف القصر وصار يسألها كيف أسلمت وما مرادها من اسلامها قالت له اني رأيت في منامي رجلا مرتديا ملابس خضراء وعلى رأسه طاقية خوص وقال لي أسلمي يا مرينة خير لك قلت له من انت قال انا الصالح ايوب فانتبهت من نومي وانا أنطق بالشهادتين فعندما سمع منها عرنوس ذلك الكلام عرف انها متعلمة هذا الكلام تعليما قال لها ومن علمك هذا الكلام وانه لا شك هو الذي اعطاك السم ودربك هذا التدريب فقولي الصحيح ولا تخافي والا وحق الملك العزيز الجبار ونهض على الاقدام ومد يده على الحسام وقال أضربك ضربة أعملك قطعتين وزمجر ووقف شعر رأسه وتمثل بالنمر الكاسر قبل الوثوب فلما نظرته مرينة على هذه الصفة كاد يغمى عليها مما نابها من سطوته فصارت ترتجف وتتوسل اليه أن لا يفعل لانها ستعترف له بكل شيء ثم قالت ان جوان دخل الى بيتها بصفة شيخ وكان الذي جاء به هو زوجها مرين وحكت كيف علمها جوان وأعطاها السم وعلم زوجها مرين ان يطلب ويستأذن من السلطان بدخولي الى الحريم ثم قالت انا التي وضعت السم في لب البطيخ وليس للسعيد علم بذلك أبدا فلما سمع عرنوس اعترافها بعث الى السلطان انه عرف الغريم وقال له اقبض على مرين بالحال يا امير المؤمنين وأرسله لي لاجل تتميم التحقيق فلما عرف السلطان ان ابنه السعيد بريء تأسف على حكمه بقتل ابنه وقبض على مرين وأرسله الى عرنوس فقال له اسمع ما تقول زوجتك قال عرنوس لمرينة أحكي له ما فعلت بالذات فقالت لزوجها انت أتيت بجوان الى بيتي فأعطاني السم وقال لي ضعيه في شراب السلطان قال له عرنوس وكنت السبب بدخولها الى الحريم بأمر الملك اليس كذلك فسكت مرين ولم يجب بشيء فأمر عرنوس ان يأخذوهما الى الديوان مقيدين وسار الى الديوان وحكى للسلطان كل ما جرى فلما أتوا بمرين

ومرينة الى الديــوان قال عرنوس لمرينة احكي للسلطان ما جرى مفصلا فسردت القصة كما ذكرنا سابقا فتعجب الوزراء والامــراء ومن حضر في الديوان ودمعت عين السلطان على قتل السعيد وهو بريء من هذه الفعال فقال عرنوس وانت يا مرين ما حملــك على ان تتنكر للسلطان وتتلاعب بالاديان قال انا كنا مخطئين انا وزوجتــي ولكن الذي حرضنا على هذا الفعل الخطير هو جوان والآن اطلب من جلالة امير المؤمنين ان يترفق بنا ويعفو عنا فقال الملك لقاضي الديوان ما تقول يا استاذ بهذه القضية وما جزاؤهما في الشريعة الاسلامية قال قاضي الديوان حيث أقدما مختارين على وضع السم لقتل جلالــة الملك وأيضــا أزهقت نفس بريئة بسببهما فجزاؤهما القتل شرعا فأمر الملك بقتلهما ومصادرة اموالهما واملاكهمــا وانفاقها على الفقراء والمساكين والايتام فنفذ أمر السلطان بهما حالا وبعد ذلك تراكمت الاحزان والهموم على الملك وندم أشد الندم على قتل ولده البريء وكلما دخل السرايا يجد امرأته تبكي وتنوح على ولدها فقال لها السلطان الى متى هذا يا بنت الكرام قالت لا يشفى لي غليل حتى تقتل الذي قتل ابني قال وما ذنبه وقد أخذ مني امرا سلطانيا في قتله فقــالت اطرده من خدمتك لاني لا اقدر ان أراه واسمع باسمه قال سوف أبعده فهدئي روعك .

قال الراوي : اما ابراهيم فصار يشعر بجفاء من السلطان وعدم التفات اليه الى يوم من الايام قال له الملك اعلم يا ابراهيم اني سمحت لك بالذهاب الى ديارك حوران ومتى أرسلت اليك بالحضور فلا تتأخر بالمجيء الينا فقال ابراهيم هل ابعادي بسبب تنفيذ أمركم بقتل ولدكم السعيد فان كان لهذا السبب فأنا معي أمر من جلالتكم بقتله وبخط يدكم الكريمة وانا تحت أمركم أفعل ما تأمرني به فسكت السلطان اما الوزير شاهين فقال الحق عليك يا ابراهيم كان يجب عليك ان تحقن دم السعيد وتنفذ أمر السلطان بأحد المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام الى ان تظهر ثورة الملك وتظهر

براءة السعيد عند ذلك تأتي بابن الملك حيا يرزق وتنال الاكرام والانعام الجزيل من الملك والوزراء قال ابراهيم اجمعوا لي هذا الاكرام والانعام وانا اطلب من المولى ان يحبيه فقال له الوزير هل انت سيدنا عيسى عليه السلام حتى تحيي الموتى وهنا دخل رئيس الخدم في السرايا وقال ان والدة السعيد قالت انها تدفع لابراهيم عشرة آلاف دينار اذا كان ولدها حيا قال الملك ولك مني قدرها ومن الوزراء كل واحد على قدر استطاعته قال ابراهيم اجمعوا لي المال لابشركم ان السعيد حي يرزق وهو عندي بأمان قال السلطان اذهب وائتني به لاراه والمال الذي قلنا لك عليه لا ينقص منه درهم وتبسم الملك وقال ان ابراهيم يحب المال كثيرا فذهب ابراهيم ليأتي بالسعيد فدخل الى السرايا وبشر الملكة بابنها وطلب منها بذلة السعيد الملوكية ثم قال احضري المبلغ الذي قلت عليه ففرحت وأعطته البذلة فأسرع ابراهيم الى السعيد وألبسه البذلة وسار به بموكب عظيم لانه قد شاع الخبر عند العوام ان ابراهيم الحوراني أحيا السعيد بعد ما قطع السلطان رأسه وفرح الناس بسلامته وسلامة السلطان وصارت المهرجانات الشعبية في كل مكان وكثرت الاحتفالات والدق والرقص والغناء والزغاريد وازدحم الناس ليتفرجوا على السعيد وهم يتعجبون ويستغربون كيف عاش السعيد بعدما قطع رأسه ومات ثم ان السعيد طلع الى قلعة الجبل ودخل الديوان وسلم على والده وقبّل يده فضمه والده الملك الى صدره وجعل يقبّله وسقطت دمعة الفرح على خديه ثم صافح السعيد الامراء والوزراء والمقدمين اما ابراهيم فأقسم انه لا احد يخرج من الديوان الا ويدفع ما عليه حسب ما قال الملك وأمر السلطان وكيل الخزينة ان يدفع لابراهيم عشرة آلاف دينار فأخذ ابراهيم الاموال وذهب الى السرايا فترحبت به الملكة وأعطته عشرة آلاف دينار وخلعة فأخذهما وهو مسرور .

قال الراوي : اما الفداوية من بني اسماعيل فصاروا يفدون على مصر

ومعهم المقدم منصور العقاب فلما دخلوا الديوان ألبس الملك خلعة سنية لمنصور العقاب وقال هذا مقدم وله كرسي في الديوان وله المرتبات مثل اخوانه المقدمين وهو أمير الف كأمثاله فانسر منصور العقاب ودعا للسلطان بالعز والنصر واما الملك عرنوس فصار يبنــي المراكب الكبار ويجهزهــا بالمدافع والرجال ويغزو بلاد الافرنج ويأتــي بالاسارى والامــوال حتى ضجرت الافرنج منه واشتكوا عليه للملك باش قران صاحب رومة المدائن وطلبوا منه ان يتوسط لهم عند السلطان لاطلاق أسراهم من عند عرنوس فكتب باش قران كتابا الى السلطــان الظاهر وأرسل مع الكتاب هدايا وخزنة مال الى عرنوس ليفك الاسارى وابناء الملوك وارسلها مع وزير من وزرائه فركب في مركب الى الاسكندرية فلما وصل الميناء رفع علم السلام فاستقبله رئيس ميناء الاسكندرية فأعلم به النائب فقال احضره الى الديوان امام النائب فسأله ما تريد قال انا مرسل من عند الملك باش قران ومعي كتاب وهدايا الى السلطان فلما سمع النائب ذلك أنزله في دار الضيافة وأرسل خبرا للسلطان به فجاء الجواب من مصر بحضوره بالحال عند ذلك اركب وزير باش قران في مركب في النيل هو وجماعته والهدايا وأرسلهم الى مصر فطلع الوزير الى الديــوان ودعا للسلطــان ثم أخرج الكتاب وأعطاه للسلطان فأمر له بالجلوس وقرأ الكتاب واذ به خطابا من الملك باش قران صاحب رومة المدائن الى السلطان الملك الظــاهر الذي نعلمكم به ان نائبكم عرنوس صاحب مدينة الرخام قد تعدى على ملوك الافرنج وهو يغزوهم ويقتل رجالهم ويأسرهم ومن جملة الاسرى أبنــاء ملوكهم فأتوا يشكون اليّ جور نائبكم عرنوس ويطلبون فك أسراهم فالرجاء ان تمنعوه عن هذه الاعمال وان تطلقوا سراح الاسرى وقد قدمنا لكم فكاكهم خزنة مال وتقبلوا منا هديتنا مع فائق التحية والاحترام فلما قرأ السلطان كتاب باش قران أمر كاتب الديوان ان يكتب كتابا الى الملك عرنوس ويطلب منه الحضور الى مصر لاجل المذاكرة في هذا الشأن فأخذ

النجاب الكتاب وسار الى مدينة الرخام وأعطى الكتاب الى عرنوس فلما قرأه وعرف انه يلزم حضوره لمصر لمقابلة السلطان ركب وسار الى مصر وطلع الى الديوان فترحب به السلطان وأمر له بالجلوس ثم قال له ان باش قران أرسل لنا مكتوبا يقول فيه ان عندك أسارى من الافرنج وقد ارسل لنا مع وزيره هدية وخزنة مال لفكاكهم من الاسر فقال عرنوس أين وزير باش قران فأمر السلطان باحضاره فحضر فقال له عرنوس أنتم أرسلتم تطلبون أسراكم فلماذا لم تذكروا أسرانا والقتلى الذين قتلتموهم ظلما وعدوانا فكان الواجب على باش قران ان يفاوضني على هؤلاء اولا وليعلم ان الذين اشتكوا له عن افعالي انهم هم المعتدون ولنا عندهم رجال مأسورون بالغدر فلأي شيء لم يذكرهم في كتابه ومرسل لي خزنة مال يعطيني بها انا أرسل له عشر خزنات فكاك المأسورين عندهم على شرط أبقي أسراكم وأولاد الملوك عندي فقال وزير باش قران ان مليكي قادر ان يخلص الاسرى منك بالقوة ويخرب مدينة الرخا ولكنه بعث رسالة يفاوض فيها الملك الظاهر بهذا الخصوص ولم يرسلها اليك ليفاوضك انت •

قال الراوي : فما أتم كلامه الا وسيف عرنوس رمى عنقه فوقع الرأس في حضن أيدمر البهلوان وتلطخ وجهه وصدره بالدماء فنهض بالحال وثيابه ملوثة بالدماء وقال ما هذه الفعال ان الرسول لا يقتل ولكنك لا تلام لان حليبك رديء فقال عرنوس انا ابن معروف والذين تربيت عندهم ملوك اما انت فليس لك أصل يعرف لانك رقيق تباع وتشترى فاغتاظ منه أيدمر وتقدم الى عرنوس وأراد ان يمسك بخناقه فتكامشا بالايدي فخاف عليهما الملك فتقدم وفي يده قضيب خيزران فضرب أيدمر فزاغ عن الضربة فأصابت رأس عرنوس فرفع السلطان يده وأراد ان يضرب أيدمر كما ضرب عرنوس فزاغ عنها ووقعت على عرنوس فظن عرنوس ان الملك الظاهر بيبرس يضربه عمدا فقال له ايها الملك يامن اسمك العادل كان الواجب

عليك ان تضرب أيدمر الذي أهانني بكلامه البذيء لا ان تضربني وحدي ولكن سوف ترى نتيجة اعمالك ثم انه نزل من الديوان غضبان وركب جواده وخرج من القلعة فاعترض طريقه رجل وقال السلام عليك يا ملك عرنوس أرأيت تقلبات الزمان « الذي أصله مملوك يهين الملوك » فقال له انا كنت في بلادي محفوظ المقام معزوز الكرامة فقال له اعلم اني انا جوان وكل الذي جرى في الديوان رأيته بعيني ولو كنت تطيعني لجعلت ملوك الافرنج تحت يدك وطوع أمرك ولكنت تنتقم من بيبرس افظع انتقام فقال له من اي ملك اطلب المساعدة فقال له من الملك باش قران فقال عرنوس ان باش قران ناقم عليّ بسبب الاسارى الذين عندي لا سيما واني قتلت وزيره قال جوان اما الاسرى فأطلق سراحهم واما الوزير فنقول قتله أيدمر وانا اصالحك مع الملك باش قران وتكون قائد جيشه فقال عرنوس انا ذاهب الى مدينة الرخام لاطلق الاسرى وانت اسبقني الى رومة المدائن ودبر الامر بمعرفتك فذهب جوان الى رومة المدائن ودخل الى ديوان باش قران وحكى له ما جرى ثم قال انا قصدي أرد عرنوس الى ديننا فيساعدك في الحروب والقتال فقال له ليتك تستطيع ان تقوم بهذا العمل .

قال الراوي : اما الملك عرنوس فانه اطلق الاسرى وأركبهم في المراكب وسار معهم الى رومة المدائن بعدما أوصى وزيره محمد وردوش على بلده ونسائه وعندما وصل الى الميناء سار الاسارى وأعلموا الملك باش قران بقدوم عرنوس فنهض الملك والوزراء وجوان واستقبلوا عرنوس ورحبوا به وأوصلوه الى الديوان باحتفال عظيم قال جوان لباش قران اجمع الجيوش ايها الملك من الآن لاخذ الثأر لوزيرك الذي قتله السلطان في ديوانه ولم يحسب لك حسابا واجعل قائد جيوشك وسيف نقمتك الملك عرنوس فاستشار الملك باش قران وزراءه فقالوا لا تفعل شيئا الآن لنرى ماذا جرى ولاي شيء قتل وزيرك في ديوان السلطان فقال الملك باش قران

هذا هو الصواب وعلينا ان ننتظر • اما الملك الظاهر فأمر باحضار رفقاء وزير باش قران فلما حضروا أعلمهم بموت الوزير وأعطاهم كتاب وسلمهم الوزير فوضعوه في صندوق وساروا في البحر الى رومة المدائن وصعدوا الى الديوان وأعطوا الكتاب الى باش قران وأخبروه بموت الوزير فقرأ الكتاب فوجد فيه خطاب من امير المؤمنين الملك الظاهر الى الملك باش قران الذي نعلمكم به انه صار في ديواننا فتنة كان المتسبب في ايقاظها وزيركم لطول لسانه وغروره فكانت النتيجة انه ذهب ضحية طيشه وتهوره فاذا كنت تعرف ان وزيرك احمق وثرثارا فلماذا ترسله لديوان الملوك كان الاجدر بك ان ترسل غيره من ذوي العلم والخبرة وأدب الحديث في مجالس الملوك والوزراء وهذا ماجرى والسلام فلما أتم قراءة الكتاب قال لوزرائه ولجوان اسمعوا محاولة السلطان بيبرس كيف يتنصل من قتل وزيري في ديوانه ويقيم التبعة عليّ ولكن وحق ديني لا بد من أخذ الثأر من السلطان الظاهر ثم أمر باقامة جناز واحتفال بدفن الوزير فاحتفلوا به احتفالا مهيبا ودفنوه ثم كتب المكاتيب الى الملوك الموالين له وطلب النجدات من الرجال والابطال وجهز الجيش لمحاربة الظاهر ثم ركب عرنوس جواده وجوان بغلته وصارا يتفقدان تلك الجيوش ويسلمان على ملوكها وقادتها ويحييان رجالها وأبطالها ثم ركبت العساكر وارتفعت الاعلام على رؤوس الملوك والقادة وساروا من ارض الى ارض الى ان قربوا من مدينة حلب فوصل الخبر الى جمال الدين شيحة ان الجيوش آتية من رومة المدائن وقائدها الملك عرنوس لمحاربة الملك الظاهر فتعجب جمال الدين من ذلك لانه لا يعرف ماذا جرى في ديوان مصر فسافر الى مصر ليعلم السلطان ليستعد لملاقاة الاعداء فطلع الى الديوان واعلم السلطان فلما سمع الملك الظاهر هذه الاخبار أمر بالنفير العام وخبر جميع العربان وأهل الحصون والقلاع وجمع الجيوش من جميع البلدان في مصر والشام ثم انه ضرب مدافع الرحيل فركبت العساكر والجنود والمتطوعون للجهاد في

سبيل الله وسار الملك الظاهر بجيوشه بعدما أجلس ولده السعيد على كرسي المملكة وأوصاه بالعدل والانصاف وسار يقطع البراري والفلوات متوكلا على الله ان ينصره على الاعداء .

قال الراوي : اما عماد الدين ابو الخيش نائب حلب لما وصل اليه خبر زحف جيوش الاعداء أغلق الابواب وحصن الاسوار بالمنجنيقات وأقام الحصارات وجاءته الاخبار ان جيوش الاعداء مؤلفة من سبعة ملوك والمقدم عليهم عرنوس فكتب كتابا الى الملك الظاهر يعلمه بهذا الشأن فأخذ النجاب الكتاب وسار وعندما وصل الى دمشق رأى السلطان فيها فأعطاه الكتاب فلما قرأه أمر بالرحيل ليقاتل الاعداء ويطردها عن حلب فسارت الجيوش بهمة عالية للجهاد في سبيل الله هذا وقد وصل خبر عصيان عرنوس الى ابيه معروف فقال اللهم لا كفر بعد ايمان ولا ضلال بعد الهدى ثم أمر عماد الدين ابن اخته بجمع الرجال فاجتمعوا كأنهم العقبان ثم سار المقدم معروف الى حلب وارتفعت فوق رأسه راية الامام علي عليه السلام مطرزة بالحرير والقصب مكتوب عليها نصر من الله وفتح قريب فلما وصل الى حلب التقى بجيش السلطان ونصب الخيام ودخل صيوان الملك الظاهر وسلم عليه وقال له هذا يوم المنى الذي ننتظره طول عمرنا ثم قال هذه ارادة الله واني أرى يا مولانا ان تكتب كتابا الى عرنوس فكتب الملك كتابا وسلمه الى ابراهيم وقال له اعط الكتاب الى عرنوس وهات الجواب فأخذ ابراهيم الكتاب وسار الى ان وصل الى عرنوس سلمه الكتاب فقرأه واذ به بسم الله الرحمن الرحيم خطابا من الملك الظاهر الى عرنوس اما بعد فقد أغراك الشيطان فجمعت هذه الجموع تريد ان تنتصر بها علينا ولكن خيب الله مسعاك فسوف ترى ما يحل بجيوش الاعداء بقوة الاله الجبار فان أردت السلامة فاقلع لباس الغرور وعد الينا ولا تتبع خطوات الشيطان فتهلك وتهلك من معك من المتهورين فان خالفت نصيحتي سوف ترى نتيجة أعمالك والسيف أصدق أنباء من الكتب والسلام على من اتبع

الهدى فلما قرأ عرنوس الكتاب سلم جوابه الى المقدم ابراهيم وأعطاه الف دينار فأخذها وعاد الى السلطان أعطاه الجواب واذ فيه الى الملك الطاغي الذي يدعي المقدرة ويغتر بنفسه اعلم انك ان كنت في دعواك صادقا فلا تتكل في الحرب على بني اسماعيل لانهم رجالنا فانزل انت واضربني بالحسام كما ضربتني بالخيزرانة امام الناس فأنا وانت اخصام فاحقن دماء عساكرك وانزل الى الميدان بنفسك لاعرفك مقامك في الحرب والقتال فلما قرأ الملك الكتاب مزقه ورماه وقال هذا ولد جاهل وسوف يرى ثم انه أمر بدق طبول الحرب فجاوبته طبول الافرنج واصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف وبرز الى الميدان الملك عرنوس ولعب بالسيف والسنان وطلب مبارزة الفرسان فبرز له أيدمر البهلوان فقال له عرنوس ارجع وقل للملك ان ينزل للملك فعاد أيدمر ووقف بين يدي الملك وقال له لم يشأ ان يقاتلني في الميدان وقال دع الملك ينزل الى الملك فنزل الملك الى حومة الميدان وانطبق الاثنان على بعضهما ودوت أصواتهما كدوي الرعد وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وهمهما همهمة الاسود وأيقن كل منهما ان خصمه مفقود وداما في حرب وقتال وكفاح الى ان أتى الليل فافترقا على ان يعودا صباحا فاستقبل معروف وابراهيم وأكابر الدولة الملك الظاهر فرحين مبتهجين بسلامة الملك ثم قال المقدم معروف للملك اسمح لي يا مولاي ان انزل غدا الى الميدان فقال الملك هذا لن يكون لئلا ينظر لي ابنك بعين النقصان ولو كان من الاعداء لكنت قتلته لكن لي أمل ان يعود للصواب لذلك ارجو ان اخذه أسيرا اما الملك عرنوس فكان يظن انه تغلب على الملك الظاهر اذا حاربه ويأخذه أسيرا او يجندله على الارض قتيلا فلما جرب حربه ذلك اليوم علم انه منى نفسه بالمستحيل لان الملك الظاهر بطل جليل لكن عرنوسا اخفى الكمد وأظهر الجلد ولما عاد من الميدان استقبله السبع ملوك وما كانوا يظنون انه يرجع سالما من بين يدي السلطان وفي الصباح برز الملك الظاهر الى الميدان وتقاتل مع

عرنوس وكان بينهما يوم عبوس وداما على ذلك الحال الى ان ولى النهار وظلا ينزلان الى الميدان مدة عشرة ايام اما عرنوس فاحضر خمسة حراب وركبها وسنها ومسحها بيده وتركها لوقت الحاجة ثم ذهب لينام فرأى جوان ما فعل عرنوس ففهم المقصود فقال للبرتقش هات لي هذه الحراب التي مسحها عرنوس فذهب البرتقش واحضرها لجوان فوجد امامه طشتا فيه ماء اصفر وموقدا من نار الفحم فأخذ الحراب وقلع أسنانها ووضعها في النار حتى حميت ثم طفاها في ذلك السم فعل ذلك سبع مرات ثم ركبها كما كانت ومسحها وقال للبرتقش ارجعها الى مكانها فقال له البرتقش ما فعلت بها قال له جوان سممتها فقال له البرتقش حقيقة يا جوان انك بذرة حرام وفي الصباح ركب السلطان ونزل الى الميدان فنزل اليه عرنوس وتقاتلا ساعة من الزمان ثم ان عرنوسا أوتر القوس ووضع فيه حربة وأطلقها على الملك فتبسم الملك وأبطلها وأخذ عرنوس حربة ثانية وأطلقها عليه فأراد الملك ان يبطلها فرفع الحصان يديه فجاءت الحربة في فخذ السلطان فشعر بالالم الشديد لان الحربة كانت مسمومة فاسرع ابراهيم وسعد الى السلطان وادركاه قبل ان يقع وعادا به من الميدان

اما عرنوس لما نظر هذا الحال ندم اشد الندم لانه لم يعلم ان الحراب مسمومة فعاد وهو في غم شديد ، اما ملوك الافرنج ففرحوا وسألوا عرنوسا ان يكبسوا جيش السلطان فقال لهم لا احد يتحرك منكم •

اما الظاهر بيبرس فأحضروا له الاطباء والجراحين وصاروا يحكمونه ويزيلون السم من لحمه فلما افاق على نفسه قالوا له زال الالم ان شاء الله، فقال ادخلوا حلب فاني اخاف من هجوم الاعداء فادخلوا السلطان الى قلعة حلب ودخل معه الامراء والفداوية ثم دخل الجيش واقام شيحة عند السلطان يعتني به ، ولم ينس ان ينسل الى جيش العدو ويتسقط الاخبار وفي ليلة من الليالي اتى جمال الدين الى السلطان وهو بالغيظ ملآن وكان الملك الظاهر قد تحسنت صحته وشفي من مرضه فقال شيحة ان جوان والملوك الافرنج لما رأوا عساكرنا دخلت حلب وتحصنت فيها ظنوا اننا فعلنا

ذلك خوفا منهم فرتب لهم جوان ان كل ملك يأخذ عساكره ويحاصر بابا من ابواب حلب ويهاجم الاسوار وعند الصباح يكون الهجوم فلما سمع السلطان هذه الاخبار جمع المقدمين فقال الى حسن النسر بن عجبور خذ عشرة من المقدمين وكل مقدم معه الف بطل مقاتل وامسكوا باب الطوابي ثم قال للمقدم جبل خذ معك عشرة مقدمين وكل مقدم بألفي جنـــدي وامسكوا باب القلعة وقال لمنصور العقاب ان يأخذ عشرة آلاف مقاتل ويمسكوا باب الشيخ يبرق وقال لصوان ابن الافعى ان يمسك باب النهر مع عشرة آلاف فارس وموسى القصار يمســك بــاب البستان وسليمان الجاموس يمسك باب الشام اما المقدم معروف فيمسك باب انطاكية ، فقال معروف انا احمي باب انطاكية وحدي ولا يتبعني احد من الجنود ، قــال ابراهيم دعنا نساعدك يا خال انا وسعد على مهمتك ، فقال لا وحق سيد الاكوان الا ان تأتيني وقت المساء بالطعام والماء قال ابراهيم على العين والرأس ، وانتظر المقدم معروف هجوم الاعداء فلما أقبلوا جرد سيفه ذا الحيات وصاح صيحة دوى لها السهل والجبل وقال الله اكبر وهجم على الاعداء وفتك فيهم كما يفتك الذئب بالغنم وصار يحصدهم حصدا بسيفه البتار وفي ساعة واحدة علموا ان ليس لهم طاقة على حربه فابتعدوا عنه وولوا الادبار فلما رآهم هربوا جلس على حجر يستريح واذ بسعد وابراهيم مقبلين بالطعام والماء فسلما عليه وقدما له الطعام والماء فقال لهما ابعدا عني هذه الجثث فابعداها عنه ووسعا له الطريق ثم سألاه هل يحتاج الى خدمة أو مساعدة ، فقال سلما لي على السلطان فعادا الى السلطان وأعلماه بنتيجة المعركة بين المقدم معروف والاعداء وانتصاره عليهم فقال الملك انه بطل الزمان وفارس الاوان ولكني خائف عليه من غدر الاعداء فقد رأيته بنومي يتودع مني ويوصيني بولده عرنوس ، وقال لي اني مسافر ورأيته حاملا علما اخضر وبعد ان تودع مني غاب عني فلم أعد ألمحه ، فقال ابراهيـــم خيرا رأيت ان شاء الله ايها الملك ، اما المقدم معروف فانه جلس يتناول

الطعام ، ثم توضأ وصلى ما عليه من الفرائض وداوم على هذه الحـال أربعة ايام وهو ينتصر على الاعداء فشكوا أمرهم لجوان مما لاقوه من المقدم معروف على باب انطاكية فأخذ جوان النظارة ومشى الى ان قرب من باب انطاكية وصار ينظر فرأى ابراهيم وسعدا حاملين الطعام والماء الى خالهما فعرف انهما كل يوم يحملان له الطعام والماء في هذا الوقت فعـاد جوان الى ملوك الافرنج وقال لهم غدا ادبر لكم في هلاك معروف وفي اليوم الثاني أحضر جوان اثنين من العياق وغير ملابسهما وحمل الواحد طعاما والثاني ماء وقال لهما عندما ينتهي القتال ويقعد معروف على الحجـر ليستريح فقدما له الطعام والشراب واحـد من ورائه وواحد من الامام فالذي من الامام يلهيه بالكلام والذي من ورائه يضربه بالحسام فذهبـا ليفعلا كما دربهما جوان اما المقدم معروف بعدما شتت الاعداء بضرب الحسام جلس على الحجر كعادته ينتظر الطعام وتقدم شخص وقال خذ دورق الماء يا خال فانكر المقدم معروف هذا الصوت ونهض وقال من أنت ومد يده الى سيفه ليمتشقه واذ بضربة من قفاه تقطع الدرع وتنزل على عنق معروف فتجرحه جرحا بليغا فالتفت ليضربه بالسيف فضربه الذي امامه على فخذه فقطع اللحم ووصل الى العظم فصاح معروف من شدة الالـم الى ان وقع على الارض والدماء تسيل من جراحه ثم انه اسند رأسه الى الجدار وأسلم الروح وفي هذه اللحظة كان الشقيان قد هربا الى جوان واعلماه بما جرى فلما أقبل ابراهيم وسعد حاملين الطعام والماء الى خالهما المقدم معروف رأياه مفارق الحياة فانكب عليه ابراهيم وسعد وهما يبكيان ويصيحان ما جرى لك يا خال ليتنا كنا فداؤك ، ثم ان ابراهيم قال لسعد اجلس على ركبتيك فجلس ورفعه ابراهيم على ظهره فحمله واغلق ابراهيم الباب ، ثم أوصلاه الى القلعة وشاع الخبر ان المقدم معروف قد استشهد فأقبلت ابطال بني اسماعيل وأقبل السلطان الظاهر وكشف عن وجه معروف وقبله وبكى عليه ، ثم قال لو كنت تفتدى لفديتك بالروح والمال رحمك الله

رحمة واسعة ، الوداع يا معروف هذا يومك الذي وعدك الله فيه وكان معروف لا يزال قابضا على السيف فأرادوا ان يأخذوه فما امكنهم وتقدم عماد الدين واراد أن يأخذه منه فلم يستطع فتأخر وتقدم كثيرون ممن حضروا فما استطاع أحد ان يقلعه من يده فتقدم ابراهيم وقرأ الفاتحة واستغاث بجده الامام ابي السبطين عليهم السلام ، ثم قال كنت وعدتني به يا خالي معروف فاوف بوعدك يا ابن الكرام ومد يده فأخذه بكل سهولة فقال بارك الله في أصلك فانك وعدت ووفيت ، ثم أحضروا المغسل وشلحوه البدلة وغسلوه وكفنوه ووضعوه في النعش وحملوه على الاعناق ومشى خلفه السلطان الظاهر والوزراء والامراء والمقدمون والاهالي ثم انهم صلوا عليه وحملوه على الايدي ليدفنوه في المقبرة اذ بامرأة شريفة يقال لها الست أبارة أقبلت الى السلطان وقبّلت يده وقالت يا مولاي انا قد وهبت هذه الزاوية للمقدم معروف فادفنوه فيها فقبل الملك منها هذه الزاوية ودفنوه فيها ، رحمة الله عليه ثم أمر السلطان المؤذن ان يبلغ الناس أن الصباحية ستكون بأخذ الثار وكشف العار وان يكونوا على حضر لاننا نهار غد ان شاء الله نخرج الى الاعداء .

قال الراوي : اما جوان فأرسل واحدا من اللذين قتلا المقدم معروف الى عرنوس يبشره بقتل معروف فذهب اليه وقال له البشارة يا ملكنا عرنوس فقد قتلنا لك المقدم معروف حامي باب انطاكية ، فقال وكيف قتلتموه فحكى له مثلما علمه جوان ، فقال عرنوس ارني الحسام الذي قتلتم به معروف فأعطاه الحسام فأخذه منه وضربه به رماه قطعتين على الارض وخرج من الصيوان وركب جواده فرأى ابواب حلب مفتوحة وجيوش السلطان الظاهر وعساكره تخرج منها وهم هاجمون يصيحون الله اكبر ففرح عرنوس واستبشر بالنصر ورمى نفسه على الاعداء الافرنج وصار يضرب بهم ذات اليمين وذات اليسار من عظم حزنه على والده فرأه الملك الظاهر فقال لقد أخبروه باستشهاد والده فهو ينتقم منهم هذا وقد دارت

رحى الحرب وكثر القتل والضرب والتحمت العساكر بيعضها البعض وغنى سيف اليمان فقطع الاعناق والابدان ونفذت الاسنة في الاكباد وظلت الحرب على أشدها من الصباح الى عصر النهار واذ بهجوم صاعق من أبطال على خيول عربية ومن هجانة على نوق وجمال يقدرون بعشرين الف مقاتل هجموا على الاعداء اللئام وكسروا شوكتهم فذهل الاعداء من هذا الهجوم المفاجيء وهذا الطعن المتواتر فنفرت خيول الاعداء وجفلت من الجمال وتراجعوا الى الوراء وقسم جيشهم الى قسمين قسم ولى هاربا وقسم انحصر بين الهجانة وبين جيش السلطان فاستسلم منم ما ينوف عن ثلاثين الفا ثم ان الهجانة لحقت القسم المنهزم وظلت تطارده وتفتك به مدة ثلاثة ايام حتى بطلت حركة خيلهم وضعفت لان الهجن أثبت على الطراد فصارت العربان تذبحهم ذبح الغنم الى ان أخلوا منهم الديار فرجعوا وصاروا يلمون الاسلاب والخيول الشاردة اما السلطان فأمر ان يقيدوا الاسرى بالاغلال ويفتشوا على ملوك الافرنج وعلى جوان فوجدوا اثنين منهم بين الاسرى وثلاثة بين القتلى وقد هرب جوان مع الاثنين الباقيين من السبعة فأمر السلطان باحضار الملكين الاسيرين وخمسمائة من امرائهم فلما حضروا قال ارموا رقابهم في الموضع الذي قتل فيه المقدم معروف فنفذ هذا الامر بالحال أما العربان فسبب نجدتهم للسلطان انهم لما علموا ان حلب محاصرة اجتمعت شيوخ قبائل الجزيرة والصحراء وقالوا يجب علينا ان ننتصر لحلب ونخلصها من هذا الحصار ونساعد الملك الظاهر فوافقوا على نجدتها ، ثم انهم ذهبوا الى عشائرهم وخطبوا فيهم ونفروهم للجهاد في سبيل الله ، وبعد ما اجتمعوا وكانوا على أتم استعداد جاءتهم الاخبار ان المعارك محتدمة خارج مدينة حلب بين جيوش السلطان وبين الاعداء فركبوا بالحال وساروا باقصى سرعة وفاجأوا الاعداء وهزموهم وعند رجوعهم استقبلهم السلطان أحسن استقبال وعلق الاوسمة على صدورهم واعطاهم من الغنائم حتى أرضاهم ثم اوصاهم ان يكونوا دائما على

استعداد فاذا دهم الاعداء مدينة حلب فلينجدوها فورا ثم تودعوا من السلطان ورجعوا الى بلادهم وسأل السلطان عن عرنوس فلم يجدوه ولم يعرفوا عنه أي خبر ، ثم ان السلطان سلم نائب حلب الفي اسير وقال له أصلح الابراج والاسوار وصهاريج المياه وعمق الخندق حول الاسوار وحسن مدينة حلب ولو صرفت جميع مواردها عليها وأقم الارصاد مسافة ثلاثة أيام حولها حتى لا تؤخذ على غرة ويجب ان تكون الحواصل مملوءة من المؤن لاجل المفاجآت والحصار واقطع دابر اللصوص ، وامن الطرقات وأعدل بين الناس ولا تظلم احدا ، فقال النائب سمعا وطاعة لمولانا السلطان وسوف أقوم بما أمرتم به على احسن ما يرام ثم ان السلطان دخل الى مقام المقدم معروف وقرأ الفاتحة وأمر النائب ان يصلح زاويته ، ثم انه امر بالرحيل فركبت العساكر والجنود وساروا طالبين مصر فدخلها السلطان بلا موكب ولا زينة حزنا على المقدم معروف أما الملك عرنوس لما كان يحارب الاعداء وينتقم منهم رآى السلطان يراقبه فخجل من نفسه على فعاله وما جرى على والده بسببه واستحى ان يقابل السلطان فعندما انتهت المعركة بنصر السلطان وجيوشه على الاعداء هام الملك عرنوس على وجهه سائحا في البراري والقفار وصار يأكل هو والحصان من نبات الارض ويشرب من الينابيع والغدران حتى قطع بلادا بعيدة فوصل الى أرض زائدة الحر لا وحش فيها ولا طير ورأى نفسه بين جبلين جبل أصفر وجبل أسود وقد قصر حصانه واشتد بهما العطش فعلم انه هالك لا محالة فبسط يديه الى الملك العلام وصار يتضرع ويستجير بالله فغيمت السماء وحصل الرعد ونزل المطر وامتلأت الحفر بالماء فشرب حتى ارتوى هو وحصانه ثم ركبه وسار حتى ضاق به الطريق فنزل وسحب الحصان بيده طول الليل ولما طلع النهار وجد نفسه في برية متسعة الجنبات ورأى أناسا كثيرين ، فلما رأوه نفروا منه وهربوا وصاروا يراقبونه عن بعد فتعجب منهم عرنوس وأشار لهم اشارة فهموا منها لماذا انتم خائفون فتقدم اليه رجل كبير السن

فسأله عرنوس لاي شيء هربتم مني ، قال لان هذا الوادي لا يخرج منه الا الجان وظنوك جنيا فهربوا منك فهذا سبب هروبنا منك فقال عرنوس وما أسم هذه المدينة ، فقال اسمها مدينة الجهجير والبر الطويل واسم ملكها صنهاجير ، ثم ان عرنوسا ركب جواده ودخل المدينة ونزل في خان وسلم حصانه للخاناتي وطلب منه غرفة للسكن فاعطاه غرفة ، فقال له عرنوس خذ هذا الدينار وهات عليقا للجواد وطعاما لي فأخذ الدينار وأتى له بما طلب فأكل عرنوس قليلا وكان قد أنهكه التعب من مشقات السفر فارتخت أعصابه وشعر بالحمى تدب في جسده فاضطجع على التخت فأتاه صاحب الخان وقال له هات أجرة الغرفة فقال عرنوس خذ هذا الكيس واصرف علي وعلى الحصان وخذ أجرة الغرفة فأخذ منه الكيس فاذا هو مملوء ذهبا وغاب أسبوعا وأتى اليه وطلب منه اجرة الغرفة ومصروفه ومصروف الحصان فقال له اصرف ما بقي بالكيس ، فقال له الكيس فرغ فقال له خذ الحصان بعه ، فأخذه وباعه بمائة دينار ثم عاد اليه بعد اسبوع وطلب منه الاجرة وهكذا حتى بيعه عدة الحصان والسيف والترس ، ثم عاد اليه فبيعه القلنسوة والدرع الكنوزي ، ثم عاد اليه وطالبه باجرة الغرفة ، فقال له لم يبق عندي شيء اعطيك اياه ، فقال له وأنا لا أبقيك في الغرفة بدون أجرة ، ثم حمله واخرجه من الخان ووضعه على قطعة حصير وغطاه بخيشة جنفاص وتركه ، أما عرنوس فقد اشتد به المرض وهو مطروح في الطريق وفي احدى الليالي رأى والده في المنام يقول له أنت جنيت على نفسك بمخالفتك لي ومخالفة أمير المؤمنين ولكني ابشرك بأن الفرج قريب فانتبه عرنوس من نومه مستبشرا بقرب الفرج وبعد قليل سمع مناديا ينادي يا معشر الناس ان الملكة نور بخت خارجة من سرايتها الى البستان فلا يكن أحد في الطريق وكل من وجد بطريقها يسبب لنفسه الجزاء الصارم فاغلقت جميع الاماكن ولم يبق أحد في الاسواق وفي الوقت المعين أقبل موكب الملكة نور بخت فلفت نظرها شخص ملقى بجانب الطريق فقالت من هذا

المطروح في الطريق فذهب الامناء وسأل أحد الجوار عنه ، فقال له أنا أعرف سبب رميه في الطريق ، فقال له تعال معي الى الملكة واحك لها قصته فسار معه الى الملكة وقال لها اني لا أعرف هذا الرجل من أين ولكن عندما دخل بمدينتنا كان راكبا جوادامن افخر الخيل ولباسه يدل على انه من اولاد الملوك الكبار فنزل عند الخاناتي ابونوره وسكن عنده مدةشهرين ثم القاه في الطريق كما ترين ايتها الملكة ولما سألنا الخاناتي اين جواده وسلاحه ولباسه وأمواله أجاب صرفها على طعامه وثمن أدويته وأجرة سكنه فلما سمعت الملكة ذلك امرت بحمل عرنوس الى قصرها وقالت لمن حمله احضروا طبيبي الخاص يعتني به ويداويه وقبل ذلك ادخلوه الحمام ولبسوه أفخر الثياب وضعوه في غرفة صحية من غرف القصر فقالوا سمعا وطاعة لجلالة الملكة ثم أخذوه الى السراية واعتنوا به كما أمرت الملكة مدة سبعة ايام فرجعت اليه صحته واقبلت اليه العافية ولما عادت الملكة من نزهتها امرت باحضاره فاتوا به اليها فامرت له بالجلوس وصارت تسامره وتتحدث معه فكان يجيب على اسئلتها اجوبة سديدة بأدب واحترام فعرفت انه ابن ملك حقا فسألته عن سبب قدومه الى هذه البلاد فحكى لها عن سبب موت أبيه وقدومه الى جبال الكبريت وعطشه ودخوله الخان وعن مرضه وضياع ماله وعدة سلاحه وحصانه ومعاملة الخاناتي السيئة له وكيف رماه في الطريق ثم قال ولولا قلب الملكة الحنون الرؤوف لكنت قضيت نحبي على أسوأ حال فتأثرت الملكة جدا لما سمعت حكايته وأرسلت الى أبيها الملك ترجوه ان يشرف الى قصرها فحضر والدها فنهضت واستقبلته وقبّلت يده ثم حكت له عن عرنوس وما جرى معه ثم أخذته الى غرفة عرنوس فنهض عرنوس واستقبله وسلم عليه ثم جلسوا يتحادثون فانسر الملك من عرنوس لأدبه ولطف حديثه أما الملك فأرسل الى الخاناتي من يأتي به حالا فأحضروه فسأله عن الحصان وعن اموال وسلاح عرنوس قال الحصان وعدته قد بعتها للوزير فأحضر الوزير وطلبها منه فأتى بها

جميعا فقال له الملك ان هذه الاشياء تساوي خزنة مال فكيف ابتعتها منه بابخس الاثمان ولماذا لم تقل لي عليها لاعرف صاحبهـا ثم ان الملك أمر بقطع رأس الخاناتي وعزل الوزير وأقام عرنوس محله فأقام عرنوس عند الملك صنهاجير .

قال الراوي : اما الملك الظاهر بينما كان جالسا في الديوان واذ بمقدم داخل الى الديوان وهو في سن الشيخوخة وكثير الشبه بالمقدم معروف فتقدم الى السلطان وسلم عليه ودعا له بدوام العز والنصر على الاعداء فلما رآه المقدمون من بني اسماعيل وثبوا على الاقدام اجلالا له وصاروا يسلمون عليه ويسلم عليهم فسأل الملك من هذا المقدم قالوا هذا اسماعيل ابو السباع اخو المقدم معروف فترحب به السلطان وسلم عليه وأمر له بالجلوس ثم سأله من أين جئت أيها المقدم قال أنا الآن جئت من القلاع وكنت افتش على أخي معروف وعندما رجعت أخبروني ان أخي ظهر واستشهد في حلب على باب انطاكية وظهر له ولد يسمى عرنوس فجئت لارى ابن أخي واكسب رؤياكم يا أمير المؤمنين وأقدم لكم الطاعة واني أرجو من جلالة الملك ان يأمر لي بسلاح أخي معروف وهو الحسام ذو الحيات وبذلة الزرد والخوذة لاني انا أولى بسلاح أخي من ابراهيم فقال ابراهيم ولماذا كلفت نفسك بالمجيء يا خال من أجل سلاح المقدم معروف كنت ارسل لي كتاب فأبعثها لك ثم ان ابراهيم أحضرها له قائلا تفضل يا خالي خذهـا بارك الله لك فيها وأنت ضيفي لحين تسافر وبعد ان انفض الديوان سار المقدم اسماعيل مع ابراهيم وضاف عنده فرأى في المنام أخاه المقدم معروف يقول له انا اهديت اسلحتي لابراهيم فارجعها اليه وان لم ترجعها اليه تندم ويلزم عليك ان تفتش عن عرنوس ابن اخيك معروف لانه غريب وحيد في بلاد الناس وليس له ناصر ولا معين فلما أفاق المقدم اسماعيل من نومه انتظر حتى حضر الملك الى الديوان فطلع اسماعيل الى الديوان وبعد ان سلم وجلس قال لابراهيـم انا تنازلت لك عن هذه الاسلحـة يا ابراهيم

فخذها قال ابراهيم السلاح عندي كثير وليس لي حاجة بها فقال له الملك خذها يا ابراهيم فأخذها امتثالا لامر الملك ثم ان المقـدم اسماعيل طلب الاذن من السلطان ليفتش على عرنوس فأذن له الملك وأمر له بعشرة مقدمين من بني اسماعيل يذهبون معه وأمر لهم الملك بما يلزمهم من مال وغيره وأعطاهم امرا بالعفو عن عرنوس فليرجع الى مدينة الرخام وعليه الامان وفي اليوم الثاني ذهبوا للتفتيش عن عرنوس وصاروا يتنقلون في البلاد مدة من الزمان الى ان وصلوا الى مدينة الجهجير والبر الطويل فنزلوا بها وصاروا يفتشون عنه واذ بموكب ملك المدينة خارج الى الصيد وبجانبه الملك عرنوس فلما رأوه عرفوه فسلموا عليه باشارة منهم فأتى اليهم فقالوا له هذا عمك المقدم اسماعيل فسلم عليه فاستقبله وتعانقا ثم رجع الى الملك وقال له ان هؤلاء الرجال جاءوا يفتشون عني فسلم عليهم الملك ودعاهم بالذهاب معه الى الصيد فذهبـوا مع الملك ومع عرنوس الى الصيد ولما عادوا من الصيد سألهم الملك عرنوس عن الملك والجنود والعساكر فقالوا الحمد لله كلهم بخير وقد أعطانا الملك أمرا بالعفو عنكم ثم قدم له المقدم اسماعيل ابو السباع امر السلطان بالعفو عن عرنوس فلما قرأه قال لنطلب الاذن من الملك صنهاجير بالعودة الى الاوطان فاستأذن منه فأذن له وفي اليوم الثاني تودع من الملك وسار مع عمه اسماعيل ورفقائه طالبين بلادهم وظلوا يطوون الارض والآكام الى ان وصلوا مدينة الرخام فطلع الملك عرنوس الى الديوان فاستقبله وزيراه محمد الطونش واردونش بالترحاب وكذلك المقدم نصير النمر وأولاد ملوك البرتغال وأقام عنده عمه المقدم اسماعيل ابو السباع اما المقدمون الذين كانوا معه عادوا الى مصر وأعلموا السلطان بمجيء عرنوس الى مدينـة الرخـام فحمد الله تعالى الذي رد عرنوس الى الصواب وفي يوم من الايام دخل نجاب ودعا للسلطان وأعطاه كتابا واذ فيه خطاب من نائب الاسكندرية الى امير المؤمنين الملك الظاهر الذي نعلمكم به اننا يوم تاريخه مقيمون اذ أقبل من البحر مركب من بلاد

الافرنج وبه نجاب معه كتاب من الملك مغلوين ومعه كلب ضخم الجثة جنس بيلماني ومراده الحضور الى بين أيادي مولانا السلطان فأرسلنا نعلمكم بذلك ونحن منتظرون الجواب والسلام عليكم فلما قرأ الملك الكتاب أمر بحضور النجاب وصحبته الكلب المذكور فلما وصل الامر الى نائب الاسكندرية أرسل النجاب ومعه الكلب الى مصر فلما وصل طلع النجاب الى الديوان وسلم كتاب الملك مغلوين الى السلطان فلما قرأه وجد فيه انه مرسل الكلب للمراهنة على اي حيوان ان يغلبه فاذا غلبه حيوان من الحيوانات المفترسة تترتب للسلطان خزنة مال كل عام على الملك مغلوين واذا هو غلب غيره فيكون للملك مغلوين خزنة مال كل عام على الملك الظاهر فقال السلطان هذا أمر سهل ثم انه كتب كتابا الى الملك عرنوس يقول فيه ان الامر ألجأ لحضور عمك المقدم اسماعيل ابو السباع الى مصر لامر مهم والسلام وأعطى الكتاب لسعد وأمره بالمسير الى مدينة الرخام وان يسلم الكتاب للملك عرنوس فسار الى ان أوصل المكتوب للملك عرنوس فلما قرأه قال لعمه ان السلطان الظاهر طالبك لامر مهم فقال المقدم اسماعيل على الرأس ثم العين سر قدامي يا سعد فسارا حتى وصلا الى مصر وطلعا الى قلعة الجبل ودخلا الديوان فسلم المقدم اسماعيل ابو السباع على الملك فأمر له بالجلوس ثم أخبره السلطان بالكلب وقال له أريد منك أسدا يقتله فقال حتى أنظره يا أمير المؤمنين فقال الملك أروه الكلب فذهب ورآه وعاد الى الملك وقال قد رأيت الكلب فاذا هو ضخم الجثة هائل مرعب لا يقدر أي سبع من السباع عندي ان يغلبه او يجرحه وهذا النوع من الكلاب يستخدم لصيد الاسود فاستغرب السلطان وقال ان الاسد سلطان الوحوش فكيف يتغلب عليه الكلب فقال المقدم اسماعيل لما كنت افتش على أخي المقدم معروف مررت على غابة قرب الشام وكان فيها سبع أحول وهو من السباع الضواري فأردت ان أقبضه فلم أقدر عليه فان استطعنا أن نقبض عليه الآن فانه يغلب كلب مغلوين فقال السلطان

وما هي الحيلة في القبض عليه فقال نصنع له شركا من الحديد ونصطاده فقال الملك نكتب كتابا الى نائب دمشق ليعطيك ما يلزمك واني لا أطلب هذا الاسد الا منك لاجل ان يقتل كلب مغلوين فقال السمع والطاعة لامير المؤمنين ثم ان الملك كتب كتابا الى نائب دمشق يأمره بمساعدة المقدم اسماعيل ابو السباع فأخذ الكتاب وسار الى دمشق وأعطى الكتاب للنائب فلما قرأه قال على الرأس ثم العين أطلب ما تريد قال له اسماعيل ابو السباع أحضر لي شيخ الحدادين فلما حضر قال له اصنع لي شركا من الحديد ووصفه له وأعطاه مائة دينار فأخذها وصار يشتغل فيه حسب الطلب حتى انتهى فذهب المقدم اسماعيل الى جزار واتفق معه ان يذبح له كل يوم ذبيحة ليطعمها للاسد في الغابة حتى يتمكن من صيده وأخذه وذهب به الى النائب وقال له اعطه مائة دينار ليشتري بها غنما وبقرا فأعطاه ما طلب فقال المقدم للجزار اشتر بخمسين دينارا غنما وبقرا وخذ خمسين دينارا أجرتك ثم قال المقدم اسماعيل للنائب أريد عشرة رجال وأربعة بغال ليحملوا القفص وجملين وحصانين وعليقا للدواب وخيمة لاجل الاقامة في ذلك المكان فأحضر له ما طلب وساروا وحملوا القفص وأوصلوه الى الغابة فنصبه ابو السباع ونصب الخيمة وعمر بجانبها مكانا وضع فيه الغنم والبقر وأمر الجزار ان يذبح ثورا من البقر فذبحه وقطعه ووضع قطعة كبيرة في طريق الاسد فلما دخل الليل أقبل الاسد وعيناه تقدحان نارا وهو بقدر فحل الجاموس وأظافره كأنها الكلاليب وأنيابه أحد من الخناجر فلما وصل الى القطعة أخذها وعاد من حيث أتى فقال المقدم اسماعيل لمن معه هذا هو الاسد الذي أتينا لصيده فاذا قبضنا عليه رجعنا الى الشام وتعودون انتم الى اعمالكم فقالوا حقا انه مرعب وفي اليوم الثاني وضع المقدم قطعة لحم أكبر من الاولى وقربها من القفص فجاء الاسد وأخذها ثم توغل في الغاب وفي اليوم الثالث علق المقدم قطعة من اللحم على الفخ فجاء الاسد وجذبها بأظافره وعاد يتوغل في القفار ثم أمر المقدم

الجزار ان يذبح كبشا من الغنم فذبحه وأكلوا منه والباقي وضعه للاسد وهكذا ظل يطعم الاسد مدة عشرين يوما حتى تعــود الاسد على هذا المكان وعلى الشبع وقد كبر جسمه عن الاول وصار يزأر زئيرا يزعج الغاب وكأنه يقول هل من مبارز وعندما حان صيده لم يضع له المقدم ذلك النهار شيئا من اللحم حتى جوعه فلما أتى الاسد ليأكل اللحم لم يجد شيئا وصار يفتش على الطعام ويدور حول القفص فما وجد اللحم فعاد مقهورا اما المقدم اسماعيل أمر الجزار ان يذبح خروفا ويعلقه داخل القفص فذبـح خروفا وأكلوا منه كفايتهم ثم وضع الجزار الباقي داخـل القفص وترك الباب مفتوحا فأتى الاسد ليلا فرأى اللحم داخل الفخ فوقف ولم يدخل وصار يحوم حول الفخ ويفتش عن اللحم فما وجد الا الذي داخل القفص فلشدة جوعه دخل القفص وبسرعة وخطف اللحم وأراد ان يعود بالغنيمة كعادته ولكن الفخ كان قد أطبق عليه ووقع في الشرك ففرح المقدم اسماعيل بصيده وأمر العشرة رجال ان يحملوه على البغال بغلين من الامام وبغلين من الوراء والقفص في الوسط وساروا به الى ان وصلوا الى الشام فذهب الجزار لعمله والعشرة رجال رافقوا المقدم اسماعيل ابو السباع فسحبوا البغال وهي حاملة الاسد الى ان وصل الى مصر ودخل في يوم مشهــود الى قلعة الجبل ومعه السبع الاحول ففرح السلطان بنوال مراده وشكر المقدم اسماعيل وأثنى عليه وأمر بصنع حاجز يكون ارتفاعه عشرة أذرع وهو مستدير الشكل ومساحته الف متر مربع وأمر بصنع مقاعــد على الدائر ليجلس عليها المتفرجون وعمل له بابين بابا للاسد وبابا للكلب فلما أتم المهندسون هذا الحاجز أمر الملك نجاب مغلوين ان يحضر الكلب لاجل المبارزة بينه وبين الاسد فأحضره ثم أمر السلطان ان يحضر القنــاصل والسفراء والاجانب ليكونوا شاهدين على النزال والمصارعة بين الاسد وكلب مغلوين وأعلن الملك ان الدعوة عامة فأقبلت الناس من كل حدب وصوب في الوقت المعين وجلس الملك والوزراء والامراء في محلاتهم المعدة

لهم وبعد قليل أقبل السايس ومعه الكلب منقــاد في جنازير من الحديد وأتى المقدم اسماعيل ابو السباع بالاسد وهو داخــل القفص ففتح له القفص فقفز منه الى الباحة وصار يدور فيها ويزأر زئيرا عاليا فهو يريد ان ينتقم ممن احتال عليه وحجز حريته وحبسه في ذلك الفخ الكريه في ذلك الوقت أطلق خادم مغلوين كلبه من السلاسل وهيجــه وسلطه على الاسد فكشر أنيابه وهجم على السبع الاحول بقوة وأراد ان يطبق عليه بأنيابه فتلقاه السبع بضربة من يده ألقته على الارض فنهض الكلب وانقض على الاسد وعضه من فخذه فلقطه السبع بعضة من عنقه وغرز أنيابه بلحمه وصار يدور به ثم تركه والدماء تسيل من عنقه ثم عجل الاسد بضربة من يده على رأس الكلب فقضى عليه عند ذلك أمر الملك كاتب الديوان ان يكتب حجة بما جرى وأمره ان يوقعها بأسماء القناصل والسفراء وأختامهم ليكونوا شهودا على ما رأوه بأعينهم فشهدوا بذلك ووقعوا على الحجة بخط يدهم ثم أمر السلطان الكاتب ان يكتب الى مغلوين ويعلمه بقتل كلبه وانه ترتب عليه كل عام خزنة مال يقدمها للملك الظاهر وقل له ان يرسل خزنة هذا العام الآن ثم أعطى الحجة والكتاب الى نجاب مغلوين وأمره بالمسير الى ملكه ليعلمه بواقعة الحال فأخذ معه أعوانه وسار يطوي الفيافي والبحار حتى وصل الى مدينة مغلوين وهو مقهور لفشله في مهمته فلما وقف بين يدي مغلوين أخبره بما جرى وأعطاه الكتاب والحجة التي بها اختام القناصل وسفراء الدول وشهاداتهم فلما قرأ الكتاب وجد فيه من أمير المؤمنين الملك الظاهر الى بين أيادي مغلوين ملك البرتغال الذي نعلمك به ان كلبكم المرسل الينا للنزال حسب شروطك فقد غلبه أسدنا بحضور قناصل الدول والسفراء وخادمكم ايضا وقد أرسلنا لك الحجــة موقعة بأسمائهم فصار مرتبا عليك ان تدفع لنا خزنة مال كل عام فلما قرأ مغلوين الكتاب أعطاه لجوان قائلا خذ واقرأ نتيجة مشورتك المعكوسة لقد كنا بغنى عن هذه الاحوال فارحل عنا بسلام فلما سمع ذلك جــوان

أخذ غلامه البرتقش وسار الى غير بلاد ليعمل على أذية العباد اما مغلوبين فأحضر خزنة مال وأرسلها الى الملك الظاهر .

قال الراوي : وفيما كان الملك الظاهر يستلم خزنة المال اذ بنجاب يدخل الى الديوان ومعه كتاب قدمه للسلطان فأخذه قارىء الديوان وقرأه واذ فيه خطابا من نائب القدس علي القيمري الى مولانا أمير المؤمنين الملك الظاهر نعلمكم يا مولانا انه يوم تاريخه وصلتنا أخبار بقدوم جيش من البحر على ميناء يافا ووجهته بيت المقدس فأرسلنا من يكشف لنا الخبر فأعلمونا ان هذا الجيش أتى من جزائر الغلف والمقدم عليه الملك اصطالود الغلفي ومراده امتلاك بيت المقدس وقد أتى معه بكلاب كبيرة تساعد جيشه في الاعتداء على الناس فأقمنا الحصار والمنجنيقات على الاسوار وأغلقنا الابواب فأدركنا يا أمير المؤمنين والسلام عليكم فلما سمع الملك الظاهر قراءة الكتاب أمر بجمع العساكر والابطال ثم توجه بهم الىالقدس الى ان وصل بجيشه الجرار مع ابطال بني اسماعيل اما سبب هذه الحملة ان جوان عندما طرده الملك مغلوبين صار ينتقل من بلد الى بلد ومن ملك الى ملك وكان يغريهم على الحرب فما سمعوا منه الى ان وصل الى جزائر الغلف فوجد البلاد عامرة وغنية وعايشة بأمان فأخذ غلامه البرتقش وطلع الى ديوان الملك اصطالود فسلم عليه فاستقبله الملك ورحب به فقال له جوان يا ولدي انت الذي دلت عليك الدلائل فقم واركب بجيش على بيت المقدس وافتحه فتنال الشرف العظيم وسوف تعلو وتتفوق على جميع الملوك الافرنج وقد سمعت ان عندك عددا وافرا من الكلاب الضواري ضخام الاجسام حادة الانياب تهجم على الاسود في عرائها فلو ارسلتها وحدها لحاربت جيشا عظيما فانغر الملك اصطالود من كلام جوان وصار يجمع الجيوش والعساكر ويستعد للحرب وفتح بيت المقدس ثم انزل جيوشه في المراكب وسار في البحار الى ميناء يافا فلما وصل الملك الظاهر الى القدس وجد جيش الافرنج محتاطا بها ومحاصرها فحالا أمر جيشه

بضرب الاعداء حتى أزاحهم عن أسوار القدس ونصب الخيام ثم كتب كتابا الى الملك اصطالود وأعطاه لابراهيم فأخذه وأوصله الى الملك اصطالود الغلفي ففتحه وقرأ فيه من أمير المؤمنين الملك الظاهر الى اصطالود المغرور الذي يريد امتلاك مدينة القدس التي هي أمنع من نجمة المريخ اعلم ان الذي أغراك على هذه الحملة قد غشك وأراد هلاكك ودمار بلادك فاذا أردت السلام من العطب فاقبل الى عندي ومعك جوان لاحاسبك على كلفة الجيش ومعداته ثم ترحل الى بلادك وتؤمن على حياتك وان أبيت ذلك فسوف ترى ما يحل بك وببلادك والسلام فلما قرأ اصطالود الكتاب أعطاه لجوان وقال له اقرأ كتاب السلطان فقال له أنا اعرف ما يكتب السلطان فلا تهتم بشقشقة اللسان اكتب له ما عندي الا الحرب فكتب له الجواب ما عندي الا الحرب والقتال وأعطى الكتاب الى ابراهيم ثم أعطاه حق الطريق وعاد ابراهيم فأعطى السلطان رد الجواب فلما رآه بالحرب مزقه ورماه وأمر بدق طبول الحرب في الصباح خرج من جيش الافرنج فارس وصال وجال وطلب مبارزة الابطال فبرز اليه أيدمر البهلوان فتقاتلا وتضاربا قدر ساعة من الزمان فاستظهر أيدمر على خصمه فقتله فنزل لأيدمر فارس آخر ألحقه بأخيه والثالث أورده حتفه فنزل له كلب بيلماني ضخم وعض بأنيابه عنق الحصان ورماه فخاف أيدمر على نفسه وترك الكلب يكمل على الحصان وأعطى ساقه للريح فلما رآه السلطان قال له خفت من الكلب فقال هو كلب لا كالكلاب المعروفة فنزل علاء الدين فهجم عليه الكلب وخدشه في وجهه ولولا ما عليه من الزرد لمزقه تمزيقا فرجع علاء الدين دون ان يقتله ثم نزل اليه سنقر الرومي فضرب الكلب بسيفه القاه قطعتين عند ذلك برز له كلبان وهجما عليه فانقض أحدهما على الحصان وعضه من عنقه ورماه الى الارض فلما وقع سنقر أراد ان يقوم فكان الكلب الثاني أسرع منه فعضه من عنقه ولم يتركه حتى فارق الحياة رحمه الله تعالى عند ذلك أمر السلطان الامير سنبل بالنزول الى

الميدان ليأخذ بثأر أخيه سنقر فنزل الى الميدان فبرز له أربعة كلاب ولما أراد ان يهجم عليها سبقه اليها فداوي وضرب الكلب الاول رماه قطعتين فهجم عليه الثاني فضربه على عنقه أطار رأسه وضرب الثالث بين عينيه فشطره قسمين والرابع ألحقه برفقائه ثم صاح على اللئام ابرزوا أنتم ودعوا الكلاب فلا يستعين بها الا الجبناء فلم ينزل اليه احد عند ذلك قال انا والله أخجل ان أذهب الى السلطان وأقول اني كنت أقاتل الكلاب وقتلت أربعة منها ثم عاد الى البر من حيث أتى وفي اليوم الثاني أمر السلطان الامير سنبل ان ينزل الى الميدان فعندما نزل حضر الفداوي بسرعة وهجم على الكلاب وقتل أربعة منها بضرب أحر من الجمر فاغتاظ اصطالود وأمر ان ينزل الى الميدان من الكلاب عشرة عشرة فقتل الفداوي منها عشرين كلبا في ثلاثة أيام وظلت الكلاب تنزل اليه وهو يقتلها حتى أفنى جميع الكلاب فلما علم اصطالود انه لم يبق عنده كلاب تحارب تنتف لحيته ولطم وجهه وقال لجوان انت الذي أغريتني على هذه الحملة فقال جوان اي شيء جرى عليك فقال ان طال الحال يقتلوننا اما الفداوي فلم يعلم ان الكلاب انقطع دابرهم فسار الى السلطان وسلم عليه فرحب به ورآه رجلا مسنا فقال له ما اسمك ايها البطل قال انا المقدم صارم الدين النابلسي وكان هذا الفداوي لم يطع قط سلطانا ولم يطع المقدم معروفا لما كان سلطانا مع ان جميع الرجال أطاعوه ففي زمن سلطنة المقدم معروف طلب معروف من أتباعه ان يأتوه بالمقدم صارم الدين فلما علم بذلك صارم الدين سافر وغاب عدة سنوات وحضر في تلك الايام اما المقدم جمال الدين شيحة فانه حضر ورأى هذا الفداوي وتركه وسار الى جيش الافرنج فرأى جوان يتناقش مع اصطالود الغلفي ثم اتفقوا على ان يقوموا غدا بالحملة جميعا فلما علم شيحة بذلك رجع الى السلطان وأعلمه بهذه الحملة فنبه السلطان القادة والفداوية والعساكر ان يكونوا على أهبة القتال لئلا يأخذهم العدو حين غرة وباتوا على أتم الاستعداد لخوض تلك المعركة الكبرى وفي

الصباح هجم الاعداء بجميع جيوشهم وعساكرهم فتلقتهم الابطال بضرب البتار وحملوا حملة صادقة على الاعداء فلله در بني اسماعيل فقد أرووا الارض من دماء الاعداء وجعلوا ذلك النهار يوما منحوسا على الاعداء ودام القتال والنضال وسفك الدماء الى ان انحلت عزائم اللئام وولوا الادبار فتبعتهم جيوش الابرار تضرب في أقفيتهم والخيول غائرة وراءهم تدعسهم الى ان أوصلوا فلولهم الى ميناء يافا فرفع السلطان أعلامه على أرض يافا وطلب ملكها رودفيل فحضر بالحال فقال الملك كيف سمحت لهذا الجيش بالنزول الى مينائك فقال ليس لي مقدرة ان امنعهم فقال لو اخبرتني بمجيئهم لعذرتك وكنت سلمت من انتقامي فقال رودفيل الحق معك في هذا ايها السلطان فاذا علمت مرة اخرى بأن أحدا أراد النزول او نزل ومراده الاعتداء خبرتكم بالحال فقال السلطان اذهب الآن ولكن اياك ان تعمل ضدي او تتعاون مع احد علينا فاني اقتلك ولا ابقي على احد في بلادكم فذهب رودفيل وهو ينفض غبار الموت عن كتفيه ثم ان السلطان جمع الاسلاب وفرق الغنائم على المجاهدين وأراد الفداوية ان يسافروا الى بلادهم واذ بغلام قال للمقدم صارم الدين انا لي عندك ثأر وأريد ان آخذ بثأر منك لانك قتلت والدي ظلما وعدوانا فابرز الى الميدان فاما ان اقتلك او تلحقني بأبي فقال له من انت قال انا كامل بن الخطاب فنهض صارم الدين على غير ارادته واعتلى فرسه وبرز الى كامل وصارا يتقاتلان وكان صارم يدافع عن نفسه فقط وما كان يسدد ضرباته الى الغلام لانه لا يريد ان يقتله كما قتل أباه وكان يشير لبني اسماعيل ان يتوسطوا بينهما ويردوا الغلام عنه خوفا من ان يلحقه بأبيه فما عرفوا ذلك منه فالتفت قليلا ليقول لهم ابعدوا عني هذا الغلام فهو ليس من رجالي فحانت للغلام فرصة فضرب عنق صارم الدين بالسيف أطاح رأسه عن جثته ثم قال الغلام اشهدوا يا بني اسماعيل انا كامل بن المقدم خطاب قد قتلت صارم الدين النابلسي قاتل أبي وقد أخذت بثأر أبي فأسرع ابراهيم بن حسن وأحضر

الغلام الى بين أيادي السلطان وقال هذا قتل صارم الدين النابلسي خصمه فقال له كيف تقتل خصمك دون ان تعلمني فقـال الغلام لانه قتـل ابي وحرمني عطفه وعشت يتيما ذليلا محروما وهذا الرجل المسن عنده خبر ذلك فاسأله يا حضرة السلطان فقال الملك تكلم ايها الرجل بما تعرف عن هذا الغلام وعن أبيه فقال الرجل كان المقدم خطاب ابو هذا الغلام عاصيا على المقدم معروف فلما أطاعه قدم له هدية مهرة أصيلة فقبلها منه وعاد الى قلعته فرآه صارم الدين راكبا المهرة فطمع بها وتبع أثر خطاب ونزل عليه في قلعته وذبحه وأخذ المهرة فربت زوجته هذا الغلام عند اخوانها فلما كبر أرسلته امه اليّ ليسألني عن قاتل أبيه فقلت له هو في التفتيش عن المقدم معروف فما رأيناه الا في هذه الايام فأخذ الغلام منه بثأر أبيه وهذا ما جرى واذ بالمقدم جمال الدين شيحة أقبل وسمع الحديث وطلب من المقدم كامل الاطاعة فأطاع فأنعم عليه ثم ان السلطان أحضر اصطالود ورتب عليه الخراج وضمنه شيحة وسافـر الى بلاده والسلطان سافر الى مصر وسار المقدم كامل بن الخطاب صحبة الفداوية اما الفداوية من بني اسماعيل لما رجعوا الى قلاعهم مروا على قلعة الرصافة وجدوهـا معلنة العصيـان فسألوا ما الخبر قالوا لهم ان المقدم سعد الدين الرصافي عاد من التفتيش وسأل عن الرجال والقلاع وعن المقدم معروف فقالوا له ان المقدم معروف ظهر واستشهد على باب انطاكيـة بحلب فقـال من هو سلطان القـلاع والحصون قالوا رجل من عرب خان يونس اسمه شيحة جمال الدين فقال المقدم الرصافي وهل يقابل شيحة في الحـرب الفا او الفين من الفرسان فقالوا له هذا لا ينزل الى ميدان ولا يقاتل احدا ولكنه يحتال على اخصامه ويغلبهم بدهائه وشطارته فقال ان هذا المنصب لا يؤخذ بالحيل والألاعيب بل يؤخذ بالفروسية والشجاعة والبطولة ومن يتفوق بهذه الاوصاف يكون سلطان مصر والشام وأطاعتهما الرجال والمقدمون وكل من أطاعهما له كرسي

في الديوان فقال سعد الدين انا لا اطيع فشيحة مقتول والظاهر معزول وما احد سلطان الارض بالطول والعرض الا المقدم سعد الدين الرصافي اما المقدمون من بني اسماعيل عندما سمعوا ان المقدم سعد الدين عاد من التفتيش وأعلن العصيان قالوا لبعضهم لندخل عليه في القلعة ونسلم عليه وننصحه ان لا يفكر بالعصيان لان كثيرين من المقدمين قبله أعلنوا العصيان فما استفادوا شيئا وندموا على ما فعلـــوا ثم أطاعوا جمال الدين بالرغم منهم •

قال الراوي : وتم الاتفاق بين المقدمين من بني اسماعيل ان يدخلوا على المقدم سعد الدين الرصافي وينصحـــوه ان يطيع جمال الدين شيحة فدخلوا القلعة وسلموا عليه فاستقبلهم بالترحاب ثم قال لهم أريد منكم ان تساعدوني وتعلنوا العصيان مثلي فنقتل شيحة ثم تبايعوني على سلطنة القلاع والحصون فعندما سمعوا منه هذا الكلام ندموا على دخولهم القلعة وعلى مواجهته ولم يجيبوه شيء فقال لهم ما بالكم لا تتكلمون هل أخافكم شيحة فقطع قلوبكم أم خفتم على رواتبكم ان تنقطع عليكم فقالوا ما خفنا على شيء ولكن كل منا جرب نفسه مع جمال الدين فما قدرنا عليه والآن جئنا نسلم عليك وننصحك ان تطيع جمال الدين ولا تباديه بالعصيان فما يعود عليك الا بالخسران فقال سعد الدين انا ابن عمكم فساعدوني على هذا الامر لعلي أنجح فيه وأخلص هذا المنصب من شيحـــة فقالوا له ان شيحة محظوظ ومسعود واذا ساعدناك وقمنا ضده أهلكنا جميعا وخسرنا مركزنا فلا تغتر بنفسك لانك لم تر شيئا من أفعاله ولم تجربه فقال اذن نذهب أنا وأنتم الى مصر ونحكي للسلطان بهذا الخصوص فينصف بيني وبين شيحة على هذا المنصب فقالوا له اركب فنركب معك فركبوا وساروا الى مصر ودخلوا الى الديوان وسلموا على الملك ثم أعلموه بحضور المقدم سعد الدين الرصافي وهو يطلب من مولانا السلطان ان ينصفه مع جمال الدين شيحة من جهة السلطنة على القلاع فقال الظاهر ما تقول يا جمال

الدين قال شيحة يلزم على المقدم سعد الدين ان يقدم لنا برهانا على كونه قادرا ان يقوم بهذا المنصب وانه أهل له وان هذه السلطنة لها مهر فقال سعد الدين وما مهرها فقال شيحة جمال الدين يوجد في خزائن ميخائيل ملك القسطنطينية طير ناطق وسيف زاعق فاذا أتيت بهما تكون انت سلطان القلاع وانا معزول وان انا أتيت بهما تطيعني وتكتب اسمي على سيفك فقال الرجال راحت السلطنة من يد شيحة فقال سعد الدين يمكن يعرقل لي اعمالي فقال شيحة انا لا اسافر من مصر الا بعد ثلاثين يوما من سفرك واذا رأيتك لن اتخلى عنك واني اساعدك بما ينجح مسعاك فاذهب بسلام عند ذلك استأذن سعد الدين الرصافي من السلطان وسافر الى القسطنطينية وصار يسعى ويفتش عن الطير الناطق والسيف الزاعق مدة عشرين يوما فما عرف مكانهما وقد كثر تردده على ديوان ميخائيل وكان بعض جماعة الملك يترصده فحكوا عنه للملك ميخائيل فقال لهم بنجوه وقيدوه بالاغلال وأحضروه لنحقق معه ونعرف مرامه وكان سعد الدين قد أعياه الامر وندم على ادعائه بمقدرته امام الملك والمقدمين فجلس في غرفته بالخان وهو يقول بنفسه كيف أرجع بدون الذخيرتين وكيف أمثل أمام السلطان والمقدمين فسوف ينحط مقامي وأصير أضحوكة امامهم وفيما هو يفكر بذلك دخل عليه الخاناتي وقال له الطعام جاهز فقال له احضره فلما أكل منه داخ ووقع على الارض فقد أثر فيه البنج الذي وضعه في طعامه جماعة الملك ميخائيل فحالا قيدوه بالاغلال من يديه ورجليه وأخذوه الى الملك ميخائيل ثم انهم صحوه فرأى نفسه مقيدا بالسلاسل والاغلال وهو بين يدي الملك ميخائيل فقال له من انت ومن ارسلك الى هنا قال له انا من بني اسماعيل وانا من العاصين على سلطان القلاع والحصون شيحة وقد هربت منه خوفا على نفسي من بطشه والتجأت اليكم فقال الملك ضعوه في السجن فأخذوه ووضعوه في السجن اما شيحة جمال الدين لما مضى شهر على سفر سعد الدين توجه الى القسطنطينية وغير هيأته وملابسه بصفة بطرك جليل القدر

ثم توجه الى ديوان الملك ميخائيل ودخل عليه فلما رآه الملك وقف له على قدميه واستقبله اعظم استقبال وقبّل يده ثم قال له من أين تشريفكم يا أبانا فقال له من دير نجران واسمي الهول الطيار فقال له أهلا وسهلا أرجو ان تطول اقامتكم عندنا لتحل علينا بركتكم فأقـام عنده أياما وفي احد الايام قال له البطرك أتاني هاتف ليلة امس واعلمني ان بعض اللصوص يحاولون ان يدخلوا الى خزينتك ليلا ويسرقوا التحف الموجودة بها وهي عزيزة عليك هذا ما قاله لي الهاتف فما هذه الذخيرة التي عندك أرني اياها لابارك لك فيها فتكون في حرز أمين فقال له الملك تعـال معي لترى اني محافظ عليها ولا يمكن لاي انسان ان يصل اليها فسار معه في دهلـيز طوله عشرة أذرع فكبس الملك زرا في حائط فانزاحت ثلاثة أحجار وظهر مدخل مثل الباب ثم مد يده في طاقة بالجدار واخرج شمعة واشعلها فظهر درج مركب من درجات بيض ودرجات سود فقال الملك اياك ان تدعس على الدرجات البيضاء لانها مهلكة انظر اذا دعس عليها انسان كيف تهلكه ثم ان الملك تعلق في الدرابزين ودعس على الدرجة البيضاء فانقلبت على حفتها وبان تحتها جورة ملساء عمق قامتين وبأسفل الجورة حراب كحراب الرماح ثم ان الملك أرجع الدرجة كما كانت ثم قال انظر هذه الارض المبلطة ببلاطات كبيرة هي مهلكة وضررها بعكس الدرج تماما فاذا دعس الانسان على البلاطة البيضاء سلم واما اذا دعس على السوداء هلك لا محالة فقال البطرك أرني كيف عملها فدعس عليها الملك دعسا خفيفا فانحرفت وانقلبت على طرفها فنظر البطرك ما تحتها فرأى جورة بعمق عشرة أذرع وبجوانبها حراب ونصلات كالخناجر والسكاكين ثم أرجع البلاطة كما كانت وصارا يدعسان على البلاط الابيض الى ان وصلا الى باب مصفح بالنحاس فمد الملك يده الى جانب الباب وقال للبطرك قف على طرف بعيدا عن البـاب ثم كبس زرا ففتح الباب وخرج سهم من الداخل بسرعة البرق لو دخل بجسم انسان لقضى عليه بالحال وصبر الملك قليلا حتى خرج سهم مثل

الاول حينئذ دخل الملك ودخل معه البطرك فرأى غرفة واسعة ليس فيها شيء ورفع الملك يده على جدار وكبس زرا فانفتح باب فدخلا به وسارا به الى ان وصلا الى خزانة من الحديد فقال الملك هذه الخزانة لا تفتح الا عن بعد ومد عصاة ووضعها على يد الخزانة وكبسها فسقطت من السقف بلاطة عريضة وطويلة معلقة بسلاسل لو سقطت على رأس أحد لمات في الحال ثم قال الملك لم يبق الا مهلك واحد ونصل الى الذخائر قف جانبا وانظر ثم انه شد باب الخزانة وفتحه فخرج من الداخل سهمان متتابعان وبعدها دخل الملك والبطرك فرأى قفصا مدورا له تاج مرصع بالاحجار الكريمة وهو مصنوع من الذهب وفيه طير غريب الشكل ذيله كذيل الطاووس واجنحته مرصعة بالياقوت ورأسه متوج بريش مرصع بالماس من صنع الحكماء وميزة هذا الطير انه ينطق بالحكمة ويوحد المولى تعالى ويخبر الانسان عن أشياء تفيده في دينه ودنياه اما السيف فهو معلق في صدر الخزانة وقبضته من ذهب مرصع بالاحجار الكريمة ونصله من حجر الصاعقة اذا ضرب به فانه يقطع الحديد والبولاد عند ذلك بدأ البطرك يتلو بعض التعاويذ وينفخ على الطير والسيف ثم قال للملك ميخائيل حقا انهما في حرز أمين وقد قرأت لك عليهما حتى لا تمتد اليهما يد السارق ثم ان الملك رجع هو والبطرك من حيث أتيا واستأذن البطرك من الملك بالذهاب فقال له أقم عندنا حتى تحصل لنا البركة بوجودكم فقال بارك الله بكم اسمح لي بالذهاب لانه لا يمكنني ان اقيم في بلد واحد لاني انتقل من بلد الى بلد قاصدا نفع خلق الله ثم ودعه وذهب يفتش عن المقدم سعد الدين الرصافي فوجده في السجن فانسل الى السجان وصرفه وأقام محله اما سعد فصار يتأوه ويتأسف على وقوعه في السجن وصار يفكر بحيلة ليهرب من السجن فتذكر ان جمال الدين شيحة قال له اذا وقعت في ضيق فاطلبني فاني أساعدك ولا اتخلى عنك فقال لاجرب وأطلبه فان انقذني من السجن فاني أطيعه ثم صاح انت فين يا جمال الدين ساعدني وانقذني من

هذا السجن فرد عليه السجان قائلا ماذا تريد فقال للسجان انا لم أدعك ولم أطلب منك شيئا ثم قال يا شيحة يا سلطان القلاع والحصون فكني من أسري فدخل السجان وقال له لبيك يا مقدم سعد الدين انا شيحة اخوك اما عرفتني قال الآن عرفتك ثم انه فكه من القيود وقال له اتبعني فسار الى أن وصل شيحة الى جدار الطابق الذي فيه الطير الناطق والسيف الزاعق فكبس بيده على زر في الجدار فانزاحت الاحجار عن موضعها وانفتح الباب فدخلا وصار جمال الدين يمشي ويقول لسعد الدين ادعس محل دعستي تماما والا هلكت فقال له لله درك من بطل ومن أين لي ان اعرف هذا المكان وهذه الاسرار فلما تخطيا المهالك وصلا الى الطير والسيف فأخذهما شيحة وسلمهما الى سعد الدين وصار يخرب المهالك الى ان خرجا فأحضر شيحة حصانا وخرجا وضع فيه القفص والسيف وقال لسعد الدين سر الى مدينة بورصة وتوجه الى الحاكم مسعود وقل له عن لساني ان يضعها لك في الخزينة ثم تستريح ثلاثة ايام وبعدها تأخذ القفص والسيف وكل ما وصلت الى مدينة تودعهما في الخزينة الى ان تصل الى مصر فسار وصار يعمل كما قال له شيحة اما ميخائيل ملك القسطنطينية استفقد السجن فما رأى السجين وما رأى السجان فذهب الى محل الذخائر فرأى المهالك مخربة والطير والسيف مفقودين فطار عقله وصار يفتش عليهما في كل مكان وأرسل فرسانا تفتش عليهما في جميع الجهات فما وجدوهما ولا عرفوا من أخذهما اما سعد الدين فوصل الى قرية (يعزة) فشعر بالتعب والنعاس فنزل عن الجواد وعلق له واكل ثم اضطجع ونام وكان قد رآه عايق رومي يقال له فريعة اليغروي فتبعه حتى حانت له الفرصة فرأى سعد الدين نائما فتقدم اليه وأخذ منه القفص وسار وهو فرحان بنيل المراد ورآه جمال الدين شيحة ومعه القفص فعرف انه سرقه من سعد الدين فسلم عليه وصار يباسطه في الكلام ثم غافله وطعنه بالخنجر في جنبه أورده حتفه فمات وأخذ شيحة منه القفص وسار فالتقى بسعد

الدين وهو يلطم وجهه وينتف شعره ولكنه لما رأى القفص مع شيحة تبدل حزنه فرحا فأخذه منه ثم قال له انا أول من أطاعــك لانك تستحق هذا المنصب عن جدارة فقال له شيحة سر الآن الى مصر واحذر ان تغفــل او تنام الا بعد ان تودعهما الخزينة كما أوصيتك فركب سعد الدين وسار الى ان وصل الى حماه فودعهما في الخزينة وأخذ راحته ونام وفي اليوم الثاني لما أخذ الطير من الخزينة غرد الطير وقال الله حق ما فيه شك تنبه ايها الغافل وقد سموا حماه الطير الناطق لهذا السبب اما سعد الدين فسافر الى مصر وقصد الديوان ودخل على السلطان ودعا له بالنصر وقال هذا هو الطير الناطق وهذا هو السيف الزاعق الساحق فما أنتم قائلون يا بني اسماعيل فقالوا له انك تستحق السلطنة واذ بشيحة داخل الديوان فنهض سعد الدين وقال الف طاعة لامير المؤمنين ولجمال الدين سلطان القلاع والحصون ثم قال اشهدوا يا بني اسماعيل اني انا طائع للمقدم جمال الدين ما دمت حيا فتبسموا وقالوا الآن عرف الحقيقة .

قال الراوي : اما الملك مغلوين بينما كان جالسا في ديوانه اذ دخل عليه جوان وسلم عليه فقال مغلوين لجوان مرادي هلاك الظاهر بيبرس ولكن ليس لي قدرة على حربه فقال جوان انا اشير عليك ان تشحن تجارة من بلادك الى الاسكندرية وبعدها تأخذ معك مراكب وتملؤها عساكر وأسلحة وتجتهد في دخولها الى الاسكندرية وانت بصفة تاجر حتى تملكها حينئذ تستطيع ان تملك مصر بمدة وجيزة وهذا ما عندي من الرأي فقال مغلوين هذا أمر هين ثم انه جهز تجارة وسار بها الى الاسكندرية ودفع الجمرك واستأجر خانا وصارت ترد عليه البضائع بموجب قوائم بكشف السلع وعندما يقابلونها يجدونها صحيحة تماما فصاروا يصدقونه ويأخذون منه الجمرك على موجب القوائم من غير كشف او مقابلة فلما عرف انهم أمنوا من طرفه صار يدخل رجالا وسلاحا ويعطــي قوائم باسم بضائــع ويدفع الجمرك حتى اجتمع لديه ما ينــوف عن الفي رجل فكاتب جوان

فجهز له مائة مركب بالسلاح والعساكر فعندما وردت المراكب مع جوان على الميناء أوقف مغلوين العساكر الذين عنده على الميناء حتى طلع من في المراكب ليلا ودار السيف بالاسكندرية وقبض على النائب فهرب أهلها الى مدينة رشيد واحتل مغلوين المدينة وانتشرت عساكره في البلد ولم يبق له مقاوم وقد أرسل أهالي الاسكندرية كتابا الى الملك الظاهر أعلموه باعتداء مغلوين واحتلاله الاسكندرية فلما قرأ الملك الظاهر الكتاب أمر العساكر بالمسير الى الاسكندرية وسار بهم بسرعة زائدة وعندما وصل جيش السلطان رأى جيش العدو ظاهر الاسكندرية ومستعد للحرب وللقتال فهجم عليهم بنو اسماعيل وسائر العساكر والجنود بضرب الرقاب الى نصف النهار فأرغموهم على التراجع الى داخل المدينة فدخلوها وتحصنوا فيها وأقام الملك الظاهر يحاصر الاسكندرية ثلاثة أيام ثم انتخب رجالا من الابطال وقال لهم ادخلوا البلد وافتحوا الباب بالقوة حتى نهجم عليهم ونفنيهم عن آخرهم فنصب الرجال والفداوية مفاردهم على الاسوار ومعهم ابراهيم وسعد وجملة أبطال يعتمد عليهم ودخلوا عنوة الى البلد وقصدوا مغلوين في الديوان ودخل ابراهيم فقال جوان هذا ابن الحوراني فصاح مغلوين دونكم واياه فما أتم كلامه الا وسيف ابراهيم ذي الحيات أطاح رأسه فانطلق اللئام على ابراهيم فالتقاهم مع بني اسماعيل بضرب أحر من الجمر فهرب الاعداء من بين أيديهم فأسرع ابراهيم وأبطال الموحدين الى الباب وقتلوا الحراس عن آخرهم وفتحوا الباب ودخل الملك الظاهر وخلفه العساكر والجيوش وغنى الحسام برقاب اللئام حتى مضى الليل وأقبل النهار اما ابو علي البطرلي القبطان أمر بالهجوم على الميناء فلما وصل اليها ملكها من الاعداء وغنم اكثر مراكبهم وأسر رجالهم وكان السلطان وعساكر الموحدين قد انتقموا من الاعداء الافرنج أفظع انتقام والملك الظاهر يصيح بهم لا تبقوا منهم اي انسان فصاح اللئام الامان الامان ايها السلطان ورموا سلاحهم عند ذلك قادتهم جنود السلطان

ووضعوهم في القيود والاغلال ثم ان السلطان فرق الغنائم والأسلاب على المجاهدين وعلى المتضررين من أهالي الاسكندرية وخلع على نائب الاسكندرية وأوصاه باليقظة بعد ما انبه على اهماله وأقام السلطان في الاسكندرية عشرة أيام وهو يصلح حالها ثم سافر الى مصر مع جيشه وقاد الاسرى الى مصر فاستقبله الاهالي بالاهازيج والمهرجانات الى ان وصل الى قلعة الجبل ودخل الديوان وجلس على تخته يتعاطى الاحكام الى يوم من الايام وهو في ديوانه اذ بعشرة من العبيد يدخلون الديوان وقدموا للسلطان هدية وكتابا فقرأ في الكتاب من ملك الحبشة والسودان سيف الملك الى بين أيادي الملك السلطان الظاهر بعد السلام والتحية نعلم جلالة الملك اننا قد أرسلنا لكم هدية مع الكتاب فتفضلوا بقبولها ولكم الشكر فقال الملك الظاهر الهدية مقبولة فأين هي فقدموها له وهي شجرة من الذهب الاحمر بثلاثمائة وخمسة وستين فرعا وتحتها شخص من فضة وسبع من ذهب والسبع واضع يديه على كتفي الرجل وغارز أنيابه في عنقه ويوجد تحت الشجرة حبوب كثيرة فلما رآها الوزير قال هذه الهدية مصممة على ألغاز ينبغي لنا ان نفكر فيها ونعرفها فقال الملك وما هي الالغاز التي نقتبسها منها قال الوزير يقصد ملك الحبشة بهذه الشجرة ان بلاده لها ثلاثمائة وخمسة وستون اقليما على عدد ايام السنة ويمثل نفسه بالاسد اما الشخص الذي يفترسه الاسد فهو امير المؤمنين لا سمح الله واما الحبوب فهي كثرة جنده وعساكره فقال الملك صدقت فيما قلت وعلينا ان نرد له الجواب فأحضر الوزير أرباب الصنائع وأمرهم ان يصنعوا له شجرة بثلاثمائة وخمسة وستين فرعا من الفضة وكل فرع بثلاثمائة وخمسة وستين عودا وجعل تحت الشجرة شخصا من حديد مرتديا ثياب ملك الحبشة وجعله مقيداً وجعل صورة السلطان من فضة بيده حربة رأس سنها في عين ملك الحبشة ووضع حبوبا وديوكا تحت الشجرة والديوك تلتقط الحبوب بمناقيرها ثم كتب كتابا لملك الحبشة قال له قد فهمنا ألغاز هديتكم بحذافيرها وقد أرسلنا لكم الجواب هدية أعظم من هديتكم وبها ألغاز

وأسرار سنبينها لكم وهي أن مملكتنا شجرة تحتوي على ثلاثمائة وخمسة وستين قطرا بكل قطر ثلاثمائة وخمسة وستون تختا وكل تخت له قلعـة ومدينة .

اما عساكركم فهي كالحبوب وأبطالنا كالديوك تلتقط الحبوب في لمح البصر أما صورتي وصورتك فهي تمثل مقابلتنا في الحـرب وان حربتي ستخرق عينك وتقضي عليك فان أردت خراب بلدك فدونك وما تريد ، ثم انه وضع الشجرة في صندوق وأعطى الكتاب والصندوق الى العبيد وأمرهم بالعودة فعادوا الى ملكهم وأعطـوه الكتاب والصندوق ففتح الصندوق ورأى الشجرة فقال الوزير لقد عرفوا حكاية الهدية وأرسلوا لنا الجواب مزعجا .

قال الراوي : سبب ذلك ان الاحبـاش كانوا مارين في أسواق مصر فهجم كلبهم على الخبـز وعض رغيفا فأخذ الفران قطعـة من حديد من الاوزان وقذفها على الكلب فجاءت على رأسه فمات بالحـال فجرد أحد الاحباش سيفه وضرب الخباز فقتلـه فهب أهـل السوق وهجموا على الاحباش وقتلوهم عن آخرهم وكانـوا عشرة أشخاص وفي أثنائها كان السلطان بالحملة على الاسكندرية والشعب ثائر من عدوان الافرنج على الاسكندرية فلما نقلوا قتلى الاحباش من السوق كان بينهم رجل مجروح فلما بريء من جرحه ذهب الى بلاده ، وأعلم صمصاما ملك حصباء العين ان ولده قتل هو ورفقاؤه فلما سمع الملك ذلك ثار ثائره وغضب وهدد وقال سوف نرى ولما رجع الملك الظاهر من الاسكندرية مؤيدا منصورا خبروه بما جرى من الاحباش وكيف اعتدوا على الخباز وهب أهل السوق عليهم فقتلوهم وبينهم ابن ملك حصباء العين فقال السلطان وما العمـل فقال الوزير أحضر الشهـود واكتب لملك حصباء العين صورة ما جرى مفصلا وليوقع الشهود عليها وأرسلها الى صمصام ملك الاحبـاش فان قبل ذلك واقتنع ان ولده مات بسبب تعديه كفى الله المؤمنين القتال وان

افترى علينا فنسأل الله ان ينصرنا عليه فأمر الملك باحضار الشهود وكتب حجة بما جرى ووقعوا عليها بأختامهم وأرسلها الى الملك صمصام مع كتاب يعتذر فيه وقال ان الامر جرى قضاء وقدرا من دون قصد او تصميم فلما وصل الكتاب والحجة الى الصمصام زاد غيظه وأراد ان يركب وكان له أخ يقال له القمقام وهو وزير سيف الملك ملك بلاد الحبشة فأرسل صمصام يقول لأخيه القمقام ان ولدي قتل في مصر ثم قال له ومرادي أسير اليه بعساكر السودان وآخذ بثأر ولدي فعرض القمقام الكتاب على سيف الملك فأشار عليه أن يرسل الشجرة للسلطان فأرسلها وجاء له ردها ونظرها سيف الملك فقال وحق زحل لا أتركهم حتى أملك بلادهم وأهلك عساكرهم وأبطالهم وضرب الطبول فارتجت بلاد السودان وكادت تصدر الاوامر بالسير لولا ان الملكة ميمونة أخت الملك سيف الملك وصلت في ذلك الوقت ومرادها ان تسلم على أخيها فلما علم الملك بقدوم أخته وكانت غائبة عند ابن عمها الملك برقان قام اليها واستقبلها وسلمت عليه وسلم عليها فقالت ما لي أراك منزعجا فقال لها ان الملك الصمصام أرسل ولده الى مصر فقتلوه فأردت أن أساعده بحملة عليهم فقالت له اقعد ولا تكلف نفسك وجهز لي عشرة آلاف من السودان وأنا أقابلهم بالحرب والطعان ثم انها ذهبت لمملكتها مدينة الايوان ووضعت فيها نائبا عنها ورجعت الى مدينة حصباء العين ونزلت بجيشها فبلغ ابا عمرو امير بلاد السودان المصري قدوم هذه الكاهنة وهو يعلم انه لا طاقة له على حربها فقال لعساكره هذه اللعينة اذا سارت الينا وهاجمتنا فانها تكبدنا الخسائر فالاحسن ان نذهب لمصر ونعلم السلطان بهذا الامر ثم انه أخذ عشرة من الاعيان وسار الى مصر ودخل على الملك وسلم عليه فسأله الملك الظاهر عن حالهم وما هي أخبارهم فقال ابو عمرو ان البلاد مهددة بالدمار من قبل جيوش الاحباش وذلك بأمر اللعينة ميمونة الحبشية الساحرة فقال السلطان ان الله تعالى وعد المؤمنين بالنصر فلا تخف يا ابا عمرو ثم قال يا معشر الامراء من يريد

منكم ان اجعله مقدماً على هذه الحملة الى بلاد الحبش والسودان واذا فتح بلدا تكون لـه فقام الامير بكتمر السعدي وقال انا لها يا امير المؤمنين واني أبذل نفسي ومالي في سبيل الله وسأعود منصورا باذن الله عند ذلك خلع عليه الملك وأكرمه ثم قال ان الامير بكتمر السعدي قائد جيش وعساكره سبعة آلاف بخيلهم وسلاحهم فالواجب عليكم ان تساعدوه بمماليك وعساكر وخيل يستعين بها على الحرب والقتال فقالوا سمعا وطاعة فأعطاه أيدمر البهلوان الف مملوك بخيلهم وسلاحهم وخمسة آلاف دينار وخمسين خيمة وقال الامير قلاوون وانا ادفع كما دفع أيدمر ودفع بقية الامراء كل واحد قدر استطاعته فصار جيش بكتمر السعدي سبعين الف مقاتل وقدم له السلطان اثنين وعشرين مدفعا بخيولها وبارودها وسار الامير بكتمر السعدي الى ان التقى بعساكر الملكة ميمونة التي أتت بعساكر تزيد على المائة الف ولما التقى الجيشان بدأ القتال وعلا الصياح والتحمت العساكر ببعضها البعض وتطايرت الرؤوس عن الابدان وتكسرت السيوف على السيوف وخرقت الرماح أجسام الخيل والفرسان ودام القتال الى آخر النهار اما الاعداء فلم يأمروا بالانفصال بل تابعوا الحرب والقتال عند ذلك أمر بكتمر السعدي ان يضربوهم بالمدافع فما أتم كلامه حتى خرجت الحمم والنيران على الاعداء فتطايرت أشلاؤهم وتقطعت أجسامهم ودام ضرب المدافع مدة ساعتين فتشتت الاحباش في الاودية والجبال فأيقن الامير بكتمر بالنصر والظفر فأمر العساكر بجمع الاسلاب والغنائم ثم أمر الجيش بالسير الى حصباء العين اما السودان والاحباش الذين انهزموا الى حصباء العين فلما رأت ميمونة ان جيشها هلك منه اكثر من نصفه دخلت بيت الارصاد وولولت ثم عزمت العزائم وجمعت خدامها وأمرت أعوان الجان ان يرموا النار على عساكر بكتمر فلما وصل الامير بكتمر السعدي ولم يعلم بذلك الامر أمر بنصب الخيام واذا بالزوابع والعواصف ثارت في وجوههم فمزقت الخيام ثم خرجت عليهم نار وشرار فتشتت العساكر في

القفار وكان الامير بكتمر يصيح بهم ارجعوا الى القتال وجاهدوا في سبيل الله فما استطاعوا فلما تكاثر الدخان والشرار عليه داخ ووقع مغشيا عليه فلما أفاق من غشيته ظن أن القيامة قامت ثم انه قام ومشى فاشتد به العطش ثم جلس يستظل تحت شجرة واذ بحية بيضاء خائفة ومرعوبة وكأنها أتت اليه تستجير به وخلفهاثعبان أسود يطاردها فلماوصل الى تحت الشجرةضربه بكتمر السعدي بالسيف قطعه نصفين فانقلبت الحية البيضاء آدمية وقالت يا سيدي لقد أنقذتني من هذا العفريت فقال بكتمر ومن انت قالت له اعلم يا سيدي انا مرجانة بنت الملك البرهجان وهذا العفريت شيشير الذي قتلته كان قد خطبني من ابي فأبى والدي ان يزوجنـــي منه فحلف ان يأخذني غصبا عني فكنت أتوارى منه ولا أمكنه من رؤيتي ابدا واليوم أردت ان اذهب الى نزهة فجعلت نفسي حية فعرفني وجعل نفسه ثعبانا ولحقني فشكرا لك الذي خلصتني منه فانتظرني لأحضر لك سيفـــه لانه يكون ذخيرة لك واذا جردته في الميدان فانه يقطع في الانس والجان وغابت قليلا وأتته بالسيف وجلست بجانبه تسامره قالت انا قصدي ان تذهب معي الى امي وابي لانهما سيكرمانك لانك أنقذتني من هذا العفريت فاذا قال لك ابي تمن علي فقل له أتمنى ان تكحلني بكحل الجلالات فاذا تكحلت بـــه ترى الانس والجان واذا قالت لك امي تمنى علي فقل لها أتمنى ان تلبسيني ثوب الوقاية فاذا لبسته لا يضرك السحر ولا تدنو منك الجان فقال لها وهل تعلمين اين عساكري الآن فقالت مرجانة لا تخف عليهم ففي هذا اليوم سأرسل لهم ما يكفيهم من المؤن فقم معي الى ابي وامي فسار معها وأدخلته على أبيها وحكت له انه خلصها من شيشير العفريت فقال له تمن علي يا انسي قال له كحل عيني بكحل الجلالات فكحله فصار ينظر الجن والعفاريت ثم أخذته مرجانة لامها وحكت لها كيف قتل العفريت وخلصها منه فقالت له تمن علي يا انسي فطلب منها ثوب الوقاية فأعطته اياه فلبسه فرأى نفسه أعظم من جميع المخلوقات فقالت له مرجانة اعلم ان هذه الذخائر الثلاثة لا

يمنكها غيرك من انس او جانٌ فلا تفرط فيها قال لها كملي جميلك ومعروفك وأوصليني الى عسكري فحملته وسارت به الى عسكره فرآهم مشتتين في الجبال والوديان بلا خيام ولا طعام بحالة يرثى لها فجمعهم فقال لمرجانة اسرعي واحضري لهم كل ما يلزمهم فأمرت خدامها ان يحضروا لهم الخيام والاسلحة وكل ما فقد منهم في حصباء العين وأحضرت لهم الطعام فأكلوا وشربوا وعادت لهم قوتهم وأسلحتهم وما مضى النهار الا وتكامل الجيش وكان قد مات منهم ثلاثة آلاف رجل وفي الصباح أمر عسكره بالسير الى حصباء العين فقالت له مرجانة ايها الامير لا تضرب الا بسيف العفريت ثم ودعته وغابت عنه اما ميمونة الساحرة فلما رأت العساكر مقبلة أمرت جيوشها بالخروج فخرجوا فنزل الامير بكتمر الى الميدان وتبعته العساكر وصاروا يجولون في الاعداء يقطعون الرؤوس الى آخر النهار دق طبل الانفصال فافترقوا عن بعضهم اما ميمونة فقالت لعساكرها الا تخشون العار وأنتم أولاد حام تعجزون عن قتل فرقة صغيرة فقالوا لها هذا الامير يحاربنا بالنهار بالسيف واما بالليل فيضربنا بالمدافع التي تقذف علينا النيران وتهلكنا فهذا الذي نحسب حسابه فقامت ودخلت بيت رصدها وأرادت ان تستعمل باب السحر فقال لها خدامها ليس لنا مقدرة على بكتمر فقد استحصل على سيف شيشير العفريت من الملكة مرجانة وابوها الملك البرهان كحله بكحل الجلالات فصار يرانا كما نراه ويضربنا بذلك السيف فيمحقنا وام مرجانة البسته ثوب الوقاية المطلسم فلم ينفع معه علم الاقلام والسحر والشعوذة وليس امامك الا الهرب فانحمقت الملعونة وخرجت من بيت رصدها وركبت على جوادها وجذبت السيف وصاحت يا ابناء حام فجاوبتها فرسان الاحباش كأنهم العقبان وزحفوا على الامير بكتمر فأمر بكتمر المدفعية ان تطلق نيران المدافع على الاحباش فأطلقوا عليهم حمم النيران من المدافع حتى أفنوا منهم خلقا كثيرا فلما نظرت ميمونة ما حل بجيشها فما وجدت أفضل من الهزيمة فولت الادبار وتبعها الاحباش وهم

ينهزمون خلفها وتبعهم الامير بكتمر الى حصباء العين فملكها ثم دخل الى مدينة الايوان وملكها وملك القلاع التي حولها وغنم أموالهـا ثم سار بعساكره الى مدينة الدور والسبع قصور فلما علم الملك سيف الملك بهزيمة أخته أحضر عساكره وأراد ان يحارب واذ بالامير بكتمر أقبل فرأى امامه اناسا لا تعد ولا تحصى فوضع المدافع وسط الميدان وقسم العساكر قسمين ميمنة وميسرة وأحضر قطع أحجار وأمرهم ان يملؤا المدافع احجارا وان يضربوها بدلا من القلل وكان سيف الملك قد صف عساكره وانتظر الهجوم فما نظر الا والمدافع قذفت أحشاءها على عساكره ورأى رجاله تتساقط كما تتساقط أوراق الشجر أيام الخريف فقال ان دمنا على هذا الحال أفنونا عن آخرنا ثم أمر بالتراجع والانسحاب من مدينة الدور ولما رأى بكتمر ان اعداءه انهزموا دخل على مدينة الدور واحتلها وقال لاهلها عليكم الامان لانكم صرتم من رعايا السلطان وجلس على الكرسي وكتب كتابا الى الملك الظاهر يبشره بالفتح المبين وجمع الاموال وفرق منها قسما على العساكر وأرسل باقي الاموال وكتابا الى السلطان مع احد الامراء وصحبته عشرة فرسان فلما وصلوا الى مصر قدموا المال للسلطان وأعطوه الكتاب فقرأ فيه من خادمكم بكتمر السعدي الى بين يدي أمير المؤمنين حرسه الله ونصره على اعدائه الذي نعلمكم به أن ميمونة الساحرة قد تشتتت عساكرنا بسحرها ثم انتصرنا عليها وأخذنا منها البلاد والقلاع التي كانت أخذتها من ابي عمرو وبعدها أخذنا منها حصباء العين فهربت ميمونة الى مدينة الدور والسبع قصور فتعرض لي سيف الملك فقابلته بالمدافع فانهزموا فأخذت مدينته والآن نحن منتظرون أوامركم بما ترونه موافقا فنعمل بموجبه أدام الله عزكم ونصركم فلما قرأ الملك الكتاب سر سرورا عظيما وخلع على النجاب ورفقائه وأمر بدخول الاموال الى الخزينة وكتب أمرا سلطانيا الى الامير بكتمر السعدي ان يكون أميرا على جميع بلاد السودان ويعين من يشاء على القلاع والقرى والبلدان ثم سير له النجاب بهذا الامر

فلما وصل اليه وقرأ الامر السلطاني أقام يحكم في البلاد بعدل وانصاف وأطاعته ملوك السودان فافتخر على أبناء جنسه وأعجبته نفسه لانه أذل ملوك تلك البلاد وفي يوم من الايام ركب في جماعـة من خواصه وقصد التسلي بالصيد واغتنام اللذة واللهو وتفرقت عساكره في البراري والآكام لاجـل الصيد والقنص فرأى الامير بكتمر غزالـة تسرح فسار خلفهـا ليصيدها فما لحقها ووقفت الغزالة بعيدا عنه فلحقها وكاد ان يصيدهـا ولكنها قفزت من بين يديه ووقفت بعيداً عنه فطمع في صيدها ولحقها ثانيا وثالثا ، فلم يستطع صيدها ودخل الليل فغابت عنه •

وفي الصباح أراد ان يرجع الى جماعته فما عرف من اين الطريق فضاع في البر الاقفر واشتد به العطش وظل تائها مدة ثلاثة ايام فرأى جبلا وسار اليه فوجد حوله أشجارا وطيورا فنزل عن الجواد وأخذ يرعيه ساعة من الزمان فرأى عن بعد نارا ودخانا فركب الحصان وسار الى تلك الجهـة فرأى جواري مقيمات في سفح الجبل وبينهن جارية حبشية لها جبين أنور ولفتتها كلفتة الظبية والنار تضرب تحت قدر فلما وصل اليهن بكتمر وقفت له تلك الجارية وقالت أهلا وسهلا بملك البلاد ثم تقدمت اليه وقبلت يده فقال لها هل عندك ماء بارد فأتت له بالماء فشرب حتى ارتوى ومدت له فراشا على ضفة النهر وقالت اجلس يا سيدي فان الطعـام جاهز فجلس عندهن وقدمت له الجارية الحسناء الطعام وكان من لحم النعام فأكل حتى اكتفى وبعدما أكل وشرب تمدد على الفراش ليأخذ راحته فنام فأسرعت الجارية الى سيفه وكسرته وشلحته ثوب الوقاية وحرقته ثم شدته كتافا ماكنا فصحي من النوم وصاح ماذا تفعلين فقالت له واخيرا وقعت بين يدي ميمونة الساحرة فابك على نفسك فلم يبق لك خلاص مني ثم ان الجواري شددنه على الحصان بالعرض وسارت به ميمونة الى الملك سيف الملك وكان مقيما مع عسكره وراء ذلك الجبل فقالت له خذ هذا عدوك بكتمر الذي احتل بلادك وأهلك عساكرك وجنودك فقال هذا غاية ما أتمنـاه وان هذا

الجميل الذي قمت به لاجلي لن أنساه لك مدى العمر ولكن كيف تغلبت عليه وأسرته فقالت لقد رأيته في المروج يصيد الارانب والغزلان فجعلت نفسي غزالة فلحقني ليصطادني فقفزت من امامه ووقفت بعيدا عنه فطمع في صيدي ودنا مني ، وهكذا طمعته في صيدي ثم ابتعدت عنه حتى ضاع في البراري والآكام ولم يعد يعرف الطريق فجلست في سفح الجبل وأضرمت نارا فرآها فأقبل عليها فاحتفلت به وسقيته وأطعمته وبعد ذلك أخذ راحته ونام فكسرت سيفه وحرقت ثوبه وكتفته وأحضرته بين يديك فافعل به ما تريد فعند ذلك أمر بضربه فضربوه بالسياط ولما أرادوا ان يقتلوه قال ان قتلتموني سيأتيكم الملك الظاهر ينتقم منكم ويخرب بلادكم ويذبح رجالكم وأولادكم فقال له سيف الملك أتهددنا بملك مصر ولكن لا بد ان احضره امامك وأقتلكما معا ثم وضعه في السجن وأمر جيشه بالمسير الى مدينة الدور فلم يجدوا فيها أحدا فانتقلوا الى قلعة الايوان فوجدوها خالية ثم الى حصباء العين فلم يجدوا فيها الا الرعية فسألوهم عن العساكر فقالوا لهم ذهبوا منذ ثلاثة ايام الى الشلالات ولم يعودوا وسبب ذلك ان وكيل بكتمر السعدي لما غاب سيده بعث جواسيس ليكشفوا له الخبر ولما رجعوا أخبروه ان الامير بكتمر قد عمل له السودان مكيدة وأهلكوه والآن متوجه الينا الملك سيف بجيوشه فلما علم ذلك وكيل بكتمر قال الرأي عندي ان نرحل الى الشلالات فان كان الامير بكتمر حيا يجد الاموال والرجال بين يديه وان كان استشهد نكون خلصنا أموالنا وأنقذنا أنفسنا من الاعداء ثم نرسل كتابا نعلم به السلطان فقالوا له افعل ما تريد فحمل الاموال وسار مع الرجال الى ان وصل الى الشلالات ثم كتب كتابا الى الملك الظاهر قال فيه الذي نعلمكم به يا مولانا السلطان ان الامير بكتمر بعدما ملك البلاد وجلس في مدينة الدور والسبع قصور وأقام بها وفي أحد الايام طلع الى الصيد والقنص ولم يعد فبعثنا من يكشف لنا خبره فأخبرونا انه وقع في مكيدة نصبها له الاحباش وهم متوجهون الينا بجيوش كقطع

الغمام فلما سمعنا هذه الاخبار تركنا البلاد التي أخذناها وأقمنا بالشلالات خوفا على العساكر والاموال وهذا ما حصل أخبرناكم به والامر أمركم مولاي والسلام عليكم فلما سمع السلطان هذا الخطــاب حزن وتأسف تأسفا شديدا على الامير بكتمر ثم ان السلطان الظــاهر ارسل كتابا الى الملك عرنوس يأمره بالقدوم في بعض عساكــره وبرز السلطان بعساكره الى الجيزة وكذلك الفداوية قدمت من القلاع وامتلأت السهول بالعساكر ثم أقبــل الملك عرنوس في عساكره وسار الجيش من الجيزة يقطع الفيافي والوهاد الى ان وصل الى أول شلال فقال عرنوس الرأي عندي ان نترك هنا الاشياء الثقيلة ونسير على ظهور الخيل والاثقال تتبعنا فوافق السلطان وسار عرنوس وتبعه بنو اسماعيل وعسكر بكتمر وأتوا الى مدينة الايوان حاصروها وهدموا أسوارها وأخذوها وبعدها حصباء العين الى ان وصلوا الى مدينة الدور والسبع قصور فالتقاهم سيف الملك ووقــع القتال بينه وبين عسكر الملك الظــاهر وتحمست بنو اسماعيل والابطال وفتكــوا بالاعداء فتكا ذريعــا وكان الملك الظاهر يصيح بالفرسان اهجموا على الاعداء وخذوا بثأر الامير بكتمر ودام القتال الى آخر النهار فانفصلوا عن بعضهم ودخلت الاحباش المدينة وتحصنوا فيها فقال سيف الملك انا ارسل احضر اختي الميمونة حتى تساعدنا اما الملك الظاهر لما عاد من الميدان لم يشتف من الاعداء فقال له عرنوس نحن الغالبــون ان شاء الله فقال جمال الدين انا كنت عندهم وسمعت ملكهم يقول لا بد ان ارسل الى اختي ميمونة تحضر وتساعدني ثم ان شيحة نزل الى البلد بصفة عبد اسود فرأى سيف الملك يكتب الكتــاب ثم التفت حوله وقال من يذهب بكتابي هذا الى اختي ميمونة ويأتيني منها برد الجواب فقال شيحة انا اذهب اليها ولا اعود الا بها وبرجالها وابطالها فأعطاه الكتاب وأخذه وأخذ معه خمسة من العبيد وسار الى ميمونة فوجدها عند خالها برقان وناولها الكتاب فقرأته ووجدت فيه من الملك سيف الملك الى اختي الملكة ميمونة اعلمي ان ملك

البيض أتاني في عسكر جرار وانا تحت الحصار فأدركيني فقالت له هل اخي محاصر في مدينة الدور قال نعم يا ملكة وأرسلني اليك بهذا الكتاب حتى تنجديه فقامت ودخلت بيت رصدها وأحضرت خدامها الجان وسألتهم هل اخي محاصر قالوا نعم ولكن احذري النجاب الذي أتاك بالكتاب فهو جمال الدين شيحة فقالت امسكوا شيحة فما يشعر شيحة الا وهو في الحديد وقالت للملك برقان احفظه عندك حتى اعود من عند اخي ثم ركبت وسارت الى مدينة الدور اما الملك الظاهر فدخل عليه خمسة من العبيد وهم اولاد شيحة واعلموه بما جرى على ابيهم وان ميمونة قادمة ثم قالوا قد جئنا نعلمك لتأخذ حذرك ونحن راجعون الى أبينا لعلنا ندبر امرا لخلاصه ثم انهم رجعوا الى بلاد ميمونة فالتقوا بها ومعها خمسة عبيد فتقدم السابق وقال يا بني حام هل بينكم الملكة ميمونة قالت انا ميمونة فماذا تريد قال الحقي أخاك فقد قتل على يد ملك البيض وامتلكت البلاد فنهضت ميمونة وصاحت أخي قتل وامتلكت البلاد قال لها نعم وانتهز فرصة المفاجأة وطعنها بالخنجر في صدرها قضى عليها ثم هجموا على عبيدها فقتلوهم عن آخرهم ثم قطعوا رأس ميمونة وأخذوه ورجعوا الى السلطان وقالوا يا مولانا هذا رأس ميمونة التي حبست أبانا ونحن ذاهبون نفتش على أبينا فعلق السلطان رأس ميمونة على باب الصيوان ونادى المنادي يقول يا معشر الاحباش اعلموا ان ميمونة قتلت وهذا رأسها فسلموا أنفسكم فلما علم سيف الملك ان اخته ماتت جن جنونه فقال لوزيره هل نستطيع ان نتابع الحرب والقتال فقال له وزيره ارسل الى الملك برقان خال ميمونة ان يرسل لك غرطالا الوحشي ويخطف لك ملك البيض ويلبسه ثوب الريش فيطير به ويوصله الى قلعة شنهاب وبرج العقاب لعند الملك فرطوس ابو الرؤوس فيلبسه ثوب القنفذ ويضعه في التابوت المجنح ليذيقه أشد انواع العذاب .

اما الملك سيف الملك لما قال له وزيره ذلك الكلام كتب الى برقان يقول

له اعلم اني بليت بملك البيض فانه يحاربني بعساكر جبابرة فجـار علي فأرسلت لاختي ميمونة لتساعدني عليهم فصادفها في الطريق شيطان منهم فقتلها ، فأريد ان تلبس غرطالا ثوب الريش ليخطف ملك البيض ويطير به الى قلعة شنهاب وبرج العقاب عند الملـك فرطوس ابو الرؤوس فيلبسه ثوب القنفذ ويضعه في التابوت المجنح والسلام ثم أعطى الكتاب للنجاب فأوصله للملك برقان فلما قرأه أمر غرطالا ان يلبس ثوب الريش ويحضر ملك البيض فصدع بالامر وسار الى جيش السلطان ونادى مظلوم يا ملك الزمان فقال السلطان من ظلمك فقـال له ان سيف الملك ملك السودان أمرني ان اخطفك هكذا ، ووضع يده تحت ابطيه وانفرد ريشه ورفرف بسرعة البرق وارتفع مقدار عشرة أذرع ثم طار في الجو في علم السحـر فدهشت الجنود والعساكر واشرأبت أعناقهم الى السماء ينظرون غرطالا يطير بالملك الظاهر الذي صاح يقـول ماذا فعلت أيها الساحر والى أين تطير بي فقال له غرطال سوف ترى ثم أوصله الى برقان وقال له خذ هذا عدوك ملك البيض فقال له سر به الى الملك فرطوس يفعل به ما يشاء فأخذه وطار به الى قلعة شنهاب وبرج العقاب ودخـل على الملـك فرطوس ابو الرؤوس وقال له هذا ملك البيض أرسلـه لك الملك برقان ألبسه الثوب وضعه في التابوت فأخـذه منه وعـراه من ملابسه وألبسه ثوب القنفذ فدخلت رؤوس شوك القنفذ في بدنه مثل الابر فغـاب عن الوجـود ثم وضعوه في التابوت المجنح اما عساكر السلطان بينما هم متحـيرون من خطف ملكهم اذ بفداوي مقبل وعليه بدلة كاملة من الزرد والحديد وكان هذا المقدم من بني اسماعيل يقال له الهول بن شاكر وسبب اقامته في هذه البلاد انه لما ذهب يفتش عن المقدم معروف طالت عليه الايام ولما وصل الى هذه البلاد استطاب هواءها وأقام فيها وتعلم لسان أهلها وصار كأنه منهم فلما دخل على صيوان السلطان ورآه العساكر ظنوه الذي خطف الملك فقاموا اليه بالسيوف فصاح انا فداوي مثلكم واسمي الهـول بن

شاكر فلما سمعوا كلامه كفوا عن أذاه وقالوا من أتى بك الى هذه البلاد فحكى لهم سبب اقامته بها فقال وأين السلطان فأخبروه انه انخطف فقال هذا غرطال الذي خطفه وانا أكشف لكم خبره ثم انه ركب وسار الى بلاد برقان فاجتمع بغرطال الوحشي وسلم عليه ثم قال له انت اخــذت ملــك البيض قال نعم اخذته وأوصلته الى الفرطوس فلبسه ثوب القنفذ ووضعه في التابوت وهو مثلنا تماما الا انه ابيض اللون فقال له الهــول أريد ان اتفرج عليه ثم انه سار الى ان وصل الى قلعة شنهاب ودخل الى ديــوان فرطوس فعرف من يأخذ الطعام للملك الظاهر فسار معهم حتى وصلوا الى التابوت المجنح ففتحوا بابا صغيرا فبان وجه السلطان فصاروا يطعمونه لقمة لقمة وعندما شبع قال لهم الهول يا بني الخال اصبروا حتى أكلمــه بلسان البيض الذي تعلمته وانا صغير فقالوا كلمه فتقــدم اليه وقال له بلسان التركي اعلــم يا ملك اني من بني اسماعيــل أتيت من عند الملك عرنوس لاعرف مكانك وعن قريب نخلصك فقال السلطان اذا وصلت الى رجالي قل لهم ان السلطان مات فلا تتعبوا في خلاصه وقل للوزير شاهين وابراهيــم الحوراني ان يتوصوا في اولادي والسلام فلما نهض الهول رأى العبيد يضحكون على لغته فضحك معهم ثم ركب فرسه وعاد الى ان وصل الى جيش السلطان ودخل على الوزير وقال له ولبني اسماعيل الغارة على خيول تركبونها واموال تغنمونها وتخلصون ملككم وتعودون الى اماكنكم فقالوا سر امامنا واضرم النار ونحن ندوس عليها فقال اركبــوا فركبوا في موكب واحد والامراء في موكب واحد والتزم الملك عرنوس ان يقيم على مدينة الدور مع عسكره وأيدمر البهلوان مع عساكر بكتمر وقال الهول بن شاكر خلصوا أولا الملك ثم بكتمر من عند سيف الملك ثم سافر بهم الهول من طرق يعرفها حتى نزل بهم على قلعة شنهاب فلما رآهم الملك فرطوس صاح بوزيره انظر عساكر الملك الظاهر أتونا لاجل خلاص ملكهم فقال له وزيره لا تتركوهم يستريحوا اركب بالحــال وانزل اليهم ثم انه

خرج في عسكره يريد القتال فاستقبله أبطال بني اسماعيل وصاحوا بهم صيحة ارتجت منها الارض وخرقوا الصفوف يضربون بالسيوف وتبعهم الامراء وبقية العساكر بطعن الرماح في الصدور وقطع الجماجم وكان هجوما صاعقا انتصر فيه الفداوية وعساكر الملك الظاهر مما أجبروا الملك فرطوس على الهرب فتراجع هو وجيشه الى الوراء ودحرهم بنو اسماعيل عند الباب وقتلوا منهم خلقا كثيرا وما دخل البلد الا قليل فقال فرطوس لوزيره حاربنا البيض فغلبونا وانتقموا منا أفظع انتقام فقال له انت لك كبير يحميك وهو الملك الاكبر الذي يأخذ منك الخراج فأرسل اليه وقل له أسرت ملك البيض وان جيشه محاصرنا فحالا يركب ويأتي يحارب لك البيض ويكسرهم وفي الصباح أرسل الملك فرطوس الى جيش الملك الظاهر يقول أمهلونا حتى يأتي صاحب البلاد ولكم عن كل يوم عشر أوقيات فقبل الوزير شاهين هذه الهدنة بعدما استشار امراء الجيش والمقدمين وبعث الى الملك فرطوس في القبول فأرسل فرطوس مائة أوقية ذهبا عن عشرة ايام فوقف القتال ثم كتب كتابا وأرسله مع وزيره صمصام وقال له سر بالحال الى الملك الاكبر وحثه على الاسراع بجيشه ليساعدنا فسار الوزير بالكتاب الى مدينة الحبشة وسلمه الى الملك طارود الملك الاكبر وكان فارسا شجاعا ومن العمالقة اصحاب القلاع يقاتل على فيل لان الخيل لا تقدر على حمله واذا نزل الى الميدان تجفل الخيل من صراخه ولا تقف امامه فلما قرأ الكتاب أمر الوزير ان يجمع أبطال الحبشة في كل مكان فاجتمع عنده خلق لا يحصى لهم عدد وركب وسار بهم الى جيش الملك الظاهر فلما وصلوا ركب السودان فتلقتهم ابطال بني اسماعيل وجيش الامراء بضرب أقوى من سياط النار فلما رأى الوزير شاهين عساكر متتابعة ضاق صدره وعيل صبره فكتب كتابا وأعطاه الى ابراهيم وقال له أوصله الى الملك طارود فأخذه ابراهيم وسار به فالتقى بالهول بن شاكر فسأله الى اين ذاهب قال الى ملك السودان فقال انا ذاهب معك فسار

معه حتى وقف قدام الملك فأعطاه الكتاب فقرأه فوجد فيه من وزير الملك الظاهر الى بين أيادي الملك طارود اعلم انه ليس لنا مصلحة ببلادكم وانما ملكنا محبوس عندكم فاطلقوا سراحه واحقنوا دماء الابطال منا ومنكم والسلام ختام فقال الملك طارود انا لا اطلقه لهم حتى انزل الى الميـــدان واحاربهم ويحاربونني هذا جـواب كتابهم وفي الصباح برز طارود الى الميدان وهو راكب على فيل وبيده عامود وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه المقدم عاصف وتقاتل معه ساعة من الزمان فضربه طارود بالعامود قتله ثم برز اليه المقدم عجبور فألحقه بعاصف ثم قتل اربعة ابطال من بني اسماعيل فقال الوزير شاهين انزل اليه غدا يا ابراهيم واكفنا شره فنزل ابراهيم الى الميدان بعدما أفرغ على جسمه درعا متينا لا يعمل به الصارم الهندي ونزل اليه طارود وتقاتلا قتالا شديدا مرة بالسيوف ومرة بالرمح والعامود الى آخر النهار فافترقا على سلام ولكن طارود عاد الى جيشه مكسوفا لانه لم يقتل ابراهيم كما قتل من قبله وبيت النية على ان يقتله في الغد مهما كلفه الحرب من جهد وعند الصباح برز الى الميدان فبرز له ابراهيم وقال له ابشرك ايها الملك فاستبشر خيرا وقال له وما هي البشرى فقال هي رمي رقبتك فاغتاظ منه طارود وانطبق عليه وتقاتلا أشد قتال وأظهرا العجائب والاهوال ثم ضربه طارود بالعامود فتلقاه ابراهيم بطارقة البولاد فانثنت فضربه ابراهيم بذي الحيات فتلقى طارود الضربة بالعامود فزحل السيف على عنق الفيل فقطعه فوقع الفيل على جنبه وكانت رجل طارود تحت الفيل فلم يستطع القيام بسرعة فما كان من ابراهيم الا أن انقض عليه وضربه بسيفه ذي الحيات على هامه أخمد أنفاسه فلما رأى وزير طـارود ذلك الحال أمر العساكر بالهجوم فحملت على بعضها الفرسان واشتد الحـرب والطعان وتمكن الفداوية من ضرب الرقاب ودام الحرب والقتال الى ان ولى الاعداء الفرار فلحقتهم عساكر السلطـان الابرار وملكوا بلد الملك فرطوس فقال ابراهيم للمقدم الهول أين الملك الظاهر فسار به الى ان أوقفه عنده

ففكه ابراهيم وخلصه من ثوب القنفذ وهو يقول لا بأس عليك يا مولاي فقال السلطان يا ابراهيم انا عدمان وجسدي مشوه فلا تدع احدا يراني قال ابراهيم ستبرأ من آلامك وأوجاعك بأقرب وقت باذن الله ثم انه نقله الى غرفة في الصيوان ومنع الدخول عليه اما شيحة فقد خلصه أولاده من الحبس فأتى ليرى السلطان فاستقبله ابراهيم وقال ان حالة السلطان محزنة جدا ويلزمه عناية فائقة ليشفى بأقرب وقت فلما رآه جمال الدين قال له روحي فداك يا أبا السعيد والحمد لله على سلامتك وستشفى عن قريب باذن الله ثم انه خلع عنه الثياب فوجد بدنه معملا فصار يعصر كل غرزة وحدها وينظفها حتى نظف جميع جسده ثم غطس السلطان بالماء الساخن وصار يفرك بدنه ثم أخرجه وأضجعه على الفراش وصار يدهن الجروح بدهن النسر ثم لفه بالشراشف وصار يسقيه الحليب واللبن وصار يغذيه بمرق الديك الحبشي وظل يغير له كل يـوم ويعتني به حتى شفي وشعر الملك بالصحة والعافية وصار يجلس في الفراش ويستقبـل زائريه ثم انه صبر عشرة أيام بعد شفائه ثم أمر الجيش بالرحيل بعدما غنموا بلاد فرطوس وساروا طالبين بلاد برقان الى ان وصلوا اليها ثم ان جمال الدين شيحة غير زيه ودخل بلد الملك برقان اما الذين انهزموا بعد قتـل طارود فانهم وصلوا الى الملك برقان وهم يصرخون من أعمال البيض ثم قالوا له لقد أطلقوا سراح ملكهم ولا بد ان يأتوا ويحاربوك فذعر الملك برقان وقال كيف نعمل وليس لنا طاقة على حرب البيض فقال غرطال الوحشي انا غدا أخطف ملكهم فتنكسر شوكتهم وتضعف قوتهم عند ذلك يمكنك التغلب عليهم فاطمأن الملك برقان وقال له اسرع واياك ان تفشل اما شيحة جمال الدين فكان واقفا يسمع الكلام ولما ذهب غرطال لحقه شيحة وعرف مسكنه فدخل عليه في نصف الليل وذبحه ثم ذهب الى محل برقان فوجده نائما فألقى على وجهه منديل البنج وكتفه ثم فيقه وقال له انا جمال الدين شيحة أريد منك ان تنهي الحرب وتصالح السلطان وتدفع له الجزية كل عـام

فتنقذ نفسك من الموت وبلادك من الدمار وان تسلم وتؤمن بالله وبمحمد رسول الله وتأمر أهل بلدك ان يؤمنـوا ويتركـوا عبادة زحل وعطارد والمريخ فانها كواكب لا تضر ولا تنفع فاحمرت عينا برقان وأبى ان يعمل بما طلب منه شيحة عند ذلك ضربه شيحة جمـال الدين على رقبته أزاح رأسه عن جثته وعاد شيحة الى جيش السلطان وأعلمه بما فعل وأخذ مائة من الابطال وأدخلهم البلد ومضوا الى الباب وذبحـوا الحراس وأرسل بالحال أعلم السلطان ان يأمر جيشه بالهجوم على البلد ولم يطلع النهـار الا والسلطان على كرسي الملك برقان فلما عرف الاهالي ذلك طلبوا الامان فقال السلطان من ترك عبادة الكواكب وآمن بالله أمن على نفسه وماله فآمنوا كلهم فأقام عليهم نائبا الهول بن شاكر ثم ان الملك الظـاهر أخذ أموال برقان وسار الى مدينة الدور فوجد أيدمر البهلوان والملك عرنوس ومعهم عساكر بكتمر السعدي وهم في قتـال مع الملك سيف الملك فأمر السلطان الفداوية ان يهجموا ميمنة والامراء ميسرة فهجموا عليهم وأراد سيف الملك ان يهرب فأدركه السلطان وضربه بنصلة باديس أطاح رأسه ثم دخلوا مدينة الدور وغنموها وخلصوا بكتمر السعدي من الاسر ولما تم النصر والظفر للسلطان أمر بالرحيل الى مصر وما دام يقطع الاراضي والبلاد الى ان وصل الى الديار المصرية فانعقدت له المواكب وأقاموا له الاحتفالات الى ان جلس في قلعة الجبل يتعاطى الاحكام وفي احد الايام وهو جالس واذ بنجاب يدخل ويقول سبحان هادي الطير فقال السلطان وراحم الشيب وساتر العيب من أين أنت قادم فقال من الاسكندرية ثم قدم له الكتاب فقرأ فيه من نائب الاسكندرية الذي نعلمكـم به يا مولانا السلطان انه كثرت عندنا سرقة الناس في هذه الايام ولم نعرف من يقترف هذه الاعمال وقد كثرت الشكاوى من الرعية وضاق بنا الحال فأدركنا أيها الملك قبل ان يستفحل الامر أدام الله نصركم وعزكم والسلام عليكم فلما قرأ الكتاب أحضر ابنه السعيد وأجلسه على كرسي مصر وأوصاه بالعدل والانصاف

وركب السلطان وأخذ معه المقـدم ابراهيم والمقدم سعـدا وساروا الى الاسكندرية فسأل الملك النائب عن هذه القضية فقال له ان من يقوم بهذا العمل داهية من أعظم الدهاة لانه يأخذ اموال الناس بدون ان يشعـروا وبدون ان يكسر بابا او يفتح قفلا مع اننا طول الليل ندور في الشوارع وفي كل مكان فلم نلتق بأحد وعند الصباح نسمع الصياح والشكاوى من الناس بفقد اموالهم وأمتعتهم فما ندري هل هذا فعل انس ام جان فتعجب الملك ثم نزل ومعه ابراهيم وسعد وداروا في الاسواق فلم يروا احدا وفي الليلة الثانية والثالثة كذلك وهم يدورون ويفتشون فكان كل شيء هادئا وطبيعيا ولكن امتنعت السرقات وبطلت الشكاوى من حين قدوم السلطان واذ في اليوم السادس ورد كتاب من السعيد ابن الملك الظاهر يقول فيه ان تجار مصر يتشاكون من سرقة اموالهم ودورهم ليلا ونهارا ولم نعلم الغريم فأدركنا يا أمير المؤمنين فقال ابراهيم هذا العايق الجبـار علم بقدومنا الى الاسكندرية فانتقل الى مصر واغتنم الفرصة في غيبـة السلطان عند ذلك رجع السلطـان وابراهيم وسعـد الى مصر وصاروا يفتشون ليلا نهارا مدة اربعة ايام فلم يعثروا على احد ثم أقبل كتاب من الاسكندرية يخبر بأن الغريم عاد الى الاسكندرية فسافر الملك اليها فلحقه خبر من مصر بأن الغريم عاد اليها فعاد الى مصر ثم عاد الى الاسكندرية وهكذا سبع مرات فضج الملك من السفر والعودة على غير طائل وبينما هم يفتشون على الغريم رأوا رجلا يسرع في سيره ويكاد يختفي عن أنظارهم فلحقوه الى ان وقف الرجل في حارة فتقدم الملك اليه ويده على قبضـة السيف فاذا هو رجل معه قفة ملآنة بامية قال له الملـك الى اين سائر في الليل قال له يا سيدي انا رجل خضري وانا شيحة فقال السلطان حيث انك هنا اما عرفت الغريم قال عرفته فهو قوي جبار ومعه اربعون عائقافاتبعوني وانظروهم فذهبوا معه الى الميناء وأوقفهم في منعطف وبعد قليل اقبل مركب صغير وفيه عشرة اشخاص طلعوا الى البر ومشى امامهم رجل طويل القامة

غليظ البدن وساروا في حارة طويلة ودخلوا في بيت وقد تبعهم السلطان ومن معه الى البيت الذي دخلوا فيه ووقفوا يتشاورون ماذا يعملون ليلقوا القبض عليهم واذ خرج منهم خمسة اشخاص بزي اهل الاسكندرية فصاح السلطان قفوا وارفعوا أيديكم فما كان منهم الا ان جردوا سيوفهم ولكن السلطان وجماعته كانوا اسرع منهم بضرب السيف فقتلوا الخمسة كلهم واقتحموا البيت ودخلوا فلم يروا فيه احدا ووجدوا المسروقات كلها موجودة في هذا البيت فأمر الملك بارجاعها لاصحابها ورأوا كتابا للسلطان يقول فيه انا لم اتخل عن القتال ولم أغدر بالرجال وان كان مرادك تحمي بلادك مني فاني ذاهب الى حلب واسمي المقدم عزائير اليغروي فقال شيحة هذا خصمك قد عرفته فاركب الى حلب واسأل الله ان ينصرك عليه فكتب الملك كتابا الى ولده السعيد يأمره ان يجلس أخاه احمد شلامش على تخت مصر وان يلحق أباه بالعساكر الى حلب وأعطى الكتاب الى سعد وقال له أعطه الكتاب وأحضر معه الى حلب ثم ان الملك أخذ المقدم ابراهيم وخمسين مملوكا وساروا الى الشام وأقام الملك بالشام ينتظر قدوم العساكر مع السعيد وفي يوم من الايام والملك جالس في الديوان اذ بعزائير داخل ومجرد سيفه وصاح صيحة ارتج لها الديوان وقال انا لم اتخل عن القتال فانزل الى الميدان لترى افعال الفرسان ثم تقدم وأراد ان يضرب السلطان فحالت المماليك بينهما فحكم الضرب في المماليك فقتل منهم اثنين وجرح ثلاثة فحمل عليه المقدم ابراهيم وتعاركا وتضاربا بالسيوف فخاف عزائير ان يتكاثروا عليه فانسل من المعركة وهرب وفي اليوم الثاني هجم عزائير الى الديوان فصدمه ابراهيم وضربه عزائير بالسيف أخذها ابراهيم على المانعة فقطعها ووقعت على كتفه فقطعت الزرد فقام السلطان ويده على الدبوس الدمشقي فنزل عزائير من الديوان وهو يقول اللقاء بيني وبينك في حلب وها أنا سابقك أما السعيد فأقبل بالجيش وأمر الملك بالمسير الى حلب وقال الى سعد قل للفداوية المقيمين بالحصون ان يسافروا الى حلب

وما زال الملك سائرا الى ان وصل الى حلب فالتقى بعزائير اليغروي وجماعته وهم لا يزيدون عن الالف وصحبته جوان والبرتقش •

قال الراوي : اما سبب قدوم عزائير انه كان مقدما على جميع العياق التي في بر الروم وكانت جميع ملوك الروم تهابه وتدفع له الجزية كل عام وله ولد اسمه حرب مثل أبيه بالشجاعة والجبروت ولكنه أعقل من أبيه فمر جوان على مدينة يغـرة فرأى عزائير في هذه العظمـة فقال له جميع الملوك تخافك وترهبك الا الملك الظاهر فقم ُحاربه واقتله وخذ الجزية التيي أخذها من ملوك الروم وانا سوف أحرض لك ملوك الافرنج ليساعدوك عليه فلما سمع عزائير ذلك الكلام قال انا لا أهدأ حتى أقتل السلطـان الظاهر وأهلك رجاله ثم انه جمع أربعين عائقا وأخذهم الى الاسكندرية وجرى ما جرى له مع السلطان أما جوان فسار الى ملوك الافرنج وقال لهم ساعدوا عزائير على حرب الملك الظاهر والآن راكب على حلب برجاله فما يزال يلح عليهم ويغريهم بالركوب حتى أجابه الى طلبه الملك جونش فركب بجيشه وأتى الى حلب فما كان جونش الا ابن اسماعيل ابو السباع فلما تسلطن أخوه معروف وسجن كان اسماعيل أخوه يفتش عليه فدخل مدينة تسمى البرق فرأى بنت ملكها فتزوجها وأعطاها نسبه وقال لها أنا عن قريب آتي وآخذك ومتى وضعت الولد علقي عليه هذا النسب وهي قطعة من الفضة مكتوب عليها اسم اسماعيل ابو السباع بن جمر وتركها وسافر يدور على أخيه معروف اما البنت فولدت ولدا ذكرا سمته جونش وتربى في حجر جده فلما مات الملك تسلطن جونش على تلك المدينة وجاءه جوان فأغراه على هذه الحملة التي سار بها الى حلب اما أمه رومة سألت البرتقش أين يوجد اسماعيل ابو السباع فقال لها في مدينـة الرخام مع الملك عرنوس فتوجهت الى مدينة الرخـام ودخلت على المقدم اسماعيل وقالت له انا زوجتك رومة بنت ملك البرق وابنك جونش راكب الآن على حلب ليساعد عزائير بالحرب على السلطان الظاهر ففرح اسماعيل بولده

وحكى الى ابن أخيه الملك عرنوس فقال لعمه يتحتم علينا ان نركب بالعساكر لنساعد السلطان ونعرف ولدك جونش عليك فركب عرنوس في عساكره وأخذ معه اسماعيل وامرأة عمه أم جونش وسار الى حلب اما الملك الظاهر لما وصل الى حلب نصبت الخيام وصنعوا للملك تختا في وسط الصيوان لينام عليه واحتاط العساكر بالصيوان خوفا على الملك من غدر عزائير وكان جاسوس عزائير حاضرا فعاد اليه وأخبره بما فعل السلطان فقال انه يخافني ولا بد من قتله ثم انه ركب فرسه ونزل الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل اليه ابراهيم الحوراني وصاح به وانطبق عليه بقلب أقوى من الحديد وكانت لهما ساعة حرب تقشعر منها الابدان وما زالا يتقاتلان الى آخر النهار فافترقا على سلام ففرح السلطان بسلامة ابراهيم ثم طلع الملك لمحل نومه اما عزائير فانه صبر الى الليل ودخل الى جيش السلطان ووصل الى الصيوان فقلع وتدا ودخل فوضع يده على التخت فأفاق السلطان فقبض على السيف وضرب عزائير على يده فقطعها فصاح من ألمه وطلب البر فأمر الملك بايقاد المشاعل فرأى يد عزائير مقطوعة ومرمية على الارض فلما رآها ابراهيم قال لقد أرحتنا من هذا الجبار يا امير المؤمنين اما عزائير فكانت الدماء تسيل من يده اليمنى فأيقن انه اذا صفي دمه يموت لا محالة فأسرع الى دير النحاس القريب من المدينة وطرق الباب ففتح له راهب الدير ولما رآه قال له اهلا وسهلاً فقال له اسرع داو لي يدي فلو لم أكن قابضا عليها بقوة عزمي لصفي دمي ومت فأضرم الراهب النار وغلى عليها الزيت وربط يده ثم غطها بالزيت فالتحمت عروق الدماء ثم دهنها بمرهم وشعر عزائير بالراحة بعد الآلام ثم أحس بالجوع فقال للراهب هل عندك طعام قال نعم وقدم له الطعام فأكل وتبنج لان الذي داواه وأطعمه جمال الدين شيحة فلما رآه لا يعي على شيء حمله على بغلة وأوصله الى جيش السلطان اما الملك الظاهر فانه أمر ان يعلقوا يد عزائير لتتفرج عليها الجنود والعساكر فبينما هم يتفرجون عليها واذ بجمال الدين

شيحة محمل عزائير على بغلة فنهض الملك ورأى عزائير مع شيحة فأمر ان يضعوا القيد في رجليه ويصحوه وسمع ضجيج في جيش الاعداء فأسرع شيحة الى جيش الاعداء فعلم ان نجدة أتت اليهم بقيادة الملك جونش فرجع شيحة وأخبر السلطان اما عزائير فوضعه السلطان في السجن فجاء ابنه حرب وخلصه من السجن وأعاده الى جيشهم واما الملك عرنوس وعمه اسماعيل ابو السباع ركبوا وصحبتهم الجيش من مدينة الرخام الى حلب فلما وصلوا استقبلهم السلطان بالترحاب فحكوا له عن سبب مجيئهم وقالوا له ان الملك جونش هو ابن اسماعيل ابو السباع وهذه أمه صحبتنا .

قال الراوي : اما الملك جونش فانه أمر بدق طبول الحرب وانحدر الى الميدان وطلب المبارزة فنزل اليه ابوه اسماعيل ابو السباع فما كان من الملك جونش الا وصدم ابو السباع فالتقى صدمته بصدمة أقوى منها وتقاتلا قتال الابطال وكان اسماعيل من الابطال الموصوفين بالشجاعة وزاد عليها شجاعة الوالد على الولد فضايقه ولاصقه ومد يده وقبض عليه وجذبه فاقتلعه من على السرج وقدمه الى السلطان قائلا هذا ولدي أسير بين يديك فقال له الملك خذه لوالدته لتعرفه انك والده فأخذه لصيوان عرنوس وأحضر والدته وقال لها عرفيه اني والده فلما رأى والدته في جيش عرنوس تعجب وقال من أتى بك الى هنا قالت لاعرفك على والدك فقال لها والدي ملك مدينة البرق قالت له هذا والدي انا اما والدك انت فهو المقدم اسماعيل ابو السباع والملك عرنوس هو ابن عمك فقال ولاي شيء كتمت عني ذلك طول عمري فقالت لان والدك ليس له مقر معروف فاذا ذهبت تفتش عنه أخاف عليك ان تقع بيد الاعداء والآن هذا ابوك بدون شك وهذه العلامة من يده من يوم تزوجني وأخرجت قطعة الفضة وأطلعته عليها فقال وهل انت مسلمة قالت نعم واريد منك ان تكون على دين والدك لانه من الاشراف فلما تيقن ان اسماعيل ابو السباع والده أسلم وقبّل يده وقبّله أبوه من وجنتيه ثم صافح ابن عمه الملك عرنوس

ثم قال قوموا بنا الى صيوان الملك فذهبوا ودخلوا الى الصيوان وسلموا على الملك ثم قال له أبو السباع ان ولدي جونش اسلم ولله الحمد ففرحوا به وهنأوا والده اما عزائير فقال لولـــده مرادي آخذ بثاري فقال له ابنه أخاف عليك ان لا تقدر عليه وانت بيد واحدة فقال له عزائير أتعيرني بفقد يدي وسوف ترى ثم صبر الى الليل وذهب الى صيوان الملك الظاهـــر فرآه الحرس وصاحوا عليه فنهض الملك من نومه وأخذ الدبوس وخرج اليه وضربه على ظهره رماه الى الارض فأوثقوه كتافا اما السلطان فأرق ولم ينم الى الصباح فأمر ان يغرزوا خشبة في الارض ويربطوه بها وأمر عشرين جنديا ان يرشقوه بالنبال ففعلوا كما امر الملك ورشقوه بالنبال الى ان مات اما الملك جونش فأرسل كتابـــا الى وزرائه وقادة جيشه ان يأتوا اليه ليعرض عليهم امرا هاما فلما وصل اليهم الكتاب قرأوه وذهبوا الى عند جونش فقال لهم اعلموا اني قد ظهر أصلي وان والدي اسماعيل ابو السباع فأريد منكم ان ترجعوا الى أوطانكـم وتنصبوا عليكم ملكا يرضيكم واذا أبيتم ذلك فلا تلوموني ولوموا أنفسكم فاذهبـــوا الآن واعلموا عساكركم بما قلت لكم فعادوا فسألهم جوان ما قال لكم جونش قالوا نصحنا ان نرحل الى بلادنا وننتخب لنا ملكا فقال لهم جوان نصبوا عليكم ملكا من الآن وحاربوا السلطان وأملكوا بلاده فلم يقبلوا ثم انهم أعلموا العساكر بالرحيل ففرحوا ودقوا طبل الرحيل وعادوا الى أوطانهم اما حرب بن عزائير فوجد عساكره قليلة فان قاتل بهم لا يثبتوا ولا ساعة امام جيش السلطان فتحير في أمره وما عرف ما يأتي الغد ثم انه نام فرأى في منامه الملك الصالح يقــول يا حرب انت غدا تؤمــن بالله وتكتب مع المجاهدين الابرار فهنيئا لك بما تنال من الدرجات العليا فانتبه حـــرب متعجبا من هذا المنام ثم قال لانزل الى الميدان واتقاتل مع ابراهيم الحوراني لارى هل أقدر عليه ثم انه دق طبل الحرب ونزل الى الميدان وطلب المبارزة وقال لا يبرز الي الا المقدم ابراهيم فنزل اليه ابراهيم وانطبق الاثنان على

بعضهما وتضاربا بالسيوف والرماح واشتد بينهما القتال وقل الكلام وداما في نضال وعراك الى ان حكمت الشمس في قبة الفلك فعرف حرب نفسه انه دون ابراهيم ولكنه ثابر على الكفاح وصار يدافع عن نفسه دفـاع الابطال الى ان شعر ابراهيم ان حرب قد تعب وكلّ فمد يده واقتلعه من بحر سرجه وأخذه الى بين يدي السلطان فقـال السلطان اقطع رأسه يا ابراهيم فصاح حرب ولماذا يا مولاي تقتلني وانا لم اقتل احدا منكم حتى تقتلني بدلا عنه فقال له لو امكنك ان تقتل احدا منا لما قصرت فقال حرب اني اشعر بنفسي ميلا للاسلام فقال له قل أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله فقالها حرب وآمن فقال السلطان هنيئا لك سبقت لك السعادة فتمن علي قال أتمنى على مولانا السلطان ان اكون مرافق المقدم ابراهيم وأريد أن أتشرف بخدمة جلالة السلطان وان أكون مرافق بني اسماعيل واكون فداويا مثلهم قال السلطان لك ما طلبت اما عساكر حرب لما رأوا مقدمهم حرب مأسورا رفعوا راية التسليـم فتقدم جيش السلطان وأسرهم جميعا اما ابراهيم فقال للسلطان أرجو من مولاي ان يشرف قلعتي بحوران ويأكل من ضيافتي ومعكم الوزير شاهين والامراء والمقدمون والفداوية فقال السلطان انا لا يمكنني الاقامة اكثر من هذه المدة فخذ المقدم سليمان الجاموس والفداوية من بني اسماعيل وبعد انتهاء الضيافة الحقونا الى مصر ثم سافـر الملك والجيش الى مصر اما ابراهيم فأخذ بني اسماعيل الى قلعته بحوران وعمل ضيافة كريم لا يبخل بعطاء وعملوا حفلة لقبول حرب كواحد منهم وان يكون مقدما مثلهم وبعد انتهاء الضيافة توجهوا الى مصر اما الملك عندما وصل الى مصر انعقد له الموكب وسار الى قلعة الجبل وجلس السلطان على عرش مصر وأقام يتعاطى الاحكام بالعدل والانصاف وفجأة ظهر الحزن والالم في وجه الملك عند ذلك سلم ابراهيم الطبر لعيسى الجماهيري وتقدم يلاطف الملك ويسأله عن سبب حزنه وألمه فقال له الملك اني رأيت الليلة الماضية مناما تأثرت منه وهذا

سبب ألمي قال ابراهيم خيرا رأيت ان شاء اللـــه قال الملك رأيت نفسي في بستان ورأيت عرنوس له اجنحة ويريد الطيران فخفت عليه فوضعته في قفص فأتت طيـــور سود وصارت تدور حوله فأردت ان اطردها عنه فما لحقت ان ادركه الا والطيور مالوا عليه وقطعوه وانا خايف على عرنوس قال ابراهيم العمر بيد الله فلا تخف عليه •

قال الراوي : اما الملك عرنوس فقد أقبل من مدينة الرخام ومعه عمه ابو السباع وابنه جونش والمقدم نصير النمر واولاد الملك عرنوس الاربعة فترحب بهم السلطان وأجلس عرنوس بجانبه وآنسه وباسطه فقال له يا امير المؤمنين انا رأيت مناما من مدة وأرغب ان تسمعه مني فقال السلطان خير لنا وشر لاعدائنا فما رأيت يا ولدي قال رأيت والدي المقدم معروف في المنام يقول لي انا مشتاق لرؤيتك يا ولدي ومنتظر زيارتـــك فقلت له وانا اريد ان اترك عيالي واولادي وأقيم معك فقال لي عيالك واولادك سوف يتبعونك ولك عندي زوجات ينتظرنك وهن من بنات الحور العين فارغب في الجهاد والقتال لتنال لذة الوصال ثم ضمني الى صدره فانتبهت وانا مشتاق لرؤيته فقال السلطان على المرء ان يزهد في الدنيا لينال النعيم في الآخرة وفيما هما كذلك واذ بنجاب داخل من باب الديوان ومعه كتاب قدمه للسلطان ففتحه وقرأ فيه من عماد الدين ابو الخيش نائب حلب اننا يوم تاريخه رأينا البر امتلأ بالغبار ثم انكشف عن جيش جرار وعلى رأسه الملك رومان الازرق ومعهم جوان فأقمنا الحصارات الى ان تأتينا النجدات فأدركنا يا امير المؤمنين قبل ان يحل بنا ريب المنون والسلام فلما قرأ الملك الكتاب أمر ان تستعد العساكر للسير الى حلب واذ بنجاب قادم من الشام ومعه كتاب يقول فيه انه حط على الشام جيش من اللئام وهي تطلب النجدة من السلطان وورد كتاب ثالث من اللاذقية ويذكر فيه ان اللاذقية محاطـــة بعساكر تسد منافس الهواء ويطلبون النجدة من السلطان فقال عرنوس انا اول من يركب ويجاهد في سبيل الله فان انتصرت فذلك الفضل من الله

وان مت شهيدا فهذا غاية ما أتمناه لانال مقـامي الذي أعـده الله لي في الآخرة عند ذلك بدأ السلطان يؤانس عرنوس ويلاطفه ويسليه الى ان قدم الطعام للسلطان وقال لعرنوس تفضل كل معي فأكل معـه ثم قدموا لهما الشراب فشرب عرنوس وداخ وصار لا يعي على شيء لان الشراب الذي قدم لعرنوس كان مبنجا بأمر من الملك ثم وضعه في السجن وصحاه فقال عرنوس لماذا سجنتني يا مولاي أتمنعني عن الجهاد فبكى السلطان وقال ان اباك كان عزيزا عليّ وكنت أسر بحديثه وبشجاعته فغدر به الزمـان وحرمني منه وانت خلفه من بعده وكلما نظرت اليك كأني أنظر الى أبيك واني خائف عليك من هذه الحملة ولا أريد منـك ان تراها فلا تخالفني فيما أريد فقال عرنوس أطلقنـي يا مولاي لانه ليس لنا مفر من القضاء والقدر والذي له عمر طويل لا تقطع به صوارم الحديد فقال له صدقت ولعل اقامتك هنا الآن فيها الخير والصلاح والسلامة ثم تركه الملك وعاد الى الديوان وقال للوزير شاهين الى اي جهة نسير أولا فقال الوزير نجعلها حملة واحدة الى الشام فاذا انكسر الذين في الشام نسير الى حلب ونكسر الاعداء ان شاء الله ثم نسير الى اللاذقية حتى يتم لنا النصر باذن الله فوافق السلطان وامر العساكر بالسير الى أرض الشام فلما وصلوا نصبوا الخيام امام جيش اللئام اما الملك عرنوس فقد أتى اليه السعيد ابن الملك الظاهر يزوره ويأخذ بخاطره وينصحه بأن لا يغتـم ولا يحزن فقـال له عرنوس انا لم أعمل ذنبا مع السلطان حتى يضعني في السجن كأني مجرم فأشفق عليه السعيد وقال احلف لي انك لا تذهب الى الجهـاد في هذه الحرب وانا أطلق سراحك فقال عرنوس اذا أطلقتنـي من هذا السجن لا أذهب الى الجهاد الا اذا قلت لي انت اذهب وحلف على ذلك ففكه السعيد وأخذه معه وأحضر له الطعام وأكل معه أما عرنوس فقد زاد شوقه الى الجهاد وخوض المعارك والمعامع ومساعدة السلطان الظاهر فقال للسعيد قل لي توجه للجهاد وألحق السلطان والا قتلتك فقال له لا تقتلنـي ولا

أقتلك اذهب وجاهد في سبيل الله فركب عرنوس جـواده وطار به مثل البرق اما الملك الظاهر لما وصل الى الشام قال جوان لرومان الازرق لا تدع جيش السلطان يأخذ راحته خذوهم على غفلة فأمر حالا بالزحف على عساكر السلطانفالتقتهم الابطال الابرار من جيش السلطان الظاهر وحصل القتال الشديد بحد الحسام وطعن الرماح وكثرت القتلى والجرحى ودام الحرب بينهما الى ان ولى النهار فدقت طبول الانفصال فصاح جوان على رومان الازرق قائلا لا تدع العساكر تنفصل عن الحرب فلن يتح لكفرصة مثل هذه الفرصة وهز جوان العلم وقال يا أبناء الافرنج بيعوا أرواحكم وقاتلوا أعداءكم عند ذلك داوموا على متابعة القتال ولم ينفصلوا وصاح السلطان بأبطاله يقول اهجموا عليهم ومكنوا السيوف من رقابهم فالجنة تحت ظـلال السيوف قاتلوا بعـزم واباء وخوضوا في صفوفهم وشتتوا شملهم وخاض السلطان معهم في صفوف الاعداء وطير الجماجم عن الابدان وكانت ليلة مظلمة حجب الغبار الجو بين الارض والسماء وتكحلتالاجفان بمراود العمى ودام الامر على هذا الحال الى ان ذهب الليل وأقبل النهار بنوره ولاح وكان قد وصل الملك عرنوس ورأى الحرب دائرة فحمل على الاعداء يقطع الرؤوس ويخرق الصدور وصاح انا الملك عرنوس قاهـر الاعداء اللئام عند ذلك اتسع المجال لابطـال الاسلام واستظهروا على الاعداء حتى أجبروهم على دق طبول الانفصال فأدارت الاعداء رؤوس خيلها ورجعت الى الخيام وعادت أبطال المسلمين الى الخيام أما عرنوس فظل يصول ويجول بين عساكر الاعداء ويضرب فيهم بالحسام فخاف عليه السلطان وقال له يا ولدي فاذا فاتك القتـال اليوم فلن يفوتك غدا فقال سمعا وطاعة وعاد مع السلطـان الى الخيـام وجلس بجانبـه فقـال له السلطـان ان طعم المـوت مر لا يقبله عبد ولا حر فقـال عرنوس ومن يستطيع الهروب من الموت ان لم يمت الانسان في الجهـاد في سبيـل اللـه مـات علـى فـراشـه فظـل الملـك يبـاسطـه ويسليـه

الى ان حضر الطعام فقال لعرنوس تفضل كل معنا فقال عرنوس اني لا أشتهي الاكل الا من ثمار الجنة فلما رآه مصمما على خوض المعارك قال للوزير شاهين ما العمل فأشار عليه ان يضعه في السجن حتى تنقضي هذه الحملة فأمر الملك بالقبض عليه ثم قال له ليس عندي أعز ولا أغلى منك ولا يهون علي ان يقتلك الاعداء ثم سلمه لنائب الشام وقال له احفظه في القلعة معزوزا مكرما اما رومان الازرق فانه لم يستطع الثبات امام قوات السلطان فأمر بهد الخيام والسير الى حلب فلما وصلوا تجهزوا للحرب فلما علم السلطان ذلك تبعهم بالجيش الى ان وصلوا الى حلب فلما رآهم جوان قال لرومان قاتلهم قبل ان يأخذوا راحتهم فقال له ان العساكر منهوكة القوى من مشقات السفر فيلزم ان يستريحوا حتى تعود لهم قواهم ليستطيعوا الثبات امام اعدائهم فسكت جوان ثم ان السلطان كتب كتابا وأرسله مع ابراهيم لرومان الازرق قال فيه اعلم يا رومان انه لا بد من قتلك في هذه الحملة اما اذا قبضت على جوان وسلمته الينا لانه هو سبب هذه الحروب فنتفق معك على سلامتك وسلامة جيشك بالمال والجزية اما اذا أطعت لجوان وتابعت القتال فسوف ترى ما يحل بك وبجيشك من الاهوال فلما قرأ الكتاب قال لجوان ان لم تدبر لي امرا على هلاك السلطان قبضت عليك وسلمتك اليه واتفقت معه فقال جوان عندي عشرون بطلا مغوارا وهم سيوف بلاد الروم لهم سطوات تزعزع الجبال فينزلون الى الميدان وينصروننا على الاعداء اما المقدم ابراهيم فاستبطأ رد الجواب فصاح في وجه رومان قائلا اين جواب السلطان أسرع هات رد الجواب وحق الطريق والا فقال رومان ما يقول هذا فقال جوان أعطه الجواب وحق الطريق واصرفه عنا فأعطاه الجواب وأكرمه وسار ابراهيم الى السلطان وأعطاه الكتاب فوجده بالحرب فمزقه ورماه ودق طبل الحرب وكان جوان قد أحضر العياق وطلب منهم الحرب والطعان وقال لهم انتم ذخيرتي لهذا اليوم فابذلوا جهدكم لتشهد لكم الاقران بتفوقكم على جميع الفرسان

فقالوا سمعا وطاعة ونزل منهم فارس وصال وجال وطلب مبارزة الفرسان فأمر السلطان أيدمر البهلوان ان ينزل اليه واذ بغبار علا وثار وانكشف عن فارس بالحديد غاطس وهجم على ذلك العايــق وضربه بالسيف على عاتقه أرداه قتيلا فنزل اليه الثاني ألحقه بالاول وكذلك الثالث والرابع الى ان قتل عشرة ثم انه طلب مبارزة الفرسان فقال جوان للعشرة الباقين انزلوا اليه وانتقموا منه لرفقائكم فانه تعب ولم يبق فيه قوة ليتابع القتال فنزل اليه بطل وصدمه صدمة الابطال فتلقاه عرنوس بالسيف أطاح رأسه ولم يزل يقتل واحدا بعد واحد حتى قتل العشرين فلما رأى السلطان هذه البسالة والبطولة حقق النظر في ذلك الفارس فاذا هو الملك عرنوس فقال لابراهيم اذهب واحضره واذ بجوان هز العلم وصاح ازحفوا يا ابناء القبانية عليه جميعا فزحفوا وتلقاهم عرنوس ولعب سيفه في رقابهم وصاح السلطان بجنوده عليهم ايها الابطال يا عصبة النبي المختار فهجمت الفداوية والامراء والوزراء وفي مقدمتهم السلطــان وتبعتهم العساكر والجنــود وانطبقوا على الاعداء ولعبت السيوف في الرقاب والكفوف وعلا الغبار وقدحت حوافر الخيــل الشرار وعميت الابصار وقصرت الاعمار ودام عرنوس يقاتل حتى قرب من علم الاعداء الكبير فضرب حامله قتله وصاح في الملك رومان الازرق فخبله وضربه بالبتــار فوقعت الضربة على عنق الجواد فوقع رومان الى الارض فثار اللئام وانطبقوا على عرنوس فلحقته رجال بني اسماعيل ودافعوا عنه دفاع الابطال الى ان ولى النهار واقبل الليل بالاعتكار فدقت طبول الانفصال وعاد السلطان وعرنوس وابراهيم وسعد وباقي الابطال الى الخيام وهم مثل شقائق الارجوان مما سال عليهم من دماء الاعداء وبعد ما بدلوا ملابسهم جلس السلطان وجلس عرنوس بجانبه فقال عرنوس لماذا تمنعني من الجهاد في سبيل الله وتحبسني فاني أتأثر جدا ولا يهدأ لي بال من هذا الحال فقال له انت تعلم السبب هو خوفي عليك من الاعداء ولكن قل لي من الذي أطلقك من السجن بالشام

فقال أطلقتني جارية كان نائب الشام جعلها لخدمتي واسمها جوهرة فقلت لها ان خلصتني من السجن اتزوجك ففكتني فلما خلصتني من السجن قلت لها الآن مرادي الحق السلطان ولما اعود من هذه الحملة آخذك الى مدينة الرخام واجعلك عندي في أعز مقام وتركتها وأتيت وجاهدت معكم على قدر استطاعتي فقال له السلطان بعد انتهاء الحملة قم بوفاء وعدك ثم قال له انت لا تطيعني اما تعلم ان اطاعة الملك فرض مطلوب فقال نعم ولكن الجهاد فرض على كل مسلم فأرجو ان لا تحرمني من أداء فريضة الجهاد في سبيل الله .

قال الراوي : اما رومان الازرق فتفقد عساكره فرآهم على آخر رمق فقال لجوان انت كنت السبب في تفريق جيشي على ثلاثة فرق انظر الى العساكر كيف يئنون من جراحهم عدا عن الذين فقدوا واني أراهم لا يستطيعون ان يثبتوا امام جيش السلطان فالاجدر بنا ان نرحل الىاللاذقية قبل ان يشعر بنا الاعداء فقال جوان اسرعوا الى اللاذقية فحملوا ورحلوا ولما اصبح الصباح تفقد جيش السلطان عساكر رومان الازرق فما رأوا الا خياما منصوبة تحتها المجاريح التي لم تقدر على السير معهم فركب السلطان ولحق الاعداء اما عرنوس فقد أمره السلطان ان يقيم في حلب عند نائبها بدون حبس فلما وصل السلطان الى اللاذقية نصبوا الخيام امام خيام الاعداء وأول من نزل الى الميدان الملك عرنوس فقد لحق بجيش السلطان وهجم على الاعداء فاحتاطوا به فلحقته ابطال الملك الظاهر الذي خاف على عرنوس فخرج من تحت البيرق وجال بين الاعداء يبري الرقاب ويكردس أعداءه بعضهم فوق بعض ودام الحال على هذا المنوال الى ان انهزمت الاعداء وقد ألقى الله الرعب في قلوبهم فولوا الادبار فقال الملك لعرنوس أصلحك الله اما اتفقنا ان تظل بحلب بدون حبس فكيف أتيت وأصليت الحرب بنفسك وان قلبي لا يسلم بك لاني خائف عليك فقال شيحة جمال الدين الحذر لا يمنع القدر والرأي عندي انه كلما دارت رحى

الحرب ضع برجليه ويديه القيود واتركه بالصيوان حتى ينتهي القتال تفكه فأمر السلطان بقيد عرنوس ووضعه بالصيوان وعين له خدما وحراسا وكان قد شاهد هذا الامر جاسوس من الاعداء فذهب وأعلم جوانا والملك رومان بأن عرنوسا مقيد وهو في الصيوان فقال جوان لولا عرنوس كنا انتصرنا على الملك الظاهر فالآن صارت لنا فرصة لقتله وهي انني غدا عندما أهز العلم وتحصل المعارك تذهب ايها الملك مع الف فارس من وراء جيش السلطان وتدخل الخيام وتقتل عرنوسا فهو بالصيوان مقيد بيديه ورجليه ثم تعود بأمان وفي اليوم الثاني هز جوان العلم فابتدأ القتال وهجمت الطائفتان على بعضهما البعض وبدأوا يجزون الرؤوس ويبقرون البطون عند ذلك أخذ رومان الف فارس وسار من وراء جيش السلطان ودخل الخيام فقاوم الحرس والخدم ولكن بدون جدوى ودخل رومان الصيوان فرآه عرنوس فصاح به والله يا ملعون لولا المنية حملتك الى هذا المكان وانا مقيد اليدين والرجلين لقطعت منك الرأس والاوصال ثم انه نطق بالشهادتين وتقدم رومان الى عرنوس وضربه بالسيف على رأسه شقه نصفين فمات شهيدا ثم عاد رومان بعسكره الى جيشه وقاتل الى ان انفصلت الجنود وعادت كل طائفة لمكانها فلما رجعت عساكر السلطان الى خيامها رأوا هذه الفاجعة فرمى المقدم اسماعيل نفسه على ابن أخيه وبكاه بالدموع وقال المقدم نصير النمر ليت يومي قبل يومك والله كان سببك هذا القصير شيحة اما السلطان فكان أشد الجميع حزنا ولوعة على عرنوس فبعد ان هملت دموعه على خديه كفكفها ثم وقف بين الجميع وخطب فيهم خطبة بليغة حمسهم فيها على الجهاد وعلى الانتقام للملك عرنوس ثم قال لا احد منكم يأخذ أسيرا بل عليكم بضرب الاعناق لاننا لن ندفن عرنوسا حتى نأخذ بثأره وننتقم من ملوك الاعداء وعساكرهم اشد الانتقام فلما سمعوا خطبة الملك الظاهر هاجوا وماجوا واشتاقوا الى خوض المعارك والفتك بالاعداء ولم يصبروا الى الصباح بل دقوا طبول الحرب وزحفوا على

الاعداء وفي أوائلهم السلطان وبنو اسماعيل والفداويـة وكأنهم الاسود الضواري وتبعتهم الوزراء والامراء وعساكرهم وصاح الاسطى عثمان هيا يا غلماني ابذلوا جميع قواكم وقاتلوا الاعداء حتى نكسب العز والفخار وفضل الجهاد في سبيل الله ثم انهم كبسوا الاعداء وصاحوا فيهم صيحات ارتجت لهولها السهول والجبال وأرعبت الاعداء فما لحقوا يركبون خيولهم الا والسيوف تلعب في اعناقهم والرماح تخرق صدورهم واصوات المجاهدين تهتف بالثارات للملك عرنوس ولله در الملك الظاهر فكان أشد من السبع الكاسر فخاض بجواده الصفوف يقطع الجماجم ويبتر الايدي ودام على ذلك الحال الى ان وصل الى العلم الكبير فضرب حامله بنمشة باديس قسمه نصفين وتقدم الى الملك رومان الازرق وقال له يا ملعون قتلت الملك عرنوسا وتظن انك تنجو ثم ضربه بالدبوس الدمشقي على رأسه طبق طاسة الفولاذ على دماغه ثم قبض عليه من عنقه وسلمه لسعد ابي رياح قائلا له احفظه عندك حتى نذبحه على قبر عرنوس فلما علمت الاعداء بأن رومان الازرق أسره السلطان حملوا بكل قواهم واجتهدوا على ان يخلصوه من الاسر فما استطاعوا لان سيف المقدم ابراهيم لعب في رقابهم وقتـل اثنين من ملوكهم وأسر واحدا وقد قتل في هذه الحملة ما يزيد عن اربعين الفا من الاعداء وخمسة آلاف من عساكر السلطان الظاهر وقتل من ملوك الافرنج عشرة وأسر اثنان عند ذلك انهزم الباقـون من الاعداء وتبعهم الابطـال يضربون في أقفيتهم حتى اخلوا منهم الديـار وعاد المسلمون منصورين مؤيدين فجمعوا الخيول الشاردة والعدد المبددة والغنائم ثم أمر السلطان ببناء قبر لعرنوس ثم غسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنـوه وذبحوا على قبره رومان الازرق والملك الذي أسره ابراهيم الحوراني اما اسماعيـل ابو السباع فانه بعدما فرغ من العزاء ذهب الى قلعته بارة يقيم فيها اما اولاد عرنوس فأقاموا في مدينة الرخام وحلف السلطان انه اذا وقع جوان في يده يقطعه تقطيعا ثم كتب الى جميع الملوك يقول الذي نعلمكم به ان

كل من اعتمد على جوان وقربه اليه ليس له عندنا الا قطــع رأسه وبلغ الخبر الى جوان فخاف من الملوك ان يمسكـــوه فغير زيه ولبس ملابس المجوس وكهان عباد النار وسار قاصدا بلاد العجم فلما وصل الى مدينة توريز العجم دخل الى معبد النار فقال له الكاهن ما تريد قال له انا مظلوم واسمي جوان وقد اطلعت على جميع الاديان فما رأيت احسن من عبادة النار فهي الاله الكبير فعلم بي النصارى فطردونـــي وكان مرادهــم ان يسلموني للمسلمين فيقتلوني لانهم يكرهونني ويقولون جوان منحوس وسبب ذلك اني قتلت ملكهم عرنوس ولما ضاقت عليّ البراري والقفار دخلت الى بيوت النار واحتميت بها وشكوت لها هذه الاضرار وها اني اعلمتك الخبر اليقين فأسألك بحق النار والنـــور ان تساعدني وتقدمني للملك هلاوون فقال له ان كنت دخلت في حماية النار فاني أساعدك بما تريد فقال جوان وحق النار ومن أوقدها وسجد لها وعبدها انني تابع لها ولا يمنعني عنها مانع فقال له قم الآن معي لاجمعك بالملك هلاوون بن منكتم ملك العجم لعله ينجدك فسار معه الى ان دخلا على الملك هلاوون فقام واستقبل الكاهن وسلم عليه فأخبره عن جوان انه اتبع عبادة النار وأحبها فقال له هلاوون ما سبب مجيئك الى هذه البلاد وما قصدك فقال جوان وحق النار لا اتخلى عنك حتى املكك بلاد العرب والروم اذا كنت تغزوهم فالتفت هلاوون الى وزيره رشيد الدولة وقال له ما رأيك في هذا الشأن فقال له اني لا أرى سببا لحرب ملك لم يعتد علينا ولم يحصل لنا منه اي ضرر فالصواب ان تطرد جوانا لانه سبب الفتن والحروب فتركه هلاوون والتفت الى وزيره ثقلون الزمان وقال له وانت ما رأيك فقال له أقبـــل نصيحة جوان حتى تملك البلاد وتطيع لك العباد من عجم وعرب وروم وترك وديلم فعندها أمر الملك أرباب معابد النيران ان يضعوا جوانا في معبد النار ويروه هل يعبدها حقا فأخذوا جوانا معهم وأدخلوه الى بيوت النار فطاف حولها سبع مرات وسجد لها وصار يتلو عليها من آيات المجوس

بصوت رخيم تشتاق سماعه النفوس فأذهــل بعبادته خدام المعبد فقالوا للملك هلاوون ما رأينا أعبد للنــار منه لانه يعبدها حق عبادتها فاطمأن هلاوون واكرم جوانا ورفع قدره وقال سأجمع لك جيشا من العساكر بمائة الف جندي بخيلها وعددها وما تحتاج اليه من أسلحة وذخائر لعلي أبلغ الارب واقتل ملك العــرب ثم أرسل المكاتيب لجميع البلــدان التي يحكمها ان يتجهزوا للقتال فقدمت اليه العساكر والجنود حتى صار عنده مائة الف مقاتل وبرز بالخيام والسرادقات والاعلام واندقت طبول الرحيل وساروا يقطعون القفار حتى قربــوا من حلب فلما رأى نائب حلب هذه الجيوش والعساكر قفل الابواب وركب المنجنيقات على الاسوار وجاءته الاخبار ان هذا جيش التتر والمغول والملك عليهم هلاوون وهم مجوس يعبدون النار فحالا كتب كتاب وأرسله الى مصر يعلم السلطان فلما وصل النجاب ودخل الى الديوان وأعطى الكتــاب للملك الظــاهر قائلا هذا الكتاب من حلب الشهباء من النائب عماد الدين ابو الخيش فلما فتحه قرأ فيه الذي نعلمكم به يا مولانا السلطان انه يوم تاريخه رأينا عسكرا جرارا آتيا من جهة العجم بنحو مائة الف فارس وملكهم هلاوون بن منكتم وصحبته جوان عابد النار فلما رأينا تلك العساكر عباد النار أغلقنا الابواب وأقمنا الحصار وأعلمناكم بذلك فأدركنا يا أمير المؤمنين قبل ان يحتلــوا بلادنا والسلام عليكم فحالا أمر السلطان بتجهيز العساكر ثم أقسم بالله انه اذا قبض على جوان لا بد ان يقطعه تقطيعا ولا يقبل به شفاعة احــد وان وقــع هلاوون في يدي لأنشره بالمنشار كما ينشر الخشب بعد ذلك سار جيش السلطان قاصدا مدينة حلب اما جــوان فقال لهلاوون أرسل كتاب الى نائب حلب ان يسلمنا المدينة والا نهاجمه ونحتلها بالقوة فكتب كتاب الى نائب حلب وأرسله مع نجاب فأخذوا منه الكتــاب وأوصلوه الى النائب وقالوا ان النجاب منتظر الجواب تحت الاسوار فقرأ الكتاب يجد فيه من الملك هلاوون حامي عبادة النار الى نائب حلب حين اطلاعك

على كتابي هذا تفتح أبواب البلد وتأتي لي طائعا مختارا فأجعلك نائبي على حلب كما كنت نائب السلطان وأعلن بين الرعية الامان والسلام فالحذر الحذر من المخالفة والعصيان فبعدما قرأ نائب حلب الكتاب كتب لهالجواب يقول فيه من نائب امير المؤمنين الملك الظاهر الى هلاوون المغرور اعلم انك اذا عملت بآراء جوان فان عاقبتك تكون وخيمة جدا وستعود جميع الاضرار على عساكرك وبعدها على خراب بلادك اما ان نفتح لك حلب فهذا بعيد عنك بعد الارض عن السماء فان اسوار حلب منيعة والمؤن فيها كثيرة ومياهها غزيرة ورجالها موصوفين بالشجاعة والبطولة فارجع الى بلادك ولا ترم برجالك في حرب لا طاقة لكم بها وقد أعذر من أنذر فلما قرأ هلاوون الكتاب أعلم جوانا بما فيه فقال جوان هاجمه بالحال ودع عساكرك تعتلي الاسوار وتنصب المنجنيقات فأمر هلاوون ان يحاصروا حلب ويهجموا على الاسوار ويحتلوها فبدأ الهجوم وضرب النبال والمنجنيقات تضرب الاحجار على الابراج وكان حماة الاسوار والابراج على استعداد فقابلوهم بالمثل وأهلكوا منهم خلقا كثيرا لانهم يضربونمن الاعلى فيصيبون الهدف تماما اما نائب حلب فنفر الرعية لتساعد العساكر والجنود في الدفاع عن الاسوار فنفرت الاهالي وصارت تضرب الاعداء من على الاسوار والابراج مما أجبر الاعداء على تخفيف هجومهم وتراجعهم الى الوراء ودام هذا الحال مدة عشرة ايام اما جوان فأرسل جواسيس يراقبون له طريق الشام حتى اذا رأوا جيش السلطان قادم الى حلب أخبروه وظل جوان ينتظر الجواسيس حتى عادوا وأخبروه انجيش السلطان وصلقريبا من حلب وانه علىوشك ان يحط الرحال فقاللهلاوون هذه فرصة يجب على عباد النار ان ينتهزوها وان الحرب خدعة وفرص لا سيما اذا كان العدو غافلا ومنهوك القوى من مشقة الاسفار وقد وصل جيش السلطان الآن وهو تعبان والعساكر التهت بشؤونها ففاجئهم بهذه الحملة تنجح بدحرهم وتشتيتهم اما جيش السلطان لما وصل أنزل الاحمال

والاثقال وحولت الفرسان عن الخيول وأرخت لها الاحزمة ونزعت لجاماتها ووضعوا لها العليق ولا احد حاسب حساب لغدرات الزمان وكان جوان يراقبهم فلما رآهم على هذه الحالة هز العلم وصاح بجيش هلاوون يقول النار وشرارها ودخانها تأمركم بالحملـــة على الاعداء وان تأخرتم تغضب عليكم فما رأت عساكر المسلمين الا والاعداء عباد النار هاجمين عليهم من جميع الجهات فكانت مفاجأة محزنة للسلطان الذي صاح بعساكره اعتلوا خيولكم ايها الابطال وجاهدوا في سبيل الله فما لحقت الفرسان تركب خيولها الا ونزل عليها الطعن والضرب مثل زخ المطر ولم يكن باستطاعتهم الثبات فولوا الادبار وتشتتوا في البراري والقفـــار مسيرة يومين وصار السلطان يأمرهم بالوقوف وجمع الشمل وذلك قريبا من معرة النعمان فلما اجتمعوا نظر اليهم السلطان فرأى مفقودا منهم كثير من العساكر والجنود والخيل والمؤن والخيام فتأسف السلطان ثم قال الحـــرب سجال يوم لك ويوم عليك وحالا أرسل الى جميع البلدان التي يحكمها ان يمدوه بالعساكر والمؤن والخيام وأرسل الى ابنه السعيد بمصر ان يضع أخاه شلامش على عرش مصر ويجيش عساكر الاحتياط ويأتي بهم بالعجل ثم بعث المكاتيب الى شيوخ العربان في باديـــة الشام والجزيرة وشط الفـــرات بأن يغزوا الاعداء عباد النار ولا يدعوهم يستقرون وارسل مكتوب الى نائب حلب عماد الدين بالثبات في الدفاع عن مدينة حلب وان الفرج قريب ثم ذهب الملك الى الشام وطلب فتوى من العلماء بالنفير العام وجمع الاموال من الناس لتقوية المجاهدين في سبيل الله والدفاع عن الاوطان فوافقوا على طلبه وأعطوه الفتوى •

قال الراوي : اما هلاوون بعدما كسر جيش الملك قال له جوان احمل على حلب حملات صادقة ودك أسوارها واستول عليها بالقوة فأمر هلاوون بالهجوم على حلب من جميع الجهات ومقاتلة رجالها على الاسوار ففعـــل الجيش فقابلتهم أبطال حلب بالمثل ودام هذا الحـــال مدة عشرة ايام واذ

بجيش الملك الظاهر مقبل وهو على اتم استعـــداد وصدم الأعداء حتى أبعدهم عن حلب ثم ان الملك أتى بشيوخ العربان من سائر الجهات وعمل مجلسا حربيا وقال علينا ان نمكر بالاعداء كما مكـــروا بنا وغدرونـــا والحرب خدعة فأمر كل واحد من الامراء ان يقوم بتنفيذ ما يتوجب عليه أتم قيام وعين الزمان والمكان وقال انها الموقعة الفاصلة بيننا وبين التتر عباد النار الى يوم من الايام وقد اجتمعت العربـــان والعشائر وتم كل شيء حسب ترتيب الملك ثم أمر العساكر ان تنقسم الى قسمين الاول يختفي عن الانظار والقسم الثاني تنزل منه الفرسان وتطلب المبارزة وبعد ساعة من الزمان يتقاتل مع الاعداء ثم يولي الادبار الى ان تصير الاعداء وسطا بين الجيشين ثم يرجع القسم الثاني ويكر على الاعداء ويفتك بهم بضربات قاطعات والقسم الاول عندما يرى عباد النار هاجمين على جيش المسلمين يهجمون عليهم من الخلف ثم أمر العربان ان تنقسم الى قسمين قسم يهجم على خيام الاعداء بضربات قاطعات وقسم يتلقى الهاربين من الاعداء ويفتك بهم بالبتار وعند الصباح فرق العساكر حسب الخطة المرسومة فدقت طبول الحرب وبرز فارس من جيش السلطان فبرز له فارس من الاعداء فتقاتلا الى ان غلب فارس المسلمين فأرداه قتيلا ونزل اليه فارس آخر فقتله ولم يزل يقتل فارسا بعد فارس حتى قتل عشرة فرسان عند ذلك انحمق هلاوون وأمر بالهجوم فهجم الاعداء وتقاتل الفريقـــان اما جيش السلطان فأظهر الضعف ثم ولى هاربا فلحقهم جيش التتر عباد النار ظانين انهم يكسرون جيش السلطان كالمرة السابقة فلم يشعروا الا وعساكر المسلمين فاجأتهم من الخلف تضرب في أقفيتهم وتطعنهم بالرماح فأداروا رؤوس الخيل ليقاتلوهم فارتدت عليهم العساكر المنهزمـــة مثل الاسود يحزون منهم الرقاب حتى ضاق على الاعداء المجال ورفرف عليهم طير المنايا وحام وتنكست أعلامهم وغنى الحسام الصمصام وتكومت القتلى من الاعداء اكواما اكواما ولله در الملك الظاهر فانه استظهر على عباد النار بضرب البتار وكذلك ابطال

المسلمين بذلوا نفوسهم في الجهـاد ودام الحرب على ذلك الحال الى ان مالت الشمس للنـزول وكان الملك هلاوون وجوان منتظرين نتيجة هذه المعركة واذ بصيحة العربان منهم على خيول عربية ومنهم هجانة هاجمين على خيام الاعداء فما ابقوا على أحد في طريقهم من عباد النار فلما رأى جوان هذه الاحوال ثبت عنده أنها خدعة حربية فتوارى عن العيان وانسل مثل الشيطان ، أما العربان فقتلوا حراس هلاوون واخذوه اسيرا وقيدوه في قيد حمار وتابعوا المسير الى جهة السلطان وساعدوه على الاعداء وكانت وقعة عظيمة انتصر فيها المسلمون وهلك عباد النار الاشرار عندها صـاح الباقون منهم الامان، الامان، ورموا أسلحتهم فأسروهم وقيدوهم وربطوهم بالحبال أما السلطان فذهب الى الخيام وصار يستقبل الامراء وابطـال جيشه واذ بشيوخ العربان مقبلين بالاهازيج على ظهور الخيل وعلى الجمال يقولون لعينيك يا سلطان وسائقين قدامهم الملك هلاوون ووزراءه وأعيانه مثل الكلاب فأستقبل الملك العربان وحياهم وحيا مروءتهم ونخوتهم وشهامتهم وقال بارك الله فيكم يا سباع البر ، ثم استلم منهم هلاوون وأمر أن يربطوا رجليه بخشبتين ثم قال انشروه فنشروه من مقعده الى رأسه في قدموا له الوزير رشيد الدولة وكان مسلما ، قال له الملك عرفنا انك انت مسلم فكيف تساعد هلاوون عابد النار على المسلمين الابرار ، قال كلا يا مولاي اني لم أساعده ابدا وكنت انصحه ان لا يحاربك فما سمع مني واتبع مشورة الوزير ثقلون الزمان الذي قال له اتبع نصيحة جوان فتملك البلاد وتطيعك العباد من عجم وعرب وروم فقال السلطان هاتوا الوزير ثقلون فقدموه اليه فقال له لاي شيء حرضت هلاوون على غزو بلادنا ، قال يا مولاي هـذا جوان الذي دخل في ديننا وحرض هلاوون وحبذ له هذه الحملة فقـال السلطان اما إستشارك هلاوون بهذا الامر ، قال نعم يا مولاي استشارني فقال له ، واشرت عليه ان يحاربنا ويغزو بلادنا ويقتل رجالنا فسكت ثقلون فقال السلطان أعدموه كما أعدمتم هلاوون فنشروه بالحال ، ثم سأل بقية

الوزراء والامراء فقالوا يا مولانا السلطان نحن فوجئنا بهذه الحملة ولم يستشرنا هلاوون في هذا الامر لاننا مسيرون كما يريد ، فما ذنبنا ايها الملك ، فقال قيدوهم ، ثم ان السلطان أطلق الوزير رشيد الدولة واثنين من الامراء وأعطاهم كتابا من يده الى اولاد هلاوون وأمرهم بالعودة الى بلادهم وقد جاء في الكتاب أرسلوا لنا عشرة خزنات من المال غرامة حربية وعشر خزنات مال ثمن أرواح الاسرى من الوزراء والامراء والعساكر الذين هم في حوزتنا والمهلة لكم في ذلك ثلاثة أشهر والا فنذبح الجميع ونركب على بلادكم ونطردكم منها ونريح العباد من جوركم وظلمكم، ثم ان السلطان أمر بتوزيع الاسلاب والغنائم وأعطى شيوخ العربان وجيوشهم ما أرضاهم من خيول وخيام ومؤن وسلاح فركبوا وتوجهوا الى اراضيهم وأقام السلطان في حلب مدة اسبوعين وصار يمر على البلاد ويعوض على الناس ما أخذه منهم ولما وصل الى الشام فرح الناس به واستقبلوه بالاهازيج والعراضات وهم يدعون له بالنصر فشكرهم على ذلك وأبطل الضريبة التي طلبها منهم وأطلق من في الحبوس ، ثم توجه الى مصر بجيشه وساقوا الاسارى أمامهم ويقدرون بثلاثين الف أسير مقيدين في الاغلال فلما وصلوا الى مصر انعقدت المواكب وقامت الاحتفالات لاستقبال الملك الظاهر المنتصر الى ان طلع الى قلعة الجبل وجلس على عرش مصر مؤيدا منصورا وأطلق من في الحبوس وأقام يتعاطى الاحكام وفي قلبه لهيب النار على الملعون جوان وسأل عن جمال الدين شيحة فأعلموه انه ذهب يفتش عن جوان وحلف ان لا يعود الا به ليقطعه أمام حضرة السلطان .

قال الراوي : أما جمال الدين فانه سار الى يغره بلد جوان وصار يدور عليه فلم يجتمع به وبينما السلطان جالس في يوم من الايام واذ بنجاب يدخل الديوان وهو يقول سبحان هادي الطير ، قال الملك وراحم الشيب وساتر العيب من أين ، قال من حلب الشهباء وأخرج الكتاب وسلمه للسلطان ففضه وقرأ فيه من نائب حلب عماد الدين ابي الخيش الى مولانا

أمير المؤمنين السلطان الظاهر الذي نعلمكم به انه ورد علينا يوم تاريخه وزير من بلاد العجم مع خمسائة فارس ومعهم مائة بغل محملة بالاموال والهدايا ليقدمها الى السلطان وهي المطلوبة من أبرهة ابن هلاوون فأقمناهم في دار الضيافة واعلمناكم بذلك والامر امركم والسلام عليكم فلما قرأه الملك قال لأيدمر البهلوان خذ معك الف فارس وتوجه الى حلب وائتنا بهذا الوزير وزمرته وأينما حل يكون بضيافة السلطان هو وجماعته فركب الامير ايدمر وسار الى حلب فلما وصل دخل على النائب وأعلمه بأمر السلطان وانه سيرافق الوزير الى مصر ليحافظ عليه وعلى المال فجمعه بوزير أبرهة وسلم عليه وبعد ثلاثة أيام حملوا المال وركبوا وساروا الى مصر وطلع الامير أيدمر الى الديوان وأعلم السلطان بمجيء وزير الملك أبرهة فأذن له الملك بالدخول فدخل وسلم ودعا للملك بدوام العز والنعم فاستقبله السلطان بالبشاشة فأخرج الوزير كتاب الملك أبرهة وأعطاه الى السلطان فقرأه السلطان واذ فيه باسم النار والنور الذي نعلمكم به يا مولانا السلطان اننا تأسفنا على هذه الحملة التي كان سببها جوان وجرى ذلك على غير ارادتنا والآن قد أرسلنا لكم عشرين خزنة من المال مع وزيرنا حسب طلبكم وأرسلنا لكم بعض الهدايا الامل قبولها وفي الختام تقبّلوا منا فائق الاحترام فأمر السلطان وكيل الخزنة أن يستلم المال والهدايا وأمر باطلاق سراح جميع الاسرى وتجهيزهم بالمؤن والملابس والركوب ثم سلم الاسرى لوزير أبرهة وأذن لهم بالرحيل صحبة الوزير وأرسل معهم الفي فارس للمحافظة عليهم حتى يخرجوا من الحدود بأمان فتودع الوزير من السلطان ومن الوزراء والاعيان وسار الى بلاده ومعه الاسرى •

قال الراوي : اما شيحة جمال الدين فظل يفتش على جوان مدة طويلة في جميع البلاد بالكنائس والمعابد فما كان يجد له أثرا الى يوم من الايام كان شيحة مرتديا ملابس امرأة عجوز محنية الظهر وعلى رأسها حرام صوف وبيدها عكاز فدخل شيحة بهذه الهيئة الى كنيسة فرأى البرتقش

بين الناس فصار يراقبه الى ان خرج من الكنيسة فتبعه شيحة وسمع البرتقش صوت امرأة تناديه يا سيف الروم فالتفت فرأى العجوز فقال لها ما تريدين يا خالة فقالت له من انا يا برتقش لعلك نسيتني فدهش البرتقش وقال عرفتك انت جمال الدين شيحة فما هي مهمتك الآن فقال شيحة ان السلطان ناقم على جوان فكم أصلى من حروب وسبب من فتن وأزهق من أرواح قد تعهدت للملك الظاهر ان أجيء له بجوان وصار لي ستة أشهر أفتش عنه انا واولادي فما رأيناه ولا سمعنا عنه اي خبر فدلني عليه والا وحق الاله لا أدعك تسلم مني ومن اولادي الذين يراقبوننا عن كثب فقل لي اين جوان وعليك الامان فقال البرتقش ان جوانا موجود بالكنيسة بمكان لا يراه فيه احد فاتبعني لأدلك على مكانه فتبعه الى ان دخلا الى الكنيسة فأشار له على باب قصير مصفح بالنحاس فصبر شيحة الى الليل وغير هيئة العجوز وأتى الى الباب فعالجه فانفتح ودخل فأخرج شمعة وشعلها ومشى في دهليز طويل فرأى بابا فعالجه بعدة العياقة وفتحه ودخل فوجد أربعة لواوين وفي العالي قبة مبنية لها أربع شبابيك ورأى ضوءا ينبعث من أحد اللواوين فنظر الى داخله فرأى جوانا جالسا على سرير مطعم بالعاج وأمامه فتاة مثل البدر في تمامه وهي تملأ الكأس وتقدمها له وسمعه يقول لها وهل لهذا القصير شيحة ان يعرف مكاني ورأى شيحة كتابة باللغة اليونانية فقرأها فاذا هي تقول يا واصل الى هذا المكان اذا كنت شيحة ومطلوبك جوان فاضرب هذا الشباك بسلاحك فانه مرصود لك فتدخل وتأخذ خصمك فضرب شيحة الشباك بسلاحه فانكسر الشباك وهجم شيحة على جوان وهو يقول واين تهرب مني وأنا وراءك في الطلب فقفز جوان من مكانه واختفى فنظر شيحة الى الفتاة فرآها من خشب مدهون ففتش على جوان فلم يجده ورأى غرفة مبلطة ببلاط أسود وأبيض فعرف شيحة ان منها مهلك ومنها سليم فصار يفحص البلاط ويجسه فعرف ان الابيض مهلك فصار يدوس على البلاط الاسود فرأى لوحا معلقا على

الجدار فأزاحه فرأى بابا فدخل منه فوجـد ثعبانا فاتحا فمه ومنعه من الوصول الى جوان الذي صار يستهزىء بشيحـة فضرب جمال الدين الثعبان بسلاحه قطعه نصفين فاذا هو من خشب وكرتون ودخل ليقبض على جوان فلم يجده فصار ينظر في الجدران فرأى زرا فحركه فانفتـح الباب فدخل شيحة الى قاعة كبيرة وجد جوانا جالسا على سرير وهو يغني كأنه لا يهمه شيء فقال له شيحة وأخيرا لا أدعك تفلت مني فقال له الحقني وقفز من على السرير واختفى فقد بلعته الارض فتحير شيحـة من هذه الاسرار وسمع صوتا يقول افتح الطاقة التي تحت قدميك فجلس شيحة وصار يجس الارض فرأى حلقة صغيرة فجذبها فتحرك لوح من رخـام فرفعه فوجد قاعة ولم يجد جوانا ولكنه سمع الرصد يقول أهلا وسهلا بجمال الدين شيحة اذا كنت تريد تأخذ عدوك جوانا فانا نسلمك اياه على شرط ان لا تقتله هنا الا امام السلطان الظاهر فقال شيحة كما تريدون ثم ان الرصد قال لاعوانـه احضروا جوانا فاحضروه وهو مغلـول بجنزير وسلموه الى شيحة وفتحوا له الابواب التي دخل منها فطلع الى الكنيسة فبنجه شيحة وأخرجه من الكنيسة وأخفاه في مكان وكان الوقت ليلا ثم ذهب وأعلم أولاده ان جوانا في قبضته فنهض محمد السابق وأخوه طويرد واحضر شيحة صندوقا وبغلا فوضعوا أمتعتهم في صندوق ووضعوا جوانا في صندوق له شقوق من أسفله وجوانبه لدخـول الهواء اليه وحملـوا الصندوقين على بغل وساروا طالبين الاوطان وكانوا يخرجون جوانا في الليل يصحوه ويطعموه الى ان وصلوا الى مصر وأنزلوا جوانا في السرايا وصحوه وهو مقيد ثم ذهب شيحة الى الديوان وأعلم السلطان بالقبض على جوان وحكى له ما جرى معه حتى استطاع القبض عليه فقال السلطان بارك الله بك يا سلطان الرجال أحضر لنا جوانا بالحال فذهب شيحةوأحضر جوانا مخفورا بين أولاد شيحة وقدموه الى السلطان فقال له وقعت الآن فكيف ترى نفسك قال انا مرتاح وضميري مرتـاح فقال له السلطان اما

تعرف مصيرك والمنية تدنو منك وستنال جزاءك بما اقترفت من الجرائم وازهاق الارواح بسبب اعمالك الخبيثة فقال جوان ان مصيري كمصير اي انسان في هذه الحياة وهو الموت فلا يهمني كيف اموت تنوعت الاسباب والموت واحد ، اما اعمالي فان كانت خبيثة عندكم فهي حسنة عندي لاني قمت بما يمليه عليّ الواجب وقد انتقمت من اعدائي قبل ان يظفروا بي فقال له الملك غدا آخر ايامك وسوف ترى ثم امر ان يضعوه في السجن ويثقلوا عليه القيود والاغلال وثاني يـوم نزل الملك والوزراء والامراء والمقدمون وأعيان الدولة من الديوان الى ساحة القلعة واصطفت العساكر والجنود وسمحوا للاهالي بالفرجة على تقطيع جوان فجاء الناس افواجا افواجا وامتلأت الساحة واذ بشيحة مقبل بجوان ورفعه على منصة عالية ليراه جميع الناس وقد أحضر شيحة سكينا وموقدا من جمر الفحم ووعاء فيه زيت أفرغه في المقلاية (الطواية) ووضعها على النار ثم شبح جوانا من يديه ورجليه وبدأ يقطع أصابعه ويضع محل القطع الزيت المغلي حتى لا يصفي دمه ثم قطع كفيه وقدميه وهو يصيح ويستجير فيقول له حتى تتذكر ما فعلت بالناس من الجرائم التي لا تعد ولا تحصى ثم قطع كل اطرافه ولم يبق الا رأسه وجسده فقال السلطان لشيحة اقض عليه بالمرة وكفاه ما نال من العقاب فأوقد شيحة النار ورماه فيها فاحترق وصار رمادا .

قال الراوي : ان الملك فرنسيس صاحب مدينة سيس تأثر جدا على قتل جوانا وتقطيعه فأرسل كتابا الى أبرهة ملك توريز قال له فيه ان الملك الظاهر قتل أباك هلاوون اما خطر في بالك ان تأخذ بثأر أبيك منه وقد ملكت بلاد العجم فتعال عندي وتتفق انا وانت مع ملوك السواحل ونكون يدا واحدة حتى نهلك السلطان الظاهر فلما قرأ أبرهة الكتاب سافر الى مدينة سيس ودخل على فرنسيس واتفقا على حرب السلطان بخطط معينة وعاد أبرهة الى بلده وصار يرسل من عنده رجالا بصفة تجار يسافرون الى حلب ثم يستوطنون فيها حتى اجتمع في حلب مقدار خمسة آلاف عايق

ثم عمل أبرهة مائتي صندوق بطبقتين يضع بالطبقة السفلى فدائيا مدربا وفي الطبقة العليا اموالا وهدايا وبضائع وحمل الصناديق على جمال على انها خزنة مال للسلطان وجاء بها أبرهة بالذات متخفيا على هيئة نجـاب فلما وصل الى حلب دخل على عماد الدين أبي الخيش وقال له هذه اموال الملك الظاهر فأودعها عندك فصدقه النائب وأدخل الصناديق الى القلعـة ولما سنحت له الفرصة أخرج الرجال من الصناديق وغدرت بعساكر القلعة تضربهم بالسيوف والحراب ودخل الخمسة آلاف عايق المقيمين في حلب الى القلعة وملكوها وقد هلك كثير من الاهالي وقد أقبل فرنسيس ملك سيس بعساكره في ذلك اليوم الذي ملك أبرهة فيه القلعة فهجم فرنسيس على حلب فهرب من عساكرها من هرب وملك أبرهـة البلد وقبض على عماد الدين ابي الخيش وقعد أبرهة على كرسي حلب ، اما المقدم سليمان الجاموس فبلغه خبر ان عباد النار التتر استولوا على حلب فركب وأتى الى حلب ، اما أبرهة فقد أحضر نائب حلب وأمر بضرب عنقه فتقدم سليمان الجاموس وضرب السياف قطع رأسه فصاح أبرهة برجاله دونكم واياه فقاتل المقدم سليمان حتى قتل واستشهد هو والنائب رحمهما الله تعالى فلما ملك أبرهة حلب أرسل يطلب العساكر من توريز حتى يزحف بها الى دمشق فيملكها ولا يرجع حتى يهلك ملك العرب وعساكره وكان لأبرهة ولد اسمه شرجيل قال لأبيه لا تظلم يا ابي وابق موضعا للصلح فقال له وأي صلح بعد قتل والدي الملك هلاوون .

قال الراوي : قد وردت العساكر من توريز فسار بها أبرهة واستولى على حماه وحمص وأخذ فرنسيس سرمين والمعرة وتوغلوا في بلاد الاسلام الى ان احتلوا مدينة دمشق ، اما الملك الظاهر فدخل عليه رجلان يصيحان النجدة النجدة يا ملك الاسلام فقال السلطان ما الخبر فقالا نحن منأتباع نائب الشام اقش النجبي والذي نعلمكم به ان أبرهة بن هلاوون ملكحلب وقتل نائبها عماد الدين والمقدم سليمان الجاموس وأخذ حمـاه وحمص

وأهلك خلقا كثيرا من المسلمين فلما سمع السلطان هذا الخبر صاح الويل لأبرهة سأنشره كما نشرت أباه من قبله ثم برز بالعساكـر وسار بها الى أرض الشام فلما وصل الى ضواحي الشام والبلاد التي حولها رأى الاهالي يتقاتلون مع التتر عباد النار فقال السلطان لبني اسماعيل كل مقدم منكم يأتي برجاله من ناحية وانا والامراء نصدم القلب فتقدم الامير قرغول الى السلطان وقال ائذن لي يا مولاي ان اسير بعسكري لافتح مدينة حلب قال له اذهب نصرك الله على الاعداء فألبس عساكره ملابس عباد النار وسار الى حلب ورفع فوقه علم عباد النار فلما وصل الى حلب دق الطبول اشارة انه عائد منصور وكان في حلب مقدار اربعة آلاف من الاعـداء والمقدم عليهم اسمه عبد لهب فلما رأى قرغول ظنه أبرهـة عاد منصورا فتقدم ليسلم عليه فضربه بالسيف أطاح رأسه وأمر عسكره بدخول حلب وكانوا فاتحين الباب لاستقبال أبرهة على زعمهم ووضعـوا السيوف في أعناق عباد النار وساعدتهم أهالي البلد وكان فرنسيس مقيما في حلب ومعه مقدار الفين فأهلكوهم جميعا ، اما فرنسيس فاختفى عند احد الناس ، اما الملك الظاهر لما وصل الى دمشق رأى القتال قائما على قدم وساق حالا ضرب الاعداء عباد النار وضربت رجاله بالسيف البتار وطعنوا الخصـم بالرماح والنبال فلما رأى أبرهة جيش السلطان متفوقا على جيشه قال لرجاله مالكم تأخرتم عن القتال اهجموا معي لتنصركم النار وهجم امامهم لجهة السلطان فتلقاه فداوي بضربة بالدبوس بين اكتافه رماه عن الجواد ثم كتفه وقدمه الى السلطان عند ذلك تضعضعت عساكر أبرهة فهجمت عليهم جنود السلطان والاهالي وذبحوهم ذبح الاغنام وما أبقوا منهم أحدا ودخل الملك الظاهر الشام ثم سار الى حلب وفي طريقه خلص حمص وحماه وباقي البلاد من الاعداء الى ان وصـل الى حلب فاستقبله الامير قرغول وبشره بتخليص حلب من التتر عباد النار فأنعم عليه وأثنى على شجاعته وبطولته ثم جعله نائبا في حلب ثم نادى المنادي بأمر من السلطان ان من

يكون عنده فرنسيس ملك سيس ولم يخبر السلطان عنه فدمه مهدور فقال الرجل الذي هو عنده لفرنسيس قم لاسلمك للسلطان لعله يعفو عنك مقابل جزية مال تدفعها له لاني لا استطيع ان أخفيك عندي فيهدر دمي السلطان فقام معه ودخل به على السلطان وقال هذا فرنسيس شريك أبرهة يا مولاي وهو الذي قتل المقدم سليمان الجاموس وكان فهد بن المقدم سليمان واقفا فضرب فرنسيس بالسيف فقتله فقال له السلطان أحسنت فقد انتقمت لأبيك بارك الله فيك ثم قال هاتوا أبرهة بن هلاوون فأحضروه ومعه مائتا أسير فأمر السلطان بصلبهم على أسوار حلب ثم أمر بربط أبرهة من يديه ورجليه بالاخشاب وبنشره من مقعده الى شعر رأسه ففعلوا كما أمرهم السلطان ، اما شرجيل بن أبرهة فقال للسلطان انا يا مولاي ليس لي ذنب وقد لمت والدي على هذه الاعمال فما قبل مني واني جئت معه مكرها فأرجو العفو عني اكراما للوزير شاهين وانا استجير بك وبه وان حصل مني أدنى خلل فيكون جزائي مثل جزاء والدي فانحنى الوزير شاهين امام السلطان وتشفع في شرجيل فقبل السلطان شفاعته وأطلقه من القيود بعدما فرض عليه المال والغرامات فتعهد شرجيل انه حين وصوله الى بلاده يرسل المال حالا فقبل منه السلطان وأوصلوه الى بلده بأمان اما الملك بعدما استقرت البلاد واطمأنت رجع الى مصر وطلع للديوان وقعد على عرش مصر وصار يتعاطى الاحكام .

قال الراوي : ومن أعجب ما وقع ان أسفوط بن جوان أخذ البرتقش وصار يدور على ملوك الافرنج ويحضهم وينخيهم على أخذ ثأر أبيه جوان من السلطان وشيحة الذي قطعه وكان يقول لهم تسمعون بقتل جوان وتقطيعه ولا تحركون ساكنا فهذا عار عليكم ان تسكتوا على هذه الاهانة فسمع له ثلاثة ملوك كبار وقالوا سنركب على السلطان بالحال ونملك بلاده واتفقوا على ان الاول يغزو الاسكندرية والثاني يغزو دمياط والثالث يغزو انطاكية فأول من ركب ملك جنوا ومعه خمسة ملوك وسار بهم الى

الاسكندرية والثاني الملك قريطش ملك كريد ومعه خمسة ملوك وسار بهم الى دمياط والثالث ملك الافلاق ومعه اربعة ملوك وقصدوا انطاكيـة وكانت العساكر التي قصدت انطاكية ثمانين الفا ملكوا انطاكية وزحفوا منها الى حلب فلما علم نائب حلب بذلك أقفـل الابواب وأقام الحصار وكتب كتابا للسلطان أرسله مع نجاب فلما دخل على الملك سلمه الكتاب ففتحه وقرأه واذ بنجاب آخر معه كتاب من دمياط فقرأ فيه مولانا السلطان الذي نعلمكم به ان ستة ملوك من الافرنج ومعهم ستون الفا من العساكر احتاطوا بدمياط وملكوا البر والبحـر أدركنا يا امير المؤمنين فما انتهى السلطان من قراءة الكتاب الثاني الا ونجاب يصيح سبحان هادي الطير وتقدم الى السلطان وناوله كتابا من الاسكندرية واذ فيه أنجدنا يا ملك الاسلام فقد احتاطت بنا ستة ملوك من الافرنج واحتلوا الميناء ونحن في أشد الضيق فأدركنا يا امير المؤمنين فقال الملك لأيدمر خذ خمسين الفا من العساكر ومستشارك أخوك بكتمر وتكون وجهتكم الاسكندرية ادفعوا عنها الاعداء ثم قال لابنه السعيد والامير قلاوون واحمد بن أيبك خذوا أربعين الفا من العساكر واذهبوا الى انطاكية وهذا أمر سلطاني اعلمـوا بما فيه نائب الشام ونائب حلب بأن يعلنا النفير العام ويجندا كل من يقدر ان يركب الخيل ويضرب بالسيف وادفعوا الاعداء عن البـلاد ثم أرسل كتابا للفداوية بني اسماعيل أمرهم ان يسيروا الى انطاكية ويجتمعوا بالملك محمد السعيد ويجلوا عنها الاعـداء ثم سار السلطان بجيشه الى دمياط وجد الاعداء ناصبين خيامهم فنصب خيامه واذ بأحد الفلاحين يطلب الاذن بمواجهة الملك فأذن له ودخل وسلم عليه ودعا له بالنصر والظفر ثم قال انا نريد ان نشترك معكم في الجهاد في سبيل الله وقد خطـرت لي فكرة تساعد عساكر المسلمين على هلاك عدوهم والنصر عليه فقال السلطان وما هي هذه الفكرة قال يا مولاي انا عمدة في هذه الديار ولي خبرة في ميناء النيل فاذا أمر السلطان ان نحصر المياه في هذه الناحية ثم نفتحها على الاعداء

فتغرقهم وهذا الامر يحتاج الى ثلاثة أيام فأشغل العدو بالمبارزة في هذه المدة لنقوم بهذا الامر فقال له الملك وهل تريد مساعدة قال ترسل معي يا مولاي بعض الجنود لنجمع الفلاحين والعمال لاجل سد المحلات التي تتسرب منها المياه من الترعة ونحفر المحلات المرتفعة لتجري المياه بسرعة وتغرق جيش العدو بأكمله فأرسل معه السلطان بعض الجنود وقال للعمدة قم بما يمليه عليك الواجب ويرضي رب العالمين وها انا سوف أطاول الاعداء حتى تنهي أعمالك اما الاعداء عندما اصبح الصباح اصطفوا ثم برز الملك قريطش الى الميدان فبرز اليه عز الدين أمير الاكراد وتقاتل معه ساعة من الزمان فضربه قريطش بنبلة أصابت فخذه فأدركته الاكرادوأخذوه من الميدان وأراد السلطان ان ينزل لقريطش فحلف ابراهيم الحوراني قائلا وحياة رأسك يا مولاي لا ينزل اليه غيري ثم انحدر الى الميدان وصدم قريطش صدمة جبار وقال له دونك والقتال يا قرنان وتقاتل معه ساعة من الزمان فأتعبه وضايقه ولاصقه وسد عليه طرقه وطرايقه وطبق في خناقه وقاده أسيرا وسلمه لغلمانه ورجع للميدان فنزل اليه احد الفرسان وهو غاطس في الحديد فتحسب له ابراهيم الا انه صار يطاوله في القتال الى ان استحكم منه فضربه بذي الحيات أزاح رأسه عن جثته ونزل اليه فارس آخر فألحقه برفيقه فأرسل الملك يقول لابراهيم تمهل ولا تستعجل بالقتل فعمل ابراهيم بما أشار السلطان وفي المساء قال ابراهيم لاي شيء يا مولاي نطاول الاعداء فحكى له عن قضية المياه وان العمدة سيجمع الفلاحين ويأمرهم بتحويل المياه على الاعداء •

قال الراوي : اما العمدة فأخذ معه جماعة من العساكر وداروا على القرى والمديريات وطلبوا منهم ان يتطوعوا في تحويل المياه على الاعداء المعتدين على بلاد الاسلام فتطوع ما ينوف عن عشرين الف انسان وهم يحملون المعاول والفؤوس والمجارف وبدأوا بالاعمال على أتم ما يرام بمدة ثلاثة ايام ولم يبق عليهم الا فتح المياه فذهب العمدة وأعلم السلطان

بانتهاء المشروع فقال السلطان اعملوا حسابكم على ان تصل الميـاه الى الاعداء مساء غد بعدما يرجعون من القتال لانهم يكونون منهوكي القوى فيجلسون ليأخذوا راحتهم وويناموا فتغمرهم المياه فلا يستطيعون ان يخرجوا منها فقال العمدة أمرك يا مولاي اما الاعداء عندما أصبح الصباح برز منهم فارس وطلب المبارزة فنزل له فارس من جيش السلطان وتقاتلا قتالا شديدا الى ان خرج منهما ضربتان صائبتان كان السابق بالضربة العـدو فوقع السيف على رأس الجواد فوقع هو والفارس على الارض وأخذوه أسيرا فنزل فارس ثان فقتله عند ذلك نزل ابراهيم الحوراني الى الميدان وصدمه صدمة الابطال فثبت امام ابراهيم ساعة من الزمان الى ان سنحت لابراهيم الفرصة واستحكمه وضربه بذي الحيات على عاتقه أخرجه يلمع من علائقه عند ذلك دق الاعداء طبول الهجوم وزحفوا على عساكر السلطان فتلقاهم المسلمون بالصمصام وما زال السيف يعمل والـدم يبذل الى آخر النهار دقت طبول الانفصال فانفصل الفريقان وعادوا الى الخيام ، أما السلطان امر العساكر ان يبتعدوا عن هذا المكان وان يراقبوا الاعداء من جميـع الجهات حتى لا يهرب منهم احد لان المياه سوف تغمرهم وتغرقهم ، اما العمدة حسنين امر الرجال بتحويل المياه ففتحوا لها السدود فسارت المياه مثل السيول الجارفة اما الاعداء بعدما رجعوا من القتال اخذوا راحتهم وداووا مجاريحهم والتهوا بشؤونهم وساسوا خيولهم وغفلوا عما حولهم واذ بالمياه غدرتهم فدب فيهم الذعر والهلع وعلا صياحهم والمياه تجرفهم ولكن اين المفر فمن تمكن منهم من انقاذ نفسه كانت لهم سيوف المسلمين بالمرصاد تقطع رؤوسهم بسرعة البرق فهلك منهـم خلق كثير فما طلعت الشمس الا وقضي على جيش الاعداء اكثرهم مات غرقا وبعضهم قتل بالسيف والباقي أسروه والقليل النادر الذي له عمر طويل فلحق بالمراكب ونفذ بروحه اما السلطان فطلب العمـدة حسنين وأحضروه بين يديه فاستقبله السلطان ببشاشة وأثنى عليه وقال له لك عنـدي طلب لا يرد فقـال يا

مولاي انا عملت بما يرضي الله ورسوله وامير المؤمنين عسى الله ان يكتبنا مع المجاهدين الابرار عند ذلك أكرمه السلطان وأمره ان يرجع السدود ويمنع تسرب المياه وقد حصل منها المراد ونصرنا الله على الاعداء ثم أمر بارسال الاسرى الى مصر وعندما خفت المياه وانقطعت صارت الاهالي تأخذ امتعة الاعداء والغنائم التي لم تتلفها المياه ثم امر السلطان بالمسير الى الاسكندرية لمساعدة الامير أيدمـر والامير بكتمر فساروا الى ان وصلوا الى الاسكندرية فوجدوا العساكر على آخر رمق والاسكندرية محاصرة من كل النواحي فأمر السلطان بالحملة على الاعداء وفك الحصار فحملوا عليهم حملة مذهلة أزاحوهم عن المدينة فتنفس جيش أيدمر الصعداء وحمد الله الذي أتاهم بالفرج بعد الضيق ، ولما أصبح الصباح اصطفت العساكر وبرز من الاعداء فارس بالحديد غاطس فصال وجال وقال ابرزوا لي يا ثعالب السلطان فنزل اليه ابراهيم الحوراني وصدمه صدمة جبـار بقلب أقوى من الصوان وتقاتلا في الميـدان وأتيا من صنوف الحرب ما تتحير به الفرسان وتعتبر به الشجعان الى ان شعر ابراهيم ان جواد خصمه قد تعب وكلّ ، لانه من خيـول الافرنج الضخمـة الاجسام ، اما فرس ابراهيم فكانت من خيل الاصايل العربية النادرة فصار ابراهيم يحوم حول خصمه مثل العقاب وتارة يضربه بالحسام ومرة يطعنه بالرمح فما كان يؤثر فيه الضرب والطعن لكثرة ما عليه من الحديد المصفح عند ذلك بدأ يسدد ضرباته على الحصان فجاءت ضربة على رأسه فهوى الى الارض فانقض عليه غلمان ابراهيم وأسروه فلما رأى الاعداء ما حل بفارسهم حملوا حملة واحدة فتلقتهم عساكر السلطان بضرب أحر من الجمر فثار الغبار وعلا الصياح وعساكر المسلمين يقولون الله اكبر على من طغى وتكبر فرفرف طير المنايا على الاعداء وحـام وتزلزلت الارض وتنكست أعلام اللئـام وانقضت الابرار على الاعداء انقضاض الصواعق فلله در الملك الظـاهر فقد فتك في الاعداء فتكا ذريعا والمقدم ابراهيم الحوراني أبلى بلاء حسنا

اما المقدمون والفدائيون من بني اسماعيل فقد مالوا على الأعداء ميلة واحدة أزاحوهم عن مواقعهم وأفنوا منهم خلقا كثيرا اما مراكب ابو علي البطرلي فقد هاجمت ميناء الاسكندرية وخرجت عساكره الى البر وضربت أقفية الاعداء وكل من سولت له نفسه ان يهرب الى البحر وقد تمكن المجاهدون من فتح ابواب الاسكندرية وخرجت منها العساكر وقاتلت الاعداء واحتاطت بهم مع جيوش السلطان من جميع الجهات وقد وصل الملك الظاهر بهجومه الى علم الاعداء فضرب حامله على عاتقه أزاح رأسه عن جثته فانهار العلم اما المقدمون ابراهيم وسعد ومنصور العقاب وصوان الافعى وجبل فانقضوا على الملوك الستة وأسروهم فانحلت عزائم الاعداء فولوا الادبار متوجهين نحو الميناء فتلقتهم جيوش ابو علي البطرلي وكبستهم جيوش السلطان فغرق كثير منهم في البحر اما الباقون فقد رموا بسلاحهم واستسلموا وما بقي للعدو أثر فأمر السلطان بجمع الاسلاب وفرقها على المجاهدين بعدما رفع الخمس لبيت المال وبعث الاسرى وملوكهم الى مصر وتوجه الى انطاكية لمساعدة ابنه السعيد الذي قدم أحمد بن أيبك وجعله قائد الجيش وجعل حوله عشرة مقدمين من بني اسماعيل ومعهم خمسون الف مقاتل وسار احمد بن أيبك الى انطاكية وكان الفرتماكوس واسفوط ابن جوان والبرتقش وباقي الملوك الذين أتوا معهم مالكين البلد ومقيمين فيها فلما رأوا جيوش المسلمين أتت أغلقت الابواب وصاروا يضربونهم من فوق الاسوار فنصب احمد بن أيبك خيامه على حد الرمي وكان الملك السعيد قد وصل بعساكره فنصبوا خيامهم فكتب السعيد كتابا الى الملك الفرتماكوس وأعطاه للمقدم عباس فأخذه وسار به الى انطاكية وقال نجاب ففتحوا له الباب فدخل وأوصل المكتوب الى الفرتماكوس ففضه وقرأه واذ فيه من الملك السعيد بن السلطان الظاهر الذي نعلمكم به انه على الباغي تدور الدوائر وفرس الباغي عثور وقد تعديتم علينا بقتلكم الاسارى عند دخولكم انطاكية فهذه أفعال الانذال الجبناء ونحن سنقتل أسراكم

كما قتلتم أسرانا وأعلموا أن حملاتكم على الاسكندرية ودمياط قد باءت بالفشل وجميع عساكركم فنيت واضمحلت وملوككم أسرت وذلت وان السلطان الظاهر آت اليكم بجيوشه الجرارة لينتقم منكم أشد الانتقام فاذا أردتم السلامة أطلقوا أسرانا من الاعتقال وسلموا لنا أسفوط بن جوان والبرتقش وارحلوا عن هذه الديار قبل ان يحل بكم البوار فان مصرع الباغي وخيم فلما قرأ الملك الفرتماكوس الكتاب مزقه ورماه فسحب المقدم عباس سيفه بسرعة وضرب به عنق الفرتماكوس أزاح رأسه وصاح الله اكبر فانطبق عليه اللئام فقاتلهم حتى استشهد رحمه الله تعالى فقال أسفوط للملوك أقتلوا جميع الاسرى بثأر الفرتماكوس فقالوا له اذا قتلناهم يقتلون ملوكنا وأسرانا الذين عندهم ولكن افتحوا الابواب وقاتلوهم وخذوا بثأره ففتحوا الابواب واصطفوا فلما رآهم احمد بن أيبك برز الى الميدان فبرز له فارس فضربه احمد بالسيف رمى رأسه فبرز الثاني فألحقه بالاول وهكذا كل ما برز له فارس يقتله حتى قتل عشرين فارسا وعاد وهو مثل شقيقة الارجوان مما سال عليه من دماء الفرسان وفي اليوم الثاني برز الامير احمد الى الميدان وقاتل الاعداء ولم يقدر احد ان يتغلب عليه مدة اسبوع فضجت الاعداء من هذا الحال وقالوا ما العمل حتى نقتل هذا الفارس الشجاع فقال أسفوط كل من نزل الى الميدان أطبقوا عليه واقتلوه وفي الصباح نزل الامير احمد الى الميدان فزحفت عليه الاعداء فتلقاهم وجال فيهم جولة الذئب في الغنم ولكنهم ضربوا حصانه فوقع هو والحصان فتكاثروا عليه وقتلوه قبل ان تدركه عساكر المسلمين عند ذلك زحفت العساكر على الاعداء يبرون منهم الرقاب واشتعلت نيران الحرب والصدام واذ بغبار علا وثار وسد منافس الاقطار وانكشف عن عساكر السلطان وهو يصيح في عسكره البدار البدار يا عصبة النبي المختار خلصوا عساكر المسلمين من أيدي الفجار اللئام فهجمت العساكر والابطال واقتحموا معركة الميدان ودام الحرب الى آخر النهار فدق طبل الانفصال

وتراجعت الاعداء وتحصنت وراء الاسوار وحمل المجاهدون جثة الشهيد احمد بن أيبك واعلموا السلطان باستشهاده بعد ان قتـل ما ينوف عن ثلاثين فارسا من الاعداء فتأسف عليه السلطان وأمر ان يواروه التراب وفي الصباح صار القتال بالنبال والمنجنيقات اما الاعداء أرادوا ان يطلبـوا النجدة من ملوك السواحل فلم يقدروا ان يصلوا اليهم لانهم محاصرون فقال أسفوط بن جوان انا اذهب بنفسي واستنجد لكم بملوك السواحل لينجدوكم فقالوا له اسرع فذهب ليأتي لهم بالعساكر .

قال الراوي : أما جمال الدين شيحة فقال للملك الظاهر انا كنت بين الاعداء فسمعت انهم طلبوا النجدات من ملوك السواحل وقد ذهب أسفوط بنفسه يأتي لهم بالعساكر فقال له السلطان وماذا نعمل حتى تتغلب عليهم فقال شيحة نلبس مقدار الفين من عساكرنا ملابس الاعداء ويرفعون فوق رؤوسهم اعلام الافرنج واكون انا قائدهم فعندما نقرب من البلد نطلب منهم ان يفتحوا لنا الباب لاننا نجدة لهم وعندما يفتحون لنا الباب ندخل ونشغل في الاعداء ضرب الحسام وتكون عساكر مولانـا السلطان على حضر فعندما ندخل البلد تهجم العساكر والابطال وتدخل وراءنا فنملك البلد بالحال فقال السلطان قم بعملـك نجح الله مسعاك فانتخب شيحة ألفين من الابطال وألبسهم ملابس الاعداء بزي عساكر ملوك السواحل وحملهم أعلامهم وأخذهم بعيدا عن البلد قبل الفجر بساعتين وأتى بغارة الى باب البلد فلما وصل صاح بلغة الافرنج على المحاصرين في الابراج نحن نجدة لكم فافتحوا لنا الباب قبل ان تشعر بنا عساكر السلطان فصدقوهم لانهم كانوا منتظرين النجدات تأتي اليهم وفتحوا لهم الباب فدخل شيحة الى البلد وصاح الله اكبر وشغل الحسام بالاعداء وقال لجنوده أرموا ما عليكم من زي الاعداء حتى تعرفكم عساكر السلطـان وقد وصل الخبر الى السلطـان بفتح باب انطاكيـة فصاح بالجيش اهجموا على البلـد وانصروا جمال الدين شيحـة وأبطـاله الاشاوس فهجمت الفرسان على

انطاكية وانطبقوا على الاعداء واحتلت جيوش السلطان انطاكية وأسروا الملوك التي فيها وجلس الظاهر على كرسي انطاكية وأمر باحضار الملوك التي فيها وجلس الظاهر على كرسي انطاكية وأمر باحضار الملوك الاسرى ورماهم في نطع الدم وأمر السياف بضرب رقابهم فصاحوا ولكننا نفدي أرواحنا بالمال فقال هذا لن يكون ولو فديتم أنفسكم بملء الارض ذهبا وأشار للسياف بانهاء ما طلب منه فرمى رقابهم ثم ان السلطان فرق الغنائم على المجاهدين وعوض على المتضررين من الرعية وأصلح شؤونهم بمدة عشرة أيام ثم سار بجيشه الى مصر المحروسة ودخل الى القاهرة بيوم يعد من الاعمار فكانت الرعية على الصفين تهتف باسمه وتدعو له بدوام العز والنصر وتثني على جيشه الباسل الى ان طلع الملك الظاهر الى قلعة الجبل ودخل الى الديوان وجلس على عرش مصر وبعد ايام أمر باحضار الملوك الاشرار وحكم عليهم بالاعدام بما فيهم الملك قريطش فصاحوا الامان ايها السلطان بعنا أرواحنا بالمال قال لسنا بحاجة الى اموالكم ارم رقابهم ايها السياف فرمى رقابهم الواحد بعد الآخر ثم واروهم الحفر الى جهنم وبئس المصير ثم أمر ان يشغلوا الاسارى على الاعمال لصالح الدولة والرعية وفي ليلة من بعض الليالي رأى السلطان الظاهر في منامه انه واقف في الميدان الاخضر في دمياط والناس مجتمعين على رجل مريض ينظرون اليه بمحبة وشوق وبينهم الملك الصالح فتقدم الظاهر وقبّل يده وقال له يا سيدي من هذا ولاي شيء هؤلاء الناس مجتمعين عليه فقال له هذا صديقك جمال الدين شيحة وهؤلاء من اولياء الله الصالحين فانتبه السلطان من نومه وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم انه توضأ وصلى الصبح ولما طلع النهار ذهب الى الديوان وسأل عن جمال الدين شيحة فتقدم شخص وقال له هو في دمياط الحقه فانه ينتظرك وذهب الشخص لحال سبيله فنزل السلطان من الديوان وأمر ابنه السعيد ان يجلس مكانه ويحكم بين الناس ثم ركب جواده وسار الى دمياط فوضع حصانه في خان

ومشى في احد الاسواق فوجد أناسا يدخلون الى مكان فدخل معهم فرأى جمال الدين مريضا مرض الموت فجلس عند رأسه وتذكر ايامه الماضية وأياديه البيضاء واخلاصه في الجهاد في سبيل الله واخلاصه للسلطان وللدولة فدمعت عيناه حزنا وشفقة عليه ثم قال لا بأس عليك وزال الشر ان شاء الله فسمعه شيحة وفتح عينيه فرأى الملك الظاهر يعوده فتبسم وقال الحمد لله الذي رأيتك قبل ان انتقل من هذه الدنيا الفانية واني مشتاق لرؤيتك كثيرا وقد أرسلت ولدي اليك وهو الذي اخبرك اني في دمياط فأرجو ان تنتظر قليلا عندي حتى تخرج روحي بين يديك فتشهد لي بأني مت مسلما مؤمنا بالله وبرسوله واني اقول اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فأمر السلطان ان يوجهوه الى القبلة فداروه اليها وهو ينطق بالشهادتين ثم شهق شهقة ومات عند ذلك أظهر الملك نفسه وكان متخفيا وطلب نائب دمياط فحضر وحضرت الاعيان ثم أحضروا البنائين وبنوا له مقاما ودفنوه وأقام الملك ثلاثة ايام في دمياط ثم عاد الى مصر .

قال الراوي : لما عرف أسفوط بن جوان ان شيحة مات قال للبرتقش قم بنا نذهب الى مصر لننتقم من اولاد شيحة ونأخذ بثأر أبي جوان فقال له ان كتاب يونان يدل على ان شيحة يقطع جوانا وابن شيحة يقطع ابن جوان لذلك لا أوافقك على رأيك هذا فقال له أسفوط أنا لا اصدق ما جاء في كتاب يونان ولا بد لي من الاخذ بالثأر ثم أخذ البرتقش معه وسار الى مصر يفتشان على أولاد شيحة وهما بهيئة درويشين وبينما محمد السابق ابن شيحة مارا في شارع سيدنا الحسين لمح هذين الدرويشين فعرفهما فتبعهما ليرى ما يفعلان الى ان دخلا مسجدا فجلسا فيه فأسرع محمد السابق وأحضر اخوته الثلاثة ودخلوا المسجد والقوا القبض على الدرويشين وهما أسفوط بن جوان والبرتقش وكتفوهما وساروا بهما الى ديوان السلطان فسلموا عليه ثم قالوا له هذا أسفوط بن جوان وهذا البرتقش وقد قبضنا

عليهما في احد المساجد متنكرين بهيئـة الدراويش كما تراهمـا يا صاحب الجلالة فقال السلطان لأسفوط اما كفانا ما اقتـرف والدك من الجرائـم والآثام فجئت انت تكمل جرائمه واضراره ولكن ليصدق المثل كلب خلف جروا طلع أنجس من أبيه ولكننا لن نعفو عنك ولن نتركك تؤذي عباد الله خذوه ونفذوا به حكم الاعدام فأخذوه ونصبوا له منصة في الرميلة وقطعوه على مرأى الناس اما البرتقش فقال له السلطان اما تستحي وتخجل من هذه الاعمال الشائنة كيف يطاوعك ضميرك فتمشي مع المجرمين الظالمين وتساعدهم على أذاهم لعباد الله هذا استاذك جوان ولحقه ابنه أسفوط وبما أنك انت تتبع أثارهما وتعمل كما كانا يعملان فمصيرك كمصيرهما خذوه فقطعـوه فصاح البرتقش انا استجير بك يا امير المؤمنين وبالمقدم ابراهيم الحوراني ان تعفو عني وها اني اقول اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقال له السلطان هنيئا لك فقد نلت السعادة وأنقذت نفسك من النار ثم قال لابراهيم اجعله من رجالك يا ابراهيم فقال البرتقش بل انا خادم له مدة حياتي ٠

قال الراوي : وفي يوم من الايام شعر الملك بأن الشباب قد ولى وحل محله الشيب وان القوة والصحة قد ذهبتا وحل محلها الضعف وارتخـاء الاعضاء والمفاصل فقال لابنه محمد السعيد انا دخلت في سن الشيخوخة وما بقي عندي جلد لأقوم بهذه الاعبـاء وأدافع عن بـلاد المسلمين دفاع المجاهدين الابرار فاجلس مكاني على عرش مصر فأنت خليفتي من بعدي ولا تتأخر لحظة واحدة في الدفاع عن المسلمين وعن بلادهم وجاهد في سبيل الله حق الجهاد ثم بايعه الوزراء والامراء والنواب واعيان البلاد وصـار ملكا على عرش مصر واندقت العملة باسمه وخطبت الخطباء على المنـابر تدعو له بدوام العز والنصر اما محمد السابق بن شيحة جمال الدين فجعله الملك السعيد سلطانا على القلاع والحصون مكان أبيه جمال الدين شيحة فوافق بنو اسماعيل وقدموا له الطاعة ٠

قال الراوي : بينما كان الملك الظاهر نائما في احدى الليالي رأى في منامه سيدي عبد الله المغاوري يقول له اعلم يا محمود ان اخاك البطرلي على وشك السفر ولا بد لك ان تودعه وهو مقيم بالاسكندرية فلما نهض بيبرس من نومه قام فتوضأ وصلى الصبح وجلس يفكر في المنام واذ بابراهيم الحوراني يدخل عليه فترحب به وأجلسه ثم حكى له عن المنام فقال ابراهيم خيرا رأيت ان شاء الله وربما يكون تفسير منامك ان المقدم البطرلي في أواخر ايامه فعلينا ان نذهب الى الاسكندرية ونودعه فركب السلطان وابراهيم وسارا قليلا واذ بسعد آتيا ليزور السلطان فلما رآهما سلم عليهما فقال له السلطان اذهب معنا الى الاسكندرية لنعود المقدم ابو علي البطرلي فسار معهما الى ان وصلوا الى الاسكندرية فبعث ابراهيم سعدا الى نائب الاسكندرية يعلمه بمجيء السلطان فأتى بالحال وسلم فسأله الملك الظاهر عن أبي علي البطرلي فقال أطال الله عمركم يا مولاي ان ابا علي البطرلي انتقل صباح هذا اليوم الى رحمة الله ومرادهم يدفنوه باللاذقية حسب وصيته فتأسف السلطان عليه ودعا له بالرحمة والغفران ثم سار اليه لتشييع جنازته فرأى قادة الجيش وجنود البحرية يحتفلون بتشييع جنازته فلما رأوا جلالة السلطان وقفوا له على الصفين وأخذوا له التحية والسلام الملكي الى ان دخل محل ابي علي البطرلي فرفع الغطاء عن وجهه وقبّله ودعا له بالمغفرة والرضوان ثم خرج من عنده فغسلوه وكفنوه وحملوه على الاعناق فمشى السلطان وابراهيم وسعد ونائب الاسكندرية وأعيان البلد في جنازته وصلّوا عليه في أحد المساجد ثم ساروا به الى ان أوصلوه الى الميناء وأنزلوه في مركب من المراكب فوقف الملك وعزى أولاده وأقاربه ثم رثاه مبينا فضله وجهاده في سبيل الله ورضاء رب العالمين ثم قال لقد عاش عظيما ومات سعيدا فهنيئا له بالخلود في جنات النعيم ثم وقفت العساكر البحرية والجنود مؤدين له التحية العسكرية وضربت المدافع ورفعت المراسي والشراعات وساروا به الى اللاذقية وأنزلوه من المركب

ودفنوه هناك وقبره مشهور يزوره الناس اما السلطان الظاهر فانه أقام في الاسكندرية ثلاثة ايام وسار الى مصر ولما كانت ايام الحج جهّز نفسه لأداء الفريضة فقال له الوزير قلاوون وانا ايضا اريد ان أحج معك ايها السلطان فقال له جهّز نفسك واذا كان في الاجل تأخير يكون رجوعنا الى الشام فعلم قلاوون ان السلطان مراده يزور الشام عند عودته من الحج فكتب كتابا الى الامير سنقر نائب الشام يقول فيه ان الملك الظاهر عند عودته من مكة سيمر بالشام فاجتهد ان تضع ما في هذه الزجاجة فيحلويات الملك لعله يموت فآخذ أنا السلطنة بعده وأعطيك الشام بدون خراج اما حامل الاحرف فارم رقبته بالحال ثم سار قلاوون مع السلطان الى مكة المكرمة وأديا فريضة الحج ثم زار المدينة المنورة وطلب السلطان من قلاوون ان يقسم له ويعاهده انه لا يخون به ولا بأولاده قط فاطمأن الملك الظاهر وسار الى مدائن صالح فجاءت له الهدايا من نائب الشام وجاء الخبر الى قلاوون سرا ان السم في الشيء الفلاني فقدمه للسلطان وخان العهد والايمان فلما أكل السلطان من الحلويات أثر فيه السم ومرض منه اما المقدم محمد السابق وبنو اسماعيل فأتوا لاستقبال السلطان فوجدوه مريضا فأوصلوه الى سرايته وأحضروا له الحكماء ففحصوه فوجدوه مسموما فقال ابراهيم ما سمه الا قلاوون فأقسم قلاوون انه لم يفعل هذا وليس عنده خبر ان السلطان مسموم فقال السلطان لا تظلمه يا ابراهيم فانه أقسم معي عند مقام الرسول انه لا يغدرني ولا يخونني لا انا ولا اولادي فقال ابراهيم الله ينتقم من المجرم وبعد سبعة ايام توفي الملك الظاهر ودفنوه بدمشق في باب البريد وضريحه معروف يزار وقد بلغ موته الى ولده الملك محمد السعيد فركب هو واخوته وأتوا الى دمشق وعملوا له التعزية ثم عادوا الى مصر وعاد محمد السابق وبنو اسماعيل الى بلادهم اما السعيد فجلس على عرش مصر وأطلق من في الحبوس وأبطل المظالم والمكوس وأنعم على الناس وأرضى الرعية الى يوم من الايام مرض السعيد وانقطع

عن الديوان فدخل عليه بعض أرباب الدولة مثل الامير بهادر المجنـــون والامير سنبك الرومي وغيرهما فقال الامير بهــادر يا ملك المسلمين لو ذهبت الى بستان الفيحاء والعرموح تتنزه وتشم الهواء النقي لعلك تشفى مما ألم بك من المرض فقــال هذا قصدي ومــرادي فأركبوه على تخت وأوصلوه الى بستان الفيحاء وصاروا يخدمونه ويقدمون له ما لذ وطاب من الطعام الى ان وضعوا له السم في شرابه فشربه ولم يعلم انهم اعداؤه ثم عادوا به الى سرايته فشعر السعيد بالسم فقال لوالدته اني اشعر بالسم يسري في جسمي وكان بهادر المجنون وسنبك الرومي يقدمان لي الطعام والشراب ومرادي ان اسير الى الشام فان عشت رجعت الى مصر وان مت أدفن بالقرب من والدي ثم أجلس أخاه احمد شلامش مكانه على عرش مصر وأوصى به أرباب الدولة وسافر الى دمشق فطلع النائب بالعساكر واستقبلهوأدخله الى السرايا وأحضر له الاطباء وقد بلغ الخبر لابراهيم وبني اسماعيل ان الملك السعيــد مريض وهو بدمشق فساروا اليه فقال ابراهيم هذا مسموم والذي دبر له السم قلاوون ثم قال للسعيد مع من كنت ايها السلطان فأراد ان يتكلم فلتجلج لسانه وأسلم روحه رحمه الله تعالىفدفنوهعند أبيه ثمسافر ابراهيموبنو اسماعيل الىمصر وأعلموا امراء الدولة بوفاة الملك السعيد وانه دفن عند والده فعملوا له التعزية ثلاثة ايام ثم بايعوا احمد شلامش بن الملك الظاهر على السلطنة فجلس على عرش مصر ووقفت في خدمته أرباب الدولــة وأقام يتعاطى الاحكــام وأرسل المكاتيب الى النواب في جميع البلاد والى ملوك الروم والافرنج والعجم ان يؤدوا الجزية المعتادة عليهم الى السلطان احمد شلامش بن السلطان الملك الظاهر فأدوها اليه بدون تأخير وفي يوم من الايام دخل السرايا فرأى والدته وزوجة أخيه السعيد تبكيان على السعيد فقال لهما ان الدنيا زوال ولا يدوم الا الله المتعال فقالت له أمه نحن نبكي أخاك لانه مات مسموما ولم نأخذ بثأره وقد قال لي أخوك قبــل ان يسافر الى الشام ان بهــادر

المجنون وسنبك الرومي هما اللذان كانا يقدمان لي الطعام والشراب في بستان الفيحاء فقال احمد شلامش لوالدته اطمئني غدا أنتقم لك ممن سم أخي السعيد وفي اليوم الثاني أحضر بهادر المجنون وقال له أخبرني سنبك الرومي انك انت الذي سممت أخي السعيد لما كان في بستان الفيحاء فهل سممته وحدك أم اشترك معك سنبك الرومي فقال بهادر ان قلاوون الوزير هو الذي أمرنا به والذي دس له السم سنبك الرومي وقدمه للملك السعيد فأمر الملك بحبس بهادر المجنون ثم احضر سنبك الرومي وقال له ان لم تعلمني بالصحيح والا قطعت اعضاءك عضوا عضوا من الذي دس السم لأخي السعيد فقال يا مولانا انا وبهادر اشتركنا معا والذي أغرانا على ذلك الوزير قلاوون عند ذلك أمر الملك احمد شلامش بقطع رأس بهادر المجنون وسنبك الرومي لاقرارهما واعترافهما بأنهما قد سمما الملك السعيد ثم وضع رأسيهما في صينية وأرسلهما الى قلاوون وقال له الرسول خذ رأسي بهادر وسنبك اللذين أغريتهما ان يسمما الملك السعيد وعن قريب يكون مصيرك كمصيرهم وتركهما عنده وعاد للديوان فارتعب قلاوون وأحضر العلماء وقال لهم ان السلطان اتهمني بقتل أخيه وأنا بريء والآن يهددني بالقتل فسار العلماء الى الديوان ونصحوا الملك بأن لا يكون ظالما فان الظلم حرام فقال لهم انا لم اظلم احدا فقالوا انك اتهمت قلاوون بقتل أخيك السعيد فان كان لديك بينة فهو يقتل شرعا واذا لم يكن عندك دليل فهو بريء فقال لقد ثبت عندي ان قلاوون أغرى الامير بهادر المجنون والامير سنبك الرومي على قتله بالسم وقد اعترفا وأقرا ونالا جزاءهما فكيف أترك قلاوون بدون ان أجازيه على عمله فقالوا له اخرجه من مصر ولا تقتله فقال اكراما لكم ليرحل من هذه البلاد ولا يدخل اليها أبدا فذهب العلماء الى قلاوون وقالوا له خذ أهلك وارحل من هذه الديار فأخذ عياله وحمل وخرج من مصر الى الكرك فأجلس السلطان مكانه أيدمر البهلوان وجعله وزيرا اما قلاوون فانغاظ وانقهر لان الملك نفاه

فتذكر ان المقدم صوانا ابن الافعى بقي بدون راتب لانه لم يطع محمـد السابق بن شيحة فكتب له يطلبه بالحضور عنده فلما حضر قال له انت باق بدون راتب قال نعم واني صرفت كل ما املك وانا منتظر الفرج فقال له قلاوون اذا وافقتني أرد لك ما ضاع عليك من راتبك وأجعلك سلطان الحصون فقال له بأي شيء أوافقك فقال له تأتيني بالملك احمد شلامش وانا آخذ السلطنة وأجعلك سلطان القلاع والحصون فقال صوان هذا أمر هين وسافر صوان الى مصر ونزل في خان وفي الليل نزل على الملك فبنجه وحمله ووضعه في مكان وذهب الى الخان أتى بالفرس وحمل الملك على الفرس وركبها وخرج به من مصر ثم أنزله عن الفرس وفيقه وعاتبه قائلا ألم تعلم انه صار لي مدة طويلة بدون راتب فقال له احمد شلامش انا لم اكن ملكا يوم انقطع راتبك فاتركني الآن لأرد لك ما ضاع عليـك وأجعلك في أعلى منزلة فقال له حتى تعيش ويطول عمرك ثم بنجه وسار به الى ان وصل الى العريش جانب البحر ففيقه وأطعمه وسقاه ثم انالملك احمد شلامش نصح صوانا ان يرجع عن هذه الافعال فأتى فقال له الملك سوف ترى نتيجة اعمالك فقال له صوان اتشنقني قال له الملك هو كذلك اما صوان بنجه واضطجع ليستريح فغفل ونام ولما أفاق وجد نفسه مع السلطانفيمركبمكبلينبالاغلالوالحديد اما المركبفكان للافرنجواصحابه قراصنةيأخذون الاسارىيبيعونهمفسار المركب حتىوصل الىمدينةالافلاق فدخل القبطان على ملكها وقال له يا ملك الزمان لقد مررت على ساحل العريش فوجدت هذين الرجلين فأسرتهما أحدهما ملك والثاني لص فقال ملك الافلاق ارموهما في نطع الدم واقتلوهما وكان احد الفداوية واقفا متنكرا اسمه ناصر الدين ابو شنب فجـرد سيفه وضرب السياف قتله وصاح على اللئام فانطبقت عليه العساكر فقاتل قدر ساعة من الزمانفعرف انه لا يستطيع ان يخلص الملك والفداوي الذي معـه فانسل من المعركة

بخفة وقصد مصر ليأتي بنجدة تخلصهما فأمر ملك الافلاق فرسان الخيل ان تلحقه بجميع الطرقات فركبوا وطاردوه على الخيل بجميع الجهات فما وجدوه وعادوا بالخيبـــة فقال الوزير للملك لا تقتل الاسيرين الآن لان الفداوي الذي هرب سيعود بنجدة لا نعرف نتائجها اما الامراء في مصر فتفقدوا الملك فلم يجدوه فانغـــم الناس ولما وصل الخبـــر الى قلاوون قال ان مات بعيدا عني فمن حسن حظي فلا احد يتهمني بقتله واكون انا الملك وكان الفداوي ناصر الدين قد وصل الى مصر ودخل الديوان وسلم على الخضر ابن الملك الظاهر ثم قال ادركوا الملك احمد شلامش والمقدم صوان فهما أسيرين في مدينة الافلاق فلما عرف الخضر ان أخاه مأسور أمر الجيش بالخروج الى ظاهر مصر واستعد للحرب وكتب الى محمد السابق ان يأتي بالفداوية الى الشام فلما قرأوا الكتاب ساروا حالا الى الشام واجتمعوا بجيش السلطان الخضر وساروا جميعا الى مدينة الافلاق ونصبوا الخيام واذ بالابواب فتحت وخرج اللئام للحرب والصدام فالتقتهم عساكر السلطان وغنى الحسام وطارت الرؤوس عن الاجسام ودام القتال طول النهار ثم انفصلوا عن بعضهم وعاد المسلمون الى خيامهم اما محمد السابق فقد تنكر ودخل البلد مع العساكر وانسل بالليل الى ان نزل على ملك الافلاق فبنجه وخلص احمد شلامش والفداوي صوان من السجن وحمل ملك الافلاق وساروا الى ان وصلوا الى عساكر المسلمين فدلهم محمـــد السابق على الموضع الذي خرج منه فتسللوا الى المدينة وأهلكوا المقاتلين الذين فيها وغنموا الذخائر والاموال وصلبـــوا ملك الافلاق على الباب ونزلوا الى البحر الى ان وصلوا الى ميناء الاسكندرية ومنها الى مصر فطلع احمد شلامش الى الديوان وقال للقاضي ما جزاء من غدر بالسلطان وأراد قتله وكان السبب بتسليمه للاعداء وتسبب في قتل كثير من المسلمين وكان رأس الفتنة بيننا وبين الاعـــداء فقال القـــاضي جزاؤه القتل فقال السلطان خذوا صوان واشنقوه بالرميلة فأخذوه وشنقـــوه فصعب على

الفداوية قتل صوان وقالوا للملك ان والدك لم يقتل أحدا منا فلماذا قتلته فقال أنتم تعلمون ماذا فعل وقد تعهدت له ان تركني ان اعوض عليه كل رواتبه التي ضاعت عليه وأجعله في أعلى المراتب فتوعدني بالقتل فهذا لا يرجى منه صلاح وليس فيه خير للسلطان وللاوطان فموته اصلح من حياته اذهبوا وادفنوه ولما انفض الديوان ذهب الملك الى سرايته فاستقبلته والدته وتبسمت في وجهه وقالت له أريد منك ان تقضي لي حاجة فقال لها حاجتك مقضية فما هي قالت له الله يرضى عليك يا ابني ان تعفو عن الوزير قلاوون لان زوجته وبناته ترجينني العفو عنه وبكين أمامي فاشفقت عليهن ووعدتهن بالعفو عنه فلا تخيب رجائي يا ولدي فقال كما تريدين يا والدتي عفوت عنه وأذنت له بالرجوع الى مصر الى وظيفته وفي اليوم الثاني أعلن السلطان في المجلس العفو عن قلاوون وانه رجع الى رتبته فلما سمع قلاوون بالعفو عنه أقبل الى المجلس وسلم على السلطان واعتذر عما مضى ودعا له بالنصر ودوام العز والنعم فأمر له الملك بخلعة سنية افرغوها على كتفيه ثم منحه رتبة قائد الجيش الاعلى مع رتبته في الوزارة ولما انفض الديوان سار قلاوون الى سرايته فرحا مسرورا وراقت له الايام وبينما كان الملك جالسا على عرشه في الديوان واذ بنجاب وبيده كتاب سلموه الى قارىء الديوان واذ فيه من نائب غزة الى مولانا امير المؤمنين الذي نعلمكم به ان الملك عزقون والملك زعقون قد عمرا عسقلان ورفعا لها اسوارا عالية البنيان وانضم اليهما اللصوص والاشقياء وصاروا يقطعون الطرقات على المسافرين فلما سمع السلطان قراءة الكتاب قال للوزير قلاوون اركب في جيش واهلك هؤلاء الانذال فركب بعشرين اميرا ومعهم عساكرهم الى ان وصلوا الى عسقلان فركب الاعداء وهجموا على جيش قلاوون وتقاتلوا قتالا شديدا واستشهد خلق كثير من المسلمين في هذه المعركة ولكنهم ثبتوا وظلوا يحاربون مدة خمسة ايام واذ بعساكر السلطان أقبلت فرأت القتال قائما فهجموا على الاعداء واشتد ضرب السيف وطعن الرماح وقد استشهد

الامير احمد العزيز اما منصور البرتقش تابع المقدم ابراهيم أقبل بالفداوية وهجم على الاعداء وضربهم ضربا شتت شملهم ونصر الله المسلمين فملكوا عسقلان وخربوها كما كانت وقتلوا عزقون وزعقون ودخل منصور وهنأ السلطان بالنصر وبلغه سلام سيده المقدم ابراهيم الحوراني وأمر السلطان بجمع الغنائم والاسلاب وفرقها على المجاهدين الابرار واستأذن منصور بالعودة مع رجاله الى حوران فقال لهم السلطان سلموا لنا على المقـدم ابراهيم الحوراني فلما وصلوا وجدوا ابراهيم فاقدا بصره فتأسفوا عليه كثيراً لانه صار ضريرا فقـال ابراهيم هذا مقدر من اللـه ونسأله حسن الخاتمة اما السلطان احمد شلامش فانه سار بالجيش الى مصر واما الوزير قلاوون فجاءه الخبر ان ابراهيم الحوراني صار أعمـى فانسر كثيرا لان ابراهيم كان المدافـع الاول عن اولاد السلطـان الظـاهر ثم انه احضر مهندسين وبنائين وحدادين ونجارين فبنوا له سبع قاعات ودهنوا الدهاليز بدهان يضيء كضوء الشمس وجعل جدران القاعة السابعة من حديد لها لوالب اذا تحركت تقع الجدران على أرض القاعة تهرس كل ما تحتها ووضع بها تختا مثل عرش السلطان في الديوان ثم عمل للعمـال حفلة الانتهـاء ووضع لهم السم في الطعام فهلكوا جميعا ثم خذ صينية من الذهب مزخرفة بفصوص من الجواهر وقدمها هدية للسلطـان ثم قال له عندما كنت في الكرك جاءني مولود ذكر ومرادي الآن ان احتفل بطهوره واعمل له فرحا فأرجو من مولاي السلطان ان يشرفنـي في داري لتتم الفرحة بوجـود السلطان فقال له لك ذلك سنحضر ان شاء اللـه ولما كانت الليلة المعينة ذهب السلطان ومعه عشرون اميرا ودخلوا بيت الوزير قلاوون ففرح بهم ووقف في خدمتهم وأدخلهم الى القاعة وأحضر لهم المائدة وأكل معهم فقال الملك لقد كلفت كثيرا هذه القاعة ولكنها مدهشة تماما فقال الوزير يوجد داخلها قاعة أعظم منها شرفوا وانظروها فدخلوا اليها وتعجبوا من حسن اتقانها وبديع هندستها ثم دخلوا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وكل

واحدة احسن من التي قبلها ثم قال اما القاعة السابعة فهي أدهش وأعظم من الكل لانها قد كلفت قدر كلفة القاعات الست فتشوق السلطان لرؤيتها ونهض ليراها ونهض معه الامراء ودخلوا الى القاعة السابعة وجلسوا على الكراسي فحرك قلاوون اللوالب بسرعة فهوت الحيطان على الجميع فماتوا بلحظة واحدة ثم حرك اللوالب فعادت الجدران كما كانت ونظر قلاوون الى ضحاياه وتفقدهم فلم يجد بينهم الامير أيدمر البهلوان والمقدم منصور وسبب هربهما ان أيدمر قال لمنصور قم بنا لنهرب لان قلاوون مكار غدار.

قال الراوي : اما قلاوون فجمع له انصارا من عربان خضر البحيري الذي قتله الملك الظاهر من أوباش الناس وفرق عليهم الاموال والسلاح ورتب لهم المعاشات وجعل البعض منهم في قلعة الجبل والبعض في الشوارع القريبة من القلعة ثم ألبسهم بصفة المماليك وأظهر نفسه انه السلطان ونادى المنادي من قبله بالامان والاطمئنان فتعجب الناس ولم يعلموا ما جرى على السلطان احمد شلامش ولما ركب قلاوون بالموكب ورآه الناس تعجبوا من جعل هذا ملكا وأين السلطان احمد شلامش ابن الملك الظاهر وسار به الموكب الى ان طلع الى القلعة فمنعه الحراس فقاتلهم العرب والانصار الذين معه وقالوا لهم ما أنتم الا خدم في المملكة لاي ملك يجلس على العرش فسكتوا وقبلوا الخدمة عنده فلما أتى يوم الجمعة ركب في موكب وذهب ليصلي فلما رآه اولاد البلد ضحكوا عليه وأسمعوه كلاما بذيئا ولما عاد الى القلعة أرسل مناديه ينادون ان كل من تفوه بكلام غير لائق بحق الملك فجزاؤه القتل فسكت الناس عنه وتركوه فأقام على عرش مصر وجعل دأبه محو دولة الملك الظاهر فقتل منهم وسجن وهرب من هرب وبعد ذلك أراد ان يتزوج الملكة تاج بخت زوجة الملك الظاهر فطلبها للزواج فخافت ان يفتك بها كما فتك بغيرها فأخذت نساء أولادها وانسللن من السرايا متخفيات وتوغلن في الازقة الضيقة والحارات القديمة فوجدن بابا مفتوحا فدخلن الى بيت فاذا فيه امرأة فقيرة فاستقبلتهن ببشاشة ولم

تعرفهن فقالت لها الملكة انا زوجة الملك الظاهر هربت من الملك قلاوون وهؤلاء كنايني فاخفينا عندك فقالت لها يا سيدتي انا عندي ست بنــات يتيمات ونحن فقراء فمن اين لنا ان نقوم بواجبكن فقالت لها اتكلي على الله فهو يرزق الجميع فقالت المرأة مرحبــا بكن واعطتهن غرفة أقمن فيها اما قلاوون لما طلب ان يتزوج الملكة ولم يأته منها جواب كبس سرايتهــا فلم يجدها فسأل الجواري عنها فقلن له خرجت من السرايا ولا نعلم اين ذهبت عند ذلك ختم على سرايتها ووضع يده على املاكها وارزاقها وفي احدى الليالي رأى مناما انه شرب ثلثي البحر الحلو وما روي من شدة العطش فلما أفاق أحضر العلماء ليفسروا له المنام فقالوا له يا جلالة الملك ان تفسير منامك يدل على انك تأخذ ولا تعطي ولذلك فانك لا تشبع مهما رزقك الله من المال وعاقبة الطمع وخيمة ونتيجته سيئة في الدنيا والآخرة فيجب عليك ان تكفر عن ذنوبك وسيئاتك بفعل الخيرات وبذل المبرات واعطاء الفقراء والمساكين وعمل المشاريع الخيرية وغير ذلك مما يرضي الله رب العالمين قال تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات ولا تنس ان تبنــي مستشفى للمرضى والضعفاء وترتب لهم اطباء بمعاشات ليداووهم ويضمدوا جراحاتهم فاجتهد في ذلك ترضي ربك وشعبك ويرتاح ضميرك وتكون من أهل الله الصالحين فعندما سمع قلاوون تفسير منامه سر سرورا عظيمــا وكان غافلا عن ذلك فتنبه له ثم انه اكرم العلماء وأذن لهم بالانصراف وبالحال وزع اموالا كثيرة على الفقراء والمحتاجين وعلى الارامل والايتام وأمر ببناء مستشفى ورتب له الاوقاف وكل ما يلزمه من اطباء وممرضين وخدم ثم عمر بجانبه مسجدا سمي بمسجد قلاوون .

قال الراوي : وفي يوم من الايــام بينما السلطان قلاوون جالس في الديوان واذ بسيار معه كتاب من نائب حمص فقرأ فيه الذي نعلمكم يا مولانا السلطان انه وردت علينا اخبار ان البرنز ملك طرابلس الشام جهز جيشا من العساكر وتوجه الينا مراده غزو حمص والشام فادركنا يا مولانا

السلطان قبل فوات الاوان أعزك الله ونصرك على الاعداء والسلام عليكم فلما قرأ الكتاب وعرف ما يحويه فبالحال أمر بتجهيز العساكر والابطال وخرج من مصر بجيش عرمرم وسار به الى حمص فوجد جيش الاعداء محدقا بها ليفتحها فأمر السلطان قلاوون العساكر بالهجـوم على الاعداء وبفك الحصار عن حمص فهجموا عليهم هجوما صاعقا أزاحوهم عن حمص وكسروا شوكتهم وضعضعوا حاميتهم فلما رأى البرنز اندحار جيشه دق طبول الانفصال فافترق الجيشان وبطل القتـال فأمر البرنز فلول جيشه بالانسحاب تحت الظلام والرجوع الى طرابلس فبالحال ولوا الادبار وعند الصباح ركب جيش السلطان قلاوون ومراده الحـرب والنزال فلم يروا لجيش الاعداء من أثر فعلم الملك قلاوون انهم تراجعوا الى طرابلس الشام فأمر جيشه بالسير الى طرابلس فلما وصلوا اليها وجدوها معلنة العصيان ومستعدة للقتال والعساكر على الابراج فحاصرها جيش قلاوون من جميع الجهات وصار يهاجم أسوارها والابراج شهرا من الزمان فتضايق البرنز وأرسل يفاوض السلطان قلاوون بفك الحصار عن طرابلس مقابل ما يريد من الاموال ويذهب بجيشه عنها بسلام فلما قرأ السلطـان رسالة البرنز كتب له اذا كان مرادك السلام سلمني البلد واذهب انت ومن تحب بسلام فأبى البرنز ملك طرابلس ان يسلم المدينة عند ذلك أحضر الملك قلاوون نجارين وأخشابا وقال لهم اصنعوا لي أبراجا من هذا الخشب بعلو ابراج البلد وعمل لها جسورا وصار يرميها على الاسوار لتكون ممرا للعساكر فصارت عساكر تحارب وعساكر تمر وتتصل بأسوار البلد الى ان استولوا على الاسوار وفتحوا الابـواب فدخلت جيوش السلطـان قلاوون الى طرابلس الشام ووضعوا السيف برقاب الاعداء فطلبوا الامان من السلطان فقال لهم لا أمان الا لمن أسلم فمن أسلم سلم عند ذلك أسلمت أهالـي طرابلس الشام جميعا اما البرنز فلم يعرف مصيره فأقام السلطان قلاوون يصلح احوال المدينة ويعمر لهم المساجـد ويجلب لهم العلماء وأقام نائبا

يحكم عنه وعزه بالعساكر ثم زحف بجيوشه وفتح قلعة المرقب ثم سار الى دمشق وأقام بها اياما فقال لابنه خليل مرادي ان تكون نائبا عني في دمشق ولكن اياك ان تتفق مع احد من اتباع الملك الظاهر والا فلا تلومن الا نفسك فقال سمعا وطاعة كما تريد يا ابي وسترى اني لا أعصي لك امرا ثم زار الملك قلاوون قبر الملك الظاهر وأمر بعمارة مقامه وعمل قبة عظيمة فوق ضريحه موجودة الى الآن ويزار وبعدها عاد قلاوون مع جيشه الى مصر ودخل بموكب عظيم كأحد العظماء الفاتحين الى ان طلع الى قلعة الجبل وجلس على عرش مصر يتعاطى الاحكام •

قال الراوي : اما الملكة تاج بخت زوجة الملك الظاهر فانها أحبت ان تزور مقام السيدة زينب رضي الله عنها فقالت لها أم البنات الا تخافين ان يعرفك احد ويوشي بك الى قلاوون فقالت يحميني الله منه ثم انها ارتدت ملابس امرأة فقيرة وذهبت وزارت مقام السيدة زينب ولما أرادت العودة رأت في طريقها زاوية ورجلا يسقي الناس فدنت منه وشربت كأسا من الماء وأعطته دينارا فتعجب من كرم هذه المرأة اما هي فعرفته وقالت له أيدمر قال نعم يا سيدتي فمن انت قالت انا تاج بخت زوجة الملك الظاهر فأشار اليها ان تتبعه ودخل الى مكان فدخلت وراءه وقالت له ان قلاوون قتل اولادي وصادر املاكي وأرزاقي وأخاف أن يقتلني فأرجو منك ان تأخذ لي مكتوبا الى المقدم ابراهيم الحوراني فقال اكتبيه فكتبت مكتوب بينت فيه اعمال قلاوون وظلمه وكيف قتل اولادها وصادر اموالها ثم قالت انت صديق الملك الظاهر فلا تترك زوجته تاج بخت تدور من بيت الى بيت متخفية خائفة على نفسها من بطش قلاوون فادركني ولك الفضل فأخذ أيدمر الكتاب وسار به الى دمشق فوجد ابراهيم عند مقام الملك الظاهر ومعه البرغلي وتابعه منصور فسلم عليه وقال له معي كتاب من الملكة تاج بخت فقال له اقرأه لنا يا أيدمر فقرأه ثم حكى لهم عن أفعال قلاوون فقال المقدم ابراهيم انا لا اترك قلاوون حتى اسفك دمه واذ بنائب الشام

خليل بن قلاوون يدخل ويسلم على ابراهيم فقال له المقدم ابراهيم هل لك حاجة فقال لا ولكن لاراك واطمئن على صحتك فقال له ابراهيم اسمع من الامير أيدمر ما فعل والدك فبعد ان قتل اولاد الملك الظاهر بدأ يلاحق الملكة تاج بخت بعدما صادر سرايتها واموالها فتشردت هي وكناينها وهذا كتاب من الملكة اقرأه فقرأ خليل الكتاب فتأثر جدا من اعمال ابيه وظلمه وقال إن الملك الظاهر لم يظلمنا حتى ننتقم منه بقتل اولاده ثم قال هل لك ان تساعدني يا مقدم ابراهيم على والدي حتى نخلعه عن العرش فقال له ابراهيم اذهب الآن الى مصر بصفة زيارة وانا أدبر لك هذا الامر وسافر خليل بن قلاوون الى مصر بصفة زيارة اما ابراهيم فانه أرسل منصورا الى قلاع بني اسماعيل وأعلمهم ان مراده ان يزيح قلاوون عن العرش ويكون ابنه خليل ملكا على عرش مصر لانه موال لبني اسماعيل فساعدوني على عزل هذا الظالم الباغي فتسللوا انتم الى مصر وساعدوا خليلا على ارتقاء العرش وقد اتفقت مع خليل على هذا الامر فاليوم يومكم يا بني اسماعيل ثم ارسل ابراهيم مثل هذا الكتاب الى جميع المقدمين وعندما وصلت المكاتيب الى المقدمين وافقوا على ذلك لان قلاوون قتل بعض المقدمين وطرد البعض وقد وردت الرسائل على ابراهيم من المقدمين بالموافقة وانهم في طريقهم الى مصر فأخذ ابراهيم أيدمر ومنصورا وركبوا وتوجهوا الى مصر الى ان وصلوا فوجدوا قسما كبيرا من بني اسماعيل قد حضروا ولما دخل خليل على والده قلاوون قال له ما جاء بك الى هنا فقال قد اشتقت لرؤياك ولاكسب رضاك ورضى والدتي فعبس في وجهه وقال له أسرع بالعودة الى الشام والا وضعتك في السجن فقال كما تأمر يا والدي وتقدم من أبيه وقبّل يده ثم تركه وذهب يقابل ابراهيم فلما اجتمع به وحكى له ان والده هدده بالسجن اذا أقام في مصر فقال له ان المهمة أوشكت ان تنتهي وقد اجتمع بعض المقدمين والفداوية وعلينا ان ننتظر ثلاثة ايام حتى اجمع لك الرجال وأقول لهم ما يلزم ان يقوموا به من الاعمال اما انت فلا

تظهر نفسك الآن الى أحد وجاءت الاخبار الى ابراهيم أن الرجال قد كمنوا في جميع الجهات ومنتظرين الامر للقيام بما يجب عليهـم عمله فأعلمهـم ابراهيم انه عندما يحضر قلاوون الى صلاة الجمعة في موكبه فاهجمـوا عليه واقتلوه واقتلوا كل من يدافع عنه ويكون خليل معكم فارفعوه على الجواد ونادوا الطاعة للسلطان خليل بن قلاوون ثم اذهبوا به الى قلعة الجبل وأجلسوه على عرش مصر وأرسل ابراهيم خبرا الى خليل ان يحضر فحضر وسأل ابراهيم عما دبر فقال له قد اتفقنا ان نقوم بهذا العمل يـوم الجمعة فتكون انت عندي ويأخذك الفداوية معهم ويقومون بأعمالهم ثم يجلسوك على عرش مصر مكان أبيك فقال له نعم الرأي رأيك ولما كان يوم الجمعة قبل الصلاة بساعة من الزمان أقبل الفداويـة وأخذوا خليلا وصبروا الى ان خرج موكب السلطان قلاوون وقرب من مسجد الحسين عليه السلام فهجمت عليه رجال بني اسماعيل وانقضوا عليه وقتلوه بين رجاله وقتلوا كل من سولت له نفسه الأنتقام لقلاوون ورفعوا خليلا على الجواد ورفعوا سيوفهم وصاروا ينادون يعيش السلطان خليل بن قلاوون فاستبشرت الرعية خيرا وفرحت بقتل قلاوون لانه كان ظالما مستبدا اما الفداوية أخذوا السلطان خليل الى قلعة الجبل وأجلسوه على عرش مصر وقد وفدت الاهالي وزال عنهم كابوس قلاوون يباركون لخليل ويدعون له بالنصر فأنعم عليهم وأرجع رواتب بني اسماعيل وأجلسهم على كراسيهم في الديوان اما ابراهيم فأخذه منصور من يده وأطلعه الى الديوان وباركا للسلطان بالحكم ثم قال له اصدر عفوا عن املاك وارزاق الملكة تاج بخت وأرسل خلفها وبشرها بنوال حريتها وارجاع سرايتها واموالها اليها ثم قال المقدم ابراهيم لنخرج اولا جنازة السلطان احمد شلامش وذهب ابراهيم وفتح السبع قاعات التي عمرها قلاوون واخرجوا شلامش ودفنوه ودفنوا الامراء الذين قتلوا معه ودفنوا قلاوون في جامعه الذي بناه اما السلطان خليل فبايعه العلماء والوزراء وسموه السلطان خليل الاشرف ولقبـوه

بصلاح الدين وجعلوا الوزير أيدمر وولى الملك البرغلي نائبا على الشام اما الملكة تاج بخت فسكنت في سرايتها مع كناينها واحضرت ام البنات الست فأنعمت عليها وعلى بناتها وفي يوم من الايام أقبل نجاب ومعه كتاب من نائب الشام احمد البرغلي فقرأه السلطان خليل واذ فيه الذي نعلمكم يا مولانا السلطان ان قوافل التجار المتوجهة من الشام الى مصر كلما مرت على جسر بنات يعقوب تخرج عليها عساكر من الافرنج ويستولون عليها بما فيها من مال ورجال فأرسلنا لهم سريــة فرسان لتتعقبهم فأسروا منهم البعض فاذا هم من عكا وصور وقد اعترفوا بأنهم مأمورون من ملوكهم بأخذ الاموال وازهاق الارواح فأدركنا يا مولانا السلطان والسلام عليكم فلما قرأ السلطان الكتاب سأل عن ملوك السواحل وعن البلاد التي يحكمون عليها فقالوا له لم يبق الا عكا وصور وصيدا وكل مدينة فيها ملك يحكم عليها وهؤلاء دأبهم النهب والسلب وأذى الناس فقال السلطان خليل يجب علينا ان نزيحهم عن هذه البلاد لتستريح من شرهم العباد فأمر بتجهيــز الجيش والسير به الى مدينة عكا ولما وصل اليها وجدها محاصرة ومعلنة العصيان فقال ان الافرنج لما احتلوا عكا ودخلوها قتلوا أهلها عن بكرة أبيهم فعلينا الآن ان نعاملهم بالمثل فعند ذلك هجم جيشه هجوما صاعقــا وقاتلوا الاعداء قتالا مريرا واعتلوا على الاسوار والابراج وفتحوا الابواب ودخل الجيش الى عكا وقتلوا كل من فيها وأخذوا النساء والاطفال سبايا وغنموا جميع ما في البلد من أموال وأرزاق ولم يبق فيها أحد من الافرنج بعدما ملكوها وسكنوا فيها مائة وثلاثين عاما اما الافرنج الموجودون في مدينة صور ومدينة صيدا لما سمعوا ما جرى على مدينة عكا ذعروا وخافوا فملؤا مراكبهم بأموالهم وأمتعتهم وارتحلوا في البحر وفي رحيلهم كانت انتهاء الحروب الصليبية التي دامت مائتي عام اما السلطان فأعلن الى الملأ ان من يريد السكن في السواحل فليسكن بعكا وصور وصيدا ثم عين لهم النواب وعاد الى مصر وفي احــد الايام قــرر بعض المماليك ان يغتالوا

السلطان وسنحت الفرصة لاحدهم فطعنه طعنة نجلاء قضى عليه فانقض اتباع السلطان على المملوك وقتلوه هو والمتآمرين معه ثم حملوا السلطان الى سرايته وجهزوه ودفنوه في المقام الذي بناه لنفسه فحزنت عليه الرعية لما له من الانتصارات على الافرنج وازاحتهم عن سواحل الشام وكانت مدة سلطنته سبع سنين ثم تشاور الوزراء والامراء من يكون ملكا على مصر فاستخاروا محمد الناصر بن قلاوون وكان عمره اربعة عشر عاما فعقدوا له المبايعة بالسلطنة وجلس على عرش مصر وعدل في الرعية ودام حكمه ثلاثا واربعين عاما وفي اثنائها توفي المقدم ابراهيم الحوراني ودفن في تربة الشيخ رسلان بدمشق وقبره مشهور يزار اما محمد الناصر بن قلاوون فقد مرض وأدركه الموت فدفنوه باحتفال عظيم فتولى بعده الحكم ولده محمد بدر الدين ولما أدركته الوفاة تولى الحكم أخـوه الملك منصور صلاح الدين وجلس على عرش مصر وكانت المماليك توالي الاجتماعات وتؤسس العصابات السرية ثم اجتمعوا تحت رئاسة الامير بكداش وساروا الى القلعة وحاصروها فأطل الملك من الديوان فرأى المماليـك شاهرين السيوف فقالوا للوزير ما الخبر فقال له يا مولانا انها فتنــة من المماليك الشراكسة فقال الملك وما التدبير فقـال له الوزير ارسل لهم الحاجب شهاب الدين يسألهم عن هذه الاسباب فذهب الحاجب ووقف امامهم فقابله قائدهم بكداش بجفاء قائلا له ماذا تريد فقال له انا مرسل من قبل السلطان وهو ينصحكم ان ترجعوا الى اعمالكم وتقدم انت بنفسك ايها الامير امام السلطان وتشرح له مطالبكـم وتكون عنده من المقربين فقال اذهب الى السلطان وبلغه ان بقاءه على عرش مصر مستحيل فقال له شهاب الدين عد الى صوابك ولا تجعل قلب السلطان يتغير عليك فما كان من بكداش الا ان رفع السيف وضربه على رأسه ففلقه ووقع قتيلا فلما علم السلطان انهم قتلوا الحاجب صعب عليه وتكدر فقال له الوزير لا تتأثر ايها الملك وارسل لهم المقدم علام البطل الهمام يحاربهم فأمر السلطان المقـدم علام ان يأخـذ

عساكره يحاربهم ويقطع دابرهم فركب جواده وتبعته الجنود والعساكر الى ساحة الميدان والتقوا بالامير بكداش وجماعتـــه الثائرين فحاربوهم فانهزموا وعاد المقدم علام ظافرا منصورا وبعد ايام توفي السلطان فبايعوا ابنه الملك الاشرف زين الدين شعبان وجلس على كرسي مصر فوجه افكاره الى عصابات الشراكسة فقطع دابرهم من البلاد واستراحت منهم العباد وكان الملك الاشرف عنيدا يقتل كل من سولت له نفسه بالتآمر على الدولة فتألفت عصابة شركسية وجاهرت بالعصيان فأوفد السلطان اليها المقـــدم علام فسار اليهم بأربعة آلاف فارس ودهمهم في الظلام وأسر الامير بكداش وأرسله مقيدا الى الديوان فوضعوه في السجن فهجمت جماعته على السجن وخلصوه اما الملك فأصابه مرض توفي على أثره فبايع الناس علاء الدين بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور وكثرت في زمنه الثورات ومات بعد خمس سنوات ثم تولى بعده زين الدين ولقب بالملك الصالـــح فبذل جهده في استتباب الامن وقبض على بكداش وعلى بعض الشراكسة وشنقهم فتحزب الباقون في البيوت بتحريض من الامير برقوق وعملوا مؤامرة على السلطان وقتلوه وصار برقوق الشركسي ملكا على مصر والشام ففي اثناء حكمه خرجت الشام من طاعته فجهز الاساطيل والجيوش بقيادة ولده عبد العزيز برقوق وبأثناء تأديبه المتمردين بالشام بلغه موت والده فعاد ليتولى الملك فوجد أخاه الملك الناصر ابا السعادات متوليا على الملك فعزم على معاكسته وقتله فأحاط بسراية أخيه فذعر السلطان واعتزل الحكم وهرب الى الشام ثم عمل مؤامرة على أخيه عبد العزيز فقتله وأخذ منه الحكم فلما مات جلس ابنه المظفر على الحكم وبعد سنة من حكمـــه توفي الى رحمة الله فتولى بعده سيف الدين الظـــاهر وبعده الملك الصالح ابو النصر ومات مسموما بعد اشهر فتولى الحكم بعده الملك الاشرف برسباي وكان جبارا عنيدا ولما مات تولى بعده الملك العزيز جمال الدين ثم تولى السلطنة الملك الظاهر جقمق سنة ثمانمائة واثنين وخمسين هجرية وحكم بالعدل بين العباد

وصان الملك والبلاد وكان عادلا رؤوفا على الخلق ونشر الامن والراحة في البلاد ثم قضى نحبه ثم تولى بعده الملك المنصور عثمان فلم يمكث على عرش الملك طويلا فخلعوه لفساده وتولى بعده الملك الاشرف اينال في نفس السنة التى تولى فيها الملك السابق فلما جلس سلك مسلك العادلين وأراح الناس من ضرر الفوضى ورتب المملكة وعمل اصلاحات كبيرة ثم تولى بعده الملك المؤيد بن اينال وجلس على سرير الملك وطمع في فتح العراق بعد ان حارب اليمن وأخضعهم ولكنه لم ينتصر عليهم لوقوع المشاحنات بينه وبين أكابر دولته فخلعوه فحكم بعده الملك الظاهر خوش قدم في ذات السنة وقاتل أهل العراق حتى أخضعهم ودخل مدينة بغداد وتملكها ثم سار بجيشه العرمرم حتى وصل بلاد طرابلس الغرب وفتحها وقاتل المتمردين في الشام واليمن حتى وافته المنية فتولى بعده الملك الظـاهر يلباي ولكونه سيء التدبير والتصرف خلعوه فتولى بعده الملك قايتباي في نفس السنة فقام بالخلافة خير قيام ولم يظلم احدا وحقن دماء الرعية وصان أموالها ونشر الامن فمات بالغا من العمر سبعين سنة قضاها بالعدل والاصلاحات داخل المملكة ثم حكم بعده الملك الناصر ابن قايتباي سنة تسعماية وواحد من الهجرة ومكث في الخلافة ثلاث سنوات بنى فيها القلاع والحصون وغير ذلك من الآثار النفيسة ومن آثاره الباقية برج قايتباي في الاسكندرية على شاطىء البحر ثم تولى بعده الملك الظاهر قانصوه الاشرف ولكنه لم يحكم غير سنة واحدة وتولى بعده السلطان ابو النصر جانبلاط سنة تسعماية وخمس من الهجرة ولم يحكم طويلا لكثرة الفتن والقلاقل وحدوث الثورات في الولايات ثم تولى بعده الملك العادل طومان باي ولم يحكم الا جزءا يسيرا من سنة تسعمائة وست من الهجرة ولم تتوطـد اقدامه ثم جلس الملك الاشرف قانصوه الغوري وبقي على عرش الخلافة الى ان هاجمـه السلطان سليم العثماني وانتصر عليه واحتل منه بلاد الشام ومصر وسائر مملكته واستولى على الخلافة وبايعته العلمـاء والاشراف وأعيان البلاد

وامراؤها وسائر الرعية بالخلافة وأرسل له شريف مكة المبايعة بالخلافة ومفاتيح الحرمين مع وفد من قبله وانتقلت الخلافــة الى بني عثمان في القسطنطينية وصاروا يتوارثونها عن بعضهــم البعض وكان آخر الخلفاء محمد وحيد الدين وقد ألغى الخلافة الثائر مصطفى كمال باشا فسبحان الدائم على الدوام بعد فناء خلقه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه البررة الميامين آمين .

تمت سيرة الملك الظاهر بيبرس


Bibliotheca Alexandrina
0657127